الأعمال الكاملة ٤ زهدي الداوودي

زمن الهروب

رواية



الأعمال الكاملة

٤

زُهْدِيْ الداوُودِيْ

زمن الهروب

رواية

١

ما كان بمقدور رستم التصوُّر بأنَّ الأحداث ستجري بهذه السرعة، وبأن الزمن سيطوي كل شيء، كما يطوي المرء كتاباً ويضعه جانباً. ها ان دهراً قد مرَّ عليه منذ أن ترك وادي كفران. وهذه المسافة الشاسعة الممتدة كالأزل بين وادي الطفولة والصبا والأجداد وبين هذه المدينة الصاخبة الراقدة على دجلة، لا يمكنه إلاَّ أن يفكِّر في سرِّها الذي يضعه أمام تداعيات محيرة، تقوده إلى آفاق مجهولة، وتصوُّرات ما كان بإمكانها اجتياح رأسه لو لم يترك وادي كفران. كانت المسافة التي يقطعها مرة في كل سنة بين الموصل ووادي كفران ذهاباً واياباً قد اختصرت لتكرارها، بيد انه ما ان يستقر في أحد طرفي المسافة بعد التعب المضني للرحلة، تتخذ الأشياء أبعاداً أخرى، اذ يتحول طرفا المسافة الى عالمين بعيدين عن بعضهما، بُعد السماء عن الأرض. كان لكل من هذين العالمين البعيدين والغريبين عن بعضهما طبيعتهما الخاصة بهما، فما ان يستقر في أحدهما، إلاَّ ويتطبع به.

في وادي كفران يتحول الى طفل كبير يلهو ويمرح كبقية الأولاد الذين لم يروا في حياتهم كتاباً او باب مدرسة، أمَّا في الموصل فيتحول الى رجل وقور ببدلة أوروبية فاتحة، لم يمسها هواء وادي كفران بعد. وفي كل مرة حين تبدأ العطلة الصيفية التي تستغرق أكثر من أربعة أشهر، يتوجه مع القافلة باتجاه كركوك فالسنجق ليستقر في وادي كفران، يسترجع في ذهنه تفاصيل الحياة في وادي الأجداد، ويقارن معالم العالمين البعيدين والغريبين عن بعضهما، ولا يدري لماذا يعتقد في كل مرة بأنَّ الأشياء قد تغيَّرت هناك. وأحياناً يترسخ الاعتقاد عنده بأن روحاً سماوية قد هبطت في وادي كفران فبنت جسراً على نهر آوه سبي وحوَّلت الأكواخ الطينية الى بيوت جميلة مبنيَّة بالجص والحجر، والمزابل الى حدائق. ولكن، ما ان يطوي المسافة وراءه، ويكون على مشارف وادي كفران، حيث نهر آوه سبي الملتوي مثل ثعبان أسطوري، يلمع تحت الشمس، وكل شيء كسابق عهده منذ الأزل، حتى تهزّه رعشة غامضة تخدره هنيهة، فيطمئن بأن الأشياء لم تتغير. ويتحوَّل من جديد إلى طفل يلقي بكل قيود المدينة جانباً. وطالما مرَّت بذهنه فكرة أخرى في الرحلة الطويلة، وهي ما اذا كان وادي كفران ما زال موجوداً فعلاً، أو ان تلك الروح السماوية قد هبطت ذات يوم ومسحته من الوجود، كما فعل اللّه بسدوم وعمورة، إذ ان وجهه الكريم هو الوحيد الذي سيبقى الى الأبد، واما ما دونه فمصيره الزوال. ولكن، لماذا ينبغي أن يزول وادي كفران بالذات من الوجود؟ أيُّ اثمٍ اقترفه كي يعاقبه اللّه بالزوال؟ ان انشغاله

المستمر بالدراسة والاطلاع في الموصل لا يترك له المجال بالاسترسال في مثل تلك الأفكار، بيد انه ما ان يضع رأسه على الوسادة، ويستسلم للنوم، إلاّ وتنتقل روحه الى وادي كفران البعيد كالأزل، والعائم في ضباب الزمن اللامتناهي الذي لا بداية له ولا نهاية، ويحس به عذرياً، نقياً طفولياً، ينتصب هناك خارج الزمن، لم يتلوث بآثام ورذائل المدينة. حصانه الأبيض المنتصب فوق قمة جبل بازوخ يضرب الهواء بذيله الطويل المسترسل وينظر اليه بعينيه الجميلتين. قادر وعباس ما زالا يلعبان لعبتهما المفضلة: «معركة العقارب». أحياناً يراهما ولدين صغيرين يركضان وراء الأغنام، وأخرى كرجلين يشقان الآفاق بجواديهما. أما جدّه الشيخ زوراب، عمه شيخو، والده كريم، العمّان ميرزا ورمضان، ابن عمه حمه غريب الأحمق و جدّته سنجان وصديقه مردان، فيراهم كلهم في أوضاع متباينة وأزمان متباعدة مختلفة. انه يعيش معهم. فإذا كان نصفه الأول، الذي هو جسده، يعيش في المدينة، فإنّ نصفه الثاني، الذي هو روحه، فيعيش في وادي كفران.

كم حاول هو وصديقاه رمزي وصائب أن يبقوا أنقياء، دون أن تؤثّر عليهم أجواء المدينة، ان يحتفظوا بصفاء أرواحهم، ولكن أي نفس تستطيع التقوقع والانزواء في عالم صاخب يعطيك أشياء لا يمكن لشباب مثلهم رفضها. وان رفضت مرة، مرتين، فثلاثاً، اذ ذاك يضعك الآخرون في زاوية لا يحسدك عليها أحد. «أنت لست حراً أبداً. إنّك لا تستطيع أن تصنع لنفسك جزيرة تعيش عليها وحدك». لقد سمع ذلك أكثر من مرة، سواء من المدرس التركي أو من إمام المسجد الذي يؤدّي فيه فريضة صلاة الجمعة.

قبل أن تبدأ دراسته في الموصل، كان قد أكّد أكثر من مرة أمام رمزي وصائب بأنه لن يقبل بأي وظيفة حكومية، وانه سيقوم، بمساعدة أبناء عشيرته، بتشييد جامع كبير في وادي كفران، يكون هو إمامه، يقوم من خلاله بنشر تعاليم الدين الحنيف، وتعليم الأولاد القراءة والكتابة، بيد أن الفضيحة التي أثارها أحد الملالي في أحد جوامع الموصل قد أزالت الفكرة من رأسه.

كان الملا الأعمى لوطياً شبقاً لا يتخلص منه أي ولد يرسله والده لتعلّم القرآن الكريم عنده. وكان قسم من الأولاد يعتقد ان العملية جزء من الدراسة، لا بدّ منها، إذ أن الجنة لا تحتوي على الحوريات حسب، وإنما على الغلمان أيضاً. فإذا كان الرجال يحق لهم أن يحرثوا نساءهم أنّى شاؤوا، فلماذا لا يحق للرجال أن يحرثوا بعضهم البعض. وكانت له نظرياته الخاصة به في عالم اللواطة، والتي يسرّبها إلى رؤوس التلاميذ بمهارة فائقة، فالمرأة عنده مخلوق دنس، تدنسها أكثر عادتها الشهرية التي يجري فيها الدم الفاسد. ثم، كيف يمكن لإنسان أن يضاجع فرجاً، خرج هو نفسه منه، أو أن ينظر في عين مَنْ يضاجعها. في حين انه حين يمارس ذلك مع رجل، فإنما يرى ظهره فقط، فلا تلتقي العيون. كما ان مضاجعة الرجل للرجل تجنب المرء شر فض

البكارة والحمل، هذا الى جانب استحالة الاختلاط بالمرأة التي اذا ما شوهدت مع رجل غريب، يكون مصيرها أو مصيرهما معاً القتل، فلِمَ كل هذه المشاكل من أجل مضاجعة قد لا تتم؟... وأما القسم الآخر من الأولاد، فكانوا مهيَّئين مسبقاً لهذه العملية التي جلبوها معهم من الشارع، فيتلذذون بها، ولاسيما لأن الملا كان خبيراً في تحريك أنامله بين سيقانهم ومداعبة أعضائهم. وقبل أن تنتشر فضيحة الملا في المدينة وتزكم رائحتها الأنوف، كانت ثمت تلميحات تؤكِّد على شذوذ الملا وتحرشه بتلاميذه، بيد ان الناس كانوا يعتبرون ذلك جزءاً من الاتهامات غير المشروعة التي اعتاد على اطلاقها الناس جزافاً وبلا أي شعور بالمسؤولية. وذات يوم ذهب أحد الآباء بنفسه الى الجامع ليتأكَّد من صحة هذه الادعاءات، فرأى الملا الأعمى جالساً في ركنه وقد أخرج عضوه المنتصب، يمسده له أحد الأولاد، فزجره الرجل موبخاً وشاتماً: «ألا تخجل من نفسك يا ملا وتضع قضيبك بيد هذا الطفل؟». أجابة الملا بكل صلافة وبدون ذرة من الحياء: «وهل تريدني أن أسلمه خنجراً كي يطعن به بطنه؟». لم يستطع الرجل اقناع الناس بفساد الملا، بدليل ان الولد نفسه أنكر مجمل القصة المختلفة، وانه انما كان جالساً جنب الملا يقرأ له القرآن الكريم. ولَمْ تنتشر الفضيحة، إلاَّ بعد أن اختفى أحد الأولاد الذين أرسلوا مؤخراً للدراسة عنده. وراح أفراد الشرطة والناس يبحثون عن الولد في كل مكان الى أن وجدوه، مقتولاً ومغتصباً، في بئر مهجورة قرب الجامع. واعترف بعض الأولاد بأن المقتول رفض الرضوخ للملا وقد يكون هو الذي قتله بعد اغتصابه، كما اعترف عدد من الأولاد بأن الملا كان يمارس معهم الجنس. وظل الملا يصر بأنه برئ براءة الذئب من دم يوسف، وانه نقي طاهر وحتى ان نعليه أنظف من خدود أشراف المدينة. ولما ظل يصر على عدم الاعتراف رغم العدد الهائل من الشهود، فإنَّ المحكمة رأت انه اذا لم يعترف بجريمته شخصياً، فإنَّ من الصعب إدانته والحكم عليه. لذلك تدخل الوالي بنفسه، وطلب الى هيئة التحقيق بوضعه تحت الفلقة الى أن يقر الحقيقة، وإلاَّ فإنَّ هذا اللعين الأعمى سيفلت من العقاب الذي يستحقه. لم تسعف الملا توسلاته وصرخاته واتهامه معذبيه بالكفر وتهديدهم بنار جهنم. كان معذبوه يلهبون باطن قدميه بالسياط ويتبولون بين حين وآخر على لحيته، متمتعين كعادتهم من مجمل العملية التي لم يتوقفوا عنها إلاَّ بعد تعهده بقول كامل الحقيقة. واعترف بأنه ضاجع الصبي بالقوة، ولكنه لم يقتله، بل انتحر برمي نفسه في البئر. ولكن التحقيق أثبت بأن الطعنات القاتلة انما قام بها الملا بنفسه. وأمام حشد من أهالي المدينة نصبت المشنقة داخل الجامع الذي لوثه الملا بفساده، والذى لم يتطهر إلاَّ بعد ان خرجت روحه الشريرة من جسده النتن. ولم تنته المشاكل بعد الموت هذا الملا الذي أساء الى الدين والدنيا، اذ ان كثيراً من الناس قد تركوا الصلاة، وبعض الآباء ذبحوا أولادهم وانصرفوا الى معاقرة الخمر لنسيان مأساتهم. ومن ضمن الذين قرّروا مقاطعة الجامع، ولو مؤقتاً، رستم ورمزي وصائب.

كان رمزي وصائب يعرفان جيداً بأن رستم غير صادق في ادعائه بتشييد جامع في وادي كفران، وانه لن يحقق فكرته حتى اذا لم تنتشر فضيحة الملا. كانا قد سخرا من مشروعه منذ البداية، فمَن يفكّر مثل هذا التفكير يجب أن يكون مسلماً جيداً بالفعل وليس بالقول، ويلتزم بالأركان الخمسة للإسلام دون نقص. ذات يوم دعاهم صديق مسيحي الى بيته وفتح لهم قنينة شراب أحمر تناول كل واحد منهم كأساً منه، أعجبهم مذاقه وخدره الذي سرى في دمائهم بسرعة. ولم يتوقفوا عند تجربة النبيذ، بل اصطحبهم ذات يوم الى بيت سرّي للدعارة قضوا فيه عدة ساعات. وكاد رستم يقع في حب العاهرة التي تفنَّنت في عرض مفاتن جسدها البض الذي انبهر به، لولا انه احتكم الى عقله الذي حذّره بأنّ الحب قد يؤدّي الى زواج لا تقره أعراف وادي كفران، فطار الحب من قلبه واذا ما انتهوا من تلك المغامرات، كانوا ينصرفون بجد الى دراستهم وتحضيراتهم اليومية ثم سرعان ما كان يأتي سؤال من صائب: «ها رستم، أما زلت مصرًا على بناء جامع للعشيرة، أم ان مادلين غيّرت أفكارك؟». ويجيبه رستم بمرحه المعهود: «انظر يا صائب، الجامع سأبنيه في كل الأحوال، واما مهمة الإمام فلا أقوم بها أنا». «ها ها ها اقرأ السلام على جامع يبنيه زبون بيت الدعارة». ويقول رستم بلهجة كلها قناعة: «انظر يا صائب، أنت تؤمن بفلسفة مضادة لفلسفتي. أنت تعتقد بأنّك اذا تدنست مرة واحدة فعليك أن تبقى مدنساً إلى الأبد، وعليه فأنّ أي عمل خير لا يمكن أن يرتجى منك. وأمّا أنا فأؤمن بفلسفة يؤمن بها الله نفسه ويحاسب رعاياه في ضوئها، هناك لكل منا ميزان عند الله، كفة لعمل الخير وكفة لعمل الشر، وفي النهاية يحاسب كل منا على ضوء وزني كفتي الميزان».

ويقهقه صائب: «عظيم يا رستم عظيم، اذا كان الأمر هكذا فسأظل طول عمري زنديقاً إلى أن أشيخ، اذ ذاك أعلن التوبة بزيارتي لمكة». ويقول رمزي بتهكم:«واذا جاء أجلك قبل تنفيذ فكرة الحج؟».

ويقهقه رستم للسوال المحرج غير المتوقع: «اذ ذاك سيحل ضيفاً على أسفل السافلين».

ويرد صائب بهدوء: «سألتقي هناك أجمل عاهرات العالم».

وهكذا مرّت السنوات الأربع وكأن شيئاً لم يكن. وكالعادة جرت الحفلة التوديعية في نهاية شهر مايس وزعت فيها الدرجات على الخريجين. وأغلقت المدرسة هذه المرة أبوابها بالنسبة الى رستم زوراب إلى الأبد. وبعد المشاورات التي جرت بينه وبين مدير المدرسة الذي هنأه ورجاه أن يبقى مواطناً عثمانياً جيداً، جرت الموافقة المبدئية على تعيينه في أقرب مدرسة من وادي كفران، والتي تقع في مركز السنجق نفسه. وأمّا رمزي وصائب فتمّ الاتفاق على تعيينهما في كركوك، بناء على طلبهما. وقبل أن يتركوا مدينة الموصل الى الأبد قرروا أن يقضوا فيها يومين يودّعون فيها كل زاوية وكل زقاق وشارع، ويتناولون الطعام في أحسن مطاعمها، كما قدّروا بأنّ النقود

المتبقية لديهم تكفيهم لقضاء عدة ساعات جميلة في البيت السرّي. وربما تكون هذه الساعات هي الأخيرة في حياتهم.

كانت مادلين حزينة جداً، ولم تتوقع بأن زيارة رستم لها ستكون الأخيرة، ولذلك رجت منه أن يمكث عندها أطول وقت ممكن، وكان رستم بدوره يتمنى ذلك في قرارة نفسه أيضاً. ولما كان الثلاثة قد قرّروا مسبقاً عدم الافتراق عن بعضهم، تمَّ الاتفاق على أن يقضوا ليلتهم هناك. كان الظلام في الخارج قد لفَّ المدينة المتعبة التي تركت وراءها نهاراً مليئا بالضجيج والحركة. أمرت العجوز الخادم أن يرفع القنديل من أمام الباب، ويوصد الأبواب والنوافذ بصورة محكمة وينصرف الى غرفته فوق السطح. وأمّا هي، فبعد أن رتبت المائدة وأشعلت الشموع، تمنت لهم ليلة سعيدة وذهبت لتنام.

كانت العجوز التي تملك البيت أرمنية الأصل، قيل انها جاءت من جيورجيا. كانت فيما مضى معروفة بجمالها ولباقتها في الحديث ومعاشرتها لكبار شخصيات الولاية ومن ضمنهم الوالي نفسه. حتى ان القاضي قال عنها ذات يوم بأن الرجال يحلّقون حولها كما تحلق الفراشات حول الشمعة، فتحترق أجنحتها وأطرافها، ثمَّ تتساقط، حائرة زاحفة في دائرة الضوء حول الشمعة. ولما سمعت الأرمنية الجميلة كلام القاضي، فرحت جداً، فوجدت الحجة الكافية بيديها كي تدعوه للقاء خاص بينهما. وكان القاضي هو الوحيد من بين الرجال الذين لم ينزلقوا الى الفراش معها، رغم انه كان معجباً بجمالها. مَنْ يدري، لعله كان لا يملك الجرأة الكافية لمفاتحتها بهذا الشأن، أو انه كان لا يريد أن يعطيها مستمسكاً، تمارسه ضده ذات يوم، الأمر الذي سيضطره شاء أم أبي للخروج من حياده كقاض مستقيم. استطاعت ان تستدرجه ذات مساء إلى منزلها بحجة استشارته في بعض المسائل القانونية. كانت الفوضى في تلك الأيام قد عمَّت المدينة، وكان الاتحاديون ينظمون يومياً المظاهرات، وينشرون الفوضى في كل مكان. كان القاضي مشغولاً طيلة تلك الأيام بالدعاوى الكثيرة المطروحة أمامه، فعندما جاءته الدعوة فرح بها جداً. وكان هو نفسه يبحث عن متنفس ينسيه هموم النهار، ولاسيما ان معظم المشاغبين الشبان من المنادين بسقوط السلطان، كانوا من أولاد أصدقائه أو من المقربين اليهم.

لبَّى القاضي الدعوة، فحضر في الموعد المحدّد، ولكنه استغرب حين وجد نفسه وحيداً، هناك، فراح يعتذر لقدومه المبكر. كانت الأرمنية قد ارتدت فستاناً أبيض طويلاً بياقة مفتوحة، بدا من خلالها النهدان النافران، كما لو أنهما حشرا في مكمنيهما حشراً. لم يسبق للقاضي أن رآها قبلاً بهذا الجمال، وتمنَّى في أعماقه لو لم يكدر شخص ثالث صفو هذا اللقاء جميل. غابت الأرمنية لهنيهة ثم عادت وبيدها قنينة من النبيذ الأحمر، قالت مبتسمة بدلال وهي تصب له النبيذ: «لا داعي للاعتذار يا عزيزي القاضي، إنّنا وحدنا اليوم. الآخرون لن يحضروا». تساءل القاضي

بارتباك: « ولكن ، لماذا؟ هل حدث شيء؟». قالت واضعة يدها على كتفه: «لا ترتبك يا عزيزي القاضي، لم يحدث أي شيء. أنا اليوم دعوتك وحدك حسب، ألم يقل لك خادمي بأنني أريدك لبعض الاستشارات القانونية؟». «بلى، بلى، صحيح، صحيح، قال لي ذلك، أرجو ألا تكوني قد تورطت في مشكلة». اتخذت مكانها جنبه وهي تكاد تلتصق به، قرعت كأسها بكأسه وارتشفت رشفة صغيرة، أمَّا هو فأفرغ الكأس في جوفه. ملأت له الكأس وهي تراقب إرتباكه. وفكرت في نفسها «أين هذا الانسان الخجول المرتبك من ذلك الرجل المعتد بنفسه، ذي اللسان الطويل اللاذع؟». ليست لي أى مشكلة يا عزيزي القاضي، كل ما في الأمر هو انَّني أردت مجالستك كشاعر. قال باستغراب: «كشاعر؟ منذ متى وأنتِ تستذوقين الشعر؟». مسكت يده، ساحبة اياه برفق: «تعال معي كي أريك شيئاً لم يسبق أحد أن رآه من قبل». كان الدفء المتسرب من يدها الرقيقة، يشيع الخدر في أعصاب القاضي الذى أحسَّ بنشوة النبيذ تنتشر في دمائه. وراح يتبعها عبر أورقة وابهاء زركشت جدرانها بالصور والسجاد الفاخر، وعُزلت عن بعضها بستائر ملونة. وبدا كل شيء للقاضي كالحلم، ولم يكن يتصوَّر أبداً بأن البيت بمثل هذه السعة والبهاء. وقفت أمام ستارة وردية متموجة في وسطها شق. أزاحت الستارة فاسحة له الطريق: «تفضل يا عزيزي القاضي». ثمة فراش مدور واسع وردي ينتصب في منتصف الغرفة أمام مرآة عملاقة. في الجانب الأيمن ترتفع مكتبة تكاد تلتصق بالسقف، تحتوي على مجلدات سميكة، وفي الجانب الأيسر خزانة داكنة، تلتصق بالجدار بأبواب صغيرة زجاجية تطل من ورائها صفوف من القناني بمختلف الأحجام والأشكال. وعلى الجدران صور ملونة لعوالم عمر الخيام. قالت بلهجة جادة وهي تريه كتاباً ضخماً: «أنا أقرأ الشعر بثلاث لغات يا عزيزي القاضي، التركية والعربية والفارسية، ناهيك عن الأرمنية والجيورجية وهما اللغتان الأم بالنسبة لي» أحسَّ القاضي بالضآلة أمام هذه السيدة التي اتخذت شكلاً آخر يختلف كلياً عن تلك التي يتجاذبون في مجلسها أطراف مختلف الأحاديث عدا حديث الشعر والأدب. قال القاضي وهو لا يزال يحدق في أرجاء الغرفة بشرود: «ولكن يا ست مريم، لماذا كنت تخفين هذا الجانب المهم فيك؟». أطلقت ضحكة قصيرة مستهجنة: «الشعر للبشر يا عزيزي القاضي، وليس للحمير حاشاك».

«وهل تعتقدين أنَّني أختلف عن أولئك؟».

«بالتأكيد، وإلاَّ لما دعوتك إلى هذا اللقاء».

«مَن قال لكِ أنَّني أختلف عن أولئك؟».

«كلمتك الشعرية المعروفة وصلتني».

«قولي لي يا ست مريم رجاء أي كلمة تقصدين؟. ان رأسي الآن فارغ من كل شيء. سوى من طيف سماوي يهيمن على كياني كله. يبدو لي ان روحي قد فارقت جسدي. وإنَّني الآن في مكان ما من الفردوس».

«ليتني كنت التقيتك يا عزيزي القاضي قبل أن تدنّسني الحياة، ولكن هيهات، ما كل ما يتمنى المرء يدركه، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن...».

وضع القاضي رأسه على كتفها وراح يبكي. بكت هي الأخرى ثم مررت أناملها برفق في ثنايا لحيته الكثة وتعانقها بعنف. إرتميا على الفراش وراحا يتقلبان فوقه وكأنّ أحدهما يريد أن يتوغل في أحشاء الآخر. أحست ست مريم بالانتصار، بيد أنّ شعوراً آخر في أعماق قلبها كان هو الغالب. لقد انتصرت فيها ارادة الحب الذي ما كانت تريد أن تقع فيه أبداً. لم يسبق لها أن خفق قلبها بمثل هذه الشدة خلال المضاجعة، لا بل لم يسبق لها أيضاً أن بلغت ذروة الشهوة كما حصل لها هذه المرة. انه الحب بعينه، والذى لم تعهده أبداً.

«لقد سخرت من الآخرين يا مريم، وضحكت عليهم. وها أنني تحولت أيضاً إلى تلك الفراشة التائهة التي أحرقت جناحيها بلهيب شمعتك». طوقته بساعديها دافنة وجهها في ثنايا لحيته، وقالت بصوت متهدج: «هل تريد ان أقول لك الحقيقة، يا عزيزي القاضي؟ كنت أريدها مجرد لعبة، لأنك كنت الوحيد الذي لم أتغلب عليه، ولكن ها ان الأمر قد اختلط عليّ، لا أدري أنا الغالبة أم المغلوبة؟». لثَمَ فمها الممتلئ وهمس: «كلانا، غالبان ومغلوبان».

«أعتقد، انه هكذا فعلاً..».

تركا غرفة النوم الى مكانهما الأول في بهو الاستقبال. كانا سعيدين حقاً، كل واحد منهما يعتقد انه قد خُلق للآخر، ولكنهما لسوء الحظ قد عثرا على بعضهما فى وقت متأخر جداً. قررت مريم في تلك الليلة أن لا تلتقي بالآخرين ابداً، وأقسمت أمامه بالروح القدس والمسيح والكتاب المقدس بأنها لن تضاجع رجلاً غيره. واتفقا أن يلتقيا فيما بعد بسريّة تامة. وتعهّد هو الآخر أمامها بأنه سيعمل المستحيل من أجل ارضائها. وعندما غادرها فى وقت متأخر جداً في تلك الليلة، رجت رجاء واحداً فقط، ألا وهو التساهل مع الشباب المتهمين بالتعاطف مع الاتحاديين، إذ ان هذا الرجل «الرجل المريض» الذي يسمونه بالدولة العثمانية آيل إلى الزوال. كانت لا تقرأ الشعر والأدب حسب، بل تتابع آخر أخبار التمردات والثورات في جميع أرجاء الامبراطورية، ولاسيما في المناطق الغربية والبلقان، وتصلها بالبريد كومة من الجرائد والمجلات. كانت تفعل كل ذلك بصمت. والشخص الوحيد الذي كان يعرف بذلك هو القاضي فحسب. ومما استغرب منه الناس بعد سقوط السلطان عبد الحميد ووصول الاتحاديين إلى الحكم، هو اعتبار القاضي أحد الرؤوس المدبرة لحركة العصيان في استانبول.

كانت المائدة في بهو الاستقبال عامرة بالطيِّبات وقناني النبيذ الأحمر المعتق في أحد الأديرة القريبة من المدينة، وكانت مادلين تؤكِّد دوماً– مقلدة بذلك الست مريم– بأنّها لا تتناول نبيذاً يقل عمره عن عشر سنوات، وحين سألت رستم ما إذا كانوا يعدُّون النبيذ في قريته أيضاً، قهقه

الثلاثة بصوت عال، وعقّب صائب: «المسيحيون هم الخبراء في صناعة الخمور، وأمّا المسلمون يا عزيزتي مادلين فهم خبراء في الشرب». وقال رستم: «وأماً عشيرتي في وادي كفران، فإنّها لا تعرف ما هو النبيذ». أضافت مادلين: «يبدو ان أفراد عشيرتك متدينون جداً يا رستم».

«أعتقد ان ذلك ليس له علاقة بالدين، فالذين يصلّون في العشيرة لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة». علّق رمزي: «ولذلك فإنّ العشيرة أرسلت رستم للدراسة كي يصبح إماماً للمسجد البائس الوحيد في وادي كفران». قالت نائلة المتصلقة برمزي: «اتركي هذا الموضوع يا مادلين، إنّ هؤلاء يضحكون علينا». قال رستم بجد: «حاشا اذا كنا نضحك عليكن». طوقته بساعدها وهي تنظر في عينيه وتجيل نظراتها بين تسريحته المرتبة بعناية وياقته العريضة ورباطه الرمادي الداكن المنقط: «رأيت أشياء كثيرة في حياتي وأمّا ملا أفندي، فهذه هي المرة الأولى. أين تركت جبتك وعمامتك؟».

كان كل من رمزي وصائب مشغولين بصاحبتيهما حيث العناق والقبلات، وأمّا رستم ومادلين، فكانا متشابكتي الأيدي، يحدقان في بعضهما بصمت. كانت مسحة الحزن المرتسمة على وجهها تضع رستم أمام لغز محير، ففي الوقت الذي كانت أفكاره تحلق به في أجواء وادي كفران، تعود كي تتشكل في رأسه صورة عن المكان الذي جاءت منه مادلين، فلا بدّ أنّ لها أيضاً عشيرة وأهلاً، ولا شك انها هربت وحطت في هذا المكان مختفية عن الأنظار. وربما تبحث عنها العشيرة التي اذا عرفت بأنها تبيع جسدها لكل من هب ودب، فإنّهم بلا شك سيذبحونها مثل شاة. ولا يدري لماذا تصورها كما لو أنها قادمة من مكان بعيد، من أوروبا التي جرى التركيز عليها كثيراً في درسي التاريخ والجغرافيا. وتذكّر كلمات المدرّس المتحمس الذي كان يعتبر أوروبا مركز العالم وأم الحضارة الصناعية الجديدة، التي ستتخذ على عاتقها مهمة كنس التأخر والتخلف، وتذكّر يوم تحدّث اليوزباشي عمّا يجري هناك، دون أن يصدقه أحد. كان ذلك قبل أعوام، ولكن هل تغيّرت الأشياء في وادي كفران؟ ألم يكن قبل سبعة أشهر هناك؟ ما الذي تغيّر يا ترى؟... لا شيء، كل شيء هو هو. كل ما في الأمر هو ان الجد زوراب بين قاب قوسين أو أدنى من الموت، والعم شيخو تغيّر كليًّا بعد أن تزوج وبنى له داراً فخمة وهمّه الوحيد هو جمع الثروة وتسخير الفلاحين بحفر الترع لإيصال المياه الى حقوله، ولكنه لا يزال محتفظاً بمجلسه القديم الذى كان يضم الجد زوراب ورمضان وميرزا والسيد، وراح يعتمد في كل شيء على مردان الذي يرافقه مثل ظله. حمه غريب بنى قرية خاصة به صغيرة على سفح جبل الامام علي، التفّ حوله أقاربه القادمون من «بناركل». وهو يحاول دوماً تقليد شيخو في تصرفاته وملبسه، ولكن يعوزه المال اللازم. أمّا والده كريم، فظلّ قابعاً في وادي كفران الجبل الذى لم يتغيّر أبداً، وهو ما زال متعلقاً بزوجته فاطمة التي ترك من أجلها مغامراته وجولاته. وأسعد أوقاته هي تلك التي يقضيها مع ابنه الذي

تجاوز الرابع من عمره. وحين التقى آخر مرة بوالده، شكا له من تصرفات قادر وعباس وبأنّهما لا يهتمان أبداً بأمور البيت ولا يمدان أيديهما لأي شغل، ولا همَّ لهما سوى ركوب الخيل والتنقل بين القرى والعشائر، وفي كل مرة يأتيان بحصانين جديدين يدّعيان أنهما أشترياهما، ولكنه واثق أنهما أصبحا لصَّين محترفين. وحين قال له رستم: «لا تشغل بالك بهما، انهما مسؤولان عن تصرفاتهما»، أجابه كريم: «هذا مايقوله أيضاً جدّك زوراب وعمّك شيخو».

كانت مادلين لا تزال تحدّق في عيني رستم الغائصتين في عينيها بشرود المأخوذ الذي لا يريد أن يحرّك ساكناً. وكان شيء غامض في داخلها يشيع الشلل في اطرافها، بحيث بقيت هي الأخرى تتيه في أعماق عينيه اللتين نقلتاها الى عالم الدفء العائلي الذي أُرغمتْ على تركه وهي لا تزال تمرح في حلم الطفولة. ضربت على كتفه برفق قائلة بصوت رقيق: «رستم، هل يمكنك أن تقول لي، إلى أين أوصلك خيالك؟». أجاب بصوت حالم: «كنت في وادي كفران، بين أهلي وعشيرتي». علقت بدلال: «رستم هل هذا صحيح؟ تجلس جنبي وتفكر في غيري؟. «عيناك هما اللتان نقلتاني إلى هناك».

«إنّك ستلتقي بهم قريباً فلِمَ هذا الشرود».

«مادلين، كنت أفكّر في شيء آخر أيضاً، هل لك أهل وعشيرة؟ وهل يعرفون بوجودك هنا؟».

لم يسبق لمادلين أن جُوبهت بمثل هذا السؤال. ولم تفكر ذات يوم تفكيراً جدياً في ماضيها. كل ما تتذكره هو نتفات من ذكريات تختلط أحياناً بالحلم وبحكايات قصيرة جداً كانت ترويها فيما مضى الست مريم التي تناديها بـ «باجي» احتراماً لها. وأمّا اليوم فهي تعيش حاضرها، ولا تريد ان يذكّرها أحد بذلك الجزء المظلم من حياتها. بغتة وبصورة متشنجة سحبت يدها الراقدة بين كفيه، وراحت تنظر إلى الأرض بقسمات جادة، قائلة باحتجاج: «هل جئت لمضاجعتي؟ أم تريد أن تحقّق معي؟». شعر رستم بالحرج والخيبة: «معذرة يا مادلين لفضولي» كان الزوجان الآخران قد تركا المكان الى مخدعيهما. كان السكون المطبق عليهما، لا تشوبه سوى تأوهات وضحكات متقطعة قادمة من هناك. ولما أحس رستم بأن فترة الصمت قد طالت، وبأنّه هو السبب في تعكير صفو الجو، وجد من واجبه المبادرة لتغيير الجو، ولا سيما انه تذكّر كلام والده الذي يقول: «اذا أردت الحصول على قلب الفتاة، فيجب عليك أنت أن تركض وراءها، فلا تتوقع أن تركض هي وراءك». قام من مكانه ماسكاً بيدها: «تعالي لنذهب الى غرفتك يا مادلين، سوف لا أطرح عليك من الآن فصاعداً أي سؤال غبي». قامت من مكانها ووضعت رأسها على كتفه وهي تحاول عبثاً التغلب على دموعها. قالت بصوت كسير بعد أن جلسا على فراشها: «لا توجد هناك أسئلة غبية يا رستم، أنا أفهمك، أنت فلاح ساذج وأنا عاهرة ساذجة، يجب أن لا نتورط بما يسمّى بالحب. لقد حذرتنا باجي من ذلك. وما الفائدة اذا أحببنا بعضنا؟ ان الحب يجب أن ينتهي بالزواج، وهذا

مستحيل. لقد عانت باجي من ذلك ولا تريدنا أن نعاني مثلها».

جلبت زجاجة من النبيذ الأحمر ووضعتها على المنضدة الصغيرة الملاصقة للفراش، وراحت تنزع ملابسها بعد أن عاد اليها مرحها. كان رستم يراقب حركاتها وكل جزء من جسمها وهو يكاد لا يصدق أنه أمام إمرأة عارية. نقلته أفكاره مرة أخرى بلا ارادة منه الى وادي كفران. آه، من هذا الوادي اللعين الذي يتبعه مثل ظله، وفكّر، تُرى هل تتعرى جدته سنجان أمام جده زوراب؟ هل تتعرى فاطمة، زوجة أبيه أمام والده كريم؟ وزوجتا رمضان وميرزا العجوزان، هل تتعريان ايضاً؟ واذا حصل وتعرت أمامه فتاة من وادي كفران، فهل يا ترى يشبه جسدها هذا الجسد النضر المشوق الأبيض المائل الى لون القمح والذي يريد أن يمتلكه وحده والى الأبد؟ كلاّ أبداً، لا مثيل لمثل هذا الجسد في أي مكان آخر من العالم. ارتشفت رشفة صغيرة بسرعة ثم القت بنفسها على الفراش جنبه وهي تمسد يده: «هيا انزع ملابسك وتعال إليّ يا رستم، بماذا تفكر؟». قال بصوت حالم وهو يقوم من مكانه: «لا أفكر في أي شيء يا مادلين، إنّي أتمتع بجسدك الجميل الذي لا مثيل له».

«أنت أول رجل يراني عارية يا رستم. باجي لا تقبل أن نتعرى أمام الزبائن، ولا أن نبقى معهم أطول من نصف ساعة». تنشق رستم رائحة مألوفة، أشبه برائحة الأرض في أيام الحصاد، تصعد من بين نهديها وتتسرب الى رئتيه، ذكرته الرائحة أيضاً بأريج العشب الندي بعد سقوط المطر في وادي كفران. وبدأ يلثم نهديها ويتنقل بلسانه بين عنقها وكتفيها إلى أن استقر عند أبطها. هناك تذكر مغامرته مع كل من قادر ورستم ورمزي في ليلة زواج العمّين رمضان وميرزا، حيث استدرجوا رمزي لفعلتهم مع حمير هابو. كانت مادلين تتأوه، فلم تستطع أن تتحمّل أكثر، استلقت على ظهرها باسطة ساقيها وممسكة إيّاه بعنف، وأمّا رستم فشعر بنفسه يتوغل في أحشائها ويتيه في السماء السابع.

كان قد أصبحا خارج دائرة الزمن، تماماً مثل وادي كفران الأزل الذى لا يأبه لشيء آخر يأتيه من خارج شعابه ووديانه وأوه سببه، فكل شيء هناك يدور في فلكه الخاص به. وسيظل وادي كفران هكذا، نقيًا طاهراً الى أبد الآبدين. ألم يحول كريم وصمة العار مع الفاطمة الى مسألة شرعية يقرّها الدين؟ كل شيء جائز إذا كانت هناك نيات صافية. ألم يؤكّد مدرّس الدين مراراً وتكراراً، بأن الدين الاسلامي دين حنيف مسامح؟ «هل يستطيع المرء أن يتوب أمام اللّه يا ملا؟»

«طبعاً يا بني، إنّ اللّه غفور رحيم».

«حتى اذا كان طالب التوبة قاتلاً يا ملا؟».

«اذا كان اللّه قد أدخل الايمان فى قلبه، فلِمَ لا يا بني؟».

«وإذا كانت طالبة التوبة عاهرة يا ملاّ».

«التوبة هي التوبة يا بني، ان رحمة اللّه واسعة لا حدود لها».

«واذا كانت طالبة التوبة غير مسلمة يا ملا؟».

«اذا أدخل اللّه الايمان في قلبها و أسلمت، فسيكون مكانها الجنة».

أحسَّ رستم بعطش شديد وحين فتح عينيه عرف انه كان قد استسلم لنوم عميق. وكانت أنفاس مادلين الرتيبة تداعب عنقه، مدَّ يده بخفة الى دورق الماء، وبعد أن روى عطشه، طوقها من جديد واستسلم للنوم.

كانت مياه آوه سبي تتهادى رائقة صافية وتلطم بأمواجها الصغيرة قدمية العاريتين. كان عاد مع قادر وعباس من رحلة شاقة استغرقت عدة أيام. بعد ان اقتحموا مدينة الموصل بخيولهم في جوف الليل، توجهوا مباشرة الى الشارع الذي تسكن فيه مادلين. وكانت هذه تنتظرهم على أحر من الجمر بعد ان ارتدت ملابسها الكردية التي جلبها لها رستم في حينه. ساعدها قادر وعباس في امتطاء حصان رستم. جلست وراءه وهي تطوقه بساعديها واضعة رأسها على عنقه.
«لا تخافي يا مادلين، أرخي ساقيك ولا تتشنجي. أنت الآن لي وحدي أنا».

«طبعاً يا رستم، أنا الآن لك وحدك، ولكن يجب أن نسرع، أخشى أن يستيقظ الآخرون». وراحوا يشقون الأزقة والشوارع المظلمة الخيالية التي اصطفت على جوانبها فوانيس تحاول عبثاً بث النور في الظلام الدامس. قطعوا السهول والوديان والجبال والأنهار والطرق الوعرة الضيِّقة.

كان الظلام اللامتناهي والصمت المطلق قد أطبقا على كل شيء، حتى انهم كانوا لا يسمعون وقع حوافر الخيول الهائجة التي تشق الظلام وتسابق الريح. كان النهار الذي يعقب الليل هو الآخر مظلماً أيضاً. لم يحسّوا طيلة الرحلة بأي عطش أو جوع. همست مادلين في أذنه: «رستم، هل نستطيع أن نتوقف كي أقضي حاجة سريعة». سحب رستم الزمام برفق إلى أن توقف الحصان. وترجّل كل من قادر وعباس وساعداها في النزول. نبّهها رستم أن لا تبتعد كثيراً عنهم، بيد انها ظلّت تبتعد وتبتعد الى أن تاهت في غابة كثيفة، وراحوا يبحثون عنها الليل كله، ولما يئسوا من العثور عليها، جلس كل واحد منهم على صخرة. وكان الشفق القرمزي في الأفق الشرقي يعلن عن نهار جديد. وما ان قاموا من أماكنهم، بعد استراحة قصيرة، لمواصلة البحث، الا ووجدوا مادلين بثوب أبيض طويل وقد ظهرت أمامهم مثل شبح مع رجل دين بلحية طويلة لا هو ملا ولا قس. قالت مادلين: «لقد وافق أبونا على ذهابي معك، فهيّا اشكره بتقبيل يده». ولما أراد رستم الاقتراب منه، اختفى الرجل. وواصلوا رحلتهم. بلغوا مشارف وادي كفران، وقفوا كي يأخذوا قسطاً من الراحة، ثم راحوا يتشاورون فيما بينهم ويضعون الخطط لكيفية إقناع الأهل للموافقة على زواج رستم من مادلين. كان قادر متشائماً من مجمل العملية، ولكنه يقدّم الحلول العملية التي ترضي الجميع.

وأكَّد عباس بأن قادر يستطيع فعلاً حسم الأمور في أحرج الأوقات. أضاف رستم بأنَّه في حيرة من أمره ولايستطيع أن يقرّر أي شيء، فليتصرف قادر بالأمور كيفما يشاء. قال قادر بلهجة لا تخلو من الاعتداد بالنفس: «ان أوّل شيء يجب أن نقوم به هو تبديل اسم مادلين، لأن مثل هذا الاسم لا يوجد في وادي كفران، والخطوة الثانية هي ايصالها بسريَّة تامة وتحت جنح الظلام الى كهف الجنيَّة على آوه سبي واخفائها هناك، ثم القيام بضجة بشهود عيان والادعاء بأن رستم قد القى القبض على الجنية «في» وبعد ذلك نذهب الى الملا لعقد قرانهما وينتهي كل شيء». تنفس رستم الصعداء وراح يطري قادراً لحدة ذكائه. وما ان بدأوا بمواصلة السير، إلاّ وكانوا قد بلغوا الكهف. اختاروا فيه زاوية مريحة. راحوا ينظّفونها ويفرشون الأرض بالسجاد والكليم. وتمدّدت مادلين، التي اتفقوا على تسميتها بـ «روناك»، على فراش وثير. وما ان همُّوا بترك الكهف، إلاّ وتبدّد الظلام وتحول كل شيء الى نور مشع، ظهرت الجنية (في) غاضبة مزمجرة وهي تحلّق كما انها تسبح في بحيرة لا نهائية. كان شعرها الطويل الأشقر يتموج ويداعب نهديها وظهرها، وذيل ثوبها الأبيض الشفاف يرفرف ويخفق في الهواء في حركات متناسقة مع أمواج شعرها الذهبي. قالت وهي تدور حول رستم كاشفة له مفاتن جسدها البض: «ماذا تفعل يا رستم؟ لماذا تخيبني مثلما خيَّبني أبوك؟ ألا تعلم بأن هذا المكان يعود لي؟». ودون أن تنتظر منه جواباً هجمت على مادلين مواصلة: «وأنت أيتها العاهرة النجسة، كيف تسمحين لنفسك بتدنيس منزلي الطاهر؟». ودخلت الاثنتان في معركة حامية، خرجت منها مادلين ظافرة بعد أن استعملت فيها آلة جارحة ناولها إيَّاها قادر بخفة. انسحبت الجنيَّة في وهي تعاني من جرح عميق في صدرها. أدارت لهم ظهرها، وراحت تبتعد بخطوات وئيدة (في) الظلام الذي بدأ يلف كل شيء من جديد.

كان رستم يريد أن يقول لها أشياء كثيرة، بيد ان لسنانه لم يطاوعه، وراح يبكي. وجاءته مادلين بثوبها الأبيض الطويل مطوقة ايَّاه وماسحة بأناملها الرقيقة دموعة المنسابة على خدّية. وتسرب صوتها الدافئ الذي لا يكاد يسمع إلى أذنه:

«لا تبكِ يا رستم، إنَّك تجرح قلبي، ألم أقل لك اننا يجب أن لا نتورط بما يسمَّى بالحب؟». وفتح رستم عينيه. كانت أنامل مادلين الرقيقة ما زالت تداعب وجهه: «لقد نمت نوماً عميقاً يا رستم وبكيت. هل حلمت بأهلك؟». ابتسم بشرود: «لا داعي أن أحلم يا مادلين، فوجودك جنبي هو الحلم بالذات».

«كنت في الحقيقة لا أريد أن أتورط في حبك يا رستم، ولكنني أعتقد أن هذه الليلة اللعينة التي أتمنى أن لا تنتهي قد أوقعتني في حبك، هذا الشيء الذي أحسّ به لأول مرة في حياتي. إنَّني من الآن فصاعداً سأكون تعسة، تماماً مثل باجي، ولكن لا يهم، يبدو ان السعادة انما تكمن في التعاسة كما تقول باجي. والآن أعرف لماذا تحذرنا من الوقوع في الحب». قال رستم وهو يمرِّر

شفتيه على شفتيها الممتلئتين:

هـا انتِ متـأكَدة من وقوعك في الحب؟».

«متـأكدة تمـامـاً، وأعتقد انني بعد هذه الليلة لا أستطيع البقـاء في هذا المكان الموبوء».

«إلى أين تذهبين؟».

«لا أعرف، المهم انني سأترك هذا المكان. سمعت أن هنـاك أديرة كثيرة في الجبـال القريبـة من الموصل».

صحيح، هنـاك أديرة كثيرة قريبة من الموصل، ولكن الانتقـال من هنـا الى الدير مبـاشرة، ألا ترين أنها مسألة معقدة؟».

«كلا يـا رستم، نحن لسنـا مثلكم أنتم المسلمون، نحن لدينـا شيء اسمه التسامح، فمـا أن يقرّر أحدهم الاستغفـار عن ذنوبه، إلاّ ويذهب إلى الكنيسة ويعترف بذنوبه، اذ ذاك يمكنه أن يغسل خطـايـاه ويبدأ حيـاة جديدة».

«الشيء نفسه موجود عندنـا يـا عزيزتي، انه التوبة».

سحبت نفسهـا بـاتجـاه الحـائط واضحة المخدة وراء ظهرهـا ومسندة نفسهـا على طرف السرير، وأمّا رستم فظلّ ممدّا في مكانه واضعاً رأسه على بطنها. قـالت وهي تمرر أصـابعهـا بين ثنـايـا شعره الأسود الداكن الخفيف: «وهل تعتقد ان توبتكم وتسامحنـا يمكن أن يلتقيـا، وينتج منهمـا شيء؟». قفز رستم من مكانه، واتكأ هو الآخر على طرف السرير في وضع ملاصق لهـا: «لِمَ لا يـا مـادلين، كل شيء بـالقسمة والنصيب. تصوَّري، مَنْ كان يعتقد بـأنّني سأقطع هذه المسـافـات الطويلة بين وادي كفران وهذه المدينة كي آتي هنـا للدراسة ومن ثمّ الالتقـاء بك؟ أليس هذا كله قسمة ونصيب؟». أجـابت مـادلين بصوت حـالم: «أجل، كل شيء قسمة ونصيب. ان الشيء نفسه هو الذي دفع والدي للهجرة من بلده البعيد وراء جبـال القفقـاس، كي يموت في الغربـة في معركة بين المسيحيين والمسلمين، وهكذا دفع بي القدر الى هذا المكان الذي لم أختره بملء ارادتي».

خيَّم عليهمـا الصمت لفترة غير قصيرة. كان هُو يفكر في تفـاصيل حلمه الغريب، وهي في بيت صغير يحيط بهـا الأولاد والزوج. قطعت الصمت بصوت خـافت أشبه بهمس: «أنت ستسـافر غداً أو بعد غد، أنا أعرف بـأنّني لن انساك، وأمّا أنت فلا شك ستنسـاني. ليتنـا كنـا لم نلتق».

«أنـا غير نـادم للقـائنـا، ولن أنسى هذه الليلة في حيـاتي. ولكن إذا شاء القدر فسنلتقي حتمـاً. كل شيء بـالقسمـة والنصيب يـا مـادلين».

٢

كانت عشيرة وادي كفران تنتظر وصول رستم على أحرّ من الجمر. كان ملا المسجد الوحيد في القسم الجبلي يخشى أن يحل رستم محله فيفقد مورد رزقه، بيد ان كريم طمأنه بأنه لا خوف عليه وانه سيظل الملا الوحيد في باشاخ إلى يوم مماته. وراح الملا يتمنى الخير والتوفيق وطول العمر لرستم، الذي تمنّى له أمام والده منصباً محترماً عند الدولة أو على الأقل إماماً في أحد الجوامع الكبيرة في المدينة. وأكّد له كريم بأنهم لا يريدون أن يكون لهم قدم داخل هذه المعهرة التي يسمونها الدولة. وكان كل من قادر وعباس يتنقلان بين وادي كفران الجبل والسهل على أمل عدم تضييع فرصة اللقاء الأول به، لأنهما كانا لا يعرفان بالضبط في أيّهما سيحل أولاً، رغم ان مردان قد أكّد لهما بأن رستم انما هو ابن جده، ولذلك فإنّه لا بدّ سيحل في قرية زوراب.

كانت أمنية زوراب الوحيدة هي أن يرى رستم قبل أن يغمض عينيه إلى الأبد، اذ ان المرض كان قد أقعده نهائياً، فلم يعد بإمكانه التحرك او التفكير السليم، وغالباً ما كان يهذي ويتكلم عن أشياء غريبة. وكان السيد يعد له أنواع الأدعية والخرق الخضراء التي لا تجدي، فيعلق مبرراً: « إنّه أرذل العمر وسينقضي». وكان شيخو ورمضان وميرزا لا يفارقونه ليلاً ونهاراً. وعندما أسروا اليه بخبر وصول رستم، بأنه قد أنهى دراسته بتفوق، ولن يعود مرة أخرى إلى المدينة، سرت في جسمه قوة غريبة، فجلس في مكانه من تلقاء نفسه دون أن يساعده أحد بخلاف العادة. وراح يتكلم بصورة طبيعية، أدهشت الجميع. وظلّ جالساً مع رستم الى وقت متأخر من الليل، غارقاً معه في حديث طويل تناول حياته ودراسته في المدينة، دون أن يبدو عليه أثر للمرض. وفي اليوم الثاني، عندما استيقظ الجميع، استغربوا من بقاء زوراب نائماً في فراشه، فهبّ شيخو للذهاب اليه، بيد أن سنجان قالت انه متعب لأنه سهر الليل مع رستم، لكن شيخو لم ينتبه إلى كلام زوجة أبيه، بل ذهب الى حيث فراش الأب وبصورة لا ارادية لحقته سنجان. قرفص شيخو قرب رأس والده الراقد على فراش على الأرض مباشرة لصق الجدار. مرّر يده على وجهه ثم ركع لاثماً جبينه. وظل هنيهة على هذه الوضيعة الى ان تجمع الكل ثم قام من مكانه قائلاً بصوت مخنوق: «انا لله وانا إليه راجعون». وبدأت مراسيم التأبين في الخيمة الكبيرة، واستمرت لسبعة أيام حيث حضرها ممثلو كافة العشائر المجاورة ووجهاء السنجق والقائمقام والموظفون. وتولّى رستم مهمة ترتيل القرآن الكريم. وحتى بعد انتهاء مراسيم التأبين والفاتحة، ظل الوجوم والحزن مخيمين على كل جزء من وادي كفران. وكان شيخو ورمضان وميرزا والسيد حين

ينصبون مجالسهم كالعادة، يظلّون صامتين، مفكرين في الفراغ الذي تركه زوراب وهم ينفثون الدخان بدون انقطاع. وبعد انتهاء الأسبوع الذي بح فيه صوت رستم من الترتيل ليلاً ونهاراً، قام مع كل من قادر وعباس بجولة في وادي كفران الجبل استغرقت ثلاثة أيام، عادوا بعدها الى قرية زوراب وراحوا يشاركون المجلس، ويثيرون فيه مواضيع جديدة مثل الحياة في المدينة وأخبار التحركات والاضطرابات في كل مكان. وكان شيخو هو الوحيد الذي يهتم بتلك المنافسات، بخلاف الآخرين الذين كانوا يدورون في نفس حلقة نقاشاتهم القديمة بخصوص الزرع والجو وأخبار العشائر المجاورة ومشاكلهم فيما بينهم، ثمّ يعرجون من حيث يريدون أو لا يريدون الى سيرة حياة زوراب: شجاعته، قوة شخصيته، شهامته، كرمه، أسلوب حديثه، اجادته لكل أنواع الغناء، صبره وجلده، تواضعه، مغامراته التي تحدّى فيها ليس كل العشائر المجاورة حسب، بل الدولة العثمانية بكل جبروتها، وأكبر دليل على ذلك تحدّيه لعساكر الدولة في سنة «أطول عام»، وكان ان كسب ثقة العشائر.

وفي مساء اليوم الذي شارك فيه رستم وقادر وعباس في النقاشات، أكّد الأول انهم يجب أن لا يأخذوا كلام هؤلاء الطاعنين في السن بالجد، لأنهم، رغم احترامه لهم، بدأوا يخرفون ويسترسلون في أحاديث لا ربط فيها ولا ضبط وكان رستم يريد بذلك كسبهما الى جانبه بعد ان استطاع كسب جدته سنجان بخصوص مصيره ومستقبله، اذ جرت في اليوم الأخير من الحفلة التأبينية نقاشات حادة، انقسمت فيها العائلة الى فريقين، فريق يؤكّد على بقاء رستم في قرية زوراب واستلام مهمة الإمام في المسجد الذي ما زال ينتظر مَن يقوم بإدارته، وفريق يرى ضرورة اشتغاله في منصب حكومي. وكان الفريق الأول يشكّل الأغلبية الساحقة. وكان شيخو لم يبدِ رأيه بعد. وأدرك رستم بفطرته بأن المسألة ستتعقد أكثر، وربما ستؤدّي الى شرخ داخل العائلة. وكان أخشى ما يخشاه هو طرح الموضوع للانتخاب في مجلس العشيرة، اذ ذاك لا يستطيع حتى عمه شيخو حسم الأمر لصالحه، إذ ان الأكثرية فى المجلس الى جانب عمله في المسجد، ولاسيما انه أثبت بأنّه فعلاً إمام جيد، سواء لأجادته التامة لترتيل آيات القرآن الكريم، أو لقيامه بصلاة الميت وقراءة سورة يس بعد الدفن. وكان أول مَنْ زكّاه ومدحه هو السيد: «اللّه يطول عمرك يا ابن كريم، يا ملا رستم». وسواء شاء رستم أم لم يشأ، التصق اللقب باسمه منذ تلك اللحظة. وأمّا والده كريم، فكانت رجلاه لا تمسان الأرض من شدة الفرح. كان كل واحد منهم يعتبره جزءاً من نفسه، ولذلك يريده أن يجسد طموحه وأمنيته. ولم يفكر أي واحد منهم في رأي رستم الشخصي. وكان رستم نفسه يعرف جيداً أنه لا رأي له أبداً في هذا الموضوع. وأي مضاد من قبله لرأي المجلس يعني التمرُّد على العشيرة. ولا يهم أبداً مَنْ هو المتمرد وما هو موقعه. إنّه ينبذ بلا رحمة ويوضع خارج العشيرة فاقداً كل حقوقه. كانت الأشياء التي يفكر بها شيخو

تختلف اختلافاً كلياً عمّا يفكّر به الآخرون، فهو بحكم كونه رئيساً للعشيرة، مطلوب منه ان يتردّد ليس الى السنجق حسب، بل حتى إلى مركز الولاية، رأى انه بحاجة إلى مَنْ يحمل لقب الأفندي، ويرتدي بدلة أوروبية كتلك التي يرتديها الموظفون. وكان رأي مردان عنده أهم بكثير من رأي الأحمق هابو أو الغبي حمه غريب أو الشيخين الطاعنين في السن رمضان وميرزا. وأمّا أخوه كريم، فليس له رأي ثابت، كان فيما مضى يترك الأمر لوالده، ويستحيل أن يقف ضد رأي شيخو أو سنجان. وحين احتدم النقاش في ذلك المساء مرة أخرى، ظلَّ كشأنه ساكتاً يراقب عن كثب رستم، الذي تكدّر مزاجه. وحين بلغ النقاش درجة الصياح والمناوشات الكلامية، قام رمضان من مكانه وقال بحدّه لم يعهدوها فيه: «يبدو لي أن موت زوراب أدّى إلى افلات زمام الأمور، ولذلك سأضطر لترك مجلس لا رأس فيه». وقبل أن يخطو خطوة، أمسك به شيخو من يده وقال له بلهجة باردة: «لا داعي أن تترك هذا المكان يا عمّي رمضان. ابقَ جالساً حيث أنت، انّنا جميعاً متعبون. مسألة رستم حُسمت قبل ينتقل الشيخ زوراب الى دار الآخرة، ولذلك لا أريد أن أسمع أي شيء بهذا الخصوص». وظلَّ الصمت مطبقاً عليهم لفترة غير قصيرة حتى بعد تركه المكان. ولم يعرف أي واحد من الجالسين بأي شكل حسمت المسألة. وتوجهت الأنظار كلها الى رستم، كما لو انها تريد ان تنتزع منه الجواب انتزاعاً. وما كان رستم ، الذي أعجبه موقف عمّه حتى الانبهار، متأكداً هو الآخر عما اذا كان الحسم لصالحه، ولكنه كان يحس بالتفاؤل التام في داخله. قال قادر بلهجة ساخرة: «ملا رستم، ألا تشبع فضول هؤلاء؟ انهم يريدون أن يعرفوا منك كيف حسمت المسألة».

«ثقوا باللّه العظيم وبروح جدّي زوراب رحمه اللّه انّني لا أعرف أي شيء بهذا الخصوص، ثم إنّ عمّي شيخو طلب منا أن لا نتحدث في هذا الموضوع. أليس لكم موضوع آخر غير هذا الموضوع؟». عقب رمضان الذي أعجبته لهجة رستم: «كان للمرحوم زوراب، الذي سوف لا تنجب عشيرة وادي كفران ابناً باراً مثله، كلاماً يكرّره دائماً، ألا وهو اننا منذ ان تسلمنا الفرمان، الذي فرضوه علينا فرضاً، بدأنا نرى العجائب والغرائب. لقد أثبتت الأيام صحة كلامه، وها ان الدنيا تتغير في كل يوم. نحن الطاعنين في السن أنا وميرزا وهابو والسيد، نأكل في الحقيقة خبز الآخرين اعتباطاً. ان مكاننا الحقيقي هو القبر، حيث الراحة الأبدية، وليس هذه الدنيا الفانية، ولذلك أقول، أليس من الأفضل لنا نحن المخرفين أن نسكت ونلصم أفواهنا، ونسعد للقمة الخبز التي أنعم اللّه يرحم والديك يا شيخ رمضان، كلامك شكر». أراد عباس أن يدق اسفيناً داخل المجلس، الذي سبق ان علق عليه رستم عند جولتهم في وادي كفران الجبل، بأنه ليس سوى «مجلس مخرفين»: «عمّي رمضان، إنّك ذكرت فقط أربعة أشخاص ولم تتطرّق إلى اسم العم حمه غريب، هل إنّك نسيته؟ أم انه لا يعجبك؟». قال رمضان بسرعة: «ذلك لأنه أعقلنا وأصغرنا». لم

ينتبه حمه غريب للهجة التهكم في كلام رمضان، فعقب باعتداد: «عمّي رمضان لا ينطق إلاً الحقيقة، اذا كانت عشيرة وادي كفران تفتخر برجلين فهما شيخو وحمه غريب». لم يحمل أحد كلامه محمل الجد. بعد هنيهة من الصمت المستهجن، قال قادر متصنعاً الجد: «بارك اللّه فيك يا ابن عمّي حمه غريب. رستم يريد زيارة قريتك، متى نذبح الخروف؟». «الخروف ينتظركم والقرية كلها في خدمتكم».

ظلت مادلين تصر على عدم استقبال أي زبون، ورفضت حتى مجرد الجلوس في بهو الاستقبال. في الاسبوع الأول تحجّجت بالعادة الشهرية. وعندما انتهى الاسبوع، ظلّت لثلاثة أيام أخرى لا تخرج من غرفتها. استدعتها ست مريم الى غرفتها بعد ان اشتكى المعجبون من غيابها. «مادلين، حبيبتي ما الذي حصل لك، هل أنت مريضة؟»، قالت ذلك ست مريم وهي تمرّر يدها المعروقة على رأسها. ظلّت مادلين ساكتة، محدقة في الأرض. قالت ست مريم بلهجة واثقة: «أنتِ أذن مريضة، حسناً سآخذك اليوم الى الطبيب». هزت مادلين رأسها بالنفي وأرادت أن تقول شيئاً، بيد ان لسانها لم يطاوعها، فاستغرقت في بكاء هستيري عنيف، ملقية برأسها على كتف ست مريم التي طوقتها بساعديها. وعرفت بفطرتها، انها ليست مريضة، وانما مصابة بمرض الحب، الذي انعدت به من هذا الطالب الأنيق اللعين، الذي كان عليها الحيلولة دون مبيته مع اصحابه في بيتها تلك الليلة. عندما أعلمتها مادلين بقرارها القاطع لترك البيت، والانتقال الى دير ما، قالت ست مريم بهدوء: «اذا كنت تريدين أن تستغفري عن ذنوبك وتنتقلي الى جانب الرب، فأنا لا أستطيع منعك من ذلك، لأنّني لا شك سأجلب عليّ غضب الرب ولعنته، ولكن لماذا العجلة؟ أنتِ ما زلت شابة، إنّك تستطيعين أن تقومي بذلك عندما يتقدم بك العمر». قالت بإصرار وهي تمسح دموعها: «قراري قاطع يا باجي». علّقت ست مريم كما لو أنها تتكلم مع نفسها: «هذا العناد الأرمني، متى نتخلص منه يا إلهي؟». قامت ست مريم من مكانها وجلبت من منضدة قريبة علبة فضّيّة أخرجت منها سيكارة، قدمتها لمادلين بعد ان أشعلتها، ثم أخرجت سيكارة أخرى لنفسها. وبعد ان أشعلتها بيدها المرتجفة، وأمتصت منها كمية من الدخان قالت: «هل ترين هذه السيكارة يا مادلين؟ هل ترينها كيف تحترق، إنّنا نحترق بالضبط مثل هذه السيكارة. إنّني أحترم قرارك ولكن هل يمكنني أن أعرف السبب، أم تريدين اخفاءه عليّ؟». «كلا باجي، لن أُخفي عليك أي شيء، ولا أستطيع بعد، لا أريد رؤية أي رجل. عرفت آلآن بأنّني لم أخلق لمثل هذه المهنة». قالت الست المريم في نفسها: «وهل تعتقدين، انّني خلقت لهذه المهنة؟»، ثم أضافت مبتسمة وبلهجة مرحة: «لقد سبق ان حذرتك من الوقوع في الحب، ولكن يبدو ان هذا الشيء اللعين الذي يسمّونه الحب أقوى بكثير، والمصيبة التي لا يعرف بها أحد يا مادلين هي ان أي عاهرة اذا أحبت، سيكون حبّها خطيراً، ولذلك أرجو أن لا يكون حبك من هذا النوع». وبعد هنيهة صمت واصلت: «فتى الأحلام هو هذا الطالب الأنيق،

أليس كذلك؟ هل تجاوب هو أيضاً معك أم انه حب من جانب واحد؟».

قالت شاردة محدقة في الفراغ: «لو لم أتأكد من حبه لما تغيّرت بهذا الشكل.

«هل اتفقتما على شيء أم انه مجرد كلام معسول في الليل يمحوه النهار؟ لا توهمي نفسك بالزواج».

«كان طيلة الليلة يبكي في منامه ويصرخ ويضع الخطط للزواج مني وأخذي الى عشيرته، ولكنني أعرف جيداً بأن هذا مستحيل، ولم يخطر الزواج ببالي أبداً».

«اذا كان قرارك نهائياً يا مادلين، فيجب أن نجد لك حلاً معقولاً غير الدير، لأنَّك ستموتين هناك كمداً». قالت متنفسة الصعداء: «المهم هو أن أخرج من هذا المكان يا باجي، وأرجو أن لا تؤاخذيني على قراري».

«أنت حرة يا مادلين، وأنا أحسدك على ذلك. لو كان الأمر بيدي لتركت هذه الدعارة، ولكنّني لست حرة مثلك».

بعد حديث طويل، كانت تحتاجه مريم، اتفقا على أن تشتغل مادلين ممرضة في مستشفى المجيدية في كركوك، اذ ان مدير المستشفى هناك هو من أحد معارف ست مريم. ولما كانت مادلين عديمة الخبرة في هذه المهنة، لذا دخلت دورة لهذا الغرض، مدتها ستة أشهر، تصرف عليها وتديرها المدرسة الخيرية الكلدانية للراهبات. لم تكن مادلين تتوقع أبداً بأنهم سوف يستقبلونها بحرارة ويحيطونها بالرعاية التامة. لم يشترط عليها أحد الاعتراف بخطاياها كشرط للدخول الى المدرسة، بيد ان حاجة داخلية كانت تلح عليها للتخلص من العار الذي يثقل كاهلها ويجثم على قلبها مثل الكابوس. وكان ذلك الشعور يزداد عندها كلما أحست بالرعاية التي كانت ترى أنها غير جديرة بها. وهكذا ذهبت ذات يوم بلا ارادة منها الى الكنيسة الملحقة بالمدرسة وتحدثت مع الشماس بهذا الخصوص، وأخذها هذا بدوره الى قسيس الاعتراف الذي رأته لأول مرة، رغم مرور شهر على دوامها في المدرسة. كان رجلاً وقوراً بلحية بيضاء يحيطه السواد من قمة رأسه إلى قدميه. قادها الى ركن في الكنيسة، وأشار لها بالجلوس على كرسي الاعتراف، بعد ان فتح لها الباب الداكن الصغير. وحين اتخذت مكانها على الكرسي داخل الغرفة الضيّقة، أغلق عليها الباب. نفذت إلى أنفها رائحة خشب عتيق، ممزوجة بعفونه رطبة مألوفة ومخدرة، ذكرتها بطفولتها، وأحست للحظة بنعاس غريب، لولا أن صوت القسيس جاء من خلال الفتحة الصغيرة يطلب منها أن تتكلم ولا تخفي أي شيء لأن الرب عليم بكل شيء. كانت كما لو انها في حلم وعندما انتهت من كلامها الذي لا تدري كم استغرق من الوقت، أحست بنفسها كما لو أنها تسبح في بحيرة من العرق. وراحت خطاياها تتسرب هي الأخرى مع العرق وتنفذ الى ملابسها.

قال القسيس، كما انه يستدرك خطأ: «من أي طائفة مسيحية أنتِ»

«أجابت بصوت خجول: «لا أعرف، أبونا، كنت صغيرة عندما فقدت أهلي، كل ما أتذكّره هو صورة لمريم العذراء معلّقة على الجدران وفوقها صليب». «هل تقبلين أن نعتبرك من الطائفة الكلدانية يا ابنتي؟».

«نعم يا أبونا».

«هل ستحضرين قدّاس الأحد باستمرار يا ابنتي؟».

«نعم يا أبونا».

«سوف أصلّي من أجلك يا ابنتي، إنّك ضحية الظلم. لا تقطعي صلتك بالكنيسة، ان خطاياك كثيرة يا ابنتي، ولكن مَنْ منّا بلا خطيئة. احمدي الرب على انه أدخل الايمان الى قلبك قبل فوات الأوان».

أحست انها بحاجة الى بكاء، فصدر منها أنين خافت اختلط برائحة العرق الحادة التي نفذت إلى أنف القس الذي استنشقها بعمق وقال: «خطاياك يا ابنتي تخرج من جسدك مثل العرق. عودي الى مسكنك، واغتسلي بالماء الدافئ والصابون. ليزيل الماء خطاياك من جسدك وعاهدي الرب بعدم تدنيسه».

«أعاهد الرب بعدم تدنيسه يا أبونا».

٣

قضى رستم الصيف في وادي كفران متنقلاً بين السهل والجبل واستطاع أن يجمع حوله مجموعة من الأولاد الذين راح يعلّمهم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن، جاعلاً من مسجد قرية زوراب مقراً دائماً له. ولما كان المسجد بحاجة إلى ملا ثابت يحلّ محله بعد مباشرته وظيفته، إستطاع أن يقنع البنّاء حسين كركوكلي لأداء هذه المهمة، ولاسيما أنّ هذا كان يعيش في القرية منذ أربع سنوات ويشارك يومياً في المجلس الخاص لشيخو. ومما زاد من احترام رستم للبنّاء حسين هو انه كان يعلّم شيخو بانتظام مبادئ القراءة والكتابة. ولكن الشيء الذي لم يفلح فيه رستم هو عدم تمكنه من إقناع ابني عمّيه وصديقيه قادر وعباس بتعلّم القراءة والكتابة، كما آلمه ايضاً انه لم يستطع أن يؤثر على اسلوب حياتيهما. وذات يوم فاتح عمّه شيخو بخصوصهما، فأجابه شيخو بكل رقة: «انظر يا عزيزي رستم لكل فرد داخل العشيرة دوره، مثلما نحن بحاجة إلى أفندي مثلك وملا وبنّاء وسيد ودرويش، كذلك نحتاج الى لصوص. هكذا هي الحياة يا بُني، لذلك دعهما وشأنهما ولا تشغل بالك بهما».

كان شهر أيلول من العام ١٩١٢ شيئاً حاسماً بالنسبة لرستم فذات يوم قائظ مغبر جاء رجل من السنجق حاملاً إليه رسالة من مدير المدرسة. وكان المظروف يحتوي الى جانب رسالة شخصية من المدير على كتاب رسمي من مديرية معارف ولاية الموصل مكتوب على الآلة الكاتبة. وحين وقعت عيناه على اسمه الكامل المكتوب بحروف مطبعية، كاد يطير من الفرح، وراح يكرّر في نفسه دون أن يتمكن من إخفاء غبطته الطفولية: المعلم رستم أفندي زوراب... وراح الكتاب يتنقل بين كل من البنّاء حسين وشيخو ثمّ راحت تتلقفه أيدي رمضان، ميرزا، هابو، السيد. وأبت سنجان إلاّ أن تهلهل مؤكدّة بأن أيام الحزن على المرحوم زوراب يجب أن تنقلب إلى أيام فرح، وأمرت بذبح نعجة من ملكها الخاص. وفي اليوم الثاني ودّعته القرية وهي تراه لأول مرة بالبدلة الأوربية والرباط والطربوش. وظلّوا يرشون الماء وراءه ويدعون له بالخير والتوفيق الى ان اختفيا هو ومرافقه حامل الرسالة، فراش المدرسة مع حصانيهما وراء الأفق. ودون أن يعلم أحد كان يتابعهما قادر وعباس عن كثب. مَنْ يدري، لعلّ شيخو هو الذي كلفهما بذلك.

كانت المباشرة بالوظيفة تحتاج سلسلة من الاجراءات البيروقراطية التي فوجئ بها رستم، والتي استدعت منه السفر الى كركوك والموصل.

كان صديقه رمزي يسكن عند أخيه الأكبر الذي عاد الى بيتهم القديم في السنجق بعد وفاة

أبيهم جهانكير. بعد قضاء ليلتين عند رمزي سافرا الى كركوك، وهناك التحق بهما صائب متجهين مع أول قافلة الى الموصل. وعندما تأكّد كل من قادر وعباس بأنّ رستم ليس وحده في سفره، ودّعاه وقفلا راجعين الى وادي كفران. عندما أصبحا على مقربة من السنجق، كان الظلام قد أطبق على كل شيء. ولولا الأنوار الباهتة للفوانيس لما تمكّنا من تشخيص موقع السنجق. خرق صوت عباس الصمت: «قادر، هل نواصل سيرنا أم نقضي ليلتنا في بيت جهانكير؟». سحب قادر زمام حصانه الذي توقف عن السير وأجاب: «هناك أمر آخر يدور في رأسي».

«أعرف ماذا يدور في رأسك، لا أريد أن نربط توديعنا لرستم بمغامرة قد تجلب له الشر».

«كلام فارغ، ما علاقة مغامرتنا نحن برستم، يكفي انه طوال وجوده في وادي كفران لم نقم بأي مغامرة. تصوّر أربعة أشهر». كان حماس عباس لا يقل عن حماس صاحبه، بالاضافة الى ان جلده هو الآخر كان يحكه: «حسناً، ما هو مشروعك؟». حكّ قادر رأسه وأمال يشماغه بحركة عفوية من يده وأجاب: «عندي مجموعة من المشاريع، قد نستطيع انجاز واحد أو اثنين منها».

«يكفي أن ننجز مشروعاً واحداً هذه الليلة».

«المشروع الأول يا ابن عمي عباس لا يمكن ان يتحقق إلاّ بالمشروع الثاني. سنسطو أولاً على بستان عاصم بك، سنقطف من الفواكه ما يكفي لحمل بغلين، وأمّا البغلان فسنسرقهما من زريبة فلاح غني يقع بيته على طرف السنجق».

«ما يتعلق بالبغلين، لا مانع لدي وأمّا السطو على بستان عاصم بك فلا أوافقك عليه. لا أعتقد ان عمّي شيخو يوافق على ذلك ثم ان سرقة الفواكه عمل صبياني لا يليق بنا».

عرف قادر بأن عباس اذا أصرّ على شيء فإنّ أي نقاش لا يفيد معه: «حسناً، لنترك أمر الفواكه، لكنني لا أكتفي بالبغلين، يجب أن نأخذ معنا نصف قطيع الغنم». لم يدخلا السنجق، بل دارا بحصانيهما حوله إلى أن وصلا إلى نقطة قريبة من البيت.

كان قادر قد شخّص البيت منذ فترة غير قصيرة، ارتفاع الجدران، موقع الزريبة، نوعية الأبواب، حتى انه دخله ذات يوم بحجة الاستفسار عن بيت جهانكير وفي كل مرة يمر من هناك يلقي قطعة خبز للكلب الذي راح يلوي ذيله كلما رآه. ربطا الحصانين في مكان غير بعيد عن البيت. كانت خطة قادر هذه المرة تختلف اختلافاً كلياً عن الخطة السابقة، ورغم انه كان يعرف مسبقاً بأنّ عباس لا يعارضه في خططه، لذلك لم يفشل حتى الآن في تطبيق أي واحدة منها، فإنّه كان يطرحها للمناقشة والتمحيص. واتفقا على ان يعبرا الجدار في المكان الذي ينام فيه صاحب البيت، قادر يشهر بندقيته ويهدّد بإبادة العائلة اذا ما صدرت نأمة من أي واحد منهم، ويظل في وضعه إلى أن يقود عباس البغال والقطيع الى مكان يأمن خط الرجعة، ومن هناك يرسل الاشارة المتفق عليها. وقبل ان ينتهي عباس من تنفيذ العملية استطاع قادر مصادره

بندقية وسجادة، وقال لصاحب البيت الذي أيقظه بدفعه من رجله: «اذا قمت بأي حماقة سأهشم رأسك وأحرق بيتك». بعد هنيهة غطّى وجهه مواصلاً: «سيبقى رأسك تحت الغطاء الى ان أُنادي عليك، هل فهمت؟». ولما لم يصدر أي صوت من الرجل، رفع الغطاء بخفة منحنياً عليه، حتى كاد ذقنه يمس وجهه: «ألاَ تسمعني؟ قلت لك هل فهمت؟». أجاب الرجل بصوت مختنق: ففففـفففهمت..». وأراد أن يواصل كلامه ويقول له: «خذ كل ما تجده في البيت واذهب، المهم دعنا نعيش....»، بيد ان لسانه لم يسعفه. تناول قادر كيس التبغ الملقى قرب رأس الرجل الراقد تحت الغطاء ولفّ بهدوء في ضوء النجوم لفافة راح يمتص دخانها بشراهة. قبل ان يصل الى عقب اللفافة، شق صوت أشبه بصفير البوم سكون الليل، عرف ان عباس قد انجز المهمة بنجاح. رمى اللفافة جانباً وتنكب السجادة الملفوفة حول البندقية بخفة، دون أن تصدر منه نأمه. حين التحق بعباس قال: «صاحبنا لا يزال ينتظر ندائي من تحت غطائه».

«دعه ينتظر، انه لا بدّ قد نام من خوفه بعد أن زرب على نفسه».

لم يتكلّما في الطريق الذي قطعاه بسرعة الى ان بلغا نهر روخانه. وبعد فترة استراحة قصيرة تأكدا بأنّ أحداً لا يتبعهم، فراحا يتشاوران بهدوء في مصير الغنيمة. قرّرا ان لا يأخذا أي شيء الى وادي كفران، لأن ذلك سيخلق لهما مشاكل جدية سواء مع العم شيخو أم مع العم كريم، ثم ان البغلين يجب أن يصلا الى مكان بعيد، وإلاّ فإنهما سيعودان الى مالكهما في أقرب فرصة ممكنة. أخيراً اتفقا على مواصلة السير الى قرية أبناء عمومتهم الفقراء وراء جبل بناركل، فهي المكان الأمين الوحيد الذي لا يصله أحد، ولايمكن حتى للبغلين من العثور على طريق العودة.

كان رأس صائب مملوءاً بالأفكار والمشاريع عندما جاءه رستم ورمزي. وقبل أن يرحّب بهما، أكّد عليهما بأنهما جاءا في اللحظة الحاسمة وانهما يجب أن يبيتا عنده على الأقل ليلتين قبل سفرهم الى الموصل لجلب شهاداتهم. كان يتكلم دون انقطاع وينتقل من موضوع الى آخر دون أن يتمّمه ورغم محاولة رستم ورمزي مقاطعته على أمل قول جملة واحدة أو على الأقل كلمة، فإنّه كان يسترسل في كلامه دون أدنى إلتفاتة لمن يريد الكلام. ورغم ان رستم كان شارد الذهن ويستمتع بأفكاره التي تنقله الى مادلين وكيف أنه سيقضي معها ليلة أخرى، فإنّ بعض كلمات صائب كانت تتسرب إلى وعيه، ولاسيما حين كان صائب يمسكه من يده بقوة وينبهه لتركيز ذهنه في كلامه بعد ان يقول: «هل فهمت؟». ويتصنع رستم الانتباه والاستماع، بيد انه في الحقيقة لا يأخذ كلامه بالجد، ويعتقد ان مرضه العصبي القديم قد عاد اليه من جديد قائلاً في نفسه: «ما لي وكل هذه المسائل؟ ما شأني أنا بالاتحاد والترقي، مجلس المبعوثان، الديمقراطية، حقوق القوميات، شرف الدولة العثمانية؟ خراى عليها كلها... وفوق كل ذلك يريد منا ان لا نرضى بوظيفة التعليم.. ماذا نشتغل اذن؟ هل استلمنا الشهادة كي نعلقها على الجدران ونتفرق عليها؟ أن نشتغل بالسياسة؟ كيف يشتغل الانسان بالسياسة؟..». لم يتحمل رستم، أمسك به من يديه

وصاح في وجهه: «كاكه صائب اذا لم تتركنا نتكلم فسنترك هذا البيت فوراً». «لحظة واحدة فقط، لحظة واحدة وأنهي كلامي، ملخص القول اننا يجب ان نتحرك ونؤسِّس منظمة خاصة بنا، منظمة تكافح من أجل الديمقراطية. يجب ان نكون ديمقراطيين مثل الاغريق». وقف رمزي قائلاً: «هل تسمح لي أن أتكلم الآن يا صائب، أم تريدنا أن نترك البيت؟. مدَّ صائب رجليه بارتياح كما لو أنه أزاح عن كاهله عبئاً: «تكلم، أنا انتهيت من الفقرة الأولى من أفكاري». علق رستم: «اذا كانت هذه هي الفقرة الأولى من أفكارك فيجب أن نبقى عندك شهوراً». أراد صائب التكلم، بيد ان رمزي استوقفه: «كلا، يا صائب، هذه المرة أتكلم أنا، هناك مثل كردي عندنا يقول، الكلام ألف، ولكن ثمة كلمة واحدة منه فاعلة، أنت تريد منَّا أن نؤسِّس منظمة ديمقراطية، ولكنك نفسك أكبر دكتاتور، أكثر من ساعة وأنت تتكلم دون أن تسمح لأي واحد منا بنطق كلمة». قفز صائب من مكانه محاولاً الكلام، ولكن رستم قاطعة: «الدور لي أنا أريد ان أطيل كلامي، أنتما تستطيعان أن تفعلا كل شيء، ان تذهبا إلى استانبول وتؤسِّسا منظمة وتعملا في المبعوثان وأمَّا أنا فلا أعرف أن أشتغل بالسياسة، ثم إنَّني في كل خطوة أخطوها، يجب أن أستشير بها العشيرة، لست حراً حتى في اختيار الزوجة التي أريدها، ولذلك لا تحسبا حسابي». انطلق صائب بهياج:

«ولكن هذه جريمة، هذا ما أريد بالضبط مكافحته، انك يجب ان تتمرد على العشيرة». هزَّ رستم رأسه باستخفاف: «مستحيل يا صائب. تمردت مرة واحدة وذهبت الى الدراسة، تمرُّد آخر غير ممكن». تساءل رمزي: «قل لي يا صائب، هل من الضروري أن نشتغل بالسياسة؟ ما لنا وهذه المشاكل؟». أجاب صائب بلهجة يائسة: «أنتما فعلاً فلاحان لا فائدة منهما، الكلام معكما لا يفيد». أراد صائب أن يضغط عليهما برفض السفر الى الموصل، ولكنه تأكَّد في نفسه انهما لن يرضخا لذلك، بالاضافة الى أنه هو الآخر ملَّ الجلوس في البيت وراحت تداعبه فكرة قضاء ليلة عند صاحبته.

كانت أم صائب تستمع خلسة للمناقشات الدائرة بينهم. استغلت فرصة خروج ابنها لقضاء حاجة فدخلت بحجة جلب الشاي، وراحت تمدحهما لرفضهما أفكار ابنها وتتوسل اليهما للتأثير عليه للتخلص من هذه الترهات التي لا تجلب للعوائل والأبناء سوى المآسي وأكدت عليهما بعدم قطع صلتهم به لأنه لا يوجد له اصدقاء آخرين. قال رستم: «لا تخافي يا أم صائب، نحن سنبقى اصدقاء، وأمَّا مشاريعه فستبقى داخل رأسه، أنا شخصياً لا أعرف اشتغل بالسياسة؟ انا لو كان عندي قرصاغ لأخذت مهنة التجارة من المرحوم والدي».

قالت أُم صائب تاركة الغرفة: «اللّه يرحمه يا ابني، لقد ربَّاك تربية جيدة». علَّق رستم ساخراً: «لو كنت ماشياً على تربية المرحوم عمِّي جهانكير، لكنت الآن علافاً».

رد رمزي: «الحمد للّه الذي أخرجني من ذلك الخان اللعين».

٤

تبيَّن لمادلين التي ان البنت التي تسكن معها في الغرفة بالقسم الداخلي التابع لمدرسة الراهبات، سحاقية. كانت قد سمعت فيما مضي من بعض صديقاتها بمثل هذا الحب الذي يحصل بين فتاتين، ولكنها لم تستطع أن تستوعب ذلك، وما كان بإمكانها تصوّره، فالحب، حسب تجاربها الشخصية يتم بين الذكر والأنثى. وهي خلال وجودها في المنزل السرّي لست مريم لم يسبق لإمرأة أن تردّدت عليهن.

لم تستطع مادلين اقناع زميلتها في الغرفة بأنّ الحب، الذي هو في رأيها مجامعة بين رجل وامرأة، لا يمكن أن يتم بين امرأتين، ذلك لأن هناك عنصراً ناقصاً في الموضوع، لا يتم الأمر بدونه. كانت لا تذكر الأشياء بأسمائها الحقيقية وذلك تظاهراً بالحشمة ولكي لا تحرج زميلتها، وأمّا زميلتها سعاد التي تتظاهر بالغباء، أو ربما كانت فعلاً غبية، فتريد أن تعرف كل شيء بصورة ملموسة فتقول: «ماذا تقصدين بالعنصر الناقص، أوَلا يتم الأمر بدونه». وتنظر اليها مادلين بصرامة قائلة: «هل أنت غبية يا سعاد؟ أم تريدين الضحك عليّ؟». وتقول سعاد بكل براءة: «وحق الله ما أعرف يا مادلين». والحقيقة كانت سعاد بريئة فعلاً. كان والدها الأرثوذوكسي متزمتاً جداً، يمنع بناته ثلاث حتى من النظر من خلال فتحة الباب الى الشارع، فالإثم كل الإثم يأتي من الشارع كما كان يردّد دائماً. كانت المرة الأولى والأخيرة التي رأت فيها سعاد الناس والحيوانات والعربات، هي عندما ذهبت مع والدها للالتحاق بالمدرسة، لم ترَ في حياتها وجه رجل بصورة دقيقة، سوى الوجه المتجهم أبيها، حتى أبناء الأعمام كان لا يُسمح لهم بزيارة البيت. «مسكينة يا سعاد، حقاً إنّك عذراء طاهرة وبريئة». ترى هل تعتبر مادلين ايضاً طاهرة مثلها بعد ان اعترفت عند القس، وأفرغت بكل ما في صدرها من الأسرار؟ هل تستطيع أن تحافظ على وعدها بعدم مضاجعة رجل؟ واذا جاءها الشيطان في الحلم وضاجعها رغم أنفها فمَنْ يتحمّل المسؤولية؟. هل ينبغي عليها أن تركض لكل صغيرة وكبيرة الى القس، الذي تكاد نظراته تلتهمها التهاماً؟. ماذا ستقول له اذا جاءها ذات يوم طالباً منها حصته؟. أليس هو أيضاً رجل ككل الرجال الآخرين. أين هي نائلة الآن كي تعلق على القس، فهي ما ان تنظر في وجه الرجل وأي رجل تقيس اولاً طول أنفه، وبعد ذلك تضعه في إحدى خاناتها الثلاث المخصصة. كلا، إنّها ستظل وفية لوعدها، حتى اذا دنت نفس القس، فإنّها ستصفعه على وجهه ليثبت للمسيح إخلاصها. نظرات المسكينة سعاد تقطر جنساً، لكنها لا تعرف ما هو الجنس.

أمسكت بيد مادلين وراحت تضغط عليها بقوة، أحست مادلين برعشة خفيفة، أعقبها خدر لذيذ، تذكرت رستم، شهقت بعمق وضغطت هي الأخرى على يد سعاد. في هذه اللحظة تذكرت كرسي الاعتراف، وكادت تسحب يدها، بيد انها تأكّدت بأنها انما تعهدت بعدم ايجاد العلاقة مع الرجل وليس مع المرأة، فلا بدّ ام مريم العذراء تفهم مثل هذه المسائل وتغفر لها ذنوبها الصغيرة. وكانت أنامل سعاد تداعب ساق مادلين بحرية بعد ان تأكّدت من تجاوبها. وأمّا مادلين فاجتاحتها رغبة عنيفة في المضاجعة. قالت وهي تهم بنزع ملابسها: «سعاد، أغلقي الباب رجاء». أجابت هذه وهي تكاد تلتصق بها: «الباب مغلق، لا تخافي». تعرّت مادلين بسرعة واستلقت على الفراش قائلة: «هيا انزعي ملابسك، ماذا تنتظرين؟». احمر وجه سعاد وراحت ترتعش، قائلة بصوت مرتجف: «هل من الضروري أن أنزع كل ملابسي؟». ساعدتها في نزع ملابسها قطعة فقطعة وهي تقول «أعرف أنك عذراء يا سعاد، لا تخافي إنني لا أغتصبك. كانت سعاد قد أغمضت عينيها واستسلمت لها كلياً. وراحت مادلين تدير لسانها حول الحلمة المنتصبة وهي تفكر في آخر مضاجعة في حياتها.

٥

بعد محاولة دامت أكثر من يومين تمكّن رستم من اللقاء بمادلين. كان لقاء فريداً من نوعه لم ينسه إلى الأبد، فبعد أن تمكّن من ايصال الخبر إلى مادلين عن طريق أهل صديقه المسيحي، أعلمته هذه بأنّ الامكانية الوحيدة للقائهما هي في الكنيسة. وتمّ الاتفاق على أن يأتي رستم بصحبة أهل صديقه في يوم الأحد ويجلس بجنب مادلين كما لو ان الصدفة التي جمعتها. وأبى رمزي وصائب إلاّ أن يحضرا بدورهما أيضاً. وأراد صاحبهم المسيحي أن يبرّر حضورهم قدّاس الأحد أمام القس بأنهم من مسيحيي كركوك، بيد ان القس أكّد له بأن أبواب الكنيسة مفتوحة حتى لغير المسيحيين. وتساءل رستم في نفسه ما اذا كان لغير المسلم الحق في دخول المسجد، ولكنه لم يجد الجواب.

كان رستم يكاد لا يصدق انه جالس في الكنيسة، التي لم يسبق له ان رآها من قبل، كما وان جلوسه الى جانب مادلين الراهبة، كان أشبه بحلم. راح يجيل نظراته بين المسيح المصلوب، الذي يطل عليهم بخشوع، والايقونات وعيون مادلين التي تجلس الى جانبه كما لو انها ملاك نازل من السماء. كان أسير قدسية غريزية، خيّمت على مشاعره، وجعلته يتيه في عالم، ذكره بتلك اللحظات التي قرأ فيها سورة يس على روح جده زوراب. كانا يلتفتان الى بعضهما ويتهامسان. وعندما انتهى القس من مراسيم القداس، بدأ الحاضرون بترك أماكنهم، فبقيا هما يتحدثان بدون حذر، فأخبرته بأنها ستباشر عملها في مستشفى المجيدية بكركوك في بداية شباط ١٩١٣، وانه يستطيع زيارتها هناك بدون أي صعوبة. وتوادعا أمام باب الكنيسة دون أن يمس أحدهما الآخر. كان رمزي وصائب، قبل دخولهما الكنيسة، يعتقدان انهما سيحولان مجمل المشهد الى مهزلة للضحك على رستم والتندر بلقائه بمادلين، بيد انهما، ما ان تركا الكنيسة ظلاً صامتين لفترة غير قصيرة، ولم يبدآ بالحديث، إلاّ بعد ان افتتح صائب كلامه قائلاً: «يا جماعة هذا دين حضاري، ينبغي أن نتأمل أسسه بدقة». علّق رمزي: «دعنا الآن يا صائب من الفلسفة، يجب علينا أن ندبر أمورنا للعودة الى كركوك». لم يتكلم رستم طوال الوقت. كان شارداً ساهماً، تلف أحاسيسه غلالة من الحزن العميق.

٦

ما ان مرَّ عامان على تعيين رستم معلماً في مدرسة السنجق الابتدائية، إلاّ وراح الناس يعتقدون بأن نهاية الدنيا قد اقتربت، وبأن يوم القيامة آتٍ لا محالة. وقبل ان تصل غيوم الحرب السنجق فوادي كفران وكل المنطقة، بدأ الناس يتحدثون في كل مكان عن الأخبار المتضاربة والاشاعات. كان معظمهم يرى في مجمل العملية جهاداً في سبيل اللّه والاسلام ضد الكفار الأجانب من الانكليز وغير الانكليز الذين يريدون احتلال البلاد. وتناقلت الأيدي ورقة، قيل انها مرسلة من السماء الى البشر، بواسطة إمام اليمن، تنذر الناس أو بالأحرى تبشرهم بقرب حلول يوم القيامة، ومن أراد أن يكون من أصحاب الجنة فعليه أن يستنسخها ويوزعها على أوسع نطاق. وعندما جرى الحديث عن وجود قتال عنيف بين المسلمين والمسيحيين، خاف الموظف الأرمني كريبت من أن يعتدي عليه أحد الجهلاء، فذهب الى عاصم بك، الذي طمأنه باستحالة حدوث مثل هذا الشغب في السنجق. كما خاف اليهود على حياتهم وأموالهم، فشكلوا وفداً التقى عاصم بك، الذي تعهَّد أمامهم بتحمل مسؤولية كل ما يقع في البلدة. وراحت لجان الاتحاد والترقي تنتشر في كل مكان وتطالب الناس بالجهاد في سبيل اللّه وشرف الدولة، الذي هو الوقت نفسه شرف الاسلام. وجرى نقاش طويل وعريض بعد خطبة يوم الجمعة بالجامع حول ما اذا كان شرف الدولة هو فعلاً شرف الاسلام؟. وكان إمام الجامع يقول ما تمليه عليه الحكومة. ولأول مرة يحدث في حياة جامع السنجق أن يقوم أحدهم من مكانه ويُعارض الامام في كلامه قائلاً بسخرية: «ما افتهمنا يا ملا كنت تمدح السلطان الجائر عبد الحميد وتعتبره ظل اللّه على الأرض، واليوم تقول انه زنديق كافر وتمدح السلطان محمد رشاد وتعتبره ظل اللّه على الأرض. لا ندري مَنْ هو الظل الحقيقي للّه على الأرض». ثم نهض أحدهم وقال بحدة" «ان مجرد القول، ظل اللّه، هو كفر والحاد، ذلك لأن اللّه نور والنور لا ظل له». وراحت كلمات البسملة والاستغفار والتوبة تتصاعد في أرجاء الجامع، وارتبك الملا وراح يخاف على مهنته التي هي مصدر عيشه. وتدخل بعض كبار السن، طالبين ايقاف مثل هذه المجادلات التي لا تليق ببيت اللّه. وانقسم الناس إلى قسمين، قسم يريد قول الحق وجعل بيت اللّه منبراً له، والقسم الآخر، وهو الأكثرية المطلقة، يرفض تلويث قدسية الجامع بكل ما له علاقة بالسياسة المقيتة. أمّا الموظفون. فكانوا يلتزمون الصمت، وهم في كل الأحوال لم يكونوا من رواد الجامع، سوى نفر قليل يحاول اثبات وجوده في صلاة الجمعة فقط. بعد صدور الأوامر المشدَّدة من الحكومة بتنفيذ قانون تجنيد الاحتياط وسوق الجميع

للانخراط في الخدمة العسكرية من أجل الجهاد في سبيل الاسلام، والتي رافقتها حملة اعلامية مرعبة، مفادها ان كل مَنْ تسول له نفسه في الوقوف ضد ارادة الجهاد، يكون مصيره مثل مصير أولئك الذين شُنقوا وعلِّقت جثثهم في شوارع الموصل وكركوك. جرى اجتماع كبير في مقر القائمقام، حضره ممثلو كافة العشائر، من داخل السنجق حضر عاصم بك بملابسه العسكرية، اذ انه أُعيد إلى الجيش مع عدد كبير من الضباط المتقاعدين، وكذلك الموظفون بملابسهم العسكرية، بعد ان شملهم قانون الاحتياط، اعتبروا ضبّاطاً مهيئين للالتحاق بالجيش في أي وقت تقرّره الدولة، وكان اليوزباشي يقوم بتدريبهم يومياً. امتلأ شيخو زهواً حين رأى رستم بملابسه العسكرية، وراح يتكلم بحماس عن الامكانيات البشرية والمادية التي سيقدمها وادي كفران للجبهة، وكان ان حفز بذلك رؤساء العشائر الآخرين للتسابق في خدمة الجهاد. وما ان مرت الأيام والأسابيع، إلاَّ وبدأت فصائل الجيش بعرباتها ومصفحاتها ومدافعها وبغالها المحملة بالعتاد والذخيرة تتوجه الى ولاية بغداد. كان ثمة شعوران متناقضان يطغيان على الناس، شعور بالحماس وشعور بالخوف. كانت الفصائل لا تمرّ مر الكرام، بل تستقطع من خبز الناس وتأخذ معها الرجال القادرين على حمل السلاح.

خاف الناس على أولادهم وأموالهم. وكان الشيوخ الكبار يفضلون الذهاب الى جبهات القتال على أن يرسلوا أولادهم اليها. وعندما اشتدت الشائعات بقرب حدوث مذابح ضد العناصر غير المسلمة، صار كربيت يتنقل بين البيت والدائرة فقط ولا يتردد حتى على نادي الموظفين القريب من بيته. وامَّا اليهود فأغلق قسم منهم دكاكينه وانزووا في بيتهم، في حين ظلَّ القسم الآخر لا يأبه بما يقال. وجرت حادثة مقيتة في إحدى القرى استفزت مشاعر الناس البسطاء، وجلبت العطف على اليهود، الأمر الذي جعل القسم المنزوي يعود الى فتح دكاكينه. كان الحادث، الذي أصبح حديث الناس لفترة غير قصيرة، عبارة عن عملية غدر لا يقوم بها إلاَّ جبان، كما عبَّر عنها أهل القرية التي جرت الحادثة بالقرب منها، اذ راح أحد الفلاحين يترصَّد اليهودي عزرا، وهو بائع متجول فقير له عائلة كبيرة، يبيع اللبان والأبر والخرز والحنَّة مقابل البيض والدجاج، إلى ان فاجأة في مكان بعيد عن الناس وهجم عليه ذابحاً إيَّاه. وسطا القاتل على حماره وبضاعته القليلة هارباً الى جهة مجهولة. وقيل ان بقعة الدم ظلَّت لسنوات طويلة دون ان تزيلها الأمطار. واضطر الفلاحون لترك ذلك الطريق الضيق الواقع وراء تل مطل على واد، اذ ان شبح اليهودي كان يظهر لكل عابر سبيل سواء في النهار او في الليل، مرة واقفاً على التل، وأخرى واقفاً في اسفل الوادي. وأكَّد بعض الفلاحين بأنهم رأوه بأم أعينهم وهو يقطع عليهم الطريق، ويقول بصوت خافت: «أين دمي... أين دمي؟».

ظلَّ وادي كفران الجبل مغلقاً على نفسه كالعادة، ورفض كريم أن يقوم بأي احتكاك بالسنجق.

وحين جاءه اليوزباشي بنفسه محاولاً اقناعه، بأن الأمر هذه المرة يختلف اختلافاً كلياً عمّا كان عليه قبل سنوات في زمن والده المرحوم زوراب، وان الدولة إنّما أعلنت الجهاد ضد الانكليز الذين يريدون احتلال البلاد والقضاء على الدين الاسلامي الحنيف، أجابه بكل هدوء وأدب بأنه مستعد ان يذهب الى أي مكان من أجل الجهاد في سبيل الله والتضحية بحياته، واما ان يزود الدولة بالرجال والأموال فمسألة غير واردة بتاتاً، اذ ان وادي كفران لا يملك سوى بضعة شيوخ ونساء وأطفال صغار، واذا كان لا يصدق كلامه فعليه ان يقوم بجولة في القرى ويدخل البيوت بنفسه ليتأكد ما اذا كان كلامه صحيحاً أم لا. وكان اليوزباشي، بحكم علاقته الطويلة بالعشيرة، يعرف جيداً بأن كريم، بخلاف أخيه شيخو، يسير على نهج زوراب الذي رفض ان يقدم جندياً واحداً او طغاراً من القمح للدولة. ولما كان اليوزباشي من مؤيِّدي الاتحاد والترقّي ومن المتحمسين للوضع القائم ومن المستفيدين منه، كما ان التجربة المريرة التي عاشها في حينه بسبب تساهله مع العشائر، التي أدت به الى الفصل والسجن، جعلته يتكلم مع كريم بلهجة أخرى ملؤها التهديد والوعيد وعرف كريم من أخيه شيخو بأن عساكر الجندرمة تحتاج الى المؤن والذخيرة والرجال وأنها ستسلك طريقاً واحداً يمر عبر وادي كفران السهل، وانها لن تنحرف عن الطريق مهما كان السبب، بدليل ان الحكومة أخذت تعهدات من رؤساء العشائر للمحافظة على مؤخرة الجيش من هجمات اللصوص ولاسيما في الليل. ولذلك كان كريم مطمئناً بأن الحكومة في وضع لا يسمح لها بشن الغارات على العشائر، ثم ان شيخو نفسه قد تعهد بالحفاظ على الطريق المار بوادي كفران السهل. وهكذا استقبل كريم تهديدات اليوزباشي ببرود وسخرية. لم يبقَ لليوزباشي إلاّ ان يقول: «وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين يا كريم أغا. اذا جاءك الجندرمة وحولوا منطقتك الى خراب فلا تعاتبني أنا».

أما حقيقة الأمر والمسائل التي جرى بحثها بالتفاصيل، وما تمّ الاتفاق عليه وما لم يتم داخل وادي كفران بسهله وجبله، فلم يعرف بها أحد من خارج العشيرة، فبعد انتهاء اعمال الاجتماع الواسع الذي دعا اليه القائمقام، عاد شيخو الى قرية زوراب بصحبة كل من رستم ورمضان ومردان. في الاجتماع الواسع لم يتكلم رمضان، بل كان ينتبه بكل دقة لكل ما يقوله شيخو، الذي بدا كما لو أنه الساعد الأيمن للقائمقام، واستغرب لاندفاعه وتعهداته، التي اذا نفذت فعلاً، فإنّ وادي كفران السهل سيتحول الى خراب. في طريق العودة أراد رمضان ان يعلق على الاجتماع ثم يتناول موقف شيخو الذي يتعارض كلياً مع وصية المرحوم زوراب، لكنه آثر الصمت، ربما احتجاجاً، لذلك بدا، على غير عادته، ساهماً شارداً. رستم، الذي هو الآخر لم يتكلم في الاجتماع، استغرب ايضاً لموقف عمه شيخو، الذي وضع نفسه بدون قيد أو شرط في خدمة الدولة، لكنه، مع ذلك، اعتقد ان الأمر ربما فيه مصلحة العشيرة. وليس من الضرورة أن تسير الأمور كما كان

يريدها جدّهم زوراب، ثم ان شيخو لم يخطُ حتى خطوة خاطئة من شأنها إلحاق الضرر بالعشيرة. ولعل تأكيده في الاجتماع، مراراً وتكراراً، بأن عشيرة وادي كفران لم تعد منطقة واحدة، بل منطقتين، وانه لا يتحمل مسؤولية وادي كفران الجبل، كانت فكرة غير خاطئة. مَنْ يدري، ربما له خطته التي لا شك ستكون في صالح مصير العشيرة. وعندما سُئل عن الشخص المسؤول عن وادي كفران الجبل، أجابهم بأنّه أخوه كريم. وأمّا سبب غيابه فهو لعدم تبليغه بموعد الاجتماع. وطلب القائمقام الى اليوزباشي ابلاغه بالاعتذار، دون الاستفسار عن سبب عدم التبليغ. كانت ثمة أسئلة تدور في رأس رستم حول الإجراءات التي ستتخذ فعلاً لمساعدة الجيش إلاّ انه لم يجد الجرأة الكافية للمبادرة بالكلام، ولاسيما انه، هكذا اعتقد في نفسه، آخر مَنْ يحق له الحديث في مصير العشيرة التي تركها كي يشتغل في مهنة التعليم بالسنجق، فهو بدل الحديث في أمور العشيرة عليه الاعتناء بالأولاد الصغار. كان شيخو، كعاته، يعرف ما يدور في رأس رمضان، فما ان يقطب هذا جبينه ويغادره مرحه الدائم، إلاّ وتدور في رأسه أسئلة انتقادية، او يفكر في موضوع غير مريح. ولكي يعرف بالضبط ما يدور بذهنه سأله عن رأيه في مجمل الاجتماع. علق رمضان بتهكم: «الاجتماع جعل من الدنيا ربيعاً لم يحلم به القائمقام، وسنبدأ من الآن فصاعداً بجني ثمرة الفرمان. اللّه يرحمك يا زوراب، وأسكنك فسيح جنانه». ضحك شيخو قائلاً: «وأنت يا رستم أفندي، كيف وجدت الاجتماع؟». أجاب رستم فوراً: «أنا في الحقيقة يدور في رأسي نفس ما قاله عمّي رمضان». صمتوا لهنيهة، كان لا يسمع فيها سوى وقع حوافر الخيول الجانحة للسرعة. علق شيخو مبتسماً، وهو يجيل نظراته بين قرية زوراب التي بدأ بالظهور، وامتدادات اراضي وادي كفران السهل، التي تختفي وراء الأفق الشرقي، حيث وادي كفران الجبل: «أفهمكما جيداً وأعرف ماذا تريدان، لو كنت مكانكما لقلت الكلام نفسه». أرخى زمام حصانه، ضارباً بطنه بعقبيه برقة قائلاً: «الآن، هيا نتسابق». وانطلقت الخيول الأربعة تاركة وراءها غيمة من الغبار. كان حصان رستم، هو الأول الذي بلغ نهر روخانه ثم تبعه حصان شيخو ورمضان فمردان. علّق شيخو: «المدينة لم تؤثر عليك يا رستم أفندي، انّني فخور بك حقاً».

بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء الذي حضره الجميع، بدأ شيخو بالكلام، وكعادته لم يطل فيه، قدّم عرضاً موجزاً للاجتماع، وموقفه هناك، وكيف ان الوضع الآن يختلف عمّا كان عليه الأمر سابقاً والمسألة المهيمة التي أكّد عليها، والتي هي جديدة عليهم، هي الجهاد في سبيل الاسلام وردع الكفار الانكليز الذين يريدون احتلال البلد ودوس حرماته. عندما انتهى من كلامه، سكت هنيهة وراح ينقل عينيه في وجوه الجالسين واحداً واحداً: سنجان، كريم، رمضان، ميرزا، حمه غريب، هابو، السيد، الملا أو الأسطة حسين علي، قادر، عباس ومردان... في البداية

أراد كل من السيد والملا حسين علي ومردان الانسحاب من الاجتماع بحجة انه اجتماع عائلي محض، بيد ان شيخو أشار لهم بالجلوس ومناقشة مصير العشيرة، مؤكداً بأنهم لا يختلفون عن أي عضو آخر في العشيرة وبأنهم من أصحاب البيت الحقيقيين. وقبل ان يعطي المجلس الكلام، أضاف بأن ما قاله هناك شيء وما سيتفقون عليه هنا شيء آخر. كان كريم وشيخو قد التقيا قبل سفر الأخير الى السنجق واتفقا فيما بينهما على توزيع بعض الأدوار المصيرية بالنسبة الى العشيرة، منها، بقاء وادي كفران الجبل محصناً وبعيداً عن أي احتكاك بالدولة ونقل الشباب والذخيرة والحيوانات والأسلحة الى هناك، والتهيؤ للانسحاب الى الجبال في أي لحظة، كما وأكدًا على أيجاد الصلة السريعة والمستمرة بأبناء عمومتهم وراء جبل بناركل للاستفادة من موقعهم المحصن الذي لا تطاله أية يد. وعندما اتفقا على عقد الجلسة هذه بعد عودة شيخو من السنجق، قرّرا أن يكونا حذرين في كلامهما، ذلك لأن بعض الألسن الثرثارة لا يمكن ضبطها، مثال ذلك حمه غريب او غيره.. أراد حمه غريب أن يثير ضجة مفتعلة بخصوص أهمية الجهاد وإبادة كل من لا علاقة له بالاسلام واقترح أن يبدأوا بالجهاد فوراً، بل واعتباراً من هذه الليلة وذلك بذبح اليهود في السنجق وابادة عشيرة البابائيين الذين لهم موقفهم المتحفظ من الجهاد، وخوفاً من أن يجد هذا الرأي تجاوباً عند ميرزا وهابو أو حتى عند قادر وعباس، التفت شيخو الى الملا أسطة حسين علي قائلاً له بصوت خافت: «ألا تُسكت لي هذا الأحمق يا أسطة علي؟». قال الأسطة حسين علي بعتاب: «كاكه حمه غريب آغا، أنت درويش ومؤمن، متى أعطاك اللّه الحق في قتل الأبرياء؟ هل هذا هو فهمك للجهاد؟ ثم هل نسيت أن البابائيين أصبحوا من نسبائنا؟ اذا بدأنا أعمالنا بهذه الطريقة، فلنقرأ السلام على وادي كفران». علّق رمضان بحدة: «قلت لك يا حمه غريب آغا مراراً وتكراراً فكّر قبل أن تتكلم، ألا تقول لي لماذا أعطاك اللّه رأساً؟». أراد كريم قلب الصفحة فطلب من ابنه رستم ان يفسر له معنى الجهاد حتى يتخلصوا من التأويلات الشخصية التي قد تؤدّي الى حماقات هم في غنى عنها. وراح رستم يذكر بعض الآيات القرآنية مؤكداً بأن الجهاد الذي تدعو اليه الدولة، انما موجه ضد العدو الخارجي المتمثل بالانكليز الذين ينوون احتلال البلد. علقت سنجان باعتزاز: «الحمد للّه يوجد عندنا في العشيرة عقلاء». أراد السيد ان يضم صوته هو الآخر الى أصوات العقلاء: «اللّه يرحمك يا زوراب، واللّه ما تركت وراءك غير أولاد عقّل».

أمّا ميرزا وهابو فمن كثرة ما أهانهما رمضان بتعليقاته الساخرة، واسكاتهما بمناسبة وغير مناسبة، فتعقدا، لذلك فضّلا السكوت، ولاسيما ان العبارة التي يردّدها حسين علي دوماً والتي تقول «السكوت من الذهب» قد اعترفا بها رغم أنفهما. وأدرك كريم ان دوره جاء كي يتكلم، قال: «الحقيقة، نحن في وادي كفران الجبل، ليس لدينا سوى نساء وشيوخ، فإذا كانت الدولة تريد

ارسالهم للجهاد، فأنا لا مانع لدي. ويؤسفني انني لا أستطيع تزويد الدولة بقزناغ واحد من القمح، وأما ما يتعلق بالأغنام، فإنٍ مرض الاسهال اللعين قضى على آخر رأس خروف». وبعد فترة صمت قصيرة، أضاف: «أنا شخصياً مستعد للذهاب إلى الجهاد، ليس لأن الدولة تريد ذلك، بل لأن واجب الدين يفرض ذلك». علَق السيد: «كلامك شكر يا كريَم، اللّه يطوّل عمرك». بعد أن تشاور عباس وقادر بينهما، تساءل الأخير: «ألاً تقول لنا يا عمّي شيخو متى يأتي إلينا هؤلاء الانكريز، وأين هم الآن؟». في الواقع كان شيخو لم يفكر في هذا الشيء، ولا خَطَر بباله انه سيواجه بمثل هذا السؤال، قال ضاحكاً وملتفتاً إلى رستم: «واللّه هذا السؤال فوق طاقتي يا ابن أخي قادر، فلنسمع ما يقوله رستم أفندي». وراح الجميع يصوبون نظراتهم الى رستم الذي كان لا يزال جالساً بملابسه العسكرية. قال رستم وهو يلعب بطربوشه ويستذكر ما كان يقوله مدرس التاريخ والجغرافية: «الانكليز يا ابن عمّي قادر، امبراطورية لا تغيب الشمس عن أراضيها إنًها في الأصل دولة صغيرة جداً، ولكنها معظمة، وأمًا متى سيأتون، فهذه مسألة سيحسمها السلاح وتكنيك القتال. المعلومات التي وصلتنا موخراً تؤكًد ان الحرب ربما ستطول، ويبدو ان الانكليز قد حشدوا قواتهم في الهند، وهم الآن في طريقهم الى ولاية البصرة».

كان بود رستم أن يطيل في كلامه، ويشرح العديد من المسائل المتعلقة بالحرب العالمية ومصالح الدول، ولكنه عرف انهم في واد آخر، وانه سيدخل دوامة، لا يمكن الخروج مهما بسهولة. ها انه، رغم جوابه القصير، ينجر فعلاً إلى متاهة لا مخرج لها: حمه غريب يريد ان يعرف ما اذا كان الانكليز هم عرب أم أتراك؟

الملا أسطة حسين علي يعرف ان هناك امبراطورية انكليزية، وامًا ان الشمس لا تغيب عن أراضيها، فمسألة يحب أن يفهمها. ميرزا، سمع بإسم البصرة ويعرف بأن الحجاج عند زيارة الحج يجب أن يمروا من هناك، وان التمر الجيد يأتي من هناك، لذلك يحب أن يسمع المزيد عن هذه المدينة التي يُقال انها تطل على البحر. هابو، أراد ان يعرف ما هو البحر. رمضان، الذي اضطر ان يأخذ الأمور هذه المرة بجد، يريد ان يعرف شيئاً عن هندستان وعن صلة الانكليز بالهندوس. السيد جواد، يريد ان يعرف ما اذا كان الانكليز رُحًل، أم لهم قراهم الخاصة بهم؟. وراحت الأسئلة تتكاثر كتكاثر الجراد. عرف رستم ان الأسئلة هذه المرة جدية حقاً، عرف ذلك بعد ان كان يدقّق في وجه صاحب السؤال، فهؤلاء الخبثاء الذين كانوا فيما مضى لا عمل لهم سوى التندر وخلق المقالب وعدم تصديق أي كلام غريب عن واقعهم، بدأوا الآن يختلفون عمًا كانوا عليه سابقاً انهم على الأقل راجوا يستمعون إلى الكلام الجديد، دون نبذه بتعليق ساخر. ورأى رستم ان الكلمة الوحيدة التي تجعلهم جدًيين الى درجة الخوف والتي تثير عندهم فضولاً حقيقياً، هي كلمة الحرب. ومن حيث يريدون أو لا يريدون، ارتبطت عندهم هذه الكلمة بآخر الزمان وحلول يوم القيامة وظهور الدجال. وراح رستم يقارنهم بتلاميذ مع الفوارق في نوعيه الأسئلة ودرجة

الاستيعاب. ومع مرور الأيام والأماسي التي تحولت الى ندوات لبحث شؤون الحرب والدنيا، أصبح رستم هو المرجع الوحيد الذي يعرف كل شيء. كان جميع أفراد مجلس العشيرة، رغم مخاوفهم الجدِّية، لا يعتقدون ان مكروهاً سيحل. كانت وتيرة الحياة السابقة لا زالت مهيمنة على حياتهم، وكانوا يعتقدون ان هذه الوتيرة ستظل تستمر، ذلك لأنها جزء لا يتجزأ من سنَّة الحياة.

كان مجلس شيخو بأعضائه التقليديين، هو لولب العشيرة، فإن لم ينعقد، لسبب ما، مرتين في اليوم، فيجب أن ينعقد مساءً في كل الأحوال. المجلس هو نافذة تطلّ على العالم، والعالم بدونه غير موجود. انه مركز مهم ومصيري في آن واحد، فبدونه لا يمكن لوادي كفران أن يتواجد. ان زواله يعني زوال وادي كفران، واذا زال وادي كفران، لا سمح اللّه، من الوجود، فيعني ذلك نهاية العالم وحلول يوم القيامة.كان زوراب يدرك هذه الحقيقة جيداً، ولذلك كان يصون وادي كفران كصيانته لعينيه. ولكن يبدو ان الأمور بدأت الآن تتغير تغيراً كلياً وسريعاً، ولم يعد بإمكان المجلس حسم الأشياء كما يشتهي. لقد شعر بذلك حتى رمضان وميرزا وهابو وحمه غريب، لذلك بدأوا يدركون أنهم لا قيمة لهم بتاتاً، وراحوا يعلِّلون ذلك بسبب رحيل زوراب. حتى ان السيد جواد لم يتحمل الوضع، فعلق ذات يوم قائلاً: «من يوم جعيان مثل قادر وعباس يحضرون بالمجلس، تاهت الأمور». والحقيقة أن قادر وعباس كانا لا يأخذان أمور المجلس بجدية، ويحاولان دوماً البحث عمَّا من شأنه ادخال السخرية في مجمل الجو الذي فقد أهميته، في نظرهما، بعد رحيل زوراب. حتى ان ميرزا والسيد لم يتخلصا من تعليقاتهما. وأمَّا هابو وحمه غريب فكانا يشكلان عندهما مادتين خصبتين للتندر، ولاسيما في غياب شيخو، يسندهما في ذلك رمضان.

ذات يوم دعا القائمقام شيخو الى السنجق وطلب اليه بحضور اليوزباشي، تنفيذ ما تم الاتفاق حوله في الاجتماع الواسع، والذي يتلخص فيما يلي:

١ - تهيئة الرجال القادرين على حمل السلاح وتدريبهم على استعماله من قبل عريف سيأخذه معه شيخو الى القرية. وسيُسمَّى الفصيل بـ «فصيلة فرسان وادي كفران». يكون القائد الفعلي للفرسان شيخو نفسه، على أن يكون العريف مساعده للشؤون العسكرية.

٢- تزويد الحامية المرابطة في السنجق بعشر أوقات لحم بقر يومياً.

٣- تكون حصة وادي كفران عبارة عن عشرة قزناغات قمح وعشرة قزناغات شعير، تُدفع شهرياً للحامية أو للوحدات المتوجهة إلى الجنوب.

٤- تبقى هذه الاتفاقية نافذة المفعول لحين انتهاء الحرب، التي سينتصر فيها الاسلام على الكفار الأجانب بعونه تعالى.

٥- كل اخلال بهذه الاتفاقية يعتبر خيانة للدين والدولة واساءة بحق الجهاد، الأمر الذي يستحق الاعدام رمياً بالرصاص بدون أي رادع.

كان العريف رجلاً تبدو عليه اللامبالاة والتعب، لم يتجاوز الأربعين، يتميّز وجهه الطويل بشاربين عريضين، يغطيان فمه، وينتهيان بذيلين ملفوفين مثل ذيل عقرب. وكان حاجباه الكثيفان، اللذان يتطاير شعرهما الأشعث الى كل الاتجاهات، يغطيان عينيه الذابلتين اللتين يفتحهما بالكاد في ضوء النهار. طول الطريق من السنجق الى قرية زوراب لم ينبس بكلمة. حاول شيخو عدة مرات ان يستدرجه الى الكلام ولكنه لم يفلح. بعد الانتهاء من طعام الغداء، عادت الحيوية الى العريف سعدالّله، وراح يمسح شاربيه بعناية ويلف نهايتيهما بأنامله، متحدثاً دون انقطاع عن المعارك التي ساهم فيها. وحين قال انه قطع المسافات من روسيا والصرب واليونان الى الشام وفلسطين، قال السيد: «عفارم عليك يا عريفنا، قاطع الدنيا كلها بالمشي».

في اليوم الثاني، وبعد تناول طعام الفطور، طلب العريف سعدالّله احضار المتطوعين للجهاد. ذهب كريم لإحضار الجماعة وأمّا شيخو والعريف، فخرجا يتمشيان في ساحة الدار للبحث عن مكان ملائم للتدريب. كانت شمس تشرين الأول في السماء الصافية الزرقاء تبعث الدفء، وتزيل آثار البرد الذي خلفه الليل. وكان الهواء مشبعاً بالرطوبة التي لا تزال تتصاعد من الحقول التي سقتها الأمطار الغزيرة قبل أيام. سأل العريف سعدالّله ما اذا بإمكانها الصعود الى سطح الدار لإلقاء نظرة الى المناطق المحيطة بالقرية. قاده شيخو الى برج المراقبة الذي يسكنه عادة مردان، وعندما وقفا فوق سطح البرج، قال العريف وهو يراقب البيوت والمناطق المحيطة بهم بعناية: «البيت مبني بطريقة عسكرية يا شيخو بك، انه حصن، هل لك أعداء تخاف هجماتهم؟». ضحك شيخو: «في الوقت الحاضر لا يوجد لدينا أي عدو». مسح العريف شاربيه: «الحمد للّه». تذكر شيخو اليوم الذي جاءهم فيه اليوزباشي قبل أعوام، بالذات في عام «أطول عام»، وكيف ان والده المرحوم زوراب جرّه الى زاوية وضع في يده عدة ليرات ذهبية، استطاع بواسطتها غلق باب وادي كفران في وجه الدولة، قائلاً فيما بعد: «الكوة التي تأتيك منها الريح، اغلقها». وهذا العريف الغامض الذي يمثل الدولة بكل ما فيها من اثم وجشع وغدر، يمكنه ان يخلق العديد من المشاكل ان شاء. الدولة ارسلته خصيصاً كي يقوم بتدريب المجاهدين لإرسالهم فوراً الى جبهة القتال، ولكن أين هم المجاهدون؟. هل يجوز ان يخلو وادي كفران من الشباب؟. عندما هبطا السلم قال العريف: «ثق بالّله العظيم يا شيخو بك، إنّني أحسد أفقر فلاح يعيش هنا، إنّنا في الجيش نعيش مثل الكلاب». رأى شيخو انه اقترب من هدفه، قال: «أنت الآن يا جناب العريف في بيتك، يمكنك أن تبقى هنا الى ما شاء الّله، نعطيك قطة أرض ونعاملك كأي واحد من أفراد العشيرة». ارتفع حاجبا العريف بدهشة، مدَّ يده الى شاربيه يمسحهما وقال: «هذا حلم يا شيخو بك، انه صعب المنال». تنفس شيخو الصعداء وتساءَلَ «لماذا يا جناب العريف؟». «لأنني جندي

خاضع للأوامر، يجب أن أذهب الى حيث ترسلني الدولة، اليوم هنا وبعد اسبوع يجب ان ألتحق بفصيلي وأتوجه الى الجنوب. اننا يجب ان نطرد الانكليز من البصرة». كان شيخو يعرف أشياء كثيرة، او هكذا كان يعتقد، واما ان يبقى هذا العريف لمجرد اسبوع في قريته، وبأن الانكليز قد احتلوا البصرة، فكان في الواقع لا يعرف بهما. اذا كان هذا سيبقى فعلاً اسبوعاً واحداً عنده، فلا خوف منه، ومهماته اذن تنحصر في التدريب حسب لا غير. قال شيخو باطمئنان:

«ستنتهي الحرب بانتصار أمَّة محمد انِ شاء اللّه، وتعود الينا سالماً». ضحك العريف سعداللّه بسخرية وقال «نستطيع ان نتحدث عن كل شيء يا شيخو بك، واما عن الانتصارات فلا، ان بلادنا قد تحولت الى كرخانة، يدخلها مَن يشاء. هل تدري ان الانكليز قد دخلوا البصرة كما لو انهم يدخلون بيوت أهلهم؟ هناك خيانة في كل مكان يا شيخو بك». في الحقيقة لم يهم شيخو مصير الدولة، فسواء احتل الانكليز البصرة أم لم يحتلوها، الأمر سواء عنده، المهم ان شباب وأموال وادي كفران تبقى في مأمن من مخاطر الحرب. أراد شيخو ان يقول شيئاً لمجرد الكلام فسأل: «ولكن مَن هم هؤلاء الذين يخونون الدولة يا جناب العريف؟».

«الأرمن واليونان والعرب، تصور، حتى سادة مكة المكرمة راحوا يتعاونون مع الانكليز الكفار». قال شيخو كما لو انه يريد ان يصحّح خطأ: «ياجناب العريف، ان الذين ستقوم بتدريبهم، أُناس أُميُّون أشبه بعميان، لا يعرفون من أمور الدنيا أي شيء، ولذلك أرجو أن لا تُصاب بخيبة أمل».

«إنَّهم خير الناس اذن، وإلاَّ لما ذهبوا إلى الجهاد».

عندما حضر الجميع، ظلَّ العريف مستمراً على المشي في الساحة، يقطعها ذهاباً واياباً. وكان شيخو لا يريد ان يفسد عليه مشيته، التي اعتقد انها ضرورية له بعد تناول الفطور. واما الرجال، فظلوا واقفين، يتهامسون فيما بينهم ويقيسونه طولاً وعرضاً ويضربون الأخماس بالأسداد حول أصله وعشيرته، وتوصلوا بالاجماع، وذلك بعد تحليل نوعية شاربيه، بأنَّه لا شك على صلة بعشيرة البابائيين. همس رمضان في اذن شيخو: «ألاَ تقول لي يا ابن أخي من أين اصطدت هذا الهدهد؟». «اعملها في سبيل اللّه يا عمِّي رمضان واسترنا من تعليقاتك، لم أتعرف بعد على مزاج الرجل».

اعتبر شيخو مشكلة العريف محلولة، بقيت مشكلتان: الأولى، تزويد حامية السنجق باللحم، الثانية، تزويدها بالقمح والشعير. في جلسة خاصة مع كريم ومردان والملا أسطة حسين علي، طرح عليهم المشكلتين مؤكداً بأنَّ قضية القمح والشعير يمكن تدبيرهما، بيد ان المشكلة الرئيسية هي تزويدهم يومياً بلحم البقر. وها انه يلتقي بأخيه كريم الذي يبدو سعيداً جدا ولا شك انه يحمل له خبراً مفرحاً، جرّه كريم من يده منتحياً به إلى داخل المضيف وقائلاً له: «بحثنا مشكلة

لحم البقر، أنا ومردان والملا أسطة علي، لن نذبح عجلاً واحداً لهؤلاء الجندرمة الأوباش، لدينا بغال وحمير كافية. سيقوم مردان بعملية الذبح والسلخ بسريَّة تامة».

«ولكن، أليس هذا حراماً؟».

«كلا ، يجوز ذلك، يمكن أكل لحم الحمير والبغال في الحرب، كما يقول الأسطة علي حسين».

«واذا أرادوا الرأس؟».

«سنقول لهم إنّنا أيضاً نريد أن نعيش».

ذهب شيخو الى العريف سعدالله الذي كان يتمشّى على بعد عشرين خطوة منهم وأبلغه ان المجاهدين جاهزون للتدريب. أجال العريف عينيه الذابلتين في أنحاء الساحة وتساءل: «أين هم؟». أشار شيخو بيمناه الى الشيوخ قائلاً: «هؤلاء الواقفون أمامك يا جناب العريف». سكت العريف هنيهة، حكّ خلالها حاجبه الأيمن ثم راح يمسح شاربيه بانفعال: «ألأجل هؤلاء أرسلني القائمقام الى هنا؟».

قال شيخو محاولاً التغلب على احراجه: «لأجل مَن إذن يا جناب العريف؟». قال العريف بكل هدوء ولا أبالية: «المسألة كلها ضراط في ضراط يا شيخو بك، أنا سأقوم بواجبي في تدريبهم، مَن يدري، ربما سيحرِّرون ولاية البصرة من الانكليز». ثم راح يتوجه اليهم بخطوات وئيدة، يتدلّى على يساره حزامه الجلدي، الذي يكاد طرفه يمس الأرض. وقف على بُعد ثلاث خطوات منهم بوقفة شبه عسكرية وهو يجيل نظراته في وجوههم الفضولية، قال بلهجة آمرة:

«هل فيكم مَن تدرَّب على السلاح وعمل في الجيش؟».

أجاب الجميع بصوت واحد:

«كلا». همهم مع نفسه بصوت غير مسموع: «مسكينة الدولة العثمانية» ثم سأل: «هل فيكم مَن يعرف القراءة والكتابة؟». أجاب الملا أسطة حسين علي:

«أنا سيدي العريف». كان العريف نفسه لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يريد الافشاء بذلك، أخرج من جيبه قلماً وورقة قائلاً: «أمسك هذه الورقة والقلم وسجِّل لي الأسماء حسب الاصطفاف الذي سأرتبه الآن. وليعلم الجميع بأن الاصطفاف سيبقى على شكله، مع كل تدريب، دون تغيره». أراد ميرزا أن يقول شيئاً، ان رمضان ضربه بمرفقه، راجياً منه أن يسد فمه. وكان حمه غريب يحوص هو الآخر ويحاول الاقتراب من العريف، ولكن كريم، الواقف وراءه، دغه بقوة وسحبه من سترته.

«أنت ستكون الأول في الحضيرة يا شيخو بك، ولذلك ستقف دائماً على جهة اليمين، سجِّل الآن الاسم الأول على الورقة، وأرجو من كل واحد يأتي دوره أن يذكر اسمه الكامل بصوت عال». مسك أسطة علي القلم بعناية وانحى على الورقة قائلاً: «ألا تريد أن تذكر لي اسمك الكامل يا شيخو

بك؟». أجاب شيخو ساخراً:

«منذ متى وأنت تجهل اسمي يا ملا علي؟».

قال العريف سعدالله بأدب: «يجب أن تذكر اسمك بنفسك يا شيخو بك وبصوت عال».

صاح شيخو بصوت عال ومبتسماً: «شيخو زوراب». قال العريف باعجاب: «هكذا هو الصحيح». ثم راح يبحث عن رجل مناسب يوقفه جنب شيخو، ولما كان يعرف بأن مردان هو مرافقه الذي يتبعه مثل ظله، رأى من المستحسن ان يجعله الشخص الثاني، فطلب اليه أن يذكر اسمه، وصاح مردان:

«مردان مصطفى».

كان الملا حسين علي لم ينته بعد من كتابة اسم شيخو، فراح العريف يتباطأ في عمله. وعندما انتهى الملا حسين علي من نقش الاسم الخامس، والذي هو ميرزا رستم، انتهت الورقة. بحث العريف في جيوبه عبثاً. حاول شيخو ان يلتجئ الى صندوق رستم ، ولكنه كان مقفلاً والمفتاح معه في السنجق. قال العريف بهدوء «الغاية من كتابة الاسماء، هي الحفاظ على التسلسل لا غير، ولذلك يمكنك أن ترمي الورقة جانباً يا ملا».

كانت الأيام الثلاثة الأولى شاقة جداً، ولكن العريف سعدالله استطاع ان يعلّمهم خلالها بعض المبادئ الضرورية استعد، استرح، الى اليمين در، الى اليسار در، تنكب سلاح، انطبح. وكان أشق الأشياء اليهم، هو الهرولة. ورغم ان هابو وحمه غريب وميرزا كانوا يستبدلون اليمين باليسار والاستعد بالاسترح طول فترة التدريب، فإنّ العريف سعدالله كان يؤكّد دوماً بأنّ المهم في مجمل العملية هو استعمال السلاح، والاصابة الصحيحة والشجاعة. ولم يكن ثمة داع لمواصلة التدريب، اذ انهم كانوا يعرفون استعمال بنادقهم بشكل صحيح. وأما الأيام الأربعة الباقية، فجعلها العريف عطلة، يستحقونها جميعاً، بعد عملية التدريب الشاقة، قضاها هو أيضاً في مضيف شيخو.

٧

خلال فترة اقامته فى السنجق، علم رستم بأنً الحياة شيء آخر غير ما يمارسه المرء في وادي كفران. صحيح، انه حين يذهب الى هناك ويخلع بدلته الأوربية ليرتدي مكانها ملابسة الريفية البسيطة، يتغيّر كلياً، ويتحوّل الى ذلك الصبي المرح الذي لا يعرف من أمور الدنيا سوى حصانه وألعابه ومغامراته مع أبناء عمومته قادر وعباس وغيرهما. هناك، حيث الأشياء ثابتة ومتحجرة، لا بداية لها ولا نهاية كالأزل، يبدو كل شيء نقياً، عذرياً لا تشويه المظاهر. أما هنا في السنجق، وفيما مضى في كركوك او الموصل، فإنً الأشياء كانت ولم تزل تتحكم فيها مظاهر معينة لا يمكن التغلب عليها أو التأثير فيها. ومنذ اليوم الأول الذي باشر فيه بوظيفته، أحاط به المعلمون والموظفون الآخرون كعضو جديد فيما بينهم. وراحوا يقيدّون حياته بسلسلة من النصائح الأخوية: ضرورة ارتداء البدلة دائماً. شدّ الرباط على العنق، وضع الطربوش على الرأس، التأكُد من نظافة القميص، عدم الاختلاط بكل من هبً ودب من أبناء السنجق، وجود فئة معينة فقط في السنجق، يمكن للمرء ان يختلط بها، الانتماء الى نادي الموظفين، استعمال القسوة مع التلاميذ وعدم التساهل معهم او مع آبائهم، عدم الاشتغال في السياسة، الالتزام بالدوام والتقيُد بالأنظمة واللوائح...الخ... كان رأسه في الحقيقة قد حشي قبلاً بكل هذه النصائح، بل اكثر منها، امًا ان يلتزم بها في كل لحظة من حياته، فمهمة شاقة، ولكنه استطاع بِجِلَدِهِ أن يتغلب على الكثير من عاداته، التي كان يعتبرها صبيانية. ولعل الشخص الوحيد الذي أثر فيه فعلاً، هو عاصم بك الذي لم تمسح صورته من ذهنه إلى الأبد. كان تأثير عاصم بك عليه شاملاً، ليس أحادي الجانب كالآخرين، الذين كانوا يريدون منه ان يكون نسخة مشابهة لهم، الأمر الذي كان يرفضه رستم بكل عناده الريفي. منذ اليوم الذي نصح فيه عاصم بك، جهانكير بترك السنجق والنجاة بآماله، ظلً لا ينسى فضله الى يوم مماته، وكان يؤكد دوماً بأن عاصم بك هو الرجل الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في السنجق، كما ولعب دوراً كبيراً في تخفيف حملات الجندرمة ضد العشائر. ومنذ ذلك الحين التصق اسمه بذهن رستم. وحين كان مردان يرافقه للبحث عن سكن له، أعلمه بأنً الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يحلّ له هذه المشكلة، إنًما هو عاصم بك. وذهبا اليه، ومنذ ذلك اليوم اصبحا صديقين حميمين. ومما زاد من صداقتهما هو أن شيخو كلما زار السنجق جلب الهدايا لعاصم بك، وما كان من عاصم بك، إلاً ويردّ عليها بدعوة رستم الى الغداء او العشاء في منزله واذا غاب رستم من النادي فيقول زملاءُه انه عند عاصم بك. كان

رستم يشعر ان هناك مبالغة في احترامه من قبل جميع الموظفين ووجهاء البلد. ذات يوم قال له عاصم بك: «لا تتردَد كثيراً الى النادي، ان هؤلاء الموظفين الصغار الذين يسكرون يومياً بالعرق المغشوش، لا أصل ولا فصل لهم، واما أنت فصاحب عشيرة». عرف ان أحد أسباب احاطته بالاحترام هو انتماؤه القبلي، وكان لا يدري بأن أهل السنجق يخافون من أفراد العشائر خوف الفأرة من الهر، إلى أن همس في أذنه ذات يوم أحد زملائه في جلسة سكر: «ان هؤلاء الأوباش يحترمونك ليس حباً بسواد عينيك، بل خوفاً من عشيرتك». ثم تبيَّن له فيما بعد ان هناك عاملاً آخر، هو علاقته الحميمة بعاصم بك. عرف رستم ان المظاهر تتحكم بالأشياء. ولاشك ان المظهر المهيب لجده زوراب سابقاً، ومظهر عمه شيخو في الوقت الحاضر، قد لعبا دوراً كبيراً في ترتيب الأمور داخل عشيرة وادي كفران. لعل شيخو كان على حق حين بنى لنفسه داراً فخمة، ووضع حاجزاً بينه وبين الفلاحين. ألم يؤدِّ زواجه من ابنة شيخ البابائيين إلى تقوية جانب عشيرته وادي كفران؟ ولكن، إلى متى ينبغي عليه ان يبقى أسير المظاهر؟. هل يلتزم من قادر وعباس بذلك؟ كلا، أبداً، انهما يسرحان ويمرحان ويفعلان ما يشاءان دون ان يحاسبهما أحد. وأبوه كريم؟ ألم يفعل المستحيل في حينه من أجل الاقتران بفاطمة؟. وهو؟ لماذا ينبغي ان تقاس حركاته بمسطرة؟ مجرد التفكير بمادلين يدخل الرعب في نفسه. كم يحتاجها الآن في وحدته. تُرى هل ما زالت تُعتبر عاهرة في نظر الناس، رغم توبتها وتحولها إلى راهبة؟. لم يستطع ابقاء قلبه مغلقاً، فيما مضى كان يتحدث عن همومه الى رمزي او صائب، ولكنهما الآن بعيدان عنه. في البداية، وقبل مباشرته بوظيفته في السنجق، تحدَث بالتفصيل عن حبه لمادلين، مع قادر وعباس. كان يصف لهما جسمها البض وقسمات وجهها وجمالها الأنثوي الهادئ، وان المرء اذا اراد ان يعيش مع امرأة فيجب ان يكون مثل مادلين، وإلاّ فلا. وكان قادر وعباس يستمعان بكل لهفة وشوق الى حكايته التي تشبه حكايات العم رمضان الاسطورية، ويتصوران مادلين حورية نازلة من السماء. لقد تحدَّث اليهما عن كل شيء حول مادلين، عدا انها كانت ذات يوم عاهرة، وكأنه بذلك يريد الاحتفاظ بالجسر الذي يربطه بها. كان حين يفكر بها، يبدأ تفكيره بنشوة تغمر كيانه، بيد ان النشوة سرعان ما كانت تتلاشى حين ينقل تفكيره الى حقيقة مرعبة لا يتحملها، وهي ان هذه الانسانة كانت تتعرى للآخرين وتضاجعهم بكل بساطة، بائعة جسدها الجميل في سوق النخاسة، لماذا بالذات هي؟. تُرى هل تطهر التوبة جسدها وروحها فعلاً؟ عباس وقادر لا يعرفان الحقيقة، ولكنهما توصلا إلى حقيقة وهي ان ابن عمهما رستم أفندي عاشق، بالضبط كوالده العم كريم، الذي أحب في البداية الجنيَّة «في» ثم تركها ليحب فاطمة. وها انه رغم مرور أكثر من أربع سنوات ما زال يعشقها ويعمل المستحيل من أجلها. كان هم كل من قادر وعباس هو كيفية اسعاد رستم وربطه بحبيبته مادلين التي سرقت قلبه وتركته حائراً، شارد

الذهن، يتجول ساعات طويلة سواء مشياً او على ظهر حصانه، في وهاد وشعاب وادي كفران. وراحا يرسمان انواع الخطط لجمع العاشقين، ثم ينقلان خططهما بالتفصيل الى رستم، لينسفها كلها بحقيقة مرة واحدة، وهي ان الزواج مستحيل من هذه المرأة. واذ كان يشدّد على كلمة «مستحيل»، يحس بوخز يشق قلبه كما لو انه طعنه خنجر، ثم يبرّر كلامه بأن أي فرد من أفراد العشيرة لن يوافق على الاقتران بامرأة هي ليست من خارج العشيرة حسب، بل انها غير مسلمة. واذا أسلمت؟ ألا يغير ذلك شيئاً من الأمر؟. أجاب عن ذلك رستم بنفسه، ورغم ذلك فإنَ عباس وقادر قد تسللا خفية الى الأسطة ملا حسين علي، كي لا يحس بهما العريف سعدالله الذي احتل المضيف بشاربيه الغليظين بحيث لا يقترب منه سوى أعضاء فصيلة فرسان وادي كفران. وحين رآهما الملا حسين علي نهرهما وطلب اليهما ان يتواريا فوراً، وإلاّ فإنهما سيساقان فوراً إلى الجبهة. ولكنهما لم يتركاه قبل أن يحصلا منه على جواب: «ان المسلم اذا تزوج من مسيحية أعلنت اسلامها، فسينال قصراً في الجنة». ماذا تريد يا رستم أفندي بعد؟ انك ستضمن لنفسك مقدماً قصراً في الجنة. وحتى في الآخرة سيكون جدنا زوراب فخوراً بك حين يزورك في قصرك، مَن يدري فربما سيزورك جدنا الأكبر ناله كوركه ايضاً.

ارتاح قادر وعباس للجواب واعتقدا انهما قد اقتربا من الهدف، وراحا يرسمان خططاً جديدة، منها جس نبض سنجان. قالت انها لا يهمها أي شيء، سوى سعادة رستم، ولكن الذي يقرر الأمور هو شيخو بك والشيوخ الآخرون، وهي في كل الأحوال قد فقدت أهميتها بعد وفاة زوراب، عندما قالت ذلك لم تستطع ان تتمالك دموعها. أراد قادر ان يحاججها، فذكرها بزواج كريم من فاطمة وزواج شيخو من ابنة شيخ البابائيين، رغم ان اسلام البابائيين مشكوك فيه. أجابت سنجاب بأن هذين الزواجين قد تمّا داخل العشيرة وباتفاق عشيرتين، فهل لعروسكم المنتظرة عشيرة، وأين هي؟. اجلبوا المعلومات الكافية عن عشيرتها، اذ ذاك يمكننا التكلم مع شيخو حول الموضوع كي يتكلم بدوره مع رئيس عشيرتها. ثمّ هل هي من الرعية أم من عائلة الأغوات. لم يبقَ امام قادر وعباس سوى ان يفكرا في كيفية جمع المعلومات حول عشيرة مادلين. وحين طرحا الفكرة على رستم، هزّ رأسه باستخفاف، وبعد ان شكرهما لأهتمامها، طلب منهما ان يتركا هذا الموضوع، بيد ان قادر وعباس الباحثين دوماً عن مغامرات جديدة، ظلاّ يلحان عليه لأعطائهما المعلومات المطلوبة عن اسم عشيرتها ومكان تواجدها، ثم اكتفيا بمجرد اسم العشيرة واسم والد مادلين، والبقية تعتبر مهمتهم هم. لم يصدقاه حين أكّد لهما بأنّه لا يعرف، لا اسم أبيها ولا اسم عشيرتها. والحقيقة انه نفسه لم يفكر قبلاً بمثل هذا السؤال ولم يخطر بباله، فماذا يهمه اسم أبيها أو اسم عشيرتها. ذات مرة فكّر في ذلك، ودفعه فضوله للاستفسار عنها حول أهلها وعشيرتها، ولكنها تنرفزت ورفضت أن تبوح بأي شيء. لماذا يا ترى لا يستطيع أن يأخذها مجردة كما هي، دون أهل وعشيرة ودين؟ مادلين، كما هي بلحمها ودمها في حاضرها

ودون ماضيها؟ مثل كمأة تشق الأرض وحدها دون جذور؟ ما باله وعشيرتها أو أهلها؟. انه يريد أن يسمع صوتها الدافئ الذي يتسرّب كالخمر الى دمائه، انه يريد ان يتأمل في عينيها العميقتين، كي ينتقل من خلالهما الى عالم أحلامها اللانهائي، انه يريد ان يلمس جلدها الناعم الرقيق مثل الحرير، كي يزيل البرد من جسده المرتعش، انه يريد ان يدفن وجهه بين نهديها ويملأ رئتيه من أريج جلدها ليخلد للراحة، انه يريد ان يراها أمامه ليل نهار. لماذا لا يحق له ان يكون سعيداً بعد ان زالت نشوة الانتهاء من الدراسة، والحصول على الشهادة؟.

ذات يوم سأله عاصم بك اذا كانت مشكلة ما تضايقه، مشكلة حب مثلاً، إذ ان شابّ مثله لا شك قد التقى بواحدة من بنات الموصل الجميلات. كان دافع الحديث عن مغامرته الغرامية يجعل عاصم يلح على رستم لفتح قلبه والتحدُّث عن همومه وعشقه، وإلاّ فإنّ الانسان، اذا أبقى قلبه مغلقاً قد يتعرض الى الجنون. ويبدو أن حاجة عاصم لمثل هذا الحديث كانت أقوى بكثير من حاجة رستم الى ذلك. عرف عاصم بك من نظرات رستم وامتقاع وجهه انه عاشق، ولكنه يخجل من البوح بأسراره:

«انظر يا رستم، ان الخروف هو الذي لا يعرف العشق، فالرجل الحقيقي هو مَنْ له قلب يخفق أبداً، ما قيمة الحياة اذا لم يقضها المرء مع امرأة يحبها؟».

كم امرأة يحب يا ترى هذا الضابط المتقاعد الذي لم يتجاوز الخامسة والخمسين من عمره؟. في لحظة ضعف من لحظات نشوة الخمر، استرسل عاصم في سرد حكاية حبه، تماماً كما لو انه مراهق نزق. تزوج أربع نساء، واحدة بعد الأخرى: الأولى والثانية، تركمانيتان، الثالثة، عربية والرابعة، كردية. انه يحبهن جميعاً، ولكنه يفضل الكردية على الأخريات، لأنها أصغرهن. ومع كل ذلك له عشيقة في بغداد يزورها بين حين وآخر، وحبه لهذه العشيقة من طراز خاص لا يمكن مقارنته بنوعية حبه لزوجاته الشرعيات، كما ان تعلقه بها من نوع آخر لا يمكن وصفه بسهولة، فيه نوع من السحر والجاذبية التي لا تقاوم. إنّها امرأة بكل ما في الكلمة من معنى، إنّها فعلاً من الجنس الرقيق. عند وجود عاصم في بغداد بسبب وظيفته في حامية ولاية بغداد، قبل سنوات خلت، كان يعيش معها في بيت صغير جميل بحديقة واسعة تحيط به بساتين النخيل، اشتراه فيما بعد ثم سجّله ملكاً صرفاً باسمها. كانت هي تحبه ايضاً، بل انها تركت اهلها من أجله، رغم انهم حذروها بأنه لن يتزوجها بسبب فارق الدين. اراد ان يتزوجها، وفكّر في ذلك طويلاً، ولكن يبدو ان القسمة لم تحالفه، والزواج مثل الموت والحياة او الفقر والغنى، يدخل في باب القسمة والنصيب. أمر لا يمكن للارادة البشرية ان تتدخل فيه. مَنْ يدري ربما انه سيتزوجها. ألم تقل له ذات مرة: «يكفي ان اراك مرة واحدة في السنة؟». كانت السنجق فيما مضى قرية صغيرة لا تتجاوز نفوسها عدد أصابع اليدين، وأهلها يعرف عائلة عاصم بك كعائلة شريفة لها مكانتها الاجتماعية في المنطقة، ولذلك

حذّره أصدقاؤه وأقاربه من الاقتران بإمرأة بغدادية لا تعرف الحجاب، هذا رغم عدم معرفتهم بأنها يهودية. كانت هي، كما اكدت مراراً وتكراراً، مستعد للعيش مع عاصم بك في كل مكان وحتى داخل كوخ. ولكن عاصم بك كان يؤكّد لها بأنه من المستحيل ان يأخذها الى قرية بدائية متخلفة، لا شأن لأهلها سوى التدخل في شؤون الآخرين وتعكير صفو حياتهم والانشغال بالأمور التافهة. كان لا يريدها بلبلاً في قفص. انها يجب ان تبقى حرة طليقة تماماً مثل نهر دجلة. ولكن لماذا لم يبق هو في بغداد. هذا هو بيت القصيد. الحنين والتعليق الغريب بالأرض التي نشأ فيها، كانا أقوى من عاطفته، كما ان والديه العجوزين وأخته التي ماتت في سن مبكرة كانوا بحاجة لمن يدير شؤون املاكهم الكثيرة التي راح الأقارب يقتطعونها شيئاً فشيئاً. وعرف عاصم بك من أبيه أن اعداءه الحقيقيين هم أقاربه، الذين كانوا ينتظرون موت الأب ومعتقدين بأن عاصم بك لن يرجع الى هذه البلدة الصغيرة المتخلفة بعد ان عاش في مدن مثل بغداد والموصل والبصرة. وهكذا تجمعت عدة عوامل كي تبعده عن عشيقته التي يتذكرها حين تشرق الشمس، يتذكرها حين تغيب الشمس، يتذكرها حين يبزغ القمر، حين تبدأ النجوم بالظهور في السماء المظلمة، يتذكرها حين يرى النخيل في بستانه. تلك النخيل التي جلب فسائلها خصيصاً من بغداد في حينه.

وها انه يقرع كأسه رستم أفندي ويشربان نخب اعلان الحرب، أو بالأحرى نخب قرب سفره الى بغداد لمحاربة الانكليز وطردهم من البصرة أو على الأقل إيقاف زحفهم إلى بغداد. ولكن هل هذا السبب الحقيقي فعلاً لفرحه الغامر، أم ان السبب يكمن في اللقاء بعشيقته التي لم يلتقِ بها منذ عام؟. وفتح رستم هو الآخر قلبه وسرد له حكاية حبه لمادلين. لم يستطع أن يخفي أي شيء عن الحقيقة المرة التي راحت تدوخه فعلاً. بعد ان سمع عاصم بك حكاية رستم قال: «سأكف هذا اليوم عن الشرب وإلاّ سأقوم بحماقة أو أُصاب بالجنون. كنت أعتقد انني البائس الوحيد على هذه الأرض، ولكن دعنا نبقَ تعساء، فالسعادة في التعاسة». كان رستم يعتقد انه سيحصل على جواب او حل لمشكلته، ولكن عاصم بك حسم الأمر بكل بساطة، فعاد يسأله: «ولكن يا عاصم بك، هل تعتقد ان البقاء تعساء إلى الأبد هو الحل الوحيد لمشكلتنا؟».

«نحن يا رستم أفندي، أقصد أنت وأنا جئنا إلى هذه الدنيا في زمن ومكان خاطئين، لا أنا أستطيع ترك هذه القرية الحقيرة التي يسمّونها السنجق، ولا أنت تستطيع ان تعيش بدون وادي كفران العائش في فترة ما قبل التاريخ. نحن مثل سمكة عمياء في بركة راكدة. أسألك سؤالاً واحداً، أجب عليه بنعم أو لا، اذ ذاك سأعطيك الجواب الحاسم لمشكلتك، هل تستطيع أن تترك اعتباراً من هذا اليوم وإلى الأبد وادي كفران وتقطع كل صلة به؟». أجاب رستم بلهجة عفوية قاطعة: «كلا».

«إذن انك لن تستطيع ان تتزوج من مادلين. إمّا أن تبقى على صلة بها او تقطع علاقتك بها فهذه مسألة أخرى غير ذات أهمية. ان الكارثة الحقيقية تبدأ حين تتزوجها. الناس المحيطون بك هم الذين سيدمرون حياتك».

٨

اضطربت الأحوال بسرعة، وراحت قوات الجندرمة تبحث في كل مكان عن الهاربين، وتلقى القبض على كل مَنْ يستطيع حمل السلاح لإرساله إلى جبهة القتال. وقيل ان كافة الموظفين المشمولين بخدمة الاحتياط سيساقون إلى الجنوب. وبدأ الدوام في المدارس يتخلخل. وقبل أن يأتي دوره قرّر رستم ان يسافر إلى كركوك، كي يُلقي نظرة على مادلين ويودّعها. مَنْ يدري ربما سيكون ذلك الوداع الأخير.

لشد ما كانت دهشة مادلين كبيرة، حين قيل لها بأنّ ضابطاً يريد مقابلتها، ولا تدري لماذا اجتاحها خوف غريزي حين سمعت كلمة ضابط، ومما زاد في خوفها أيضاً أخبار المذابح التي جرت ضد الأرمن. ورغم من انها لم تبح لأحد عن أصلها الأرمني، إلاّ انها كانت تخشى ان تشملها الموجة ايضاً. ولكن ما ان وقع نظرها على رستم أمام باب غرفة الممرضات في ردهة النساء، إلاّ وتغيّر كل شيء. لولا خجلها من زميلاتها الواقفات بالقرب منها، لعانقته وأغرقته بالقبلات، لكنها تمالكت نفسها، بيد انهما حين دخلا الغرفة الصغيرة التي اخلتها لهما زميلاتها، أغلقت الباب وعانقته بقوة. وغرقا في عناق طويل، وقع خلاله طربوشة على الأرض وداسه بقدمه دون أن يحس به. كانت مادلين قد اشترت له من راتبها الأول ساعة جيب جميلة، قالت ان دقاتها مثل دقات قلبها، لا تمر دقة دون أن تفكر به. أمّا هو فأهداها قلادة ذهبية تحتوي على خمس ليرات ذهبية من عهد السلطان عبد الحميد، كانت قد أعطته إيّاها الجدة سنجان كي يبيعها ويسدّد بها نفقات دراسته. تعهدت مادلين بأنها لن تنزع هذه القلادة من عنقها إلى الأبد. لم يستطيعا التحدث كثيراً، اذ ان الوقت قد مرّ بأسرع من لمح البصر. وعندما توادعا، كانت أمنيتها هي أن يلتقيا مرة أخرى.

ترك رستم المستشفى بخطوات وئيدة وهو خال الرأس إلاّ من صورة مادلين التي كانت بملابسها البيضاء تشبه ملاكاً نازلاً من السماء. سار في شوارع كركوك تائهاً شارداً لا يحس بالضجيج والزحام. قادته قدماه إلى مسكن رمزي فلم يجده ثم واصل سيره الى مسكن صديقه صائب، عانقه الأخرس وراح يبكي ويخبره بحركات من يديه ووجهه بأن صائب ورمزي قد سيقا إلى الجبهة. وحين ودعهما قالت أم صائب باكية، إن أمنيتها الوحيدة في الحياة هي ان تنتهي الحرب بأسرع وقت ممكن وتراهم ثلاثتهم هنا كسابق الأيام. عندما وصل السنجق علم أن عاصم بك قد التحق بإحدى الوحدات وتوجه الى بغداد. كان الناس يتحدثون في السنجق

بحماس حول الجهاد وأهميته للحفاظ على الدين، بيد ان هؤلاء كانوا من الطاعنين في السن ولا يتجاوزون عدد أصابع اليدين. كانوا يتحدثون بكل فخر عن أمجادهم السابقة وعن الحروب التي خاضوها ضد الروس الكفار، وكيف انهم عبروا جبال القفقاس وتحملوا الثلوج والبرد والجوع. ويبدو أن بعض هؤلاء قد تطوع للذهاب الى الجهاد، بيد ان آمر الحامية شكرهم لشعورهم العالي وطلب اليهم العودة الى بيوتهم. وعلم رستم من مدير المدرسة بأنهم سيساقون قريباً للخدمة، وقد تأتيهم الأوامر في أية لحظة، ولذلك لم يسمح له المدير بترك السنجق لتوديع أهله اعتبر رستم ذلك اهانة من المدير، وأكّد له بأنه سيزور أهله كي يودعهم حتى لو قامت القيامة.

كانت فصيلة فرسان وادي كفران بقيادة العريف سعداللّه قد لبّت نداء الجهاد والتحق بإحدى الوحدات. وحين حلّ المساء أحس رستم بفراغ هائل. لم يبق هناك سوى قادر وعباس وهما يعيشان في حالة اختفاء كاملة. لا يعودان إلى القرية إلاّ ليلاً. اتخذوا أماكنهم في المضيف الخالي تشاركهم، سنجان. كان الحزن والوجوم باديين على وجوههم. أين هو شيخو بصرامته وهدوئه؟ هابو ببلاهته؟ حمه غريب بحماقته؟ العم ميرزا بسذاجته؟ العم رمضان بتعليقاته الساخرة، السيد جواد بحركاته العصفوية، العم كريم بصمته.. أين هم الآن. وهل سيتحملون فعلاً مشاق الطريق ويحاربون الانكليز؟. لم يتمكن قادر من تحمل الوجوم المطبق عليهم، قال محاولاً اضفاء المرح على الجو: «لماذا أنتم خائفون؟. ثقوا باللّه العظيم ان ما يسمّى بفصيلة فرسان وادي كفران التي يقودها الهر سعداللّه، سترجع مثلما ذهبت، وهم لا خوف عليهم أبداً.. انهم اذ دخلوا معركة مع الانكريز فسيتغلبون عليهم بضراطهم». علّق عباس: «الانكريز؟ طين على رأسهم، يكفي ان يروا رأس هابو او سيف حمه غريب، اذ ذاك سيلوذون بالفرار، ولن يتوقفوا إلاّ بعد أن تصبح البصرة وراءهم». حاولت سنجان، ومعها قادر وعباس، طوال الليل اقناع رستم برمي ملابسه العسكرية والاختفاء كبقية شباب العشيرة بين جبال وادي كفران وشعابه، ولكن عبثاً. قال ان المسألة قد حسمها بكلمة شرف لا يستطيع نقضها.

عاد رستم في اليوم الثاني الى السنجق بمرافقة قادر وعباس اللذين اصرّا على ان يبقيا مختفيين خارج البلدة في مكان قرب المنارة، لأنهما ارادا أن يتأكدا من التحاقة بالجيش وسفره الى بغداد، ملحين عليه حتى آخر لحظة بالتفكير في الهروب والعودة الى وادي كفران. وفي اللحظات الأخيرة بدا عليه الشرود والقلق فلم يلح عليهما بالعودة، بل تعهد انه سيلتقي بهما بعد الظهر لتوديعهما مهما كان الأمر. واتفقوا على ان ينتظراه في المنخفض الواقع وراء جدول لا يبعد كثيراً عن السنجق. كان قادر يفكر في استعمال القوة معه لإجباره على عدم الالتحاق بالجبهة، بيد ان عباس استسخف الفكرة. قبل ان يذهب رستم إلى المدرسة، مرّ على منزله وربط حصانه هناك، فرحت به خادمته العجوز واعتقدت انه هرب من الجبهة فقالت له: «حسناً فعلت

يا رستم أفندي، انت ما زلت شاباً صغيراً ، ارمِ هذه الملابس واذهب الى أهلك». قال رستم ضاحكاً: «كلا ننه، ان الهروب من الجهاد خيانة، يجب ان ألتحق». قالت العجوز باستغراب: «تلتحق بمَنْ ؟ سمعت من المختار ان آخر فصيل قد غادر السنجق» لم يأخذ رستم كلامها بالجد، قال لها انه ذاهب إلى المدرسة. هناك لم يجد أحداً سوى الفراش العجوز الذي كان مشغولاً بوضع الأغطية على كراسي ومكاتب المعلمين. وكان الفراش يقوم بهذه العملية كلما بدأت العطلة، كي لا يتراكم الغبار على الأثاث. قال له رستم مداعباً: «ماذا تفعل يا عم خضر، هل تريد ان تجعلها عطلة؟». التفت اليه الفراش بدهشة، وكانت تجاعيد وجهه قد تعمقت أكثر، فبدا أكبر بكثير من سنه، قال بصوت كسير: «رستم أفندي، أهذا أنت أم شبحك؟ كنت أعتقد أنك قد ذهبت معهم، هل هربت؟ والله حسناً فعلت، أنت العاقل الوحيد بين هؤلاء المجانين».

«كلا يا عم خضر، من المستحيل ان أهرب، الهروب من الجهاد خيانة». هزَّ الفراش رأسه وقال: «أين كنت اذن فجر هذا اليوم؟ التقطوا آخر الشباب من البيوت وقالوا ان هذه آخر وجبة، ثم جاؤوا اليَّ كي أدلهم على بيوت المعلمين، فساقوهم هم ومدير المدرسة وكل الموظفين مثل الخرفان. تصوَّر كانت الجندرمة تعاملهم مثل الأسرى، أين كنت أنت؟ اذهب الى حيث جئت يا رستم أفندي، أنت انسان محظوظ». خرج رستم إلى الشارع، أراد ان يذهب الى القائمقام، ولكنه عدل عن فكرته. كانت الأفكار تتضارب في رأسه، فكَّر في مادلين، فمدَّ يده بصورة عفوية إلى ساعته، كانت تشير إلى الواحدة. ضغط عليها بقبضته ثم رفعها إلى فمه فلثمها غامضاً عينيه وهو يتذكر كلمات مادلين: «ان دقات هذه الساعة مثل دقات قلبي، سأُفكِّر فيك مع كل دقة». وعندما أراها لقادر وعباس، قلباها بين أيديهما وراحا ينظران الى العقربين والأرقام، ويستمعان الى دقاتها باستغراب، فعلق قادر: «يا ابن عمّي رستم، ان هذه الفتاة قد أعطتك قلبها، فكيف تتركها وتذهب إلى الجبهة؟ منذ متى وقلبك من حجر، قل لي أين هي؟ سأجلبها لك حتى اذا كانت في آخر الدنيا».

سار في الشارع الرئيس الخالي دون هدف. أراد ان يذهب الى السوق، ولكنه سرعان ما غيَّر هدفه، ولا يدري لماذا فكَّر في كربيت أفندي، وقادته قدماه بلا أرادة منه الى منزله، وعرف لماذا ينجذب اليه، فهو منذ وجوده في السنجق، حين كان يذهب إلى النادي لا يرتاح إلاّ بعد ان يتخذ مكانه إلى جانبه، فيحس بالراحة، لعلَّ أصله الأرمني الذي يجمعه بمادلين هو الذي يعطيه هذه النكهة اللذيذة التي تخدره، فيرتاح حين يسمع منه أخبار الجالية الأرمنية سواء في الموصل او في كركوك.

عندما خرج رستم من عند كربيت، أحسَّ بنفسه خفيفاً مثل ريشة في مهب الريح. زال القلق الجاثم على قلبه، وحسم الأمر بالنسبة له. وبدت له الأمور كما لو ان شيئاً لم يكن. كانت دراسته وعمله في السنجق، كلها أمور طارئة حدثت في غفلة من الزمن. ماذا تغيَّر فيه؟ كل ما في الأمر انه تعلَّم القراءة والكتابة وبعض الأشياء، التي هي بالمقارنة لمعلومات كربيت لا شيء. وها ان وضعه كموظف مسلم يجبره ان ينصاع لما يسمَّى بالجهاد في سبيل بقاء الدولة العثمانية. واما

قادر عباس فسيبقيان طليقين مثل عصفورين لن يفهما مغزى الجهاد، وكذلك كريبت أفندي، لا يطلب اليه الذهاب الى الجبهة او الالتزام بالجهاد، ذلك لأنّه غير مسلم، مسيحي لا يحق له حمل شرف التضحية في سبيل الوطن. اذن، عليه هو أن يموت لأنه يعتمر طربوشاً ويرتدي بدلة إوروبية. ترى لو كان الجد زوراب باقياً على قيد الحياة، هل وافق على تشكيل ما يُسمَّى بفصيلة فرسان وادي كفران؟. كلا، ان موته لا معنى له. وأدرك سر الحاح الجد زوراب بعدم ارسال الشباب للخدمة في الجيش، وغلق أبواب وادي كفران بوجه موظفي الدولة، وعرف أيضاً لماذا قاد العم شيخو عملية تجنيد الكبار وارسلهم إلى الجبهة دون الشباب. اذن فإن عدم التحاقه بفصيلة الاحتياط لا يخالف العرف الذي سارت عليه العشيرة.

كان قادر وعباس تمدَّد على أرض منخفضة قرب الجدول، يراقبان عن كثب معركة حامية بين قنفذ وحية سامة. كان القنفذ قد اصطاد الحية من ذيلها وراح يبتلعها ببطء وهدوء دون أن يحرك ساكناً، وأمَّا الحية الهائجة فكانت تتمايل في الهواء وتضرب القنفذ يمنة ويسرة. عندما بلغهما رستم، كان القنفذ قد ابتلع نصف الحية، وظلَّ هو الآخر يراقب المشهد من على ظهر حصانه. ويبدو ان القنفذ قد شعر بمَن يراقبه، أو ربما يريد مشاركته في فريسته، فابتعد عن المكان. اذ ذاك قاما من مكانهما، وهما ينظران بفضول إلى رستم الذي كست وجهه بشاشة تعبِّر عن فرح عميق. قال قادر وهو يمد يده إلى الخرج: «مذا قرَّرت يا ابن عمِّي رستم أفندي؟ هل سنأكل بشهية؟». أجاب رستم بعد أن ترجل عن حصانه واتخذ مكانه جنبهما: «ستأكلان بشهية». قال عباس بوجه عبوس: «أنت لا هم لك سوى الضحك علينا».

علَق قادر محتجاً: «وفوق ذلك يقول، ستأكلان، ألا تريد ان تأكل معنا؟».

قال رستم بعد ان تمدَّد على الأرض متكئاً على مرفقة:

«لقد انتهى كل شيء، سأرجع معكما وأُلقي هذه الملابس الحقيرة جانباً»

ارتميا عليه وهم يغرقانه بالقبلات. واصل رستم: «ابدأ بالأكل، لا تنتظراني، أنا أكلت عند كريبت أفندي، إنّه من عشيرة مادلين. من الآن فصاعداً يجب أن نبدأ حياة جديدة». كان قادر يلتهم الخبز والتمر بشهية وينظر إلى رستم بزهو: «كنت واثقاً من انك لن تخيب ظننًا فيك يا رستم، آه، لو رآك الآن جدنا زوراب بهذه الملابس العسكرية، ولكن روحه الهائمة في السماء تعرف كل شيء عنَّا، ولا شك انها الآن فخورة بقرارك». قال عباس: «واما الجدَّة سنجان، فإنَّها لن تنام هذه الليلة من الفرح».

كانت الشمس تميل إلى الغروب حين وصلوا الى سلسلة الجبال المتداخلة التي تفصل وادي كفران الجبل عن القسم السهلي. قبل ان ينحدروا الى الجانب الثاني، سحب رستم زمام حصانه، فتوقفت الخيول عن السير، ومن هناك، حيث أعلى مكان يطل على قسمي وادي كفران، راحوا

يجيلون أنظارهم كالعادة في أنحاء وادي كفران الجبل، ولاسيما في الشعب والممرات المؤدّية إلى السهل. قال قادر وهو يركز نظراته على مكان معين: «هل رأيتما شيئاً؟». أجابا بصوت واحد: «كلا، وأنت؟». بيمناه: «انظرا باتجاه صخرة الضبع المطلة على النهر، بالضبط في ركن الالتواء».

قال رستم: «صحيح يا قادر، هناك ثلاثة رجال تمدّدوا على ضفة النهر مباشرة، يبدو انهم يرتاحون من عناء سفرة طويلة». قال عباس:

«انهم يلبسون ملابس الجندرمة، ولكنني لا أرى سلاحاً».

قال قادر «انظرا الى الجانب الأيسر من الصخرة الملساء، سترون البنادق».

علّق رستم: «عيناك أقوى من ناظور اليوزباشي يا قادر، يجب ان نعرف مَن هم هؤلاء، وماذا يفعلون في وادي كفران».

قال قادر: «هل الأمر يحتاج إلى سؤال يا رستم أفندي؟ انهم جندرمة جاؤوا يبحثون عن الفارين». قبل أن يكمل كلامه أضاف عباس:

«علاجهم ثلاثة اطلاقات ونتخلص من المشكلة». قال رستم:

«كلا، لا نستطيع اطلاق النار عليهم قبل التأكُّد من هوياتهم وسبب وجودهم هنا. أنا لا أعتقد انهم يبحثون عن الهاربين، اذ انهم جندرمة عاديون وبدون خيول. على كل حال يجب أن نلتف عليهم من وراء المرتفع المطل عليهم ونتخندق هناك ولنر ماذا يريدون».

انحدروا بسرعة إلى الأسفل، وعندما اصبحوا على مقربة منهم، توزعوا على ثلاث نقاط متباعدة ومتحصنة، قاطعين طريق الهروب على الغرباء الثلاثة. وقف رستم موجهاً بندقيته إليهم وصاح بلهجة عسكرية صارمة:

«هيه، أنتم هناك، قفوا في أماكنكم وارفعو أيديكم». وقف الثلاثة في أماكنهم رافعين أيديهم الى أعلى بذعر. تقدَّم منهم رستم شاهراً بندقيته، وحين أصبح على مبعدة خطوات منهم قال:

«مَن أنتم وماذا تفعلون هنا؟».

التفتوا إلى بعضهم البعض، وعلامات الخوف والرعب بادية على وجوههم، وكل واحد يتوقع أن يتكلم الآخر. صاح رستم:

«ألا تفهموني؟ أم فقدتم النطق؟». أجاب أكبرهم سناً:

«سيدي، سيدي تأخَّرنا عن فصيلنا وتهنا بين هذه الوديان والجبال».

ضحك رستم وقال باستهزاء:

«أتضحك عليَّ يا ابليس؟ أنتم هاربون من الجبهة، هل تعرفون ما هو مصيركم؟».

وقع أحدهم على الأرض وراح يزحف باتجاه رستم قائلاً بصوت متقطع يتخلّله البكاء:

«سيدي، اسمح لي ان أُقبِّل حذائك، افعل بنا ما تشاء ولا تسلمنا للجندرمة. إنَّهم سيرموننا بالرصاص بلا رحمة».

«قم ارجع إلى مكانك، أنا لا أحترم المتخاذلين». ثم التفت إلى الوراء، وصاح:

«قادر، تعال صادر الأسلحة». قال أكبرهم:

«سيدي، اقتلني أنا ودع هذين الاثنين يذهبان، أنا ورطتهما بالهروب».

«نحن لسنا قتلة، سنخلي سبيلكم ثلاثتكم، ولكن هل تعتقدون انكم ستصلون إلى مناطقكم بهذه الملابس وببنادقكم بسهولة؟».

«نعرف ذلك، وخلصوها منها أعطونا أي شيء يستر عورتنا». جاء عباس هو الآخر بعد أن نادى عليه رستم. تنكب عباس البنادق الثلاثة، في حين كان قادر ينزع عنهم السيور المحتوية على أمشاط الاطلاقات. وعندما أراد ان يصادر زادهم، طلب اليه رستم أن يعيده الى مكانه. بعد ان انتهى قادر وعباس عن تفتيشهما بصورة دقيقة، وقفاً ينظران اليه كما لو انهما بانتظار أوامر جديدة. مرّت فكرة سريعة برأس رستم فقال بعد ان اشار الى الاثنين اللذين طلب كبيرهم اخلاء سبيلهما:

«انتما، اخلعا ملابسكما»، ثم توجه الى قادر وعباس: «اخلعا ملابسكما وبدّلاها بملابس هذين الجندرميين». تمت العملية بهدوء وبدون أي تعليق. كان رستم يحاول أن يبقى جدياً وصارم القسمات، ولكنه حين رأى قادر بالبنطلون القصير والسترة الضيقة ذات الأردان القصيرة، لم يتمالك نفسه فاستغرق في ضحك هستيري. أمَّا الثلاثة الهاربون من الخدمة، فكانوا لا يزالون تحت وقع صدمة الخوف.

أشار رستم الى الممر المؤديٍ إلى السهل وقال: «اذهبوا بهذا الاتجاه واتركو هذا المكان قبل ان تظلم الدنيا، وإلاَّ ستظلون تدورون في حلقة مفرغة طيلة الليل». ثم حثَّ حصانه بكعبيه وانطلقوا باتجاه بانشاخ.

حين أصبحوا على مقربة من بانشاخ، كان الظلام قد خيَّم على كل شيء. سحب رستم زمام حصانه المتعب، وراحت الخيول تسير ببطء. قال قادر الذي كان يحس بقلبه كما لو انه يريد ان يطير من الفرح: «واللّه يا ابن عمّي رستم افندي أثبتَّ فعلاً بأنَّك قائدنا. ولآن اكتملنا بعد أن افتقدناك لسنوات طويلة». علّق عباس:

«نحن لا شيء بدونك يا رستم، كان ينبغي عليك أن لا تغادرنا. ها ان السنوات التي قضيتها في الدراسة تذهب عبثاً».

«كلا يا عباس، إنَّها لم تذهب عبثاً. لقد تعلمت الكثير. الانسان بدون المعرفة أعمى». علّق قادر:«واللّه هذا الكلام صحيح، لو لم يستعمل رستم عقله ومعرفته لقتلنا هؤلاء الأبرياء الثلاثة بدون أي سبب».

٩

عندما بلغت فصيلة فرسان وادي كفران أراضي عشيرة البيات، كانت الشمس تميل إلى الغروب. اقترح شيخو على العريف سعدالله أن يمرّوا في طريقهم بقرية امرلي لزيارة شيخ العشيرة عواد قوجة، اذ انه كان صديقاً حميماً للمرحوم والده. لم يعترض العريف سعدالله على الاقتراح، ولكنه تساءل فيما اذا كانوا سيقضون ليلتهم عنده، أم سيواصلون مسيرتهم بعد تناول طعام العشاء؟ بيد انه قبل أن ينتظر جواب شيخو، واصل كلامه مؤكداً بأنه من المستحسن قضاء الليلة عنده ومواصلة السير في فجر اليوم الثاني. كان الشيخ عواد قوجة طاعناً في السن، ولكنه كان قوياً ومعروفاً بذكائه ودهائه. كان يتّخذ مكانه في مجلسه كل يوم ويحاسب كل فرد من أفراد عشيرته على عمله، ويوبّخ الكسالى منهم. ويقال انه كان يعلّمهم كل يوم أشياء جديدة يجهلونها بحيث ان افراد العشيرة لم يعتبره المرجع الوحيد الذي يعرف كل شيء، بل راحوا يقدّسونه ويعتبرونه الأب الروحي الذي لا يعوض. ولما كانت منزلته أمام أعين أفراد عشيرته لا تقارن بمنزلة رؤساء العشائر الآخرين الذين كانوا يفرضون احترامهم على العشيرة بالقوة، فإنّ معظم هؤلاء كانوا يغارون منه ويختلقون القصص حوله، مصوّرين إيّاه انساناً غبياً جاهلاً. من الحكايات التي نسجتها العشائر الأخرى عنه:

ذات يوم أرسل قائمقام السنجق رسالة إلى الشيخ عواد قوجة، يأمره فيها بتسجيل أسماء كافة المكلفين للخدمة في الجيش العثماني والذين بلغوا الثامنة عشرة، وإرسالهم فوراً للحضور أمام ضابط التجنيد في السنجق. قضى الشيخ عواد قوجة نهاره في فك رموز الرسالة، وأفراد العشيرة ينتظرون بلهفة ما سيقوله لهم حول محتوى الكتاب. وأخيراً مسك الورقة بيده اليسرى، مبشّراً القوم بأنه توصل لمعرفة ما يريده جناب القائمقام: «انظروا واسمعوا جيداً، ان هذه الحروف التي تشبه العصا، تدل على الحطب. الحروف المدورة تدل على البعرور. الحروف التي تشبه الصحن تدل على الروث واما هذا الحرف الغريب، فلا يدل إلاّ على البط. هذه العلامة الكبيرة التي لا تشبه حرفاً، تعني الخروف». همس في أذنه صاحبه الجالس الى يمينه مؤكّداً بالتمعّن جيداً في الحروف المدورة، فربّما يريد القائمقام ليرات ذهبية. تمعّن عواد قوجة في سطور الرسالة، وقال كمن يصحّح خطأ: «الحقيقة، هناك نوعان من الحروف المدورة، نوع بنقطتين، والنوع الآخر بلا نقاط، النوع الذي بنقطتين يعني الليرة الذهبية». بعد يومين امتلأت شوارع السنجق وبناية القائمقامية ومركز الشرطة بالحمير والبغال المحملة بالبعرور والحطب والروث وأنواع البط

والوز والدجاج. وحين أعلم كاتب التحريرات القائمقام بالخطأ الحاصل في فهم الرسالة الموجهة إلى عواد قوجة، قال له بوجه صارم: «لا يوجد أي التباس في الموضوع. انقل الخروف والبط والدجاج الى داري، وأمَّا البقية فتحفظ كوقود للشتاء».

ذات يوم عثر أحد الفلاحين على ساعة، فجلبها لعواد قوجة كي يعرفه على حقيقة هذا الشيء الشيطاني الذي لم يرَ أحد في العشيرة مثله من قبل . قلب عواد قوجة الساعة بين يديه وهو يتأمَّل العقربين والأرقام ويسمع الدقات المنتظمة وقال بحسرة: «إلى متى أظل الشخص الوحيد الذي يعرف كل شيء في هذه العشيرة؟ أريد فقط ان أعرف مَن الذي سيقوم بتفسير الأشياء لكم بعد موتي؟ هل ترون هذا الشيء؟ مَن يستطيع أن يقول ما هو هذا الشيء؟». قال أحدهم: «لا يوجد غيرك يا شيخ عواد قوجة». أجاب عواد قوجة بزهو: «هذا إمَّا لوقنطه أو حمام».

ذات يوم جلب أحدهم ضفدعة. بعد تأمُّل طويل قال عواد قوجة:

«هذا بلبل، ولكن اللّه غضب عليه فجعله أجرب».

كانت هذه الحكايات الطريفة التي ينسجونها في مجالس العشائر الأخرى، تصل الى مسامع عواد قوجة دون أن تزعجه، بل كان يطرب لها ويقول: «إنَّها من صنع نوعين من الناس، نوع يحبني ونوع يحسدني».

عندما أعلموه بأن ضيوفاً جاؤوا من وادي كفران، قفز من مكانه فرحاً وصاح: «هؤلاء أولاد صديقي الحميم الشيخ زوراب رحمه اللّه» وحين علم من شيخو بأنَّهم سيقضون عنده ليلة واحدة فقط، حلف بطلاقه بأنَّه لن يدعهم أن يسافروا قبل أن يقضوا عنده على الأقل ثلاث ليال، أكَّد له شيخو بأنه لا مانع لديه من البقاء عند عمه عواد قوجة للاستمتاع بمجلسه، وبأن مثل هذه الفرصة لا تتوفر دائماً، ولكنه يجب أن يقنع العريف سعداللّه فهم ليسوا سوى جنود نذروا حياتهم من أجل الجهاد في سبيل اللّه. كان العريف سعداللّه واقفاً، فقال قبل ان يلتفت إليه عواد قوجة: «قلت لك مسبقاً يا شيخو بك بأن المسألة هي ضراط في ضراط، انكم متطوعون لم يجبركم أحد للذهاب إلى الجبهة، ثم ان هذه الطيور التي جلبتها معك لن تغيِّر في الأمر شيئاً». قال عواد قوجة بفرح طفولي: «ماذا تريد بعد يا ابن أخي شيخو بك؟ لا تأخذ الامور بجدية، كن مثل المرحوم والدك زوراب. أنا واثق انه لو كان حياً لما ارسل حتى جرذياً إلى الجبهة». همس هابو في اذن رمضان: «هل هؤلاء من أقاربنا؟». أجاب رمضان بسخرية: «طبعاً يا هابو، ألا تدري بذلك؟». تساءل هابو باستغراب: «ولكنهم يتكلمون لغة أخرى، ما هي لغتهم؟». كان الملا أسطة حسين علي جالساً جنب هابو، فعرف ان هذا اللعين رمضان لا يعطي إلاَّ المعلومات الخاطئة، فقال: «لا تصدق كلام رمضان يا هابو، اللغة التي يتكلمون بها هي التركمانية». قال هابو باستهجان: «تركمان؟ إنَّهم من السنجق اذن».

«ولكنهم يختلفون اختلافاً كلياً عن أهل السنجق، إنَهم من اصدقاء المرحوم الشيخ زوراب».

«رحم اللّه المرحوم الشيخ زوراب، كل الدنيا تعرفه».

بعد حديث ثنائي طويل بين كل من عواد قوجة وشيخو، قرَّر الأخير ان يعيد كل من كريم وحمه غريب والأسطة ملا حسين علي إلى وادي كفران، على ان يصلوا إلى المنطقة بخفية وبدون ضجة.

١٠

قبيل دخول القرية لاحظوا حركة غير اعتادية أمام الدار. قدور منصوبة ودخان متصاعد وكانت سنجان وفاطمة واقفتين أمام الباب، تلوحان لهم بأيديهما. نظروا إلى بعضهم البعض بحيرة، قال رستم: «الجدة سنجان؟ الجدة سنجان؟ أم أنا أرى شبحها؟». قال قادر: «هي بالذات، ولكنّني أريد أن أعرف مع مَنْ جاءت؟ ولماذا تركت قرية زوراب؟». عباس لم يعلّق، بل انطلق بحصانه كالسهم. وما ان اصبحوا أمام البوابة، إلاّ وقفزوا من على ظهور جيادهم، وبدأ العناق.

كانت فاطمة حبلى، تبدو في الشهر الأخير من حملها، بطيئة الحركة، ولكنها زادت جمالاً، وأمّا سنجان فكان الفرح يطغى عليها كما لو أنها طفلة حصلت على ضالتها المنشودة بعد عناء طويل. طوقت سنجان رستم وقادته إلى الداخل قائله: «لنا مفاجأة سارة لكن». وقبل أن يصلوا إلى باب المضيف، إلاّ وخرج كل من كريم وحمه غريب والأسطة ملا حسين علي. وبدأ العناق من جديد. كان عناء الرحلة ما زال بادياً على وجوههم. قبل أن يبدأ كريم بشرح سبب عودتهم، علّق قادر ساخراً: «يبدو لي انكم اما تغلّبتم على الانكريز أو انهزمتم أمامهم».

حدّثهم كريم بالتفصيل عن سير الرحلة وكيف التقوا بشيخ التركمان عواد قوجة، صديق المرحوم والده زوراب. وراح يطنب في وصف هذا الشيخ الذي يعرف أن يتكلم العربية والتركمانية والكردية بطلاقة، وكيف انه انتقدهم بشدة لعدم تفكيرهم بعوائلهم التي تركوها بدون رجال. والغريب في الأمر انه لم يكن مقتنعاً، مثل البابانيين، بالجهاد. وكان هو الآخر قد أخفى شباب العشيرة في مكان مجهول، وأبقى على الشيوخ الكبار الذين يحيطون به في مجلسه ليل نهار. ثم ختم كريم كلامه: «وهكذا أجبرنا شيخو بالعودة إلى العشيرة، علماً ان العريف سعداللّه كان لا مانع لديه لو رجعنا كلنا». علّق قادر متنهداً:

«واللّه كانَ ينبغي ان يرجع الكل، يبدو ان قوجة عواد هذا عاقل جداً، يجب أن نزوره ذات يوم».

وجواباً عن سؤال رستم حول معنويات الجماعة، أجاب كريم بأنه مندهش جداً لمعنويات الجميع، ولا سيما الكبار منهم، فهم لا يعرفون التعب او الجوع او العطش. وحسب حسابات الشيخ عواد قوجة فإنّهم سيصلون بغداد بعد يومين او ثلاثة أيام. قال حمه غريب انه يحسد الآخرين لذهابهم الى الجهاد في سبيل اللّه، ولولا احترامه الكبير لشيخو لما رجع إلى هنا، وانه لا يوافق الشيخ التركماني على آرائه بخصوص وضع مصلحة العائلة فوق مصلحة الجهاد، وفتح بذلك باباً للنقاش استمر حتى منتصف الليل.

١١

تسلّل رستم بخفة إلى الركن الذي يحفظ فيه أوراقه وملابسه وأخرج بدلته العسكرية والبدلتين اللتين استولوا عليهما من أفراد الجندرمة الهاربين، ووضعها كلها بعناية داخل كيس ثم انتقى من الركن نفسه ثلاث بنادق جيدة من النوع البروسي الذي صادروه من الجندرمة الهاربين ايضاً. وكانت سنجان قد سلقت لهم عشر بيضات وضعتها مع كمية من الخبز والتمر والبصل الأخضر داخل كيس، شدّه قادر مع قربة لبن على ظهر حصانه ثم صاح على رستم بأنهما جاهزان، وفي تلك اللحظة عثر رستم على هويته التي تثبت كونه ضابط احتياط في الجيش العثماني. وضع الهوية بعناية داخل محفظة نقوده وترك الغرفة بسرعة. سأل عمًّا اذا كانا قد حملا كمية كافية من العتاد، أجاب قادر انها تكفي لمقاومة جيش. عانقت فاطمة رستم قائلة: «لا تنسَ بأن الحراسة في يوم ولادة أخيك هذه المرة ستكون عليك أنت». قال رستم بزهو وبلهجة واثقة:

«لن تتخلص الجنيّة هذه المرة من يدي. سأُلقي عليها القبض حتى لو كانت تحت الأرض».

«كلا يا رستم، كلهم حاولوا ذلك قبلك، حتى جدّك المرحوم زوراب لم يفلح في ذلك».

قفز على ظهر حصانه قائلاً:

«سترين يا فاطمة».

عندما تواروا عن الأنظار، كان الظلام لم يهبط بعد. كانت فاطمة وسنجان ما زالتا واقفتين في مكانيهما. بسملت سنجان وهي ترش الماء وراءهما ورجت من اللّه والأنبياء والأولياء أن يحفظوهم ويعيدهم الى البيت بسلامة ثم التفتت إلى فاطمة ووضعت يدها على كتفها قائلة:

«فاطمة، رستم يختلف عن الآخرين، انه يحمل القرآن في صدره. أنا أعرفه، انه اذا قال شيئاً يستطيع تنفيذه. لقد حلمت به ذات مرة وهو بلحية طويلة يجلس على ظهر حصان أبيض، وحين سألت الملا عن مغزى الرؤيا قال لي انها علامة تدل انه من الصالحين وسيملك الدنيا والآخرة».

«وهل تعتقدين أنه سيمسك الجنية في؟».

«مَن يدري، ربما». قالت فاطمة وقد طغت عليها الغيرة:

«لكنّني أخشى ان أفقد كريم يا خالتي، فما أن يراها إلاّ ويقع في حبها من جديد».

ابتسمت سنجان وضربتها على كتفها قائلة:

«كلا يا فاطمة، انه ما زال متعلقاً بك كالسابق، ثم إنّ الذي يمسك الجنية (في) يكون هو صاحبها الشرعي».

أخفى رستم كلاً من قادر وعباس في منزله وذهب هو فجراً الى كريبت كي يحصل منه على آخر الأخبار حول الأوضاع، فأعلمه هذا بأن مراد جاووش يريد اللقاء به لمسألة مهمة جداً. وحين سأله رستم عمّا يدور من الشائعات حول عدم التحاقه بالجبهة، أجابه كريبت، بأنّه تعمّد في طرح هذا الموضوع أكثر من مرة سواء على القائمقام أم على مراد جاووش، فلم يسمع منهما شيئاً يدعو الى الريبة. كل ما في الأمر ان الحامية العسكرية بما فيه اليوزباشي قد تركوا السنجق الى الجبهة. والشيء الوحيد الذي سمعه من القائمقام هو انه ما زال ينتظر من يأتيه من عشيرة وادي كفران كي يتباحث معه بشأن الأمور الأمنية المتعلقة بمنطقتهم. والمعروف عن القائمقام أنه حين يتحدث عن الأمور الأمنية في المنطقة، فيعني بذلك انه بحاجة الى دفعة جديدة من الهدايا. اتفق كريبت ورستم ان يبعثا فراش الأول لإستدعاء مراد جاووش.

كانت الشمس لم تشرق بعد حين انتهت زوجة كريبت من إعداد الفطور، شعر رستم بتقزز حين رأى أربع بيوض غنم في المقلاة، علّق كريبت قائلاً بأن هذه البيوض ضرورية جداً للرجال الذين يريدون الاستمرار على نشاطهم الجنسي الذكري. أجاب رستم بمرح: «لست متزوجاً يا كريبت أفندي، ربما سأضطر لتناول مثل هذه المقويات يوماً ما».

«الغد لناظره قريب».

قبل ان ينتهيا من تناول فطورهما، جاء مراد جاووش بجثته الضخمة ووجهه المنتفخ. وكان كريبت يعرف بأنه لا يتناول فطوره مبكراً، لأنه يتناول عشاءه الثقيل في ساعة متأخرة من الليل بعد ان يجرع كأساً أو كأسين من العرق، ولذلك لم يحسب حسابه مع الفطور.

استغرب رستم من أن مراد جاووش قد تحدّث عن كل شيء وباسهاب دون أن يتطرق الى موضوع عدم إلتحاقه بالجبهة. ثم ختم كلامه بلهجة انتقادية:

«قلنا جهاد، ولكن ليس بهذه الطريقة، هل من الصحيح ان يذهب كل رجال العشيرة وتبقى الأمور فيها تائهة؟ ان على وادي كفران دفع حصصه من الأرزاق». وجد رستم ان الفرصة سانحة كي يعطي تبريراً للأمور:

«ولهذا السبب لم أستطع الالتحاق بالجبهة. نحن لم نتقاعس عن دفع ما علينا من الحصص». وبعد مشاورة غير طويلة حول وضع وادي كفران والتزاماته تجاه الدولة، أبلغه مراد جاووش بأن كل العشائر قد شكّلت وحدات من أفرادها تسمّى بوحدات الجتة مهمتها الحفاظ على الطرق التي تمر منها وحدات الجندرمة، من هجمات اللصوص والقاء القبض على الهاربين وتسليم أي

غريب يمرر من أراضي العشيرة للسلطات. قال رستم بدون تردد وهو يفكر في خططه التي يمكنه تحقيقها إلاّ من خلال التستر بمثل هذه الواجهة: «نحن مستعدون لذلك، ولكن ألم تسمع بفصيلة فرسان وادي كفران يا مراد جاووش؟».

هزّ مراد جاووش رأسه باستخفاف:

«أنا الذي أرسلت العريف سعدالله لتدريبهم، ولكن مهمة أولئك تختلف عن الجتة. هؤلاء ليسوا مجاهدين، بل مقاتلين شبه رسميين مهمتهم هي حماية مؤخّرة الجيوش المتوجهة إلى بغداد».

تذكر رستم كلام العريف سعدالله فقال في نفسه: ضراط في ضراط..

في لقاء سريع بين القائمقام ورستم بحضور مراد جاووش تسلم رستم هوية جديدة عليها توقيع وختم القائمقام، تؤكد كون رستم رئيس وحدة الجتة لوادي كفران. لم يسأله القائمقام عن سبب عدم التحاقه بالجبهة ولا عن عدد أفراد وحدته الجديدة، ويبدو انه لم يسمع شيئاً عمّا يسمّى بفصيلة فرسان وادي كفران، بدليل انه خص عمه شيخو بالتحيات الحارة، ولكنه اكّد له مراراً وتكراراً بأنه بانتظار وصول الأرزاق. بعد ان ودعه القائمقام، رافقه مراد جاووش إلى البوابة، وكان رستم ينظر اليه باستغراب وتساؤل. عرف مراد جاووش ما يدور في رأس رستم فقال له بهدوء:

«انه ضراط في ضراط يا رستم أفندي».

عاد رستم إلى منزله وأخبر قادر وعباس بالتطورات الجديدة غير المتوقعة، وطلب اليهما أن يرتديا ملابس الجندرمة بغية القيام بجولة علنية داخل السنجق، وذلك للأعلان عن أنفسهم كقوة رسمية من جهة ومن جهة أخرى لجس نبض أفراد الشرطة. عقب قادر بأن الفكرة جيدة، ولكن يجب الحذر والاستعداد للقتال في أي لحظة فريما ان السلطة تريد نصب فخ لهم.

لم يكتفوا بالقيام بجولتهم في كل الدروب والأزقة، بل اتخذوا أماكنهم في مطعم الكباب الوحيد بعد ان تسلم منهم صاحب المطعم زمام الخيول. قال عباس: انني توقعت كل شيء، أمّا أن أجلس بملابس الجندرمة وآكل الكباب دون أن يزعجني أحد، فمسألة لم أحلم بها قط.

كان الشارع الرئيسي الوحيد خاليا سوى من بضعة شيوخ جلسوا بخمول على المقاعد الخشبية المتراصة على جانبي الطريق. وكلّما انحسر ظل الظهيرة، زحفوا الى الظلّ او إلتجأوا إلى داخل المقهى. عندما جلب النادل أقراص خبز التنور وأطباق الكباب المحاط بالبصل الأخضر والكرفس والرشاد، تذكر رستم اليوم الذي تعرّف فيه لأول مرة على هذه الأكلة، حيث تباهى مردان أمام شيخو وكريم بأن هذه ليست هي المرة الأولى التي يتناول فيها هذه الأكلة اللذيذة، وحين أراد أن يعلّمهم بزهو كيفية تناول هذه الأكلة، تصدّى له رمزي وهو يريهم طريقة أخرى.

قال قادر واللعاب يسيل في فمه، الآن أستطيع أن أتصور حياتك في المدينة يا ابن عمي رستم. ما قيمة الحياة ان لم يقضها المرء في المدينة؟

راح قادر وعباس يراقبان ما يقوم به رستم: وضع شريحة الكباب في منتصف قرصة الخبز ثم نثر عليها مسحوق السماق فغطاها بالبصل الأخضر والكرفس ولفّها كلها بعناية وبدأ بالأكل. قبل أن ينتهي قادر من إعداد لفّته تساءل دون أن يرفع رأسه:

«يبدو لي هذه الأكلة انكريزية، أليس كذلك يا رستم؟». جاء النادل متسائلاً: «هل تريدون الشاي أم اللبن؟». أجاب رستم فوراً: «نريد كليهما».

١٢

عندما تمَّ نقل مديرالمستشفى الى بغداد، عرفت مادلين بأنها ستجابه مشاكل جديدة، فالمدير السابق الذي عيَّنها بتوصية من الست مريم، كان يرعاها ويوحي للكل بأنها قريبته. ومع تعيين المدير الجديد الذي قيل انه من أهالي استانبول، جرت تغييرات في أجهزة المستشفى، من ضمنها تعيين ضابط أمن خاص بالمستشفى راح يوزع استمارات على جميع العاملين، تحتوي على أسئلة تفصيلية حول حياة كل فرد مثل، تاريخ الميلاد، الاسم الثلاثي، مكان الولادة، الديانة، المذهب، القومية، هذا بالاضافة إلى أسئلة تفصيلية حول الوالدين. كان الضابط قبل تسليم الاستمارة للشخص المعني، يختلي به ويشرح له كيفية ملء الفراغات ويهدِّده بالعواقب الوخيمة عند عدم إعطاء المعلومات الصحيحة أو إخفائها. وراحت الشائعات تنتشر بين الأطباء والممرضات والمضمدين كسريان النار في الهشيم.

عندما اختلى ضابط الأمن بمادلين، شعرت هذه بخوف غريزي، وبقشعريرة مرت مثل تيار بارد عبر جسدها، ومما زاد من خوفها تلك الابتسامة الصفراء والنظرات الشبقية الخبيثة:

«إيَّاك أن تنسي شيئاً واحداً مهما كان صغيراً يا ست مادلين. أنا أعرف عنك كل شيء. ولكن لا تخافي، إنكِ تستطيعين ان تكون بمنجى من كل مكروه. الأمر بيدك أنت».

حدقت مادلين في وجهه ملياً. وفي لحظات متسارعة وخاطفة مرت بذهنها صور البيت للست مريم والكنيسة، كرسي الاعتراف، مدرسة الراهبات ورستم، وراحت تقارن بين الوجهين، وجه رستم ووجه هذا الرجل الغريب الذي يكسوه جلد أملس يلمع مثل الشمع، ولا تدري لماذا زال خوفها فجأة. أحسَّت في قرارة نفسها باليأس وبأنها في كل الأحوال ستُجبر على ترك هذا العمل الذي كانت ترتاح اليه رغم الارهاق، أو انهم سيبادرون الى طردها بسبب ماضيها السيء الذي غطاه المدير السابق بالاضافة إلى انها كأرمنية لا مكان لها بين هؤلاء.

قالت كما لو أنها لم تفهم مغزى كلامه: «متى تريدون الاستمارة؟».

حدَّق فيها بنهم بعينين مزيفتين وابتسامة مصطنعة:

«قلت، الأمر بيدك أنت. إنكِ ان شئت تستطيعين الاحتفاظ بالاستمارة لنفسك. وتبقى الأشياء كلها سراً فيما بيننا».

شعرت في نفسها بحاجة ماسة الى مَنْ يحميها وبأسرع من لمح البصر مرّت برأسها عدة أسئلة

وخواطر: هل تريدين الاحتفاظ بعملك بأي ثمن كان؟ أم تريدين العودة الى منزل ست مريم؟ لماذا لا تذهبين الى الدير كما قررتِ في البداية؟. لا لا يا مادلين انك لا تستطيعين العيش هناك، ترى، هل كانت ست مريم على حق حين قالت ذلك؟ «لا تفكري كثيراً يا ست مادلين، أنت محظوظة جداً. حظك وضعني أمامك. تصوري لو كنتِ في مكان آخر لأغتصبوك بالقوة وشقوا بطنك بالحراب ورموا جثتك للكلاب. أنت لست أرمنية حسب، بل عاهرة رخيصة ايضاً». قال ذلك بكل برود ثم قام من مكانه لترك غرفتها مواصلاً:

«سأتكلم معك بعد ثلاثة أيام، عندها نحسم الأمور، فكّري جيداً».

كانت جالسة وراء المكتب في غرفة الممرضات. عندما ترك الرجل الغرفة، غالقاً الباب وراءه بقوة وضعت رأسها على يديها المتشابكتين فوق المنضدة وأجهشت في بكاء عميق. ظلّت تبكي الى ان دخلت عليها صديقتها الآثورية كاترين. وضعت يدها على رأسها وراحت تسليها مؤكّدة لها بأن هذا التافة تحدّث مع معظم الممرضات بالطريقة نفسها وانه ليس الشخص الأول الذي حاول مضاجعتهن، وقالت انه لو كان يلائم ذوقها لرفعت له ساقها بلا تردد، ولكنه كمخلوق بليد له جلد الضفدعة وعين الكلب وانها ستأبى ان تريه حتى شعر عانتها، وليفعل ما يشاء توقفت مادلين عن البكاء، ولكن هذه السلوى لن تحل مشكلتها التي لم تفصح بها حتى لأعز صديقتها، أرمنية وعاهرة.

تمنت لو ينبت لها جناحان، تطير بهما الى مكان مجهول بعيد لا بشر فيه، أو على الأقل لا يعرف أحد انها أرمنية، نزل على قومها غضب الله ولعنته، أو انها كانت ذات يوم عاهرة. فكّرت أكثر من مرة بالانتحار، بيد ان كلام إحدى زميلاتها خفّف عنها العبء قائلة: ماذا؟ هل يريد مضاجعتي؟ فليأت، أنا في كل الأحوال لا أستطيع الاستغناء عن عملي، يجب أن أُعيّش ثلاثة أولاد، زوجي سِيق إلى الجبهة، سأعلّمه ما هو الجماع الحقيقي، سوف أعصره كخرقة وأجعله لا ينظر في وجهي مرة أخرى، هذا الملط المخنث.

انهن كلهنّ يتكلمن بشيء من التحدي، رغم الخوف. ولكن خوفها هي يختلف عن خوفهن. ظلت ذلك اليوم حائرة وحزينة، وتقلّبت في فراشها إلى وقت متأخر من الليل، ثم استسلمت الى نوم متقطع بعد ان راحت تداعب القلادة الذهبية التي أهداها إيّاها رستم وهي تتذكر كلمته: «اذا مررت بمحنة ما فمسّدي القلادة برؤوس أصابعك وتذكريني ثم ناديني باسمي إلى أن تأخذك سنة النوم، عندها أسمع صوتك أينما كنت، وآتي اليك على ظهر حصاني تحت جنح الليل. إنّي سوف أسمع صوتك حقاً يا مادلين، إنّني لا أهذي، صدّقيني وجربيني...»

وها هو وجه رستم يطل عليها فعلاً، ولكن في الحلم... أين أنت يا رستم، أين؟ خذني إلى أي مكان تريد، أخرجني من هذا المستنقع. حين استيقظت في اليوم الثاني، كانت يدها ما زالت

ممسكة بالقلادة، تمنّت لو انها لم تستيقظ من نومها ومن ذلك الحلم الذي نقلها الى عالم طفولتها وهي تسرح وتمرح في تلك القرية الجميلة التي تطل بكنيستها القديمة على واد عميق بمياه عذبة، تحيط به حقول الكروم وأشجار التين، ولكن أين هي تلك القرية الآن يا ترى، وأين هم أهلها؟

مرَّ يومان ببطء وثقل، وغداً يأتي هذا المخنث الذي يريد مضاجعتها بأي ثمن كان. هل تذهب إلى المدير وتشتكي عنده؟ وما فائدة الشكوى؟ مَنْ يضمن أنهما لا يعملان تحت مظلة واحدة؟ كلا، إن الشكوى ستعقد المسألة أكثر. لقد صمَّمت أن لا تنبطح أمامه حتى إذا أدَّى ذلك الى موتها، فالموت هو الحل الوحيد لمشكلتها التي ستظل تلاحقها إلى الأبد. كانت قد بلغت أقصى درجات اليأس، وحين حسمت قرارها النهائي بالانتحار، تنفست الصعداء: ولكنَّني قبل أن أموت يجب أن أقتله هو الآخر. وأحسَّت بفرح غامر ورغبة جارفة في رؤية المدية وهي تنغرس في لحمه لتتفجر منه الدماء.

«لقد قتلوا منا ما يكفي، ألم يُبيدوا كل أهلي؟ لماذا لا أُقتل أنا أيضاً؟».

جلبت مدية حادة من المطبخ وأخفتها تحت مخدتها، كما وأخرجت من الصيدلية علبة مليئة بالأقراص المنومة.

إنَّه اليوم الثالث، وها ان الظهيرة قد حلَّت وضابط الأمن لم يظهر بعد. «حسناً، لأذهب أنا بنفسي اليه».

ارتدت ثوبها الأبيض الجميل، تعطَّرت وتجمَّلت ورتبت تسريحة شعرها ثم قامت تحرك عينيها بغنج ودلال أمام المرآة. مزَّقت الاستمارة وألقت بها في سلة المهملات. وبعد أن رتَّبت الغرفة ووضعت باقة ورد قطفتها من الحديقة على المنضدة تركت غرفتها متوجهة إلى غرفته.

كان قد انكب علب كومة من الأوراق وراء مكتبه، رفع رأسه وراح ينظر إليها فاتحاً فمه، كانت نظراته مليئة بالشبق والبلاهة، قالت له بدلال:

«هل نسيتني؟ ألم يكن موعدنا هذا اليوم؟».

«كيف ينسى المرء مثل هذا الجمال؟ ماذا قرَّرتِ؟».

قالت بعد أن وضعت رجلها على كرسي قريب منه، كاشفة عن ساقها العاجي الممتلىء:

«أنا غبية جداً لا أستطيع ملء الاستمارة، أحتاج مساعدتك. هل يمكنك أن تمر عليَّ مساء هذا اليوم لنتعشى معاً وتساعدني في ملء الأوراق؟».

قال بابتسامة المعهودة وهو لا يصدق ما يسمعه:

«مزِّقي الأوراق واسحقيها بقدميك يا روحي، سأكون عندك في تمام الساعة التاسعة، هل من طلب؟».

«لا تأتَ بدون قنينة شراب أحمر، وإلاً لن تحصل على بغيتك».

قال بلهجة مستهترة: «سأصنع لك شراباً من دمي يا حبيبتي، لقد أثبتِ فعلاً بأنكِ عاقلة».

تمدًدت في فراشها وهي تستعرض في ذهنها مجمل العملية التي ستقوم بتنفيذها. قبل كل شيء يجب أن يطمئن اطمئناناً كاملاً. ستلعب معه لعبة القطة والفأرة. بعد ان يتناولا كأساً من الشراب، تطلب اليه أن يتعرى ويتمدًد على بطنه كي تمسد له ظهره. ستبدأ فعلاً بتدليك ظهره ثم تسحب المدية كي تغرسها بنفس القوة في الجانب الأيسر. وستظل تطعنه في كل جزء من جسمه إلى أن تخر قواها، اذ ذاك تتناول الحبوب المنومة كلها دفعة واحدة كي تنام إلى الأبد. كانت تنفعل مع مخيلتها كما لو انها تقوم بأداء العملية فعلاً. نظرت الى ساعتها، إنًها الثامنة والدقيقة الثالثة. ساعة أخرى وينتهي كل شيء. كانت ممدًدة على فراشها بثوبها الأبيض تحدًق في السقف والصمت المطلق يطبق على كل شيء. كانت تتصور في ذهنها كيف أن روحها ستصعد إلى السماء بعد ساعة، وكيف أن السيد المسيح سيعاتبها لقتلها انساناً، ولكنها ستقنعه بأن هذا القتل كان ضرورياً، وحين أراد السيد المسيح أن يعترضها على رأيها، سمعت طرقات خفيفة على زجاج نافذتها المطلة على الحديقة، قالت في نفسها: «جبان، يريد التسلل من النافذة». فكًرت في تغيير ظهرها وتقدمت من النافذة، فما ان فتحت أحد المصراعين، إلاً وأطلً عليها وجه رستم. «مستحيل، مستحيل، أنا لا أستطيع أن أُصدًق عيني، أنا أحلم، أنا أهذي...» وسقط المدية من يدها. قفز رستم بخفة إلى داخل الغرفة وعانقها بقوة وراح يلثمها من فمها وعنقها وكتفها ويديها. وكانت هي تنظر إليه كالمأخوذة.

«جئت كي آخذك معي يا مادلين، إنًني لا أتحمل بعد. إنًني أخاف عليك. هيا جهًزي نفسك بسرعة ولمًي الأشياء الضرورية التي تحتاجينها، لا وقت لنا للانتظار».

قالت كالمأخوذة:

«أنا سآتي معك طبعاً، كنت أنتظرك، ولكنًني يجب أن أقتله، يجب أن أقتله، إنًني لن أرتاح اذا لم أرَ دمه».

اعتقد رستم انها أُصيبت بالهلوسة فراح يهدئ من روعها معانقاً إيًاها وطالباً إليها لَمً متاعها الضروري، فالرحلة أمامهم ليست بالقصيرة ثم إنًهم يجب أن يصلوا إلى هدفهم قبل انبلاج الفجر. سحبته من يده برقة وأجلسته إلى جانبها على حافة السرير وقالت له بهدوء: «كنت أنتظر هذه اللحظة منذ أشهر وسنوات، والآن أريد منك ساعة واحدة فقط يا رستم، يا حبيبي، إنًني يجب أن أُصفًي هذا الانسان. أنك لا تستطيع أن تتصوًر كم كانت قاسية اهانته لي، لقد جرحني في كرامتي».

تساءل رستم باستغراب عمن تتحدث، فروت له القصة بحذافيرها لم يأخذ رستم مجمل القصة بجد، فقال بهدوء، اننا اذا قتلنا كل موظف من هذا النوع فيجب أن نبيد آلاف الناس. قالت مادلين بلهجة صارمة بأنّها جريحة الكرامة، وانها ستظل عاهرة أبدية اذا لم تلطخ يدها هذا اليوم بدم هذا المجرم، وأقسمت بكل مقدساتها بأنها لن تترك هذه الغرفة اذا لم تطعنه على الأقل بطعنة واحدة.

عندما تأكّد رستم بأن المسألة ليست من صنع خيالها، وانها تتعلق بكرامتها، أحسَّ بالاعتزاز تجاهها وقال:

«حسناً يا مادلين، أنا لا أستطيع تغيير ما عزمتِ عليه. اذا كان اللّه قد أدخل ذلك في قلبك، فليس بامكان أحد التأثير عليك، وأنا؟ هل تريدينني أن أتركك وحدك معه؟».

قامت من مكانها قائلة: «كلا يا رستم، ان وجودك في الغرفة يعطيني أماناً أكثر»، ثم توجهت الى ستارة تحجب ركن ثيابها، أزاحتها مواصلة: «عندما تسمع الدقات على الباب تقف وراء هذه الستارة، ويمكنك مراقبة العملية من خلال هذا الشق ان اردت، والآن سأقوم بلَمِّ ما أحتاجه من الملابس الضرورية يا عزيزي».

أطبق عليها صمت ثقيل، كانت هي تتحرك خلاله بسرعة وترمي ملابسها وحاجاتها الضرورية بدون ترتيب داخل كيس. دمدمت مع نفسها دون أن تلتفت اليه:

«أعرف ان المسيح سيعتبر عملي جريمة لا تُغتفر، وانه سيغضب عليَّ، ولكنني لا أستطيع تغيير قراري وأنا مستعدة لتحمل العقاب».

قال رستم وهو يراقب حركاتها بانتباه واعتزاز:

«كلا يا مادلين، ان ما تقومين به هو من باب غسل العار. انك بعملك هذا ستريحين ضميرك وضميري أيضاً».

التفتت اليه فجأة وابتسمت بدلال:

«هذا ما كنت أتوقعه منك يا رستم، إنّني الآن مستعدة للذهاب معك حتى إلى الجحيم».

قبل حلول التاسعة مساءً بدقائق سمعت طرقات خفيفة على الباب، كانا جالسين لصق بعضهما على حافة السرير وهما ما زالا مبهورين من اثر اللقاء المفاجئ ومن الخطة التي بدت لهما كالحلم. توجه هو بهدوء إلى الستارة بينما هي قفزت باتجاه الباب فاتحة المزلاج. كان قد تعطّر هو الآخر وتسريحة شعره تبدو كما لو انها طاقية سوداء لماعة، واستغربت حين وجدته أقصر منها بكثير. أخرج من حقيبته قنينة الشراب ووضعها على المنضدة، ثم اتخذ مكانه على الكرسي قائلاً بانفعال: «أنت لا تدرين كم أنا سعيد يا مادلين».

«مهما كانت سعادتك كبيرة، فهي لا تبلغ أصغر جزء من سعادتي. إنّني هذه الليلة أسعد انسانة على الأرض». شعر بالانتصار واجتاحه الغرور. شرب هو جرعة صغيرة، أمّا هي فأفرغت الكأس في جوفها وهي تحدّق إليه بنظرات انتقادية، فتناول هو الآخر الكأس وفعل مثلها. قامت من مكانها بحجة جلب نفاضة السكاير، وبعد ان وضعتها أمامه، توقفت وراءه واضعة يديها على كتفيه، واذ بدأت بتدليكهما قالت بصوت رقيق:

«ألا تريد أن تنزع هذه السترة؟».

اغمض عينه ومد ساقيه مرخياً ساعيديه وقال:

«آه يا مادلين، ما أرق هذه الأنامل، هل كل الأرمنيات جميلات مثلك؟».

«لا أدري يا سيدي، اذا أحببت فقم وانزع ملابسك واستلق على بطنك كي نبدأ أولاً بالتدليك».

«فكرة حسنة يا حبوبة، ناديني بإسمي، فكرت، أريده أن يخرج من بين شفتيك الرقيقتين يا روحي».

عرفت ان الشراب بدأ مفعوله وقبل ان يستلقي على بطنه، ناولته كأساً: «والآن لنشرب نخب حبّنا يا فكرت».

بعد ان أفرغا الكأسين، استلقى على بطنه قائلاً بصوت ممطوط:

«الآن أتحدى كل سلاطين آل عثمان».

مرّرت رؤوس أناملها على أخدود عموده، الفقري ثم توقفت عند العصعص، وراحت ترسم دائرة موهومة حوله بيسراها، وأما بيمناها فسحبت المدية بخفة من تحت الفراش. مررت طرف المدية على ظهره متوقفة في منتصف الجانب الأيمن من ظهره:

«واصلي التدليك يا مادلين، إنّي أكاد أقذف».

أمسكت المدية الطويلة بصورة عمودية وضغط عليها بكل ما أوتيت من قوة وبكلتا يديها ثم سحبتها بقوة لتطعن بها الجانب الآخر وهي تردّد بحقد وهستيرية: «يا خنزير يا كلب..».

صدرت منه آهات مخنوقة، انتفض عدة مرات محاولاً القيام في مكانه، ولكنها كانت تبادره بطعنات سريعة متلاحقة وهي تردّد: «يا خنزير يا كلب..» في محاولة أخرى سقط على الأرض وتحول الى جثة هامدة.

رمت المدية فوق الجثة وتهالكت على الكرسي لاهثة كما لو انها خرجت من معركة ضارية. حين تقدم منها رستم قالت وهي تلهث:

«لا تلطخ يدك بهذا الدم النجس يا رستم، سآخذ الآن حماماً ثم نذهب».

واتفقا على ان يرجع مثلما جاء وينتظرها أمام البوابة. كان قادر وعباس ينتظرانه وراء السياج، في المكان نفسه الذي عبر منه، حين وجداه وحده تساءلا بصوت واحد ما اذا كانت غيَّرت رأيها، أجاب تحت تأثير نشوة نادرة بأن كل شيء سيجري بانتظام مثل حركة الساعة الموجودة في جيبه. كانوا قد اتفقوا أن يصلوا السنجق قبل انبلاج الفجر او على الأقل مع ظهور الخيط الأبيض.

لم ينتبه اليها البواب حين تركت المستشفى، لذلك وفَّرت لنفسها الاجابة عن السؤال التقليدي، إلى أين؟ ومتى ترجعين؟. في الركن المظلم تحت شجرة التوت الضخمة، تسلَّم منها رستم الكيس الذي أعطاه بدوره لعباس. بعد ان قفز رستم على ظهر حصانه، ساعد قادر مادلين في الصعود، وحين اتخذت مكانها وراء رستم، طوَّقته بساعديها هامسة في أذنه: «والآن لن تفلت من يدي إلى الأبد». لم يعلق رستم، ولكنه عصر يديها بقوة.

لم يستطع قادر وعباس من اشباع فضولهما من رؤية وجه مادلين إلاَّ بعد ان بدأوا بتناول الفطور في بهو منزل رستم في السنجق، حيث كانت الشمس تغسل وجوههم المتعبة بشعاعاتها الأولى. كان التعب بادياً عليهم كلهم ولا سيما مادلين.

تمدَّد قادر وعباس في مكانيهما على لباد في البهو وقالا انهما سينامان النهار كله إلى ان تظلم الدنيا. أما رستم ومادلين فاستلقيا على الفراش الموضوع على الأرض مباشرة في الغرفة التي يستعملها رستم عادة ويسميها غرفة السكن، وأمَّا الغرفة الأخرى فكانت خالية إلاَّ من فراشين، كان يسميها غرفة الضيوف. وكان البهو يقع بين الغرفتين ويطل على فناء صغير، تنتصفه حديقة صغيرة.

حين استلقيا على الفراش، تعانقا بقوة، قالت انها الآن في الجنة وهي أسعد انسانة على الأرض، وأمَّا هو فقال ان اللهب الذي كان يحرق قلبه قد هدأ. وإستسلما لنوم عميق.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف حين فتح رستم عينيه اعتقد في الوهلة الأولى انه في بانشاخ، ولكنه حين رأى مادلين المستلقية إلى جانبه مثل ملاك نازل من السماء، تذكَّر الأحداث التى تعاقبت كالحلم وهو لا يكاد يُصدق ما جرى منذ مساء أمس. أراد ان يقوم، ولكنه لم يرد ان ينغص عليها نومها العميق، ولاسيما انها كانت تطوق صدره بساعدها الأيمن، متكورة لصقة كما لو انها حمامة تبحث عن الدفء. بخفة وحذر راح يعدل وضعه متكئاً على الحائط ومطوقاً رأسها بساعده. وراح يحدق إلى ملامح وجهها الذي زاد جمالاً، تساءل في نفسه ما اذا كان بمقدور أحد اعتباراً هذه النفس البريئة قاتلة. ومهما يكن فهي في نظر الآخرين قاتلة، ولا شك انهم الآن اقتحموا غرفتها ورأوا الجثة الغارقة في الدم ويجري البحث عنهما في كل مكان، أرمنية وقاتلة. ولأول مرة يحس بالخوف الشديد عليها، وأحسَّ انه بعد عملية القتل قد ازداد حباً

وتعلقاً بها، وان ذلك الشعور القلق في الاقتران بها بسبب ماضيها قد زال نهائياً بعد ان رأى يديها الملطختين بالدم، انها الآن بالنسبة اليه فتاة عذراء طاهرة لم يمسها انسان غيره او بالأحرى انها قد وُلدت من جديد. وأمّا أولئك الذين يبحثون عنها الآن، فلن يعثروا عليها. تذكّر ان هناك عادة كردية، ولا سيما عند اكراد الباهدينان، وهي خطف الفتاة التي يرفض أهلها تزويجها من الشخص الذي ترغب فيه هي، على ان يقوم الخاطف بعقد قران الفتاة في أسرع وقت ممكن، بيد ان هذه الطريقة، التي تعتبر شرعية وعملية جريئة عند اكراد باهدينان، لا يجري الاعتراف بها في وادي كفران. ترك هذه الفكرة جانباً، ولكنه قرَّر في نفسه ان لا يضاجعها إلاّ بعد عقد القران بصورة شرعية. رسم في ذهنه أنواع الخطط، وأخيراً توقف عند خطة معينة وقرّر ان ينفذها فوراً.

أزاح ساعدها برفق وانسل من الفراش بخفة، جلس بالقرب منها وراح يتأملها عن كثب وهو لا يكاد يصدق ما يرى. كان اللحاف قد انزاح جانباً وبدا ساقها العاجي الذي تحرّر من ثوبها الأبيض الخفيف. شعر برغبة جارفة في مضاجعتها، ولكنه كان قد قرّر مسبقاً ان لا يفعل ذلك، ناهيك عن انه لا يريد ان ينغض عليها نومها العميق الذي تحتاجه بعد عملية القتل الصعبة والرحلة الشاقة. لم يتمكن من ضبط نفسه، فرك بيمينه عضوه المنتصب وسرعان ما قذف، اذ ذاك تنفس الصعداء ثم تمدّد الى جانبها وراح يشم ابطها. كان يحب ان يقضي نهاره هكذا الى جانبها يتأملها ويتمتع بجمالها، بيد ان حاجة ضرورية دفعته لترك الفراش، كان عليه ان يستفيد من بقية النهار لإنجاز خطته. شمس الظهيرة تبعث دفئاً لذيذاً، لاسيما وأن ظلال شجرة التوت الهائلة تحد من حرارتها الشديدة. قادر وعباس ما زالا غارقين في نومهما العميق.

بدا له كل شيء في الباحة كما لو انه بعث من جديد، ولأول مرة في حياته يحس بسعادة مطلقة ويتعلق غريب بهذا المنزل الذي كان يشبِّهه فيما مضى بسجن اختياري وتمنّى لو يقضي عمره كله مع مادلين في هذا البيت الذي لا يقل روعة عن الفردوس. بيد ان هاتفاً ما في اعماقه كان يضرب بعنف على عصب معين في قلبه ويوحي اليه ان الأمور لن تسير كما يشتهيها هو. بعد ان قضى حاجته وحلق لحيته التي طالت بشكل ملحوظ، ارتدى بدلته الخاكية وترك المنزل. عرج الى خادمته التي تسكن في المنزل المجاور وكلّفها بإعداد طعام العشاء الذي يتناوله عادة بعد ان تظلم الدنيا. وقبل ان يصل السوق مرَّ على منزل إمام الجامع ودعاه إلى طعام العشاء عنده، فقال له الملا مبتسماً، لا شك هناك عقد قران يا رستم أفندي، فيه البركة، ثم طمأنه انه سيكون عنده بعد صلاة العشاء مباشرة. اشترى اربع وجبات كباب مع عشرة أقراص خبز وكمية من الخضر.

حين عاد الى البيت وجدهم مستغرقين في نومهم العميق. وضع الطعام على منضدة سفرية تتوسط ثلاث كراسي خيزران في غرفة السكن. نزع ملابسه وارتدى دشداشته البيضاء كعادته،

اعد الشاى ورص الاستكانات الأربع حول القوري في صينية الفافون. أخرج من الصندوق الخشبي الوحيد في غرفة الضيوف مزهرية من الزجاج الملون، أهدتها له والدة صائب بمناسبة انهائه الدراسة، ملأها بالماء ثم قطع من شجيرة الرمان عدة أغصان بأزهار حمراء دمجها بغصنين من أزهار الدفلى البيضاء. كان معلم الرسم المولع برسم الأزهار والذي يعتمر دوماً قبعة أوربية ويتأنق في ملابسه، يقول عند مزج الألوان، ان لكل لون دلالة معينة، اللون الأحمر يدل على الحب واللون الأبيض على النقاوة والاخلاص والأصفر على الغيرة والأسود على الحزن وهكذا، ولكن تُرى هل تعرف مادلين هذا الشيء ايضاً؟ مَنْ يدري؟.

قبل ان يدخل عليها، أيقظ قادر وعباس قائلاً لهما انه في طريقه إلى ايقاظها، قفزا في مكانيهما كما لو انهما في حالة طوارئ. وأمّا هو فاتخذ مكانه الى جانبها على الأرض وبيده باقة الأزهار. وضع فمه على شفتيها الورديتين الممتلئتين ثم راح يقبّلها في كل جزء من وجهها وعنقها. فتحت عينيها بذعر وراحت تحدق إليه بتساؤل، ولكنها سرعان ما طوقته بقوة جارّة إيّاه الى الفراش، حرّر نفسه دافعا إيّضاها برفق قائلاً: «على مهلك، لسنا وحدنا في البيت، انظري، هل ترين هذا اللون الأحمر؟ انه حبي، وهذا اللون الأبيض هو اخلاصي». أخذت الباقة وطوّقته مرة أخرى هامسة في اذنه، انها ستظل مخلصة له إلى الأبد.

جلس قادر على الأرض وأمّا الثلاثة الآخرون فاتخذوا أماكنهم على الكراسي. كانت مادلين تريد ان تأكل وحدها في الغرفة كي لا يُحرج قادر ورستم اللذين كانا يخجلان منها، بيد ان رستم اصرَّ على أن تأكل معهم. قبل ان يبدأ بالأكل اطلق رستم ضحكة مفاجئة جلبت انتباه الجميع بحيث التفتوا اليه بصورة لا ارادية وعيونهم تستفسر عن السبب، فقال لهم هل تعرفون لماذا ضحكت؟ فأجاب عباس بأنه هو السبب لأنه يجلس لأول مرة في حياته على كرسي. أجاب رستم: لا، لم أضحك عليك، بل ضحكت على أنفسنا جميعاً، تصوروا أنا معلم وضابط احتياط هارب من الجيش، تحوّل بقدرة قادر الى رئيس فصيلة الجتة، قادر وعباس لصّان ماهران اصبحا من معتمدي الدولة العثمانية ومادلين ملاك الرحمة تُعتبر الآن في نظر القانون قاتلة هارية من وجه العدالة. نحن الآن من حيث نريد او لا نريد نشكّل عصابة. ضحكوا وراحوا يأكلون بشهية مفتوحة ثم علّق قادر قائلاً إنّهم مستعدون ان يفعلوا أي شيء من أجل الحفاظ على وادي كفران، أيّدته مادلين قائلة بأن الانسان بدون عشيرة يضيع وتدوسه الأقدام. بعد الانتهاء من الأكل ومع بدء التدخين وشرب الشاي راحوا يرسمون الخطط للمستقبل، اذ انهم قرروا بالاجماع مغادرة السنجق في أقرب فرصة ممكنة، وذلك حفاظاً على حياة مادلين التي لا شك ان البحث عنها الآن قد بدأ بشكل محموم، ولاسيما لأن المقتول شخصية مهمة في المخابرات العسكرية. وسوف تعتبر الجريمة في كل الأحوال سياسية لها علاقة بأمن الدولة. تذكّر رستم حلمه القديم

فاقترح ان يسمَيها من الآن فصاعداً باسم «روناك» ووافقت مادلين على الاقتراح.

ارتدت مادلين الملابس التي استعارها رستم من ابنة خادمته العجوز ولفًت رأسها بشال أبيض مطرز بخيوط ذهبية، فزال منها كل اثر يدل على انها ابنة مدينة، قدَمها رستم للعجوز التي كانت قد انتهت من إعداد طعام العشاء بأنًها من بنات أعمامه العائشين في ديار بكر. وحين جاء الملا، بدأ بمراسيم عقد القران فوراً: يا روناك هل انت موافقة للزواج من رستم كريم زوراب؟

«نعم يا ملا».

«هل أرغمك أحد على هذا الزواج، أم هو باختيارك؟».

«أنًه باختياري يا ملا».

بعد البسملة والثناء والتبريك، أخرج ورقة صفراء كتب فيها سطرين بخط رديء ثم طلب من الشاهدين ان يوقعا عليها بإبهاميها. قال بعد أن وضع ختمه على أسفل الورقة، بالرفاه والبنين وعلى بركة اللّه. كان الملا، بعد ان انتهوا من تناول العشاء، ينتظر ان تتم الدخلة فتوقع انه سيبقى يشاركهم المجلس لفترة أطول، بيد ان رستم دس في يده مبلغاً من المال قائلاً بأن أهله في القرية ينتظرونه وان بقية المراسيم تتم هناك.

١٣

مضت ثلاث ليال على غياب رستم وقادر وعباس. وهذه هي المرّة الأولى التي يطول فيها غيابهم الى هذا الحد، دون ان يأتي أحدهم على الأقل لأبلاغ الأهل عن سبب الغياب، قال كريم بعد ان انتهوا من تناول طعام العشاء، هذه هي الليلة الرابعة، اننا يجب أن نفعل شيئاً. كانوا حائرين يضربون الأخماس بالأسداس، ولكن دون ان يتمكنوا من اتخاذ خطوة عملية. وقالت سنجان ان الأحلام المزعجة تكاد تجننها، ورأت ان أحسن طريقة هي الاتصال بخادمة رستم في السنجق، فلا شك انهم قد مروا عليها وتركوا عندها خبراً. وأمّا حمه غريب فيحلف بأغلظ الايمان، بأن الحكومة قد ألقت عليهم القبض وارسلتهم إلى الجبهة. رأى كريم ان الاقتراح العملي الوحيد هو ما ذكرته سنجان، ولكنهم اذا تحركوا الآن باتجاه السنجق فلا يصلون إلاّ بعد منتصف الليل، ولذلك قرّروا ان يرحلوا في منتصف الليل كي يبلغوا السنجق فجراً. وكان الملا أسطة حسين علي يهدِّئهم مؤكِّداً بأن لا خوف عليهم، إنّهم شباب ويعرفون جيداً كيف يتصرفون، وانه فهم من رستم بأنه ما زالت له صفته الرسمية. وظلّوا يناقشون إلى وقت متأخر. في هنيهة صمت، دوت عدة اطلاقات، شاقة سكون الليل بعنف. قاموا من أماكنهم بصورة لا ارادية متوجهين إلى الباب الخارجي، أكّد كريم بأن الاطلاقات صادرة من بندقية عباس: يا الله يا ستار. كان وقع حوافز حصان عباس الذي يشق الظلام مثل السهم، هو الوحيد الذى يسمعونه في سكون الليل. قفز عباس من ظهر حصانه وقال لاهثاً: «عفاريت، عفاريت، عفاريت... أحاطوا بنا من كل مكان...». عانقه كريم مهدئاً إيّاه: «وأين رستم وقادر؟».

«كانوا طيبين معنا، دعونا إلى حفلة عرس، ولكنّني خفت وهربت. أما رستم وقادر فقد ذهبا معهم».

ثم هدّأهم مؤكّداً بأن رستم كان هادئاً جداً، وانه بعد ان تلا بعض الآيات القرآنية، استقبله رئيس الجن بنفسه ودعاه الى حفلة قال انهم سيقيمونها في كهف الجنية (في).

سأله الأسطة ملا حسين علي بعد ان قدّم له اللبن وغسّل وجهه متمتماً بالآيات القرآنية ما اذا رأى الجن فعلاً بأم عينيه أم انه يهلوس، لم يعر عباس اهتماماً بسؤاله وواصل كما لو انه لم يسمعه: كانوا بأشكال وأحجام مختلفة، بينهم عمالقة تنطح رؤوسهم السماء وأقزام لا يتجاوز طولهم الشبرين، وكانت هناك جنيات جميلات يسرن في المقدمة، وسمعت رستم يقول لقادر انه

لن يعود إلى البيت اذا لم يلق القبض على واحدة منهن. قال حمه غريب وهو ينقر على الدف: هيا يا قوم لنتوجه إلى هناك قبل فوات الأوان.

تذكَر كريم تجربته المريرة مع الجنية (في) ومن ثم مع السيد وقال للأسطة ملا حسين علي بأنه خائف جداً على رستم وقادر. أكّد له هذا بأن رستم قد حفظ القرآن وله من المعرفة ما تكفيه لمواجهة مثل هذه الظواهر. وقبل ان يتوجهوا إلى المكان بالذكر والنقر على الدفوف. حكى لهم كريم بالتفصيل كيفية لقائه في حينه بالجنية (في) التي كانت محاطة بجيش من العفاريت والجن. امتنعوا من أخذ عباس معهم، وكانت سنجان وفاطمة والنساء الأخريات يبسملن ويرشن الماء وراءهم.

ساروا بمحاذاة نهر آوه سبي الذي كان يجري هادئاً، يبعث في أماكن مختلفة خريراً رقيقاً يكاد لا يُسمع ويختلط بنداءات، اللّه أكبر، لا اله إلاّ اللّه، اللّه حي وبدقات الدفوف. ولما كان حمه غريب قد مضت عليه فترة غير قصيرة دون ان يتمتع بحالات الذكر، لذا وجدها فرصة سانحة لكي يعوض ما فاته، بعد ان أكّد أكثر من مرة بضرورة الانقطاع نهائياً عن المدينة، التي لا تجلب سوى الشؤم وغضب اللّه والعودة الى التكية وعالم الذكر . الأسطة ملا حسين علي بين مصدّق ومكذّب، بيد ان الضربات المنتظمة على الدفوف التي تتوافق مع نداءات اللّه أكبر وتبدو كما لو ان النجوم تردّد صداها، جعلته من حيث يريد أو لا يريد ان يقع في نشوة روحية نقلته الى علم البابائيين نشأ فيه، فأطلق صرخة شقت الليل: «يا علي...» ثم راح يسابق حمه غريب استطاع ان يُخضع الجميع لإيقاعات ذكره. ومن بعيد تراءى لهم شريط من الأضواء التي تتراقص على ضفة النهر، اذ ذاك ازدادوا حدّة وحماساً وراحوا يسرعون من خطواتهم. عندما اقتربوا من المكان، أحسَّ كريم برهبة فأوعز لهم ان يقفوا ويكفوا عن الذكر وسرعان ما أطبق عليهم الصمت. نادى كريم بصوت عال: رستم، قادر، أين أنتما؟ هل تسمعاني؟. بعد برهة قصيرة شق صوت قادر السكون: عمّي كريم، ابقوا حيث أنتم، لا تتقدموا، انتظرونا حيث أنتم. تنفس كريم الصعداء، ولكن خوفه على رستم لم يفارقه. سمعوا حوافر حصان يعدو بسرعة مقترباً منهم. قفز قادر من على ظهر حصانه لاهثاً، تلقفه كريم معانقاً ومستفسراً عن رستم:

«لا تخافوا كل شيء على ما يرام. لم يصبنا أي سوء. لقد حولهم رستم كلهم بآية واحدة إلى مجرد أضواء ترونها بعيونكم، وسمعته في ظلام الكهف يقول انه تمكن أن يمسك جنية». وحين أرادوا أن يبدأوا بالذكر منعهم قادر مؤكداً بأنهم بذلك سوف يفسدون الوضع على رستم، قال حمه غريب مرتبكاً:

«وماذا تريدنا أن نفعل، إلى متى نظل هنا منتظرين؟».

أجاب قادر بحدة:

«سننتظر إلى أن يأتي رستم بنفسه، وهذا ما يريده هو». وبعد هنيهة التفت إلى كريم مضيفاً: «وعباس؟ هل وصلكم بسلامة؟ عرف رستم انه لا يستطيع تحمُّل ما رأيناه، لذلك طلب اليه الذهاب إلى البيت وإلاّ أُصيب بالجنون».

قال الأسطة ملا حسين علي وهو ما انفك يردّد اللّه أكبر، يا علي:

«ألم أقل لك يا كريم آغا بأن رستم يحفظ القرآن وانه لا خوف عليه». عقب كريم بزهو: «آه لو كان المرحوم والدي حيًّا، ورأى ما يفعله حفيده رستم، لقد تحقّق تنبؤ العرّافة الغجرية».

بعد انتظار وجيز ساده القلق والتوتر، سمعوا صوت رستم وهو يتسرب إليهم بانفعال من خلال الظلام:

«قادر هل تسمعني؟». صاح قادر بأعلى صوته بأنه يسمعه فليقل ما يريد:

«لقد أمسكت بالجنية، وهي الآن بين يدي، قل لأهلي ان يجهزوا لها غرفة خاصة، وان لا يقوموا بأي ضجيج وإلاّ فإنّها ستفلت من يدي».

قال قادر بصوت أعلى:

«إنّهم ينتظرونك هنا».

«قل لهم أن يذهبوا إلى البيت وإلاّ فإنّها ستفلت من يدي، جهّزوا لها غرفة خاصة، أنا في طريقي إلى البيت».

قفز قادر على ظهر حصانه قائلا انه الآن ذاهب الى البيت، فإن كنتم تريدون ازعاج رستم فابقوا هنا ثم أطلق قوائم الحصان للريح. اراد كريم ان يصيح على رستم، ولكن الأسطة ملا حسين علي منعه قائلاً إنّهم يجب ان يسيروا الى البيت ويكفوا عن التدخل في شؤون رستم.

قبل ان يبلغ الرهط القرية، كان قد سبق لرستم ان وصل البيت سالكاً طريقاً آخر. وكانت سنجان هي المرأة الوحيدة التي خوّلها رستم العناية بالجنية التي غطّت وجهها بشال أبيض. وبكل هدوء اتخذ رستم وقادر وعباس أماكنهم في المضيف بانتظار الرهط الذي كان يجتاز الممر الصاعد الى قرية بانشاخ ببطء وتوتر وحيرة.

١٤

بعد رحلة متعبة استغرقت اربعة ايام بلياليها ونهاراتها بلغت فصيلة فرسان وادي كفران مع مجموعة أخرى من فصائل فرسان العشائر العربية والكردية التي تجمعت في مناطق جبل حمرين ودلتاوه، منطقة باب الشيخ في بغداد. كانت الجماهير الحاشدة أمام تكية ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني ترفع الاعلام وتوزع الماء والأكل على الفرسان المجاهدين الذين قطعوا المسافات الطويلة وجاؤوا إلى بغداد للجهاد في سبيل الله والدين والوطن. وكان الشعراء والخطباء يلقون القصائد والكلمات الحماسية ويدعون لمحاربة الانكليز الكفار.

أحاط العريف سعدالله وشيخو بالفصيل من الجانبين وأكّدا لكل من هابو وميرزا بعدم الابتعاد عنهما، وإلاّ فإنّهما اذا ضاعا في هذا الزحام فلن يعثر عليهما أحد. وأمّا السيد الذي بدا نشيطاً متحمساً، فكان يترجم معاني القصائد والكلمات بتصرف لأفراد الفصيل. عندما اقتربوا من بوابة التكية، رفعوا أحدهم على الأكتاف وراح يلقي قصيدته هازاً قبضته في الهواء:

أيُــــهـــا الـــــشـــعـــب الـــعـــزيـــز
نـــيـــــجو عـــــرض الانــــكـــلـــيـــز
الـــــقـــــائــــد الانــــكـــلـــيـــزي
شـــــواربــــــه مــــن شـــعـــر طـــيـــزي

هزّ السيد رأسه بعدم ارتياح. استغرب رمضان لعدم مواصلة السيد لعملية الترجمة، فتساءل ما اذا كانت القصيدة تؤيّد الانكليز، هزّ السيد رأسه باستنكار قائلاً، هذا ما شعر يا رمضان، هذا فشار. لم يفهم رمضان معنى كلمة فشار ولكنه عرف من استياء السيد انه شيء غير مرغوب فيه.

كان العريف سعدالله يقود بالأضافة إلى فصيلة فرسان وادي كفران، أربع فصائل أخرى. تمّ حشر كل فصيلة في غرفة صغيرة من الغرف المطلة على ساحة التكية. بعد حديث قصير بين العريف سعدالله والضابط التركي الذي تسلّم قيادة فصائل المجاهدين، جمع الأول فصائله الخمس وأبلغهم بأنّ الانكليز قد احتلوا الجنوب وهم في طريقهم الآن إلى بغداد، وانهم سيقضون ليلتهم هنا على ان يستيقظوا غداً في وقت مبكر جداً، حيث من المحتمل أن تجري المعارك الضارية في جنوب بغداد. وأكّد على ان المعارك قد تكون عنيفة جداً، ورغم ان أسلحة الانكليز متفوقة، فإنّ إيمان الجيش العثماني والمجاهدين هو الأقوى.

بعد انتظار طويل جاء دور فرسان فصيلة وادي كفران لزيارة مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني. علّق رمضان بعد انتهائهم من قراءة الفاتحة بأنّ أمنية عمره في زيارة الضريح قد تحققت فلا يهمه من الآن فصاعداً أي شيء آخر. كرّر ميرزا وهابو والسيد الكلام نفسه وأرادوا أن يبقوا فترة أطول، بيد ان سادن الضريح ألمح لهم بأدب بأن الآخرين يريدون ايضاً التبرك بالشيخ.

كانت ساحة التكية الواسعة تضج بالحركة وتزدحم بالناس من أنواع الجنسيات، ولا سيما من الهنود والافغان. اعتقد هابو ان هؤلاء الذين يشدُّون رؤوسهم بعمائم ملونة ويرتدون الملابس الشبيهة بملابسه إنّما هم من أكراد هورمان، فالتفت إلى ميرزا قائلاً باستغراب انه ما كان يعرف بأن عشيرة هورمان كبيرة الى هذه الدرجة. صحّح ميرزا معلوماته مؤكّداً بأنهم ليسوا كلهم من الهورمان، بل جزء منهم فقط جاء من هناك. بصورة لا ارادية سحب ميرزا من يده قائلاً، هيّا لنسألهم عن أوضاعهم، إنّهم من أقاربنا. وحين أراد الابتعاد عن المجموعة أوقفهما شيخو محذراً إيّاهما بأن العريف سعدالله قد أعلمه بوجود نشّالين في كل مكان. علّق رمضان ساخراً بأنّه حتى الأعمى يستطيع أن يُميِّز بأن هؤلاء ليسوا أكراداً. أصرَّ هابو على رأيه. حسم السيد الأمر مقترحاً على هابو بالاستفسار ما اذا كانوا هم فعلاً من أكراد هورمان. تدخل شيخو قائلاً بأن المسألة قد تحولت إلى مراهنة والذي يخسر يجب أن يشتري حلوى. علّق السيد فرحاً، رحم الله والديك يا شيخو بك. وافق الاثنان على الرهان. توجّه هابو إلى أكثر من ثلاثة مستفسراً بلهجة اللك ما اذا كانوا ينتمون إلى عشيرة هورمان، فيهز الرجل رأسه دون أن يفهم كلامه، وحين أراد ان يتوجه الى شخص رابع، قال له شيخو، لا يا عمّي هابو لا، لقد خسرت الرهان. وقفوا أمام بائع حلويات بالقرب من البوابة، وراحوا يتناولون حلوى مصنوعة من التمر والسمسم على حساب هابو الذي دفع الثمن بزهو. بعد جولة قصيرة في منطقة باب الشيخ عادوا إلى غرفتهم. أمّا العريف سعدالله فقد ذهب مع الضابط التركي لحضور اجتماع يتعلق بالشؤون العسكرية. كانوا متعبين جداً، فما ان انتهوا من تناول عشائهم المتكوّن من حساء العدس وقرصة خبز لكل نفر، إلاّ وتمدَّد كل واحد في مكانه ينفث الدخان بكسل وتراخ. واستسلموا للنوم العميق الذي افتقدوه منذ أيام.

١٥

عندما بلغ الرهط البيت، كاد كريم يفقد أعصابه لعدم التحاق رستم بهم، فصاح بأعلى صوته على قادر وعباس، مُبْلغاً إيَّاهما بأن رستم قد اختفى نهائياً. وقبل أن يتوجهوا إلى المضيف، جاء صوت رستم من هناك وهو ينادي بأعلى صوته:

«أنا أنتظركم هنا يا بابا».

اعتقد الجميع بدون أي شك بأن رستم قد تحوّل إلى ولي صالح من أولياء اللّه، سحب حمه غريب سيفه وراح يهزه في الهواء مثل المجنون ويصيح: لا إله إلاّ اللّه، محمد رسول اللّه... اللّه حي، اللّه حي... ويدأ يدور في حلقة مفرغة من الذكر. لم يستطع كريم أن يتمالك نفسه، فسرعان ما انضم اليه. وشكّل الجميع صفاً دائرياً راح يتحرّك ويتماوج مع نقرات دف حمه غريب.

جهزت سنجان نعجة من نعجاتها كقربان لعودة الأولاد بسلامة. في الوقت الذي انشغل فيه عباس بذبح النعجة، جرَّ قادر الدف من يد حمه غريب وطلب اليهم الكف عن الذكر. عانق كريم ابنه رستم وهو يمرِّر يده على وجهه ويحدق إليه ليتأكّد من انه لم يُصَب بأذى من الجن. روى لهم رستم وقادر بالتناوب بكل تفصيل قصة لقائهما بالجن وكيف أن رستم دخل في نقاش طويل مع رئيسهم الذي وافق على ذهاب الجنيَّة مع رستم بعد ان عقد قرانهما بنفسه وتمنى للجنيَّة حياة مرفهة وسعيدة بين الانس، وأكَّد قادر بأن رئيس الجن قد حذّر رستم من أنَّ أي معاملة سيِّئة لها ستؤدِّي إلى اختفائها وحلول اللعنة على العشيرة كلها.

تساءل حمه غريب وقد جحظت عيناه من التحديق في وجه رستم:

«أما كان بامكانك جلب أكثر من جنِّية واحدة يا رستم؟».

«مستحيل يا ابن عمِّي حمه غريب، لقد قرأت القرآن لهم عدة مرات، حاولنا ان نمسك جنية أخرى لقادر، ولكن رئيس الجن حذَّرنا بأنَّ أية محاولة أخرى ستكلفنا حياتنا».

علَّق كريم بزهو قائلاً بأن ما لم يحققه هو ووالده المرحوم زوراب وأجداده، قد حقَّقه ابنه رستم بجدارة، لو كان زوراب حيًا الآن لطال عمره إلى مائة عام من فرط سعادته. وعندما أرادوا ان يخوصوا في الحديث حول ما سمعوه أو عاشوه من القصص مع الجن والعفاريت، قال لهم انهم الآن ليسوا في معرض رواية القصص إنَّهم يجب أن يرقصوا ويبتهجوا لمناسبة زواج رستم.

أراد كريم وحمه غريب إطلاق النار في الهواء، بيد ان قادر منعهما مؤكّداً بأن رئيس الجن قد

قال انه لا يريد ان يسمع سوى اطلاقة واحدة وذلك إيذاناً بانتهاء عملية الدخلة وبعد اثبات كون الجنية عذراء. مع دخول رستم الغرفة المخصَّصة للجنية، أطبق عليهم صمت عميق. سحب كريم قادر من ذراعه بخفة الى ركن وهمس في أذنه مستفسراً ما اذا كانت الجنية هي جنيتهم المعروفة (في)، أم انها جنية أخرى، أجاب قادر ان هذا السؤال لا يمكن أن يجيب عليه سوى رستم نفسه، ثم رجاه ان تبقى مسألة الجنية سراً داخل العائلة فقط، لأن رئيس الجن لا يحبذ نشر الخبر بين الناس، إذ حسدهم لا يجلب سوى الشر والشؤم.

بعد فترة وجيزة خرج رستم وبيده قطعة قماش أبيض عليها بقعة حمراء. وراحت النساء يزغردن، وبدأ الرقص والغناء. ودوت اطلاقة واحدة من بندقية كريم شقَت سكون الليل. من فوق السطح راقبوا الأضواء التي كانت لا تزال تتلألأ، التفت كريم من بحيرةٍ إلى رستم متسائلاً عن سرّها، فأجابه، إنّهم يشاركوننا أفراحنا. أراد كريم أن يبقى فترة أطول على السطح لعله يرى شيئاً ما، بيد ان رستم طلب الكف عن مراقبتهم، لأنهم اذا عرفوا بذلك فسينزعجون. وقال: غداً مع شروق الشمس يحق لكل فرد من أفراد العائلة القاء نظره على الجنيَّة. لم يتحمل رستم مواصلة الرقص والغناء معهم، دفعه شوقه إلى مادلين التي كانت قد تحولت إلى جنيَّة حقيقية. في ضوء الشمعة الصفراء الكبيرة التي شاهدت ليلة دخلة زوراب، حلت عقد شعرها الكستنائي الطويل الذي انتشر فوق نهديها، وألقت ثوبها الأبيض الطويل جانباً وتمدَّدت عارية على ظهرها وهي تقول بصوت خافتك هيا أسرع، لن أتحمل أكثر. قال وهو ينزع ملابسه بسرعة: مادلين، هذه آخر مرة، تسمعين فيها هذا الاسم، لقد اختارت لك جدَّتي سنجان اسماً جديداً وهو «فريشته»، وتعني الجنيَّة. طوَّقته بساعديها بقوة وراحت تتدحرج به قائلة: «إنَّني اذن فريشته، وأنت؟». لم ينطق، بل راح يلثمها ويدفن وجهه في جسمها. وواصلت هي: «أنت ابليس لم أجد له مثيلاً...».

١٦

عندما جاءهم العريف سعدالله جذلاً وفرحاً على غير عادته، كانوا قد أدُّوا صلاة الفجر وتناولوا فطورهم، أخبرهم، بأنَّهم سيظلون ليلة أخرى في بغداد على ان يسافروا غداً باتجاه الجنوب لأخراج الانكليز نهائياً من البلاد. وأمَّا اليوم بغداد كلها ستخرج إلى الشارع لمناسبة القضاء على الانكلين، وسيحتفل الناس طيلة النهار لمناسبة أسر الجنرال الانكليزي طاوزند في معركة الكوت. وبعد ان تحدَّث عن الأوضاع باقتضاب، وجَّه كلامه إلى شيخو طالباً منه ان يهيئ نفسه للقاء مهم جداً، اذ ان القائد التركي خليل بك الذي تمَّ تعيينه والياً على بغداد يريد اللقاء برؤساء العشائر الذين أعلنوا الجهاد. وسوف يتولّى عاصم بك رئاسة وفد جماعة السنجق وكركوك. «إنَّه يريد أن يتحدث اليكم مباشرة». نظروا كلهم إلى شيخو الذي فُوجئ بالخبر بذهول وتساؤل. علَّق السيد: «ان شاء اللّه بيها الخير، ببارك اللّه فيك يا شيخو بك». استفسر ميرزا: «وأنتَ يا سعداللّه أفندي؟ هل تذهب معهم؟». ابتسم بسخرية قائلاً إنَّه يجب أن يبقى معهم ثم ان عريفاً بسيطاً مثله لا يحق له الجلوس مع قائد كبير مثل خليل باشا.

جاءهم بعد الظهر ضابط تركي بعربات تجرّها الخيول، وعندما اتخذ شيخو مع رؤساء العشائر الآخرين مكانه في إحدى العربات المكشوفة، التفت ميرزا إلى رمضان قائلاً: «سبحان اللّه، اذا أعطانا اللّه العمر، فسنرى أشياء كثيرة أخرى». أكَّد عليهم العريف سعدالله أن لا يبتعدوا كثيراً. كانت الحشد لا زالت تتكاثر وتهتف بلا كلل بحياة خليل باشا وسقوط الجنرال الجبان طاوزند الذي أمسكه الأول مثل الخروف.

في صالة وسيعة ببناية القشلة جلس رؤساد العشائر العربية والكردية في صفوف طويلة بانتظار القائد التركي خليل باشا الذي لم يدعهم ينتظرون طويلاً. بدا لهم متواضعاً هادئاً، قال انه باسم اللّه تعالى و بمعونة المجاهدين الذين وضعوا أرواحهم بأيديهم تمكَّن من دحر الانكليز في الكوت وان قائدهم طاوزند الآن أسير لديه وهو يتواجد في غرفة قريبة لا تَبعد من هنا أكثر من عشرين خطوة. أخذ جرعة من الكونياك المختفي في فنجان القهوة، وراح يتكلم بدون انقطاع عن علاقته بأنور باشا والحروب التي خاضها في البلقان ضد الروس، وكيف أن هؤلاء يسمونه بالزئبق. عبَّ الكونياك من فنجان آخر قدَّمه له مرافقه، أشعل سيكارة أخرى وواصل:

«تصوَّروا، هذا الخروف طاوزند، الذي يُسمُّونه بالجنرال الانكليزي أراد أن يرشيني، كي يخلص جلده. هل تعرفون كم عرض عليَّ؟ مليون ليرة استرلينية... انَّني يجب أن أروي لكم القصة

بكاملها، لأنكم انتم أصحاب هذا البلد، ويجب ان تطّلعوا على كل ما يجري فيه. انا كتبت له مباشرة، قلت... أرى انكم قد أدركتم انه لم يعد أمامكم من طريق للخلاص وليس في صالحكم الإصرار على إدامة الحصار. وبالتالي فإنكم ستجبروننا على القيام بهجوم حاسم. الأمر الذي سيؤدّي إلى نكبة تامة لجندكم. ولقد شاهدتم بدوركم، كم هي عالية معنويات جيشنا. وعليكم، دونما إصرار، أن تستسلموا أيُها الجنرال. أرسلت له الخبر في أوانه، لم يمر بعض الوقت إلاً وتلقيت الرد منه. اقترح عليّ لقاءً شخصياً لتثبيت شروط الاستسلام.

عبَّ جرعة من الفنجان وعدَّل من جلسته:

هرعت على الفور إلى زورقي ذي المحرك الراسي عند شاطيء دجلة(*).

وكان الجنرال طاوزند قد استقل زورقه واتجه نحوي. وفي نهر دجلة، على نحو الذي اتفقنا عليه، عقدنا اول تماس بيننا، وسط خط النار التركي- الانكليزي. بعد الترحيب والمقدمات قال، إنّني أقترح عليكم شيئاً، قلت أنا مصغ اليكم أيُها الجنرال. وواصل طاوزند كلامه كمن وقع في وضع محرج: اقتراحي هو الآتي: لا تأخذوا جيشي الذي عانى من الجوع وأصابه الاعياء في الحصار الذي دام خمسة أشهر، أسيراً. ومقابل ذلك سأعطيكم ضمانة الشرف حول عدم استخدام الجيش الموجود في أمرتي للسلاح ضد تركيا حتى نهاية الحرب. وسأترك لكم كل ما في حوزتنا من مدفعية وبنادق. وسأتوجّه مع جندي المجردين من السلاح إلى الهند، وإذا وافقتم على ذلك... كان الجنرال طاوزند يتطلّع إلى وجهي بتلهف وقلق ليتبيَّن مقدماً كيف سأُقابل اقتراحه. ورجوت منه أن يكمل حديثه قائلاً: حسناً، واذا وافقت على ذلك... وتقدَّم الجنرال الانكليزي باقتراح قد يكون مغرياً كثيراً بالنسبة لآخرين في أي موقف غير الموقف الذي أنا فيه، قال: سأدفع لكم بواسطة بنك معتبر تريدونه مليون ليرة استرلينية. كان ذلك اقتراح رشوة على نحو مكشوف، ولكن لم يكن من حقّي ان اتهم جنرالاً للعدو مضطراً، لتوسله بحل من هذا القبيل، وكان ردّي عليه: «أيُها الجنرال، لسنا بحاجة الى المدفعية ولا الى الذخيرة، وكان عليكم أن تخمنوا رفضي القاطع للمال الذي اقترحتموه.

علّق أحد الشيوخ العرب بحماس: «عفارم عليك يا خليل باشا، واللّه رفعت رأس الدولة والدين». وردَّد آخرونك «ببارك اللّه فيكم يا باشا، بارك اللّه فيكم...».

ارتشف خليل باشا جرعة من الكونياك من الفنجان، أشعل سيكارة أخرى وراح ينظر حواليه بزهو: فقلت له، أيُها الجنرال، لقد طالت الحرب. ان تعرَّض معنوياتك إلى بعض الهزات أمر طبيعي، ولتعديل هذه المعنويات المنهارة، يتعيَّن ان نأسركم مع قواتكم. أرجو ان تعتبروني معذوراً. على انني أريدكم ان تكونوا على ثقة من انكم ستعاملون ببالغ الاحترام. وسآمر بأن تطبَّق بحقكم معاملة الضيافة ذاتها التي عُمل بها الغازي عثمان من قبل روسيا القيصرية. كان

الجنرال طاوزند يحاول اخفاء حيرته، وفي ظنّي، انه لم يكن يتوقع تلقّي مثل هذا الرد مني. وافترقنا دون أن نصل الى قرار حاسم. بيد انني لم أنسَ ان أقول له أثناء لقائنا، انني أستطيع أن أمهله لمدة ٢٤ ساعة فقط لقبوله بالاستسلام. لا أطيل عليكم القصة، لقد أسرته هو وأربعة جنرالات مع ١٤٠٠٠ جندي...

كانت جماعة شيخو متعبة، وتتمنى العودة إلى وادي كفران، بيد ان شيخو حين روى لهم هذه القصة امتلأوا حماساً وقرّروا ان يذهبوا إلى أبعد مكان من أجل محاربة الانكليز الكفار.

١٧

استيقظ وادي كفران في اليوم الثاني على خبر القاء رستم على جنِّية بالقرب من كهف الجنية (في). وكان كل فرد داخل العشيرة يؤكِّد على ضرورة ابقاء الخبر سراً فيما بينهم. وأكَّد الجميع ان هذه انما علامة خير وبركة وسوف تجلب الحظ وحسن الطالع لكل العشيرة. وراح الكبار في السن يروون أنواع القصص عن الجن والعفاريت. وبأن هذه ليست المرة الأولى التي يتم فيها القاء القبض على جنِّيَّة، فقد سبق أن ألقى ناله كوركه نفسه القبض على عفريت كان يأتي كل ليلة ويأخذ بغاله لتشغيلها طيلة الليل ثم يعيدها فجراً، وبالاضافة لذلك كان يحلب بقراته وأغنامه. ولما أحسَّ ناله كوركه بأن العفريت يستعمل حصانه لركوبه الشخصي، طلى ظهر الحصان بالقار وانتظر قدومه. وحين قفز العفريت على ظهر الحصان، التصق بالقار فهجم عليه ناله كوركه ممسكاً إيَّاه، وأسره بشك ابرة في قميصه. لم تفد العفريت توسلاته لتحريره بنزع الدبوس من قميصه للعودة إلى أهله. بقي حوالي السنة يعمل عند ناله كوركه الذي عطف عليه لتوسلاته الكثيرة وكونه صاحب عائلة كبيرة فأطلق سراحه.

كانت فاطمة وسنجان واقفتين أمام الباب تنتظران خروج رستم، الأولى تخشى أن تسلب الجنيَّة قلب زوجها من جديد فتصرفه عنها، والثانية تعتقد ان رستم سيخرج من غرفته بدونها، اذ لا شك انه قد نسي أن يشك قميصها بدبوس، الأمر الذي سيسهل لها التواري بسهولة. عرفت سنجان بما يدور في رأس فاطمة فراحت تطمئنها بأن الجنيَّة انما أرسلت خصيصاً لرستم الذي حفظ القرآن، وبأنَّ أي رجل آخر يمسها غير رستم سيؤدِّي إلى اختفائها إلى الأبد. سألت فاطمة ما اذا كانت الجنيَّة «فريشته» ستتناول فعلاً الفطور الذي أعدتاه، لأنها سمعت من كريم بأنه كان احياناً يقضي النهار كله معها دون أن تأكل شيئاً. أجابت سنجان بكل ثقة بأن الجن يأكلون تماماً مثل البشر، وهم يحبون اللحوم بالدرجة الأولى ويشربون الحليب بدل الماء، ومع ذلك يستطيعون الاستغناء عن الأكل لشهور طويلة.

بعد انقضاء تسعة شهور، مرت بسرعة فائقة شبَّهها رستم بسحابة صيف، أنجبت مادلين ولداً، بيد ان القدر لم يمهلها للتمتع بالطفل، حيث وافتها المنية على اثر الوضع. قيل ان الجنيَّة (في) هي التي سلبت روحها. كان ذلك في ليلة شتائية باردة. بكى رستم في تلك الليلة لأول مرة في حياته وخيَّم الحزن العميق على الكل، لم يبقَ في العشيرة انسان سواء كان صغيراً أو كبيراً دون أن يذرف الدموع على فريشته الجميلة التي كانت تداوي الجروح وتشفي المرضى وتعيد

الخصوبة للعاقرات. بعد اسبوع من دفنها رأى الناس ليلاً شعاعاً قوياً يصدر من قبرها ويضيء جميع أرجاء وادي كفران. ثم بدأ الشعاع بالظهور في كل ليلة جمعة بانتظام، وراح الناس يقفون بخشوع إلى أن يتلاشى عمود النور من فوق القبر الذي تحوَّل إلى مزار يؤمه ليس فقط أهالي وادي كفران، بل حتى أفراد العشائر المجاورة.

بعد انقضاء يوم على دفن مادلين، حدث أمر لم يكن في الحسبان وكاد أن يؤدِّي بفاطمة إلى الجنون، إذ انها عندما أرادت أن تقوم بإرضاع الوليد، حدَّق هذا إلى وجهها بعينين حزينتين وقال بصوت رقيق: «خالة فاطمة، أين أُمي ؟ لماذا لا ترضعني هي؟ هل هي غاضبةمنِّي؟». ألقت فاطمة الطفل بصورة لا ارادية جانباً، وقفزت من مكانها مذعورة وهي تصيح بأعلى صوتها: «خالة سنجان، خالة سنجان، الطفل يتكلم، الطفل يتكلم...». في فناء الدار تجمَّع الكل حولها معتقدين انها قد أُصيبت بمس من الجنون. وراحت تؤكِّد بأنها ليست مجنونة ابداً وانهم يمكنهم التحدث مع الطفل نفسه كي يقتنعوا بكلامها. لم تستغرب سنجان الأمر، وقالت انه لشيء طبيعي جداً أن يتحدث ابن الجنية في المهد. وحين أعلم رستم الطفل بأنَّ أُمه قد ماتت، أجاب بصوت حزين والدموع تنهمر من عينيه الصغيرتين: «سأتَّخذ الخالة فاطمة اذن أُمًّا لي...».

تضاربت الآراء حول ما اذا كانت هذه المعجزة ظاهرة حسنة أم نذير سوء. وانقسم أفراد العائلة الى فريقين، فريق يطالب بقتل الطفل وآخر يريد الاحتفاظ به. ولمَّا كان الغجر قد حطُّوا رحالهم تلك الأيام على ضفة نهر آوه سبي. رأي كريم ان أسلم طريقة لمعرفة الحقيقة هو الذهاب إلى شيخ الغجر واستشارته في هذا الموضوع ومن ثم تقرير مصير الطفل. كانت والدة الشيخ التي سبق لها ان عالجت الشيخ زوراب نفسه قبل أعوام طويلة ما زالت على قيد الحياة. بعد ان اختلت بالطفل وحرَّكت أحجارها وعظامها على اللوح المغطَّى بالرمل، قالت بأنها لا تستطيع ان تجزم ما اذا كان هذا الطفل سيكون مصدراً للخير أم للشر، ولكنها اقترحت عليهم ان يتخلصوا منه دون ان يقتلوه.

«كلام غريب، ان نتخلص منه دون ان نقتله»، قال ذلك الأسطة ملا حسين علي الذي استسخف رأي الغجرية، واعتبر الطفل معجزة تضاهي عملية إلقاء القبض على الجنيَّة المتوفاة فريشته. وبعد مداولات ومجادلات طويلة أرادوا ان يعرفوا رأي رستم، الذي كان لا يزال تحت تأثير الصدمة القوية لوفاة زوجتة:

«رغم انه سبب وفاة زوجتي، فأنا لست إلى جانب الحاق الأذى بالطفل، إنَّه فلذة كبدي، ولكن العشيرة اذا كانت لا تريده فأنا لا حول لي ولا قوة تجاه قراركم، واللّه أرحم الراحمين».

كانت سنجان وفاطمة قد تعلقتا بالطفل وقرَّرتا ان تعملا المستحيل من أجل انقاذه، وطلبتا إلى رستم أن يقف موقفاً حازماً أمام الفريق الذي يطالب بقتله، وكان جواب رستم، الذي تغيَّر كلياً

وأصبح قليل الكلام يقضي وقته بالصلاة، بأن أي انسان لا يستطيع القضاء على حياة انسان آخر، إلاً اذا كان قد جاء أجله، وإنً الأعمار إنًما بيد اللّه، ولذلك فإنًه لا يخشى على حياة ابنه.

وضعوا الطفل في زريبة مليئة بالبغال والحمير لعدة أيام دون أن يرضعوه أو يلقوا عليه نظرة، أملاً أن يموت هناك جوعاً وتحت الحوافر. وعندما جاؤوا بعد اسبوع ليتأكًدوا من مصيره، وجدوه يمشي ويلعب مع الحيوانات التي كانت تطيعه بكل الفة.

هدًد قادر وعباس باستعمال السلاح ضد كل من يسيء إلى الطفل، وشجعتهما على ذلك سنجان التي وضعته تحت مراقبتها المباشرة. وبعد مداولات ومشاورات حامية، اقترحت سنجان ترك الطفل وشأنه لحين عودة شيخو والجماعة من الجبهة على أن يحسم شيخو مصير الطفل الذي سمُوه «ولي» بنفسه.

١٨

كانت شمس نهاية آذار من العام ١٩١٧ تسطع في السماء الزرقاء الصافية، وتبعث الدفء في أرجاء وادي كفران الذي تغطيه ألوان الربيع الزاهية. كانت أسراب البط البرِّي والحمام والقبج تخفق بأجنحتها، متنقلة بين جانبي نهر آوه سبي وتحط هنا وهناك غير آبهة بقطعان الخنازير الوحشية والغزالان الوادعة. كان رستم وقادر وعباس يقومون كعادتهم، بجولة في أرجاء وادي كفران الجبلي، فبعد ان أعدَّت لهم الجدة سنجان فطوراً قوياً، طلبت اليهم ان يتزوَّدوا بالزاد ويأخذوا معهم أكبر كمية ممكنة من العتاد، ويحاولوا الوصول إلى مشارف وادي كفران السهل. قالت لهم انها تحس في أعماقها بشعورين مختلفين، شعور بالفرح وشعور بالحزن ثم روت لهم حلمها: رأت شيخو قد عاد مع جماعته بعد ان انتصروا على الأعداء، ولكنهم كانوا غير سعداء رغم الانتصار ، قال لهم بأنَّهم انتصروا ولكن انتزعوا منهم رايتهم مع اثنين من أفراد فصيلة فرسان وادي كفران اللذين اختفيا، وظلُّوا يبحثون عنهما دون جدوى. أرادت سنجان في الحلم أن تعرف مَنْ هما هذان المفقودان، ولكنها قبل أن تعرف الحقيقة استيقظت من النوم. أكَّدت عليهم ان يأكلوا جيداً ويأخذوا معهم كمية كافية من الطعام ثم وضعت لكل واحد منهم حفنة تمر وخمس قرص خبز في خرج، وملأت لهم قربة باللبن، شدَّها عباس على بطن حصانه.

كان رستم منذ وفاة مادلين قبل أكثر من عام لم يحلق لحيته، وتضامناً معه أطلق قادر وعباس ليس فقط لحيتيهما، بل شعر رأسيهما ايضاً، وأعلنا عن نفسيهما كدرويشين من دراويش التكية البرزنجية التي زاراها قبل شهر برفقة كريم وحمه غريب، وأمَّا رستم فرفض الذهاب معهم بحجة أنَّه لا يؤمن بمثل هذه الخزعبلات التي يرفضها الدين. حاول قادر وعباس بمختلف الوسائل إخراج رستم من شروده وحزنه اللذين راحا يرافقانه منذ وفاة زوجته، وبعد ان حدَّثاه عمَّا شاهدوه في التكية البرزنجية وعن زيارتهم أقاربهم في قرية بناركل، قال قادر بأنَّه رأى هناك فتاة أجمل من الغزال، وان هذه الثمرة الناضجة لا يمكن ان يقطفها إلاَّ رستم. أيَّده عباس هو الآخر في رأيه وقال انه سمع العم كريم وحمه غريب يتهامسان فيما بينهما وينوهان لأقاربهم بأنَّ طريق هذه الفتاة سيؤدِّي إلى وادي كفران.

عبروا آوه سبي في عدة أماكن وقطعوا المسافة الممتدة من بانشاخ إلى جبل الامام علي وكل من قادر وعباس منهمك بوضع مختلف الخطط للحياة الزوجية المقبلة لرستم. ضحك رستم لأول مرة وطلب اليهما ان يفكرا بمستقبلهما هما ويبادرا بالزواج، فهو يستطيع تدبير مشكلته بنفسه،

وقبل أن يكمل كلامه سحبوا زمائم خيولهم بصورة لا ارادية وتقهقروا إلى وراء صخرة محتمين بها وهم يشهرورن بنادقهم. رأوا عدداً من الجندرمة وضباط مع زوجاتهم وأولادهم قد اتخذوا أماكنهم في أسفل الجرف على ضفة النهر، وكان كبيرهم، الذي قال رستم بصوت خافت انه جنرال، يتبادل الحديث مع ثلاثة رجال يمتطون جيادهم، شاهرين بنادقهم. فهم رستم من مجمل الكلام، بأن هؤلاء العسكريين قد هربوا بعد ان احتل الانكليز مدينة بغداد، وانهم في طريقهم الآن إلى استانبول وهم لا يريدون مقاومة أحد، وكل ما يريدونه هو الوصول إلى الأهل بسلامة.

بعد ان دقّق رستم وقادر وعباس في ملامح الرجال الثلاثة تأكدُّوا انهم ليسوا من وادي كفران وانهم دخلاء ولا يحق لهم المس بحرمة المنطقة، وقبل أن يقرِّروا أي شيء دفعهم فضولهم لمتابعة الحوار الدائر بين الجنرال والرجل الذي توسّط صاحبيه، قال الجنرال بهدوء:

«لقد أعطيناك كل شيء يا أخي فماذا تريد بعد، ألا تتركنا وشأننا؟».

أجاب الرجل المتجهم بنرفزة: «النقود، أين أخفيتها؟».

أومأ الجنرال برأسه إلى أحد مرافقيه، فأعطاه هذا كيساً صغيراً، أخذ الكيس فرماه للرجل الذي التقطه في الهواء قائلاً: «انها تكفي لمعيشة عشيرتك لمائة عام، والآن اذهب ودعنا بسلام».

«البندقية الرشاشة الموضوعة تحت ساق الرجل الجالس في يمينك، أريدها ايضاً». أشار الجنرال بحركة من يده للرجل الجالس إلى جانبه بأن يسلمه السلاح وقال: «هذه لك أيضاً، والآن اذهب وليكن اللّه في عونك».

ظلَّ الرجل المتجهم متسمراً على ظهر حصانه وهو يجيل نظراته في وجوه النساء الثلاث اللواتي كنَّ قد اتخذن أماكنهن وراء الرجال وكان لا يزال هو وصاحباه مصوبين فوهات ببنادقهم إلى الجالسين، قال مؤشراً بفوهة بندقيته: «هذه الفتاة الجالسة في منتصف السيدتين اريدها ايضاً وهذا آخر طلب».

التفت رستم الى قادر الذي شهر بندقية وطلب اليه ان يفجر رأس هذا المجرم الذي تجاوز حدوده وبأنّه لايريد ان يلطخ يده بدم هذا الدخيل الذي أساء إلى حرمة وادي كفران. ردَّد الوادي اصداء الدوي الذي شق السكون وانفجر الدم مثل النافورة من بقية الرأس الذي تطاير في الهواء، وراحت الجثة التي طرحها الحصان المذعور ارضاً تتراقص وتتلوى ثم استقرت على ضفة النهر الذي أخذ جزء منه يتلون بالأحمر. وأمَّا الرجلان الآخران فلاذا بالفرار بعد ان استمر اطلاق النار فوق رأسيهما.

وقف الجنرال وأتباعه في أماكنهم يلتفتون بحيرة يمنة ويسرة. بعد هنيهة هبطوا إلى أسفل

الجرف يتقدمهم رستم الذي قال بصوت بشوش:

«السلام عليكم ورحمة اللّه، ان هذا الرجل لم يعتد عليكم حسب، بل أساء الينا نحن على أرض عشيرتنا، وانتم اعتبروا أنفسكم ضيوفاً علينا لحين مغادرتكم لأرض عشيرتنا».

قال الجنرال بعد ان انشرحت أساريره: «بارك اللّه فيك وعشيرتك يا بني، لا أدري من أين نزل علينا هذا الغضب اللعين الذي اراد ان ينتهك حتى عرضنا».

«أنتم الآن في أمان، ولكنكم اذا صادفتم مستقبلاً مثل هذا الانسان، فلا تتساهلوا معه».

دعاهم الجنرال لتناول الشاي معهم، ولكنه اعتذر عن تقديم ما يؤكل لأنهم هم أنفسهم لم يأكلوا منذ يومين ،ان آخر قرصة خبز قد أكلها الأولاد هذا اليوم. قال رستم بعد ان نشر أقراص الخبز والتمر على قطعة قماش: «أنتم ضيوف وادي كفران، هذا الزاد كله لكم، نحن سنشرب شايكم وأنتم ستشربون لبننا».

علم رستم من الجنرال بأن بغداد قد سقطت نهائياً وان الانكليز قد احتلوا بلدة طوزخورماتو التي تقع وراء جبل الإمام علي مباشرة، ولكنهم لم يتمكنوا من احتلال بلدة كفري، وهم سيجعلون من طوزخورماتو نقطة انطلاق للزحف نحو كركوك. وأكّد انه لا جدوى من المقاومة، ذلك لأن الجيش الانكليزي مزوّد بأحدث الأسلحة بالاضافة لإمتلاكه كميات كافية من العتاد والذخيرة والمؤن، وأمّا أفراد الجندرمة التابعين للجيش العثماني، فإنّهم قد تحوّلوا بفضل الخيانة إلى شحّاذين.

تساءل رستم ما اذا كانوا يعرفون شيئاً عن مصير المجاهدين، فأجابة الجنرال بأنّ الاندحار والانسحاب كانا عنيفين جداً، وان الأوامر قد أُعطيت للجميع بأن يتصرف كل فرد على هواه، ومنحهم الأمل مؤكّداً بأن المجاهدين، ولاسيما الكبار في السن لم يدخلوا أي معركة حقيقية، وانهم لا شك سيرجعون.

كان الجنرال يستعين بخريطة نشرها على الأرض ويريد الوصول إلى أورفه دون المرور بكركوك والموصل، فاقترح عليه رستم باتخاذ أقصر طريق يؤدّي إلى اربيل، غير مرسوم في الخريطة، وقال الجنرال انه اذا وصل الى هناك فإنّه سيلتحق بالحامية العسكرية التي يجب ان تنسحب هي الأخرى قبل وصول الانكليز.

عندما افترقوا علّق قادر بسخرية «اذا كان قاطع طريق مثل هذه الفطيسة يقطع الطريق عليهم بسهولة ويسلبهم نقودهم وسلاحهم، فلا غرابة ان ينهزموا مثل الأرانب أمام الانكرين». قال عباس بحيرة: «ان ما يهمني انا هو مصير هذه الجثة، ان بقاءها على هذا الشكل سيخلق لنا مشكلة».

دفعوا الجثة الى النهر وعادوا إلى بانشاخ لنقل الأخبار الجديدة للأهل.

١٩

كان رستم يتمشّى بخطى وئيدة في الطريق الرملي المؤدّي إلى المنارة كعادته، مرتدياً بدلته الرمادية الفاتحة، وقد وضع على رأسه السدارة التي حلت محل الطربوش منذ ان تسلّم الملك فيصل الأول العرش العراقي عام١٩٢١. ولما كان الملك هو أول من اعتمر هذا الغطاء الخاص بالرأس، والذي لا يعرف أحد مصدره، لذا سُمِّي أيضاً بالفيصلية. ويقال ان الشيخ محمود الذي فشل في تشكيل الحكومة الكردية بعد ضربه من قبل الانكليز ونفيه الى الهند قد سمّى السدارة بـ«قوزه گاميش» أي «فرج الجاموسة»، وهكذا مشت التسمية بين الأكراد كسريان النار في الهشيم. وعلّق البعض ممن خاب ظنّهم في تأسيس الدولة الكردية بعد سقوط الدولة العثمانية، قائلين بأنّهم يستغنون عن غطاء رأس يشبه «فرج الجاموسة».

ورغم ان رستم نفسه كان يسمّيها بهذا الاسم، فإنّه ما كان بمقدوره الاستغناء عنها، ذلك انها أصبحت جزءاً متمّماً للبدلة الأوروبية لا تقل أهمية عن الرباط او الحذاء اللماع.

كان إذ يتمشّى كل يوم في هذا الطريق الضيّق، متأمّلاً غروب شمس الخريف، يستعيد في ذهنه ذكريات حياته القصيرة مع مادلين التي يبدو ان صورتها لن تمحى من ذكراته. وكيف يمكن للذكريات ان تنمحي، اذا كان ابنه ولي، الذي بلغ العاشرة، يذكّره بها كل يوم، بل وفي كل ساعة.

ما أسرع دورة الزمن. ها ان عشر سنوات من المسافة تقف بينه وبين تلك الحياة الحلم التي لا يمكن ان تعوض، مثل جدار ازلي ينتصب بين الحياة والموت. عشر سنوات، كانت تمضي احياناً بسرعة خارقة، وأخرى ببطء شديد كما لو انه الأزل. لقد جرت في هذه الفترة القصيرة أحداث وتقلبات لم يحلم بها أحد. وادي كفران الجبل ظلّ على عهده القديم دون أن يمسّه أي شيء، وما زال كريم يسير على نفس نهج والده المرحوم زوراب، وقد قطع علاقته نهائياً بأخيه شيخو الذي خصّصت له الحكومة عربة خاصة بتنقلاته بالقطار بين كركوك وبغداد. وعندما تمّ العمل في أعمال السكك الحديدية التي تمر مباشرة بقرية زوراب، افتتحها الملك فيصل بزيارة بها مع أول قطار لتدشين الخط الممتد من بغداد إلى كركوك. وهذه المدينة التي كانت فيما مضى سنجقاً تابعاً لمركز ولاية الموصل، قد أصبحت الآن لواء يضاهي لواء الموصل أو لواء بغداد، تلك المدينة التي أصبحت عاصمة للمملكة العراقية. عندة مروره بقرية زوراب، مركز عشيرة وادي كفران، حلّ الملك فيصل وحاشيته ضيفاً على شيخو في قصره الجديد الذي تمّ بناؤه على أحدث طراز، اذ انه بالاضافة لكونه رئيس عشيرة، يعتبر عضواً مهماً في البرلمان العراقي.

حاول شيخو مراراً وتكراراً كسب رستم إلى مجلسه وجعله مستشاره في شؤون العلاقة مع المؤسسات الحكومية، وإخراجه من عزلته، اذ ان زيارته إلى وادي كفران قد قلت الى درجة ملحوظة ورفض الزواج عدة مرات. وراح يعيش مع ابنه، تخدمهما خادمته العجوز، منزوياً في بيته. ذات مرة اقترح أحد المسؤولين العاملين في مكتب رئيس الوزراء بتعين رستم قائمقاماً على السنجق الذي تحوَّل هو الآخر في العهد الجديد الى مركز قضاء، بيد ان رستم رفض الفكرة دون ان يسمح لعمه شيخو بمناقشتها معه، وكان ان وضعه في موقف محرج لا يحسد عليه. ومنذ ذلك اليوم غضب عليه شيخو.

وها ان موقفاً محرجاً جديداً يجابه شيخو، الذي لم يفرض هيبته على وادي كفران حسب، بل على كل العشائر المجاورة: في لقاء عائلي بينه وبين احد أبناء أعمامه ممن يعتبره شيخو ساعده الأيمن. أعلن هذا ان ابنته الوحيدة قد بلغت العشرين من العمر، وانه اعترافاً منه بالجميل الذي اسداه له شيخو وتمتيناً لأواصر القرابة داخل العشيرة، فإنَّه يقدمها هدية متواضعة لرستم، ذلك ان رستم هو الوحيد الذي يستاهل ابنته في العشيرة. لقد جاء العرض امام حشد من الأقارب والضيوف في مجلس شيخو. وعرف شيخو بأن حمه غريب يقف وراء الاقتراح، ولذلك فإنَّ كلمة «لا» واحدة منه تعني حدوث شرخ كبير داخل العشيرة، الأمر الذي يؤدِّي إلى عواقب وخيمة. وكان قسم من الأقارب يعرف بأن هذا العمل إنَّما هو امتحان جديد لهيبة شيخو التي يتحدَّاها رستم. وما كان من شيخو إلاَّ وبارك الفكرة وشكر ابن عمه مبدياً موافقته على الزواج. جاء الجواب لمعظم الجالسين كمفاجأة غير متوقعة، اذ ان الكل يعرف بأن رستم حالة فريدة داخل العشيرة، وانه يفعل ما يقرره هو. قال حمه غريب بنوع من التحدِّي:

«ولكن هل أنت متأكِّد من موافقة رستم؟».

أجاب شيخو بهدوء:

«اذا لم يوافق سيكون مصيره القتل».

وتحدِّياً لحمه غريب، الذي يُعتبر ثاني شخص بعد شيخو في وادي كفران السهل، وصاحب ثاني اكبر قرية بعد قرية زوراب، كلَّفه شيخو بتبليغ الخبر لرستم، وقتله في حالة رفضه. قال حمه غريب انه مستعد لنقل الخبر اليه ومحاولة اقناعه، وأمَّا قتل ابن عمه فمسألة غير واردة، علَّق شيخو مستهزئاً:

«انك ثاني شخص في العشيرة يا حمه غريب آغا، عليك ان تفرض هيبتك على الجميع بدن استثناء سواء بالقوة أو اللين. إنَّك الآن مكلف بمهمة ولنر ما هي مقدرتك».

كانت الشمس قد غابت عندما بلغ رستم الجدول المؤدِّي الى قرية زوراب، وكانت مياه نهر

روخانة قد جفت وتحوّلت إلى برك صغيرة متوزعة هنا وهناك يربطها مجرى تحت قاع النهر المتكوّن من الحصى والرمل. تذكّر ان عمه شيخو غاضب عليه، وان الكل يعاتبه لعدم تردّده إلى وادي كفران سواء بسهله أو بجبله. لم يعد ذلك الشوق القديم موجوداً بعد. فبعد وفاة سنجان والأعمام ميرزا ورمضان وهابو تغيَّرت الأشياء. قادر وعباس يزورانه بين حين وآخر، بيد ان همومهم لم تعد مشتركة كسابق عهدهم. صديقه صائب رحل الى تركيا، رمزي عيِّن معلماً في أقصى الجنوب، يلتقيان في العطلات الصيفية فقط. ورغم ان وظيفته كمدير مدرسة تأخذ منه الكثير من الوقت، فإنّه يحس احياناً بعزلة قاتلة. كان عزاؤه الوحيد هو علاقته الحميمة بعاصم بك الذي ما زال محتفظاً بحيويته، ففي مساء كل يوم تقريباً يلتقيان في منزله، يشربان قليلاً من العرق ويتجاذبان اطراف الأحاديث المتعشبة. قال له عاصم بك ذات يوم، انه لا يستطيع ان يعيش على الذكريات فقط، عليه ان يجدِّد حياته. ولكن كيف له ان يجدِّد حياته، اذا لم يجد الفتاة التي تدخل قلبه، وربما لن يعثر على ضالته المنشودة ابداً. ألم يقل له عاصم بك ذات يوم ان ما يسمَّى بالحب لا يوجد، وان الحب اما ينشأ مع الزواج وفي هذه الحالة سيكون الانسان سعيداً او لا ينشأ، حيث الجحيم الذي لا يطاق، فيضطر المرء اذ ذاك للزواج من إمرأة أخرى، وهكذا دواليك الى ان يستقر الانسان على زوجة يحبها. هو اذن استقر على زوجته الرابعة التي يحبها كثيراً. وتذكّر ابنة عاصم بك الجميلة التي لم تتجاوز الرابعة عشرة. لقد بدأت نظراتها تتغير، فهي عندما تجلب لهما الأكل او المزة تحدِّق إلى عينيه بشكل لم يعد طفولياً، وراح يحس في المدة الأخيرة بأنه يفكر فيها، وإذ يؤنِّب نفسه في داخله لهذا الميل غير الطبيعي تجاه فتاة صغيرة لا زالت تعتبر طفلة، يصعد من أعماق قلبه نداء يوحي له بأن البديلة الوحيدة لمادلين هي هذه الفتاة التي اذا بلغت سن الزواج ستتحول إلى آية في الجمال، وشعلة من اللهب، ستنشر النار في أحشائه.

خشي قادر ورستم من أن يقوم حمه غريب بحماقة تجاه رستم، الذي ربَّما لا يأخذ كلامه بجد، حاولا ان يسبقاه اليه، بيد ان حمه غريب كان أسرع. إذ ذاك قرَّرا ان يقتلاه في اللحظة التي يحاول فيها إشهار سلاحه. في البداية تصوَّر حمه غريب بأن وجود قادر وعباس وراءه إنَّما هو مجرد صدفة، ولكنه حين رآهما يحاولان اللحاق به طيلة المسافة الممتدة بين قرية زوراب والسنجق عرف ان المسألة ليست صدفة، وخمَّن انهما مرسلان من قبل شيخو. وراح يحث حصانه على جري أسرع، رغم ذلك لحقا به قبل أن يبلغ نهر روخانه وسرعان ما تجاوزاه تاركين إيَّاه وراء غبار حوافر حصانيهما وهما يقهقهان ويتشمتان به.

كان رستم قد بلغ المنارة وهو في طريق العودة إلى منزله حين سمع وقع الحوافر، ولشد ما كان استغرابه شديداً حين وجد قادر وعباس أمامه، قال قادر لاهثاً ودون مقدمات بأنَّ حمه غريب جاء خصيصاً لينقل له خبراً مهماً، ورجاه رجاءً شديداً بأن لا يعانده ويُبدي موافقته بدون أي

نقاش او عناد، وإلاً فإنً العواقب ستكون وخيمة وتحدث كارثة لا تُحمد عقباها داخل العشيرة.
قال رستم باستغراب ممزوج باستنكار:

«ما معنى الخبر والموافقة؟ هل أنتم مجانين؟ إلى متى ستظلون في تخلّفكم؟».

أكّد عباس بأن أي عناد من قبله سيؤدّي إلى اراقة الدماء.وقبل أن يبدأ رستم بالكلام لحق بهم حمه غريب، وهو متجهم الوجه، يبدو عليه الغضب، قال دون مقدمات وكأنّه يريد أن يحسم الأمر في أسرع وقت ممكن:

«رستم ، جئتك بخبر مهم لا يقبل التأجيل، عشر سنوات وأنت بدون زوجة، هذه حياة غير طبيعية. ابنك ولي بحاجة إلى أم. غداً يُعقد القران على ابنة ابن عمّنا اسماعيل».

أدرك رستم ان ما كان يتوقعه قد تحقّق، وان مجرد تكليف هذا الأحمق بنقل القرار إليه، يعني ان المسألة جدّية وخطيرة. اصطنع ابتسامة محاولاً تغيير الجو، وداعياً إيّاهم للذهاب إلى منزله والتحدُث بتفصيل أكثر أثناء تناول طعام العشاء. أكّد حمه غريب انه لا مانع لديه من تناول العشاء عنده، ولكن بشرط أن يّبدي الآن موافقته النهائية على الزواج.

كان قادر وعباس يستمعان اليهما بانتباه كبير وهما في حالة تأهُب لإستعمال بندقيتيهما. احتج رستم واعتبر رفض تناول العشاء عنده إهانة له وانه غير مستعد لتقبُل الاهانة من أي شخص مهما كان.

قال حمه غريب بتعال وحدة:

«انظر يا رستم أفندي، أنا لم آت اليك من تلقاء نفسي. قرّرت العشيرة أن تتزوج من ابنة اسماعيل وعمّك شيخو بك وافق على القرار وأرسلني لتبليغك والاستماع إلى رأيك لا لتناول العشاء عندك. المسألة متعلقة بهيبة عمك شيخو بك».

كان الثلاثة لا زالوا جالسين على صهاء خيولهم. عرف رستم ان الموضوع لا يقبل أي نقاش، وان أي تعنت من جانبه سيؤدّي بلا شك إلى كارثة، وان مجيء قادر وعباس اليه بهذا الشكل لا علاقة له بأي عمل تكتيكي، كما اعتقد في بداية الأمر، بل هو تحذير حقيقي. قال كآخر محاولة يائسة:

«يا ابن عمّي حمه غريب، أنت تعرف جيداً بأنّني لم أُخالف العشيرة قيد شعرة في حياتي، ولكن ألاً يحق لي أن أرى الفتاة التي ستشاركني عمري كله، قبل الزواج؟».

«أنت تتكلم مثل أهل المدن يا رستم أفندي، مَنْ منًا في العشيرة ناقش مثل هذا الموضوع. الرجل، قدّم إبنتهُ هدية متواضعة لك، وعمّك شيخو بك قبل الهدية شاكراً، فماذا تعني رؤيتك لها قبل الزواج؟

أجاب رستم بلباقة:

«قلت لك انني لم ولن أخالف العشيرة في الأمور المهمة، ولكن الزواج مسألة شخصية بحتة، فماذا سيحصل اذا رفضت الزواج؟».

رفع حمه غريب البندقية بيمناه من وسطها، وقال بلهجة قاطعة:

«هل تدري ماذا سيحل يا رستم أفندي اذا رفضت الزواج؟ سأهشِّم رأسك بطلقة واحدة من هذه البندقية، جرِّب ان تقول لا».

قال قادر بهدوء واضحاً أصبعه على الزناد:

«يا ابن عمِّي حمه غريب، الرجل الذي يريد ان يقتل رستم لم يوُلد بعد. حاول أن تطلق عليه النار».

سرت رعشة خوف في كيان حمه غريب، وعرف أن قادر وعباس أسرع منه في استعمال البندقية:

«انظر يا قادر وعباس، أنتما في كل الأحوال من حثالات العشيرة، انتما اذا أقدمتما على أي حماقة، فإنَّ العشيرة تنبذكما وتنبذ رستم معكما ايضاً، اذ ذاك سيكون مصيركم مثل مصير أقاربنا الذين التجأوا قبل مائة عام الى مناطق ديار بكر».

عرف رستم ان كلمة خاطئة واحدة منه ستؤدِّي إلى مجزرة، قال محاولاً تهدئة الجو:

«قادر، انا أتحدث مع ابن عمِّي حمه غريب ولذلك أرجو ان لا تتدخل أنت. اذا كان عمِّي شيخو مصراً على زواجي، فهو بلا شك يعرف مصلحتي أحسن منِّي، ولذلك فإنَّ موافقته هي موافقتي أنا أيضاً، والآن هيَّا لتناول العشاء عندي».

قفزوا من على ظهور خيولهم وهم يتسابقون في عناقه. وراحوا يتمشون معه باتجاه منزله وكأن شيئاً لم يكن.

كان ولي عندما ينتهي من تحضير واجباته المدرسية، يقوم بتخطيط بعض الرسوم على أوراق المسودات المهملة التي يجلبها له والده من المدرسة، وبعد الانتهاء منها يريها للخادمة العجوز التي يسميها ننه، وبعد ان يستمع إلى ملاحظاتها يقوم بتعديل بعضها فيريها لوالده الذي يتقبَّل رسومه على علاَّتها دون أية ملاحظة انتقادية، بل بمدحه طالباً منه المزيد من الرسوم، ثم يطلب اليه ان يذيل رسومه باسمه وبتأريخ اليوم الذي أنهى فيه الرسم كما يفعل الرسَّامون الكبار.

عندما جاء والده مع ضيوفه، كان قد انتهى من رسم ثلاثةتخطيطات. قفز من مكانه فرحاً وبدأ العناق. فرحت العجوز لقدومهم ايضاولكنها استغربت من مجيئهم بأيدٍ فارغة، إذ انهم يستحيل

أن يزوروها بدون جلب الهدايا، لذلك عرفت بأن هذه الزيارة ليست طبيعية. قال رستم موجهاً كلامه إلى قادر بأنَّ ابن عمهم حمه غريب نادراً ما يزوره، ولذلك فإنَّ زيارته تتطلب ذبيحة، لذلك عليه أن يقوم بذبح النعجة التي جلبها له هو في زيارته الأخيرة له. أيَّد قادر الفكرة مؤكِّداً بأنَّ اللّه قد حال اليوم دون ان يلعب الشيطان دوره في إراقه الدماء داخل العائلة الواحدة.

نظر رستم بإمعان في تخطيطات ابنه، قال وهو ينشر الرسوم على الأرض: «انظروا بأنفسكم إلى هذه الرسوم، ألم أقل لكم بأنَّ إبني ولي هو وليٌ من أولياء اللّه؟ هيا يا ولي اشرح لنا رسومك».

كانوا قد اتخذو اماكنهم في البهو. ورغم ان الظلام لم يكن قد هبط بعد كانت العجوز قد أشعلت المصباح الزيتي نشر الصبي الأوراق الثلاث بعناية جنب بعضها وقال:

«نبدأ أولاً بالرسم رقم واحد: هذه هي المنارة، وهذا هو الطريق الذي يتمشّى فيه والدي يومياً. هؤلاء الفرسان الثلاثة الذين يبدون من بعيد هم الأعمام حمه غريب وقادر وعباس، إنّهم يتسابقون لأمر خطير جداً، وهذا الذي يركض وراءهم بذيله الطويل الملتف وقرنيه هو الشيطان واما هذه الجنية التي تطير فوق رؤوسهم فهي والدتي التي نزلت من السماء كي تبعد الخطر عن والدي، وأمّا والدي فإنّه لا يرى في الصورة لأنه يقف مقابل المنظر، أي في مكان الشخص الذي ينظر الى الرسم».

سكت هنيهة، ثم كتب اسمه في اسفل الجهة اليسرى مع التاريخ: تشرين الأول ١٩٢٧.

«والآن نبدأ بالرسم رقم اثنين: هذه هي الجنية والدتي وهي تركض وراء الشيطان الذي ولّى هارباً أمامها. وهذا هو عمّي شيخو يمسك بيد العروسة التي اختارها لوالدي».

قبل ان ينهي الصبي تعليقه على الرسم الثاني وينتقل الى الثالث، مدَّ رستم يديه بسرعة إلى الأوراق وجمعها قائلاً:

«هكذا يكفي يا ولدي، إنّنا يجب ان نهتم بالضيوف».

قام الصبي من مكانه قائلاً بهدوء: «حسناً يا بابا، سأشرح لك البقية حين نكون وحدنا».

كان قادر وعباس قد اعتادا على طريقة كلام الصبي ولي، حتى انهما كانا أحياناً قبل البدء بمغامراتهما يسألانه رأيه حول ما اذا كان من الصحيح القيام بجولة ليلية أم انه يفضل تأجيل ذلك الى اشعار آخر؟ واما حمه غريب فظل فاغر الفم مندهشاً من كلامه الذي لا يمكن ان ينطق به إلاّ ساحر كافر لا يستحق إلاّ القتل.

بعد الانتهاء من تناول العشاء وعودة الضيوف، ظلَّ رستم شارداً مستغرقاً في تأمُّلاته، اذ ان المفاجأة قد صعقته بصورة لم يكن يتوقعها أبداً. قبل ان يذهب الصبي إلى فراشه جاء إلى أبيه

وتمدّد إلى جانبه قائلاً: «ألاً تريد أن تسمع بقية الشرح؟».

جلس رستم في مكانه قائلاً بفضول :

«طبعاً يا ولدي، هيًا اجلب الصور».

نشر الأوراق الثلاث كعادته بعناية على الأرض وقال:

«توقفنا عند عمّي شيخو وهو يمسك بيد العروسة التي من المفروض أن تكون قد حلت فيها روح والدتي كي تعوض عن والدتي الجنية التي ماتت بعد مولدي مباشرة. ان جسد هذه العروسة لم يتقبل روح والدتي، أو ربًما ان روح والدتي هي التي رفضت لسبب ما ان تدخل جسدها، ولذلك فإنً هذا القبر الذي تراه في هذه الزاوية هو قبر زوجتك المنتظرة التي سوف لا تعيش معك فترة طويلة. والآن سنبدأ بالرسم رقم ثلاثة: هذا البيت هو بيت عاصم بك، وهذه الجنية التي تراها بجناحين هي روح والدتي، وهي ستنزل ذات يوم في هذا البيت». بعد هنيهة سكوت، أخرج قلمه ثم كتب اسمه مع التاريخ في اسفل الجهة اليسرى.

سأل رستم بجد: «هل هذا كل ما في الأمر؟».

«هذا كل ما في الأمر، ماذا تريد بعد؟».

«وعاصم بك؟ لماذا لم يظهر في الصورة؟».

«ان الصورة تمثل المستقبل، اذ ذاك يكون عاصم بك قد مات وصعدت روحه إلى السماء. على فكرة انك قلت لي اكثر من مرة بأن الوالدة سترجع ذات يوم، ألا تقل لي متى سترجع؟ انًني أشتاق اليها كثيراً».

أجاب بحسرة:

«ما يأتي به الغد لا يعرفه إلاً الله يا ولي، ولكن الغد لناظره قريب، ولآن أتمنى لك نوماً هانئاً».

قبل أن يتمدّد الصبي على فراشه المفروش على الأرض مباشرة في زاوية الغرفة التي كان رستم يسمًها فيما مضى غرفة الضيوف، ألصق الصور الثلاث على الجدران ثم بنى بيتاً بطابقين من علب السكاير الفارغة، وحين اراد ان يسيج البيت أعوزته ثلاث علب تذكًر ان واده قد وعده قبل أيام بجلب ورقة كاربون ليستنسخ عليها بعض رسومه فلم يفِ بوعده، فوجدها فرصة جيدة لترك الفراش.

كان والده ممدداً على فراشه يحدق إلى السقف وقال بصوت خافت وهو يتسلّل إلى غرفته:

«بابا، هل انت نائم؟».

«ألم تنم بعد؟ تذكًر انك يجب ان تستيقظ غداً في وقت مبكر جداً. اننا يجب ان نصل القرية غداً قبل حلول الحر، هيًا الآن اذهب إلى فراشك ولا تنسَ أن تتبول».

«انك وعدتني قبل أيام بجلب ورقة كاربون».

«لم أنسَ وعدي، بعد اسبوع سيبدأ الدوام اذ ذاك سأجلب لك ورقة واحدة فقط، عليك الاعتناء بها جيداً، والآن هيا إلى الفراش».

«تعوزني ثلاث علب، هل يمكنك تدبيرها؟».

«علبة سكايري ستفرغ بعد يومين، وغداً سنجمع العلب الفارغة في بيت العم شيخو، والآن هيًا الى الفراش».

«باب، أنا سعيد جداً لزيارة القرية، هل أنت سعيد أيضاً؟».

«طبعاً».

«هل سنسافر الى الوالدة فاطمة والجد كريم ايضاً؟».

جلس رستم يحدّق إليه بنظرات انتقادية:

«انظر يا ولي، اننا اذا ظللنا طيلة الليل نتبادل اطراف الحديث بهذه الطريقة فلن نسافر ابداً، هيًا إلى الفراش».

«أنت لم ترد على سؤالي يا بابا».

«اذا ذهبت فوراً إلى الفراش فسنسافر إلى الجد كريم ايضاً وأُعاهدك بالذهاب لصيد السمك، والآن لا أريد ان أسمع كلمة أخرى».

«أنا ذاهب إلى فراشي، ولكنك عليك أن تطفئ المصباح وتنام أيضاً، تذكّر اننا يجب ان نستيقظ غداً في وقت مبكر جداً».

أجال الصبي عينيه في رسومه الثلاثة وعدّل من ترتيب البيت بتقليص السياج ثم أطفأ الفانوس وراح يفكّر في وادي كفران. حلم بكومة من علب السكاير الفارغة ويلفة من أوراق الكرتون غير المستعملة وبحزمة من الأقلام الملونة، جمعها كلها ووضعها داخل كارتون طوّقه بيديه كما لو انه يريد نقله الى مكان ما، ولكنه سرعان ما نام في حلمه. وتذكّر انه كلما انتابته حالة النوم في الحلم، انتقل إلى العالم الذي تعيش فيه أمه «فريشته». مدينة غريبة تتكرّر دائماً في أحلامه، بحيث انه بدأ يعرف فيها كل شارع ودرب وزقاق، مدينة فيها بيت يتكوّن من غرف وسراديب وحدائق لا يمكن حصرها. تستقبله أمه عادة بملابسها البيضاء الطويلة وشعرها الأسود المسترسل إمًا واقفة أو جالسة وراء سياج خشبي مشبك، وكلما أراد أن يعبر السياج اليها تمنعه وتطلب اليه أن يبقى في مكانه. ويتحدثان في كل شيء بإسهاب ثم تختفي.

تراءت له هذه المرة حزينة جداً، عاتبته لأنه سمح لحمه غريب برؤية رسومه والاستماع إلى

شروحه، وطلب منه ان لا يري رسومه لأحد. رجاها ان تسمح له بعبور السياج كي يعانقها ويبقى عندها، ولكنها حذرته كالعادة من عبوره، فتعانقا وبينهما السياج الواطئ الذي لا يتجاوز سرته. أراد هذه المرة أن يحدثها عن أشياء كثيرة، بيد انها اختفت كالعادة دون ان يكمل حديثه. حين استيقظ من حلمه الثاني رأى الكارتون المليء بأوراق الكاربون والأقلام الملونة وعلب السكاير الفارغة. عرف أنه يحلم، وفكر انه اذا تمكن ان يمسك بكلتا يديه وبقوة الكارتون فإنه يستطيع نقله إلى خارج الحلم، إلى الواقع، اذ ذاك تكفيه هذه المواد أكثر من سنة. وقرر أن يرسم هذه المرة والدته وهي جالسة وراء السور، مدينتها الغريبة وبيتها الكبير بممراته وغرفه وسراديبه الكثيرة وحدائقه.

كانت يداه ممسكتين بالمخدة حين فتح عينيه على اثر لمسة رقيقة على كتفه. حين اراد العودة إلى حلمه مرر والده على رأسه قائلاً:

«أمامنا سفرة يا ولي، القطور جاهز».

كان رستم قد اشترى البيت الذي يسكنه مع قطعة أرض ملاصقة له تتجاوز ألف ذراع مربع، بعد عودته إلى التعليم على اثر العفو العام والمراسيم الجديدة التي صدرت من الادارة البريطانية بعد سقوط الدولة العثمانية، كما تمَّ الاعتراف بشهادته الدراسية ومدة خدماته في الدولة السابقة. ورغم العروض المغرية التي قدِّمت له للعمل في الأدارة المحلية، الأمر الذي يفسح له المجال للصعود إلى المراكز العليا في الدولة المقبلة، فضَّل أن يبقى في مجال التعليم، وكان ان أُنيطت له ادارة المدرسة التي أُحيل مديرها السابق إلى التقاعد بسبب كونه من المؤيدِّين المتطرفين للنظام السابق. وما ان تسلَّم ادارة المدرسة، إلاَّ وقام بتطبيق نظام، أصدره بنفسه، واستطاع ان يقنع اعضاء مجلس القضاء الذي هو عضو فيه، بجدواه، ألا وهو جعل التعليم في القضاء إلزامياً. ولما كان عاصم بك، الذي شمله العفو العام ايضاً، من أحد المتحمسين للفكرة في مجلس القضاء، فإنَّها قد تحولت إلى قانون له فعل القوانين الصادرة من الإدارة الانكليزية. ورغم ان العوائل الغنيَّة والمتوسطة قد التزمت بالقانون الجديد، بحيث زاد عدد الطلاب بشكل ملحوظ، إلاَّ أن أكثرية الفلاحين والمعدمين لم تتمكن من ذلك وذلك بسبب حاجاتهم الماسة إلى مساعدات أولادهم في الأعمال اليومية.

ولما كان القانون المُسَنْ محلياً، قد أدَّى إلى بعض المشاكل والالتباسات وخلق ضجة أشغلت الناس، فإنَّ الخبر انتقل لسبب ما بعد سنة إلى المسؤول الانكليزي عن التعليم في كركوك. ورغم برودة الدم هاج وثارت ثائرته، ليس بسبب جعل التعليم الزامياً، اذ ان التعليم – كما قال هو – الزامي في بريطانيا العظمى ايضاً، بل بسبب كون الخبر يصل اليه بعد اكثر من سنة من تنفيذ القانون المزعوم. قال لمساعده الهندي غاضباً، اذا كانت الدولة العثمانية البالية تسمح بهذه الأمور، فإنَّ المدنية البريطانية التي مهمتها نشر الحضارة والنظام في هذا العالم لن تتساهل مع مثل هذه الخروقات التي ان دلَّت على شيء إنَّما تدلّ على الفوضى والاستهتار والاستهانة بالدولة المركزية. اتصل المستر معارف بزميله الانكليزي المسؤول عن الادارة المحلية في اللواء واقتراح عليه نقل قائمقام القضاء بصورة فورية إلى أبعد قضاء في الجنوب. وكان ان تمَّ له ما أراد، بيد ان زميله نصحه بأن لا يكون متزمتَ مع مدير المدرسة رستم أفندي، لأنه لا يريد لن يدخل في مشاكل لا داعي لها مع رئيس عشيرة وادي كفران، ومع ذلك فإنَّه سيتحدث شخصياً مع شيخو بك عند أول لقاء بينهما فهو صديق حميم له.

عندما تمَّ استدعاء رستم إلى كركوك، كان لا يعرف شيئاً عن السبب. حتى ان نقل القائمقام الفوري قد جرى بصورة سريَّة، ذلك ان متصرف اللواء قد حذَّره من مغبة نشر سبب النقل، اذ ان ذلك يعتبر سراً من أسرار الدولة التي يجب أن تصان، حيث ان عصر الثرثرة ونشر أخبار مؤسسات الحكومة على طاولات المقاهي قد ولَّى بدون رجعة. كان ابنه ولي اذ ذاك قد تجاوز الثالثة من عمره، ولا تزال زوجة أبيه فاطمة ترضعه. كان يزوره اسبوعياً كي يطمئن إلى صحته، وخوفاً من ان يلحق به الأذى من قبل بعض أقاربه ممن يعتبرون الطفل شراً لا بدَّ من ازاحته، طلب الى كل من قادر وعباس ان يحرساه ليلاً ونهاراً ويمنعا أي انسان من التقرُّب اليه، إلى ان بلغ السابعة، اذ ذاك جلبه إلى منزله في القضاء، السنجق سابقاً، وراح يربيه بنفسه، تساعده في ذلك خادمته العجوز وابنتها.

كان يأخذه إلى كل مكان يذهب اليه. وينصحه ان لا يتكلم كثيراً أمام الناس، كي لا تؤذيه عيون الحساد، اذ ان وزن كلامه يتجاوز مستوى عمره بكثير، كما انه جعل مسألة كونه يتكلَّم في المهد، سراً من الأسرار. أمَّا مسألة عمود النور المتصاعد من قبر مادلين، فظلَّ بدوره ايضاً سراً لا يعرف به سوى سكان وادي كفران الجبل فقط. حتى ان الجيل الجديد من سكنة وادي كفران السهل لم يعرف عن ذلك شيئاً.

ذات يوم، عندما كان الصبي المعجزة ولي لم يتجاوز الرابعة من عمره، قرَّر حمه غريب مع نفر من المقربين اليه أن يخطف الطفل ويلقيه خارج العشيرة، اذ انه بعد ان استشار العجوز الغجرية والشيخ البرزنجي، أكَّدا له بأنَّ هذه الظاهرة غير طبيعية، فهو في كل الأحوال إمَّا بشير خير أو نذير سوء. ولو لم يعتبر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء لأصبح نبي الزمان، ذلك ان هذا الطفل يرد بصورة معقولة وصحيحة على كل سؤال يُطرح عليه، ثم انه ما ان يضحك في وجه المريض ويمرِّر يده على رأسه إلاَّ ويشفى حالاً. ورغم ان العشائر المجاورة قد أصيبت بالمجاعة، منذ ولادة ولي، وتعرَّضت إلى هجمات الجندرمة العثمانية وهجمات الجيش الإنكليزي، فإنَّ وادي كفران الجبل، كان الوحيد الذي ظلَّ بمنجى عن كل ذلك. حتى انَّ وادي كفران السهل نفسه كان هدفاً للمدفعية الانكليزية، ناهيك عن الحرائق المتتالية. فالطفل اذن في هذه الحالة بشير خير لوادي كفران الجبل، ونذير شر لكل ما عداه. ومما أدَّى بحمه غريب ان يعتقد بأنَّ هذا الطفل إنَّما من صنع الشيطان وليس من هبة الرحمن هو عدة أسباب: قبل أن يتزوج للمرة الثانية بحجة كون زوجته عاقرة، قال له ولي، يا عمِّي حمه غريب لا فائدة من زواجك، انك لن تكون أباً. وحين سأله ذات مرة عن سبب تلف محصوله دون الآخرين، أجابه بأنه دخيل على الزراعة. ولمَّا سأله عمَّا يصنعه كي يعيش، اقترح عليه ان يرجع إلى قريته القديمة ويبيع النفط. استغرب اذ ذاك حتى رستم من الجواب، اذ لم يسبق لأحد أن حدَّثه عن تلك الأشياء. وكان أن جرَّه

رستم إلى ركن وراح يسأله عمن حدّثه عن ذلك. قال الطفل بأن جدّه زوراب هو يحدثه دوماً عن ماضي العشيرة:

«ولكن الجد زوراب ميّت يا ولي».

«أعرف إنه ميت يا بابا، ولكنه يزورني في الحلم، تماماً كما تزورني الوالدة، ويحدثني عن كل شيء».

بعد ذلك بفترة قصيرة، اختفى الطفل، اذ عندما استيقظت فاطمة فجراً، وجدت فراشه خالياً، وكان زوجها كريم وقادر وعباس مستغرقين في نوم عميق، وراحت تشتم الرجال متّهمة إيّاهم بالكسالى والجبناء. وظلّوا يبحثون عنه اسبوعاً كاملاً دون جدوى.

في اليوم الثاني، وقبل وصول والده، الذي لم يبلغوه بالخبر، بساعتين جاء الطفل بنفسه، متسخاً، أرهقه الجوع والتعب.

«أين كنت يا ولي؟».

«أخذني اللصوص تلك الليلة إلى مكان بعيد، سمعت عنه انه يقع على أراضي عشيرة زه نكنه. أعطوني قرصة خبز ووضعوني داخل كهف، ثم أغلقوا مخرجه بصخرة كبيرة لم استطع ازاحتها. ولما يئست من الخروج جلست في مكاني وانا أحدّق إلى ارجاء الكهف الذي كان النور يتسرّب اليه من خلال الشقوق المحاطة بالصخرة، واذا بي أرى ثلاثة فراخ صغيرة جداً لدبة، فرحتُ ألعب معها، كانت في البداية تخاف منّي، ولكنّني رحت أمضغ الخبز وأُغذّيها، فرحنا نلعب إلى ان جاءت الأم، خفت ان تفترسني، ولكنها ما لبث ان بدأت تلعب معي. كنا جميعاً نأكل من قرصة الخبز، التي كلما اقتطعنا منها قطعة، إلا وعادت تكتمل من جديد».

قالت فاطمة مقاطعة إيّاه:

«هذه القرصة خبز البركة، لماذا لم تجلبها معك يا ولي، كانت تكفي للعشيرة كلها».

ضحك الطفل ساخراً ومواصلاً كلامه:

«لا ماما فاطمة، ان مفعول سحر قرصة الخبز تلك يسري فقط داخل ذلك الكهف، فما ان تخرجيها من هناك، إلاّ وتفقد مفعولها. عرفت الدبة بأنّني أريد العودة الى البيت. ازاحت الصخرة. عندما اصبحنا خارج الكهف حملتني برفق ووضعتني على ظهرها، ثم اطلقت قوائمها للريح ولم أجد نفسي إلاّ وأنا أمام قريتنا بانشاخ».

نزعت فاطمة ملابسه وغسلته بالماء الدافئ والصابون ثم طلبت إليه أن ينام كي يستعيد نشاطه بعد هذا الارهاق الذي دام اسبوعاً، وقرّر الرجال الثلاثة أن لا يفارقوه أبداً.

عندما سمع حمه غريب بالخبر، هرع إلى الشيخ البرزنجي وأعلمه بالقصة، وما كان من الشيخ إلاً وطلب اليه أن يترك هذا الكائن الذي نصفه انسان والنصف الآخر جن.

أطلع المستشار الانكليزي لشؤون التعليم المستر معارف على اضبارة رستم قبل استدعائه، وجمع المعلومات الكافية حول شخصه وعائلته وعشيرته وعلاقاته واصدقائه، ولما سأله مساعدهُ الهندي عن سبب هذا الاهتمام الزائد، أجابه بأنه يشم رائحة الخطر من هذا المدعو رستم كريم زوراب، فهناك تناقض كبير بين شخصية هذا الرجل وطبيعة عمّه، الذي هو صديق حميم للانكليز. ثم نشر على مكتبه عدة اضبارات قائلاً:

«انظر يا مستر جاندرا، إننا الآن في بداية تأسيس دولة، اذا لم نتلف الآن بيوض الثعابين فاقرأ علينا السلام، ولا تنسَ أننا سوف نحاسَب من قبل البريطاني محاسبة عسيرة، هاك انظر، اطلع عليها بنفسك».

بدأ المستر جاندرا صدفة بإضبارة تحمل اسم صائب، تحته عبارة كتبت بالقلم الأحمر «عضو خطر من جماعة الاتحاد والترقي»، ويدأ بتقليب الأوراق واقفاً عند فقرات معينة:

... كان والده ضابطاً متحمساً للدولة العثمانية، بدأ يسكر في أواخر أيامه، انتحر لسبب مجهول. الدين: مسلم سنّي، القومية: تركماني.

له أخ اسمه فوزي، كان عنصراً نشيطاً من عناصر الاتحاد والترقّي، سُجن عدة مرات في عهد السلطان عبد الحميد. عند تأسيس الدولة العراقية رفض أن يشتغل في وظيفة حكومية، وعلّق على النظام الجديد قائلاً بأن الملك فيصل عميل انكليزي. وأما صائب فحارب الانكليز وتمَّ أسره في البصرة ورفض التعاون مع الادارة الانكليزية، وهو الآن يعيش في استانبول، له ميول اشتراكية ويختلط كثيراً بالأرمن... وبعد ان مرَّ بسرعة ببعض الأوراق، وضعها جانباً ثم مدَّ يده إلى اضبارة رمزي.

... ابن تاجر غني أفلس في أواخر أيامه، رفض مواصله مهنة أبيه، الدين: مسلم سنّي، القومية: كردي. حارب الانكليز وتمَّ أسره في البصرة، رفض التعاون مع الادارة الانكليزية، يمارس الآن مهنة التعليم، له علاقة بجماعة «برايه تى»، منظمة كردية تدعو إلى تأسيس دولة كردية. من دعاة جعل التعليم باللغة الكردية في جميع أنحاء كردستان. بناء على التقارير الواردة بشأنه، حيث كان يلقن طلبته أناشيد تحريضية باللغة الكردية، تمَّ نقله إلى أقصى الجنوب. آخر التقارير الواردة عنه، انه على صلة وثيقة بدعاة الانفصال ويحمِّل الانكليز مسؤولية عدم تأسيس الدولة الكردية.

سَحبَ الاضبارة الثالثة بعناية:

رستم كريم زوراب، كردي،مسلم سنّي، ابن أخ شيخو بك زوراب، رئيس عشيرة وادي كفران. شخصيته غامضة، نادراً ما يجهر بآرائه. له تصرفات فوضوية. هرب من الخدمة في الجيش العثماني، ولكنه أسّس من تلقاء نفسه كتائب الجتة لحماية مؤخرة الجيش العثماني. لبّى نداء العفو العام وعاد إلى مهنته كمعلم، ولكنه رفض التعاون مع الادارة البريطانية، كما ورفض الوظائف الادارية التي عرضت عليه رغم إلحاحات عمّه شيخو بك. ومنذ ذلك الحين لا يتردّد على عمّه. كانت له علاقات جيدة بالأرمن. يتحدث كثيراً عن العدالة الاجتماعية والمساواة، من أنصار الشيخ محمود الحفيد.

وضع الهندي الاضبارات الثلاث فوق بعضها البعض ثم راح يحدّق إلى الفراغ كما لو انه يفكّر في شيء ما. وكان المستر معارف منشغلاً بقراءه آخر تقرير ورد حول رستم من مكتب شؤون الأمن. بعد فترة غير قصيرة وضع التقرير على مكتبه والتفت إلى الهندي مبتسماً بسخرية وقال:

«هذا ليس تقريراً يا مستر جاندرا، بل حكايات خرافية تفيدك. على كل حال أريد أن أسمع رأيك بخصوص التقرير. يبدو لي ان هذا المدعو رستم أفندي ثعلب ماكر، لقد استطاع أن يحيط نفسه بهالة من الأساطير التي تضفي عليه قدسية معينة، ولا شك له غاية معينة من كل ذلك».

كان المستر جاندرا رغم ثقافته الغربية الواسعة وتمكّنه من عدة لغات، يؤمن بمبدأ تناسخ الأرواح. وكان في أوقات فراغهما، يسرد لصديقه وزميله في الوظيفة المستر معارف أنواع الحكايات التي يؤمن بها ايماناً راسخاً، في حين يعتبرها صاحبه جزءاً من خزعبلات الشرق المتخلف الذي لم تصله حضارة الغرب بعد. وكان المستر معارف قد اعتاد على تدوينها في دفتر سميك بغية كتابتها من جديد واصدارها ضمن كتاب بعنوان «أساطير من الشرق» وذلك عند إحالته على التقاعد. ولذلك خصّص وقتاً كافياً للقائه برستم الذي خطّط ان يكسبه إلى جانبه مهما كلّف الأمر.

عندما انتهى جاندرا من قراءة التقرير طواه برفق وراح يحدّق مرة أخرى إلى الفراغ. كان تفكيره هذه المرة أعمق.

ضحك المستر معارف قائلاً:

«ها مستر جاندرا؟ ما رأيك الآن؟ لقد بزّك رستم أفندي بحكاياته التي نسجبها حول نفسه. حتى الشيخ محمود الحفيد ليست له مثل هذه المخيلة. تصوّر، ألقى القبض على جنية فتزوجها. أنجبت الجنية طفلاً راح يتكلم في المهد كما لو النبي عيسى عليه السلام ثم بدأ يمشي وهو في السنة الأولى من عمره، ليس كل هذا حسب، بل يصعد كل ليلة جمعة عمود من النور من قبر الجنية، الذي تحوّل إلى مزار يعالج المرضى، يا له من خيال خصب. إنّه لا يوجد إلاّ في الشرق».

قال المستر جاندرا بلهجة جادة وهو ما زال غارقاً في تفكيره العميق.

«اذا كنت تريد ان تكسب هذا الرجل إلى جانبك وتجعله صديقاً لك، فعليك أن تؤمن بكل ما جاء في التقرير، هذا اذا كان كاتب التقرير صادقاً في معلوماته».

قال بلهجة واثقة: «كاتب التقرير لا يستطيع ان يكذب، انه يستقي معلوماته على الأقل من ثلاثة مصادر».

«ماذا سيكون موقفك اذا أنكر هذه الأشياء؟».

حك المستر معارف رأسه واستفسر عن سبب انكار أشياء لا تشكل أي خطر على صاحبها، أجاب الهندي انه سبق أن مرَّ بمثل هذه التجربة في بلاده مرات عديدة. هناك أسرار لا يجوز البوح بها. قال المستر معارف: «لنرَ كيف ستجرى الأمور معه».

كان رستم قد وضع نصب عينيه أسوأ احتمال، ألاَ وهو الطرد من الوظيفة، لذلك حرَّر نفسه من أي وجل وقرَّر أن يُبدي رأيه بكل حرية أمام هذا الانكليزي الدخيل على بلاده. ألم يحرقوا في حينه كل قرى وادي كفران السهل؟ سيعود مكرماً معززاً إلى حيث والده في وادي كفران الجبل، وينصرف إلى الزراعة دون أن يتنازل أمام عمّه شيخو بك الذي لا تهمه سوى فخفخته.

استقبله المستر معارف مع زميله الهندي في دار الضيافة. استغرب رستم للحفاوة المبالغ بها، وقدَّر ان السبب هو لكونه ابن أخ شيخو بك، وإلاّ لماذا لم يُعامل القائمقام بهذه الطريقة. وراح يشك في نواياهما. بعد الترحيب قال له المستر معارف انه مدعو لتناول طعام الغداء معه في دار الضيافة، كما انه سيقضي ليلته هنا ضيفاً عليه. شكره رستم بكل أدب وتمنّى أن يكون عند حسن ظنّه وأكد انه جندي مجهول يحمل شعلة المعرفة لإضاءة ظلام الجهل في بلده المتخلف. فوجئ الاثنان لمجاملته ولباقته في الكلام. تساءل المستر معارف بلياقة وبوجه بشوش ما اذا كان يعرف سبب إستدعائه، أجاب رستم، محاولاً اخفاء السبب الذي يعرفه، بأنه في الحقيقة لا يعرف السبب، ولكن السبب قد يكون لمجرد التعارف الشخصي بغية الاطلاع على مشاكل التعليم في مملكة فتيَّة.

قال الإنكليزي:

«أفهم من كلامك انك تعمل في مجال التعليم بوعي ورغبة صادقة».

«بالتأكيد».

«هذا هو اذن السبب في رفضك للعمل في سلك الادارة».

«بالضبط».

«هل تعتقد ان المعرفة تستطيع القضاء على الظلم الاجتماعي؟».

«إلى حدٍّ ما».

«أرجو ان تفهم يا رستم أفندي بأننا لا نريد التحقيق معك. كل ما في الأمر هو أنّي وزميلي المستر جاندرا نريد ان نبحث معك بعض المشاكل المتعلقة بالتعليم وطريقة تفكير الناس تجاه ما هو علمي وغير علمي، اذ ان عالم الشرق كما تعلم غامض ومليء بالأسرار يصعب على شخص غربي مثلي فهمه، ولذلك تجدني أستعين دوماً بصديقي المستر جاندرا. هل أنت مقتنع وموافق على كلامي؟».

«نعم، مستر».

«هل يمكنني ان أعرف لماذا أردت جعل التعليم إلزامياً في منطقتك؟».

«أنا أقترحت ذلك على مجلس القضاء، وهذا وافق بالاجماع على اقتراحي، هل الحكومة البريطانية ضد محو الأميَّة؟».

«كلا ابداً، ان التعليم الزامي عندنا، ولكن مؤسساتنا، مهما كانت أهميتها اذا أرادت القيام بإجراء ما فعليها مراجعة السلطات العليا. ان اقتراحك الذي حولَه مجلس قضائكم الى قانون تنفيذي هو من صميم واجب البرلمان مثلاً».

«اننا لا نستطيع مقارنة بلدنا المتخلف ببلدكم المتقدم يا سيدي، نحن مازلنا في البداية. المهم هو ان النيات حسنة».

«هل تعتقد ان نيات كل اعضاء مجلس قضائكم حسنة؟».

«أنا لا أعرف ما في قلوب الناس».

قال المستر معارف مبتسماً بعد ان أشعل غليونه، الذي ذكّر رستم بجدِّه زوراب:

«ولكن المعروف عنك أنّك على صلة بعالم الروح، ان مَنْ يتزوج من جنيَّة لا بدَّ ان يقرأ ما في قلوب الناس».

أطلق رستم ضحكة، اعتذر على أثرها لعدم تمكنه من ضبط نفسه، ثم واصل : «هذه قصة طويلة مختلقة يا سيدي المستر، أستطيع سردها لكم إن شئتم؟».

«وعمود النور المتصاعد من قبر المرحومة في ليالي الجمعة؟ هل هي ايضاً قصة مختلقة؟».

استغرب رستم لمعلوماته هذه، وراح يضرب أخماساً بأسداس في كيفية حصوله عليها، قال محاولاً الظهور بمظهر الرجل العلمي الذي لا يصدِّق بمثل هذه الأشياء: «هذا الكلام كله من نتاج الجهل يا سيدي المستر، هل تصدقون كل ما تسمعونه؟».

«على كل حال، هذا الموضوع قد نرجع إليه في وقت آخر، وأرجو ان لا يكون هذا اللقاء هو أول وآخر لقاء بيننا. انا أحب بهذه المناسبة ان أُعبِّر عن فخرنا تجاهك، وذلك لكونك رفضت الخدمة

في الجيش العثماني أثناء الحرب. ان موقفكم هذا يدل على بُعد نظركم. ومعرفتكم مسبقاً بأن هذه الدولة ستخسر المعركة».

«الحقيقة، كان السبب هو مجرد صدفة لا غير».

«أنت انسان ذكي وصريح يا رستم، البلد بحاجة ماسة إلى أمثالك، اذا أحببت مواصلة دراستك، فإنني مستعد لمساعدتك. إنك شاب وأمامك المستقبل».

«إنها أمنية العمر، ولكنني لا أستطيع ترك ابني مع الآسف وأشكركم للإهتمام». قال جاندرا:

«المقصود به، هو الذي تكلم في المهد».

اراد رستم أن ينكر هذه الحقيقة ايضاً، بيد ان كلمة «نعم» التي خرجت من فمه، كانت أسرع من تردده. حدّق المستر معارف وجاندرا ببعضهما البعض بتساؤل. سأل الانكليزي عن عمره، فأجابه رستم بأنه قد تجاوز الثالثة، سأل الانكليزي:

«هل تكلم مرة واحدة أم واصل كلامه؟».

«واصل كلامه، ولكنني أرجوكما أن تبقى مسألة الطفل سراً بيننا، ان حياته في خطر».

قال الانكليزي بجد:

«لا تخف يا رستم أفندي، إنني أفهمك، كل ما أتمناه هو ان يمنحه الله عمراً طويلاً».

تشعّب الحديث، وراح يشمل أنواع المواضيع، منها نوعية الدراسة في العهد العثماني، الفروق بين العهدين القديم والجديد... بعد تناول طعام الغداء واصلوا الحديث، وأدرك الانكليزي ان رستم افندي لم يعد متحفظاً أو متردداً وراح يفتح قلبه بثقة واطمئنان، وانه متحدث لبق، ثقافته العامة متوسطة. كان قد اتفق مع جاندرا على جس نبضه لمعرفة ميوله السياسية، ولكي يمشي السؤال بصورة طبيعية غير مفتعلة، كلفه ان يبادر هو بطرحه:

«رستم افندي، يبدو لي انكم لا تهتمون كثيراً بالسياسة».

«صحيح، منذ ان كنت طالباً لا أهتم بها».

«هل سمعتم بثورة البلاشفة؟ أو بما يسمّى بدولة الفقراء»«سمعت بذلك كأي انسان عادي، معلوماتي قليلة جداً، يُقال انهم ملحدون وينكحون أمهاتهم وأخواتهم».

سأل الانكليزي:

هل تعتقدون ان البشرية تستطيع نشر العدالة على الأرض؟».

ابتسم رستم بسخرية:

«كلا، هذه مهمة الله، والانسان مهما كان لا يستطيع القيام بدور الله».

«أفهم من كلامك هذا، بأن دولة الفقراء المزعومة في روسيا لا مستقبل لها».

«أنا لم أقل ذلك، ولا أستطيع ان أجزمه، لأنني لا أعرف شيئاً عن طبيعة هذه الدولة، سأكون شاكراً اذا أعطيتني فكرة عنها».

قال المستر معارف بسخرية:

«انهم يسمّون أنفسهم بدولة العمال والفلاحين، يريدون القضاء على الفقر والجوع في الأرض بتطبيق النظام الشيوعي ومصادرة أموال الأغنياء».

«اذا كانت هذه مهمتهم، فهي انسانية إذن».

رغم تشعبات المواضيع التي استغرقت مناقشاتها ساعات طويلة ومواصلتهم السهر إلى وقت متأخر في نادي الضيافة، وعدم اخفاء رستم لآرائه وحتى لقصة تعارفه وزواجه من مادلين، فإنّ المستر معارف أكّد لصديقه جاندرا بأنّ رستم افندي هذا شخص غامض، وله نوايا لا يفصح عنها، وإلاّ لماذا هذا الموقف المتعنت من عمّه الاقطاعي، ورفضه القاطع لأي وظيفة لها صلة بالادارة. لم يوافقه جاندرا على رأيه، واستبعد ان تكون له علاقة سريّة بأي تنظيم ضد الادارة الانكليزية، فالرجل، رغم كونه عنصراً مثقفاً، فهو بطبيعته فلاح، والفلاح لا يمكن أن يخفي سراً. وان مثل هذه العناصر كثيرة في الهند. ان كسب ثقتهم مسألة غير سهلة، ولكن المرء اذا كسبهم مرة واحدة، فإنّهم سيظلون مخلصين وأوفياء إلى الأبد.

سأل المستر معارف جاندرا ما إذا كان يصدّق قصة الصبي الذي تكلم في المهد، أجابه بأنّه لا يعتقد بأن للرجل مصلحة في الكذب ثم ذكّره بحكاية الهندي الذي لا يحترق في النار، والذي ظلّ المستر معارف لا يصدّق بها، إلاّ بعد ان أشعل له النار بنفسه، وتأكّد انه لم يطل جسمه بمادة كيمياوية مضادة للنار. ليس هذا حسب، بل ذكّره ايضاً بحكايته هو، التي لم يصدّقها في البداية، إلى ان أثبت له جاندرا كل جزء من الحكاية. اذ انهما ذات يوم، عندما كانا يتمشيان في حي من أحياء لندن القديمة، توقف جاندرا فجأة أمام بناية قديمة تعود إلى القرن السابع عشر، وقال بذهول كما لو انه يحلم:

«أنا وُلدتُ لأول مرة في هذه الدار، قبل ٣٠٠ سنة وقضيت عمري كله هنا».

لم يصدقه مستر معارف، إلاّ بعد ان انتهى من تنقيب تأريخ الدار التي كانت قد أسدل عليها حجاب النسيان منذ أكثر من مائة عام، حيث جاءت تفاصيل المعلومات التي رواها جاندرا مطابقة بالمعلومات الموجودة في أرشيف الدار، الذي لم تمتد اليه يد منذ اكثر من مائتي عام. ولما كان جاندرا هو الشخص الوحيد الذي بقي من تلك العائلة لذلك استحق وراثة الملك الذي سُجّل رسمياً بإسمه.

٢١

عندما فتح الصبي ولي عينيه لم يجد الكارتون المليء بالأقلام الملونة وأوراق كاربون وعلب السكاير الفارغة، أغمض عينيه محاولاً العودة الى حلمه، لجلب الكارتون، بيد أن والده كرّر كلامه وهو لا يزال يمسد رأسه:

«أمامنا سفرة يا ولي، الفطور جاهز».

حين تذكّر السفرة، قفز من فراشه على غير عادته. ساعده والده في غسل وجهه وإرتداء ملابسه التي يلبسها عادة خلال سفراته إلى وادي كفران. ورغم انه كان يرفض المساعدة في تدبير أموره، فإنً رستم كان يبادر دوماً لمعاونته. قال الصبي وهو يضع رجله اليمنى في الفردة اليسرى من خفه:

«انًني لست طفلاً يا بابا، لا داعي للتدخل في كل شؤوني».

«أعرف أنك لست طفلاً، ولكن انظر في رجلك اليمنى، هل هي في الفردة الصحيحة؟». نظر الصبي إلى رجله وضحك بصوت عال:

«هذا مجرد خطأ. انك يجب ان تنبهني للخطأ فقط، وأمًا الباقي فأقوم به بنفسي».

«وأزرار قميصك؟ هل هي في الفتحات الصحيحة؟».

أجاب وهو يحشو لقمة كبيرة في فمه:

«سأتأكّد منها بعد الانتهاء من الفطور، لماذا أنت مستعجل؟».

قال محاولاً اخفاء غضبه:

«أنا غير مستعجل، ولكن لماذا أنت مستعجل؟ كم مرة نبهتك بعدم حشو فمك بهذه الطريقة؟ هل يطاردك أحد».

ابتسم دون أن يأخذ انفعاله بجد:

«طبعاً هناك مَنْ يطاردني، إنًه رستم أفندي زوراب».

ابتسم رستم رغم انفه وسأله ما اذا كان قد حزم حقيبته دون أن ينسى شيئاً وذكّره بعدم نسيان رسومه كي يريها لعمًه شيخو والآخرين. حدًثه الصبي عن حلمه وقال ان الوالدة منعته من عرض صوره للآخرين ولاسيما العم حمه غريب، وانه سيكتفي بأخذ القلم والأوراق. وبعد ان أكًد على

سروره المطلق للسفرة سأل ما اذا كانا سيسافران إلى قرية زوراب أولاً أم إلى بانشاخ حيث الجد كريم والوالدة فاطمة. أجاب رستم بأنهما سيذهبان أولاً إلى العم شيخو، وذلك لقرب قرية زوراب ووقوعها في منتصف الطريق المؤدّي إلى بانشاخ، بالاضافة إلى ذلك فإنّ العرف يقضي زيارة العم شيخو أولاً، ذلك لأنه كعم أكبر يُعتبر بمثابة الجد زوراب، كما انه بصفته رئيس العشيرة له مكانة خاصة.

هزّ الصبي رأسه بحركة تنفي اعجابه بالرأي وقال لو ان الأمر بيده لذهب رأساً إلى بانشاخ. قال رستم بعد ان ارتشف من آخر استكان شاي:

«لا تنس ان العم شيخو أهداك حصاناً».

أجاب الصبي بلهجة صارمة:

«أنا لا أنسى ذلك، ولكن لا تنسَ ان الجد والوالدة فاطمة قد ربّياني».

سكت رستم واستغرب كعادته من أمر هذا الصبي الذي يتكلم بمستوى رجل ناضج، وراوده كالعادة أيضاً هاجس الخوف من أن يُصاب بمكروه أو يموت في سن مبكرة، بالاضافة إلى التآمر المستمر عليه من قبل الأقارب الذين يجدون فيه نذيراً للسوء. تذكّر كلمات الجدة سنجان، التي كانت تؤكّد عليه دوماً للحفاظ عليه كمحافظته لمقلتيه، ليس خوفاً عليه من الأقارب الأعداء، الذين لا يخفون عداءهم له، بل من العيون الحسودة التي تصيب كالسهم. وكان ان وضعت على عنقه قلادة ذهبية تحتوي على سن الذئب وشدّت على سترته خرقة تحتوي على خرزة زرقاء ورثتها من جدتها، تضعها تحت مخدتها كلّما ذهبت إلى الفراش. قالت رستم اذ ذاك بأنّ هذين الحجابين سيدفعان كل شر يجلبه له الشيطان، وانه اذا خرج معه الى مكان ما فعليه ان لا ينساهما.

قال الصبي بعد ان أعاد أدوات الفطور إلى الزاوية التي يسمونها بالمطبخ:

«بابا، أنت تحيّرني».

قال رستم بعد ان استيقظ من شرودة:

«أنا أُحيرك؟ كيف؟».

«أنت من جهة تلح عليّ بالسرعة، ومن جهة أخرى تقف في مكانك كما لو انك تنتظر ان تأتي قرية زوراب الينا».

«كنت أُفكّر في الأشياء الضرورية التي يجب ان لا ننساها. سن الذئب والخرزة، هل تحملهما معك؟».

«ولكن يا بابا، منذ أكثر من سنتين لا أحملهما. إنّك نفسك قلت بأن هذا هراء».

«كنت خاطئاً في كلامي يا ولي، انها وصية الجدة سنجان».

«كما تريد يا بابا، أنت هيِّئ الحصانين وأنا سأبحث عن الحجابين».

جلس رستم القرفصاء أمام الصبي ماسكاً يده:

«انظر يا ولي، انك تستطيع ان تتكلم أمام الوالدة فاطمة والجد كريم كل ما تشاء، أمَّا في بيت العم شيخو فلا. أرجو ان لا تتكلم إلاً في حالات الضرورة».

«حسناً يا بابا، والدتي قالت لي ذلك في المنام ايضاً، والآن هيا لِنتحرك».

كانت قرية زوراب قد تغيّرت تغييراً جذرياً بعد مد السكك الحديدية بين بغداد وكركوك وانشاء معمل للاسمنت في جبل الإمام علي والعثور على الفحم الحجري هناك. وخمن المهندس الانكليزي المشرف على التنقيبات بوجود كميات هائلة من النفط. ولما كانت هذه المنشآت تحتاج الى حماية مباشرة من النهب والسطو، الأمر الذي لم يكن بمقدور الحكومة الفتية ضمانه، لذلك تمَّ الاتفاق مع رؤساء العشائر للحفاظ على المنشآت والسكك التي تقع ضمن اراضيها، على ان تخصِّص الدولة ميزانية خاصة للمصاريف تدفع مباشرة الى رئيس العشيرة الذي له الحق في تعيين العمال والمراقبين والحراس من أبناء عشيرته.

ولما كانت الدخول الواردة الى خزينة شيخو بك تتكاثر يوماً بعد يوم والأعمال اليومية تزداد وتتعقد وسيل الضيوف لا ينقطع، فأن شيخو بك، الذي اعتاد التدخل في كل صغيرة وكبيرة، شعر بإرهاق كبير. كان لا يدري أين يضع حزم الدنانير التي كان يختلي احياناً الى نفسه، يعدها متمتعاً بمنظرها. كما وكان يحتار بالضيوف، ولاسيما الكبار منهم، يحتار بأكلهم ومنامهم وسهراتهم.

كان ذلك قبل ان يعيَّن نائباً في مجلس النواب وقبل أن يزوره الملك فيصل بعدة سنوات. وكان العمل اذ ذاك يجري بحمى غريبة في مد السكك الحديدية وبناء المحطات، حين ذاك طلب ذات يوم إلى خادمه مردان ان يسرج فرسيهما ويهيِّئ نفسه للسفر الى أخيه كريم في وادي كفران الجبل، وذلك بعد ان تأمَّل كثيراً في وضعه هو ووضع أخيه كريم ووضع العشيرة ككل وفي مستقبلهم جميعاً، اذ انه رأى ان من واجبه استشارة أخيه قبل ان يقدم على خطوات حاسمة على طريق مستقبل العشيرة. كان الوضع اذ ذاك يقتضي حسم العديد من الأمور التي كانت لا تقبل التأجيل او الانتظار. وكان رؤساء العشائر المجاورة يتسابقون في كسب ثقة المستشار الانكليزي الذي كان كلامه بمثابة «كن فيكون». ورغم ان المستشار الانكليزي يعتبره هو المرجع الأول لعشيرة وادي كفران سواء لقسمه الجبلي أم السهلي، فإنَّه كان لا يتوانى عن الاتصال بأولاد أعمامه ولاسيما حمه غريب وتقديم كافة الاغراءات لهم بحجة التعويضات التي لحقت بالقرى والأفراد

نتيجة الحرب. وأُشيع بأن حمه غريب قد تلقّى مبالغ هائلة، على ان يقوم بتوزيعها بعدالة على أفراد قريته التي أحرقها الانكليز في حينه، ولكن المبالغ قد دخلت جيبه دون أن تخرج منه. وحين بنى حمه غريب في قريته داراً فخمة بحديقة واشترى عدة تراكتورات، جرت اشاعة قوية في وادي كفران بأنّ الدولة انما تريد حمه غريب بديلاً عن شيخو بك الذي لا يزال يتصرف كأي فلاح بليد، ولكن البعض قد أكّد بأن السبب الحقيقي يكمن في كون ان الانكليز يحتاجون لتمشية عربات القطار الى النفط، وهذه المادة لا توجد، إلاّ على أراضي أقارب حمه غريب الفقراء الساكنين وراء جبل بناركل. ومما حدا بحمه غريب ان يفرض هيبته على الناس، هو الاشاعة التي سرت بين الناس كسريان النار في الهشيم، والتي مفادها ان حمه غريب قد اصطحب ذات يوم انكليزياً إلى ينبوع النفط، وبعد ان قضيا ليلتهما في قرية أقاربه، طلب الانكليز منه ان يعرّفه على شيخ البرزنجة الذي سمع بكرامته ومعجزاته. وهناك، ما ان رأى الانكليز كرامات الشيخ، منهما فصله لرأس درويش من جسده ثم إعادته إلى مكانه، إلاّ وأسلم على يديهما، متوسلاً إلى الشيخ ان يمنحه اجازة الدروشة. وحين كان حمه غريب يُسأل في مجلسه عن صحة هذه الأخبار، لا يرد كما لو انه لم يسمع شيئاً، ثم يحوّل دفة الحديث الى موضوع آخر، مقلداً حركات شيخه وماسداً لحيته.

كانت هذه الاشاعات تنقل إلى شيخو بك بأساليب وأشكال مختلفة، بيد ان هذا كان لا يأخذها بمحمل الجد، ويأبى حتى في ان يفكّر كونه يشكل غريماً او منافساً له في قيادة العشيرة.

ذات يوم حذّره مردان من مغبة إهماله لتطاولات حمه غريب، الذي راح يمد رجله أكثر مما يتطلبه طول لحافه. ولما كان شيخو يعرف بأن تنبيهات مردان لا علاقة لها بالنفاق وانما صادرة من قلب صاف، لذا توقف عند ملاحظته، وطلب اليه ان يبدي رأيه كاملاً ويضع الحلول التي يجدها صائبة. كانا قد اتخذا مكانيهما في برج المراقبة الذي اتخذ مردان سكناً له. شربا الشاي ودخنا إلى وقت متأخر من الليل، وهما يستعيدان ذكريات الأيام السابقة، وأكّد شيخو أكثر من مرة بأن أجمل وقت عنده انما هو هذه الساعات التي يقضيها في الغرفة الصغيرة وهو ممدّد على هذا اللباد المتواضع الذي يذكره بأيام المرحوم والده زوراب، ذلك الزمن الذي ولّى بدون رجعة، كما ان ناسه الطيبين أمثال رمضان، ميرزا، هابو، سنجان والسيد لن يرجعوا.

في تلك الليلة فاتحه مردان بخصوص وضع حمه غريب، مؤكّداً بأنه لا يريد التدخل في شؤون أولاد الأعمام والأقارب، ولكن ما يقوم به حمه غريب لا يمكن السكوت عنه. قال انه ليس ضد ان يغتني حمه غريب او غير حمه غريب، فالغنى شيء يمنحه اللّه لمن يشاء، ولكن ان يضع حمه غريب نفسه بديلاً لشيخو بك، الابن الأكبر للشيخ زوراب، ويقوم بنشر أنواع الشائعات المغرضة، فمسألة مجحفة وغير أخلاقية. هل يمكنك ان تتصور عشيرة وادي كفران وعلى رأسها حمه غريب

الأحمق؟... تذكَر شيخو بعض الملاحظات السريعة التي أبدها ذات يوم الملا أسطة حسين علي كركوكلي حول حمه غريب أيضاً، ومؤكداً بأنَّ الشيطان يعيش في ثنايا لحيته القذرة. سكت شيخو لوقت غير قصير وهو ينفث الدخان من لفافته. كانت صور سريعة متلاحقة تمر برأسه، تبدأ من يوم زواج والده من سنجان فمجيء ميرزا ثم في وقت لاحق حمه غريب إلى وادي كفران بطلب من والده كي يخلصهم من الفقر المدقع الذي كانوا يعانون منه. وحمه غريب هذا الذي كان يمص الملبس ويفرح به مثل طفل يريد ان يحتل مكان زوراب؟ لو علم زوراب بهذا الأمر، لتحركت عظامه في القبر وانفجرت روحه في السماء.

رفع رأسه خارجاً من شروده، قائلاً كمن تذكَر شيئاً:

«الإشاعات لا تهمني يا مردان، واذا كان حمه غريب جديراً بأن يكون رئيساً للعشيرة، فليكن. ثق باللّه العظيم، اذ ذاك أعود براحة بال إلى بانشاخ وأشتغل في الفلاحة كما فعله أخي كريم. ولكن أسألك سؤالاً واحداً لأنَّك عيني وأذني اللتين أعتمد عليهما، ما هي قصة الدنانير التي يقال ان حمه غريب تسلمها من الانكليز؟».

وضع مردان لفافته على الأرض وقال بوجه جاد:

«هذه القصة حقيقية. حدَّثني أحد الخدم العاملين عنده، ممن أعتمد عليه كلياً، بأنه فاجأ حمه غريب ذات يوم في غرفة ملحقة بالمضيف لا يدخله غيرهما، وهو يحسب عشرات الرزم من الدنانير من مختلف الفئات، فما ان رآه إلاَّ وجمع الرزم بانفعال مقسماً بأغلظ الايمان بأنَّ هذه الفلوس ليست ملكه، بل أمانة لديه، يجب أن يسلمها في أقرب فرصة إلى شيخ البرزنجة».

سأله شيخو ما اذا كان متأكداً من ان هذا الخادم لا يكذب، أجابه مردان بلهجة واثقة بأنَّه صادق في كلامه وانه مستعد لتحمل المسؤولية.

حك شيخو رأسه وهو يشعر براحة غريبة تجتاح كونه:

«إنَّنا يجب أن نعاقبه، أعتقد يكفي ان نصادر هذا المبلغ بطريقة من الطرق».

قال مردان كمن تحقَّق أمنيته:

«هذه المهمة سأتكفَّل بها انا ، ولكنَّني أحتاج قادر ومردان».

قال شيخو وهو يعلن انتهاء جلستهما، انه سيبلغ قادر وعباس كي يتصلا به حول الموضوع.

بعد ان تمَّ جمع المعلومات الكافية عن أماكن نوم حمه غريب وتنقلاته التقى قادر، عباس ومردان في غرفة الأخير بعد يومين من اللقاء الذي جرى بين شيخو ومردان. كان ذلك في مساء خريفي من يوم جمعة.

كانت العادة الجارية هي ان يتجمع أفراد القرية في مضيف حمه غريب، وبعد تناول طعام العشاء مباشرة يبدأون بقرع الدفوف والذكر الذي يستمر إلى العاشرة، ومن ثم ينصرفون إلى مساكنهم خائري القوى. ويذهب حمه غريب المتعب في تلك الليلة ليس إلى إحدى زوجتيه، بل إلى أقرب فراش، والذي يقع في الغرفة الملحقة بالمضيف كي ينام جنب الفلوس. كانت الخطوط الأولية للخطة التي قدَّمها لهم شيخو عبارة عن: مصادره المبالغ، عدم اطلاق النار مهما كان السبب والحذر التام لعدم كشف هوية القائمين بالعملية. بعد مناقشة المقترحات المطروحة بكل تفصيل تمَّ الاتفاق بالاجماع على مقترح قادر.

كان قادر قد اطلع على كل زاوية في بيت حمه غريب، وكان يعرف بأنَّ الباب الرئيسي المؤدِّي إلى مضيفه، الذي كان حمه غريب يسميه بـ «التكية»، يظل مفتوحاً الى وقت متأخر من الليل، أي إلى أن يغادره آخر ضيف. بعد ذلك يقوم هو بتركيب المزلاج الخشبي من الداخل ثم يذهب إلى فراشه. وصلوا القرية قبل انتهاء الذكر بفترة كافية. ربطوا خيولهم وجلسوا على الأرض وراء مخزن للتبن يقع مباشرة مقابل باب التكية، متسترين بالظلام الدامس، وراحوا يدخنون. كانوا قد اتفقوا على أن يبقى مردان قرب الخيول ويقوم قادر وعباس بتنفيذ العملية. حاول مردان إقناعهما للمرة الأخيرة بعدم ضرورة بقائه هو خارج عملية التنفيذ، بحجة ان العملية من التفاهة بحيث لا تستحق كل هذا الحذر. قال له قادر بصوت خافت:

«أعرف ان جحرك يحك، ولكن لا تخف، سنقوم في وقت لاحق بعملية سطو حقيقية تستطيع فيها أن تُثبت جدارتك، أمَّا هذه الليلة فيجب أن نكون في منتهى الحذر، وإلاَّ فإنَّ أقل خطأ سيؤدِّي إلى الحساب العسير أمام عمِّي شيخو».عندما خفت نداءات الذكر وقرع الدفوف، تسلَّل قادر وعباس بخفة إلى الفناء واختفيا في زريبة متروكة على الجهة اليمنى. ودَّع حمه غريب آخر رجل متمنِّياً له احلاماً سعيدة. سمعاه، بعد غلق الباب يدمدم مع نفسه:

«يا اللّه يا أرحم الراحمين، يا شيخ البرزنجة، كونا رحيمين مع عبدكما المطيع».

لفَّا نفسيهما بقطعة قماش أبيض وتقنَّعا حتى العنق بكيس ذي فتحتين من نفس القماش. حين أطفأ الفانوس في المضيف ودخل الغرفة الملحقة به، اجتازا عتبة الباب وراحا ينتظران انطفاء الضوء، الذي كان شعاعه يتسرَّب من فتحة المزلاج الخشبي. انتظر لفترة غير قصيرة دون ان ينطفئ الضوء. تقدما من الباب بخفة وراحا ينظران من خلال الفتحة. كان حمه غريب قد حلَّ حزامه وجلس على فراشه المفروش على الأرض وهو ينشر رزم الدنانير على الأرض ويدمدم:

«اللهم بارك وزد...». همس قادر في أذن عباس: «هيا أشعل الشمعة». عندما انتهى هذا من إشعال الشمعة، مدَّ قادر يده من خلال الفتحة ورفع المزلاج فانفتح الباب، وخل عباس بخطوات وئيدة ثم وقف ماداً بيده الحاملة للشمعة إلى الأمام وأمَّا قادر فوقف وراءه كما لو أنه ظله. قفز

حمه غريب في مكانه مذعوراً وانسحب بحركة لا ارادية الى الركن وهو يتمتم: «بسم اللّه الرحمن الرحيم...». ظلَّ جامداً، ينظر إلى الشمعة ويده ممسكةٌ بقبضة خنجره.

قال قادر بصوت غليظ ممطوط:

«أيُّها اللص، خنجرك لا يفيدك. كيف تسرق أموال الشيخ؟ ألا تخاف اللّه».

تلعثم حمه غريب وقال بصعوبة بعد ان سقط الخنجر من يده:

«أنا ما زلت خادم الشيخ، أنا، أنا كنت في كل الأحوال سآخذها إليه، خذوها كلها، أنا لست صاحبها».

كان حمه غريب يعتقد أنه أمام شبح واحد، ولكن حين ترك قادر مكانه باتجاه كومة الرزم، اعتقد ان الشبح الثاني قد انشطر من الأول، فوقع مغشياً عليه.

انشغل قادر بجمع الرزم والبحث عنها هنا وهناك، أمَّا عباس فهرع إلى الوعاء القريب من الفراش وأخذ منه كوباً من الماء، رشَّه على وجه حمه غريب الذي راح يفتح عينيه ببطء دون أن يقوى على فتح فمه. قال بصوت أغلظ من الأول:

«يا درويش حمه غريب، هيا قم واذهب إلى فراشك». عبثاً حاول الوقوف على رجليه، ولكنه راح يزحف بصعوبة إلى فراشه، وحين ارتطمت يده بالمخدة، أطفأ عباس الشمعة ثم انصرفا.

عادوا في نفس الليلة إلى شيخو، الذي كان لا يزال ينتظرهم ساهراً وحده في مضيفه. سلَّمه قادر الكيس كما هو دون أن يلقوا نظره على محتواه. فتح شيخو الكيس ثم افرغه على الأرض قائلاً:

«هذه اذن دنانير حقيقية، هل حسبتموها؟».

أجابوا كلهم بصوت واحد:

«كلا».

قال شيخو وهو ينظر إلى الرزم باشمئزاز:

«انا لا أريد أمد يدي إلى هذه القذارة، ارجعها يا قادر إلى الكيس».

وضع قادر الرزم بعناية الكيس ثمَّ شدَّه بخيط. بعد هنيهة صمت قال شيخو:

«هل تحبون أن أعد لكم الشاي ونواصل السهرة، أم تريدون الذهاب إلى الفراش؟».

اتفقوا بالاجماع على مواصلة السهرة، أمَّا إعداد الشاي، فأبى مردان إلاَّ أن يقوم به هو. قال شيخو بعد فترة سكوت:

«غداً توصلون هذا الكيس إلى الشيخ، ولكن يجب أن تبقى هوية المرسل مجهولة».

في اللقاء الطويل الذي جرى بين شيخو وكريم في بانشاخ، اتفق الأخوان على جملة مسائل مصيرية بالنسبة للعشيرة، منها إظهار وادي كفران أمام الدولة ليس كمنطقة موحدة، بل كمنطقتين مستقلتين عن بعضهما البعض، وذلك تحسباً للطوارئ المحتملة من الدولة التي لا يمكن الاعتماد عليها كلياً. وبذلك يبقى وادي كفران الجبل ملاذاً امناً يمكن الانسحاب اليه عند اشتداد الأزمات سواء مع الحكومة أو مع العشائر الأخرى. وجرى التأكيد على ان يركز شيخو الأمور بيديه، ويضرب بيد من حديد كل من تسول له نفسه الاتصال بالجهات المسؤولة من وراء ظهره.

قال كريم عند توديعه لشيخو وهو يعانقه:

«انك الآن قد أصبحت راعياً حقيقياً، فعليك باستعمال العصا، وإلاً فإنً أحقر معزة تستطيع أن تأكل خبزك».

بعد عودته الى قرية زوراب دعا شيخو حمه غريب وجميع الأعوان الآخرين من أقاربه إلى تناول طعام العشاء عنده. وأعلمهم مقدماً بأنً الحضور ضروري جداً، وبأنً الذي لا يتمكن من الحضور عليه إرسال وكيل عنه. كان مجلس العشيرة، بعد موت الأعضاء التقليديين: زوراب، رمضان، ميرزا، هابو والسيد، قد انحل عملياً. ولما تأكًد شيخو من ان أقاربه يقومون بتكتلات مشبوهة ضده ويحاولون إبراز حمه غريب، الذي لا ينادونه إلاً بـ «الاغا»، قام هو بدوره ببلورة مجلس جديد ضمً إليه إلى جانب حمه غرب، كممثل لأقاربه القادمين على عدة موجات من بناركل، كل من الأسطة حسين علي كركوكلي وسليمان ابن أخت هابو. ولما سُئل عن سبب عدم انضمام أخيه مريم إلى المجلس، أجاب بأنً وادي كفران الجبل لا علاقة له بعد بوادي كفران السهل، وانهم هناك لا يريدون الاحتكاك المباشر بالدولة إلاً بالقدر الذي يتطلبه دفع الضرائب وقانون التجنيد. وعرف كل فرد من أبناء العشيرة بأن قانون التجنيد الجديد الذي يقضي بذهاب كل من بلغ الثامنة عشرة إلى الجيش لا يمكن تطبيقه، ليس في وادي كفران الجبل حسب، بل وحتى في وادي كفران السهل ايضاً، إذ ان الصبيان قبل أن يبلغوا ذلك السن يغيبوم عن الأنظار وراء جبل الإمام علي.

بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء تمً توزيع الشاي والسكاير الأجنبية من علبة جميلة، بدأ الضيوف بالتمعن فيها ولمسها. قال شيخو بعد ان انتهوا من تعليقاتهم على نكهة السكاير اللذيذة وجمال العلبة، وهو يريهم إيًاها:

«هل ترون هذه العلبة؟ انها هدية من المستر بيل».

سكت هنيهة وهو يحدًق إلى حمه غريب بعينين حادتين:

«أنا لا أخفي عليكم أي هدية مهما كانت، سواء أكانت تافهة مثل هذه العلبة الفارغة، أم ذات قيمة مثل رزم الدنانير. إنّ هذه الحياة الفانية لا تساوي شيئاً أمام الاخلاص للعشيرة. ليكسر اللّه يدي وليفقدني بصري ان أخفيت عليكم سرًّا او حرمتكم من نعمة يمنحني إيّاها اللّه. ان اللّه، مثلما يعطي يأخذ ايضاً. أليس كذلك يا ابن عمّي حمه غريب آغا؟».

قال حمه غريب بقناعة عفوية بصورة لا رادية:

«صحيح يا ابن عمي شيخو بك». بيد انه ما تذكر المعجزة التي حصلت معه، والدتي لم يفش بها لأحد، صعد الدم إلى وجهه وأطرق برأسه خجلاً.

تحدَّث شيخو كعادته باختصار وبلهجة صارمة حول الوضع الجديد، وأكَّد على ضرورة الالتزام بما يلي:

١- يدفع كل آغا سنوياً عُشر المحصول مع شاة عن كل مائة رأس غنم.

٢- لا يجوز تعيين أي عامل سواء في السكك أم في معمل الاسمنت إلاَّ بموافقته هو ولا يجوز استقطاع أي مبلغ من أجور العامل.

٣- لا يجوز الاتصال بأي مسؤول حكومي إلاَّ من خلاله هو.

٤- يعتبر مردان مسؤولاً عن جمع الموارد، وكل مخالفة له تعتبر مخالفة لرئيس العشيرة.

٥- كل أغا أو فرد له مطلق الحرية في عدم التقيد بهده التعليمات، ولكنه في هذه الحالة لا مكان له في وادي كفران، سواء بسهله أو جبله.

استفسر شيخو ما اذا كان ثمة اعتراض من أحد. لم يعترض أحد ورغم انهم هزوا رؤوسهم بالموافقة الجماعية، فإنَّه لم يكتف بذلك، بل الزمهم ان يقسمو باللّه وبرسوله بأنّهم لن يخونوه. وان ما حصل حتى الآن قد فات وان كل ما فات مات.

في وقت متأخر من الليل، وبعد ان فرغ المضيف ولم يبقَ سوى حمه غريب وشيخو، علم الأخير بأن الأول يريد أن يحدّثه عن سره الذي راح يعذبه، فقال له:

«يا ابن عمي حمه غريب، أريد أن افضي لك بسر، ولكنني لا أدري ما اذا كان هذا السر، حلماً أم حقيقة. لقد جاءني قبل أيام وفي وقت متأخر من الليل ملكان أبيضان وطلبا منّي رزم الدنانير العائدة للشيخ، ولما حلفت لهما بأنّني لا أملك مثل هذا الشيء، تلاشيا، هل تستطيع ان تفسر هذا السر؟».

اعترف حمه غريب بالحقيقة وبأن رجله قد انزلقت بأمر من الشيطان، ولكن الرحمن أرسل الملكين في الوقت المناسب. وأقسم بأن تكون تلك الفعلة الشنيعة ، الأولى والأخيرة.

٢٢

عندما زارا رستم قرية زوراب لآخر مرة قبل أكثر من سنة، كان العمل في بناء البيت الحديث، الذي يسمُونه بالقصر، لم ينته بعد. كانت مواد البناء قد جُلبت خصيصاً من بغداد وكركوك وأماكن أخرى. وحتى الأسطة حسين علي كركوكلي، الذي يعتبر البنّاء الوحيد في المنطقة، راح يشتغل كمساعد عند البنّاء الذي جيء به من بغداد. ولأول مرة تشهد، ليس وادي كفران حسب، بل المنطقة كلها قصراً فخماً مبنياً من الحجر والسمنت والطابوق وعلى أحدث طراز. تمَّ بناء القصر على أرض مربعة مساحتها ٥٠٠٠ ذراع مربع، لصق البيت القديم الذي أشرف على بنائه حسين علي كركوكلي. يتكوّن البناء من طابق أرضي بجانحين يفصلهما ممر طويل يؤدّي من الجانبين إلى شرفتين بواجهات زجاجية، تطلان على الحديقة التي تطوّق المبنى من ثلاث جهات. الجناح الأيمن يحتوي على سبع غرف وأمّا الجناح الأيسر فعبارة عن قاعة كبيرة بنوافذ أندلسية تطل على الحديقة. الطابق العلوي هو تكرار للطابق الأرضي مع تغييرات طفيفة. يحيط بالبناءين سور مبني من الطين، ارتفاعه اربعة أمتار وسمكه في القاعدة اكثر من متر. ثمة بوابة كبيرة واحدة بغرفة علوية للحراسة، تؤدّي إلى الفناء الذي ينتهي بالمضيف الخاص بالفلاحين. على الجانب الأيمن بوابة تؤدّي إلى البيت القديم، الذي سُمّي فيما بعد بالحريم، وعلى الأيسر ثمة سلم يؤدّي إلى الطابق العلوي، وبوابتان، أحدهما في أقصى اليسار وتؤدّي إلى الحديقة حيث الحوض المدور والأخرى قرب البوابة الرئيسية وتؤدّي إلى قسم الكروم والأشجار المثمرة.

لم يتميّز وادي كفران بقصره الفخم المبني على أحداث طراز، حسب، بل راح كل فرد، سواء في داخل العشيرة او خارجها، يتحدّث بإعجاب عن الطاحونة العجيبة التي تشتغل بالنفط وتبعث النور في جميع أرجاء القصر بمصابيح زجاجية مغلقة تشبه العرموط، وتقذف بأكياس الطحين كما لو انها عفريت قادم من السماء. في البداية يصدق فلاحو المناطق المجاورة لوادي كفران بالخبر الذي راح يسري في المنطقة كسريان النار في الهشيم. ولما علموا بأن الطاحونة مفتوحة لكل فرد وانها تعمل ليلاً ونهاراً وانه ثمة مكان مخصّص لاستراحة الزبائن ومربط خاص للحمير، بدأوا يتقاطرون إلى قرية زوراب بدل اجتياز الطرق الوعرة إلى أقصى شمال وادي كفران الجبل، حيث الطاحونة المائية الوحيدة خلف مضيف خورنه وه زان، ناهيك عن الانتظار الطويل الذي لا يقل في كل الأحوال عن اسبوع. ولقد اندفع الكثيرون، ليس لطحن الحبوب حسب، بل لمشاهدة قصر شيخو بك والتمتع بمنظر الأضواء المحيطة به ليلاً، وكذلك زيارة محطة القطار

والقاء نظرة على العربة الواقفة هناك، والتي قيل انها خاصة بشيخو بك. وكان الفلاحون لا يكتفون بكل ذلك، بل يظلون ينتظرون نهاراً كاملاً لرؤية القطار الذي كان يظهر في الأفق البعيد مثل نقطة سوداء ما يلبث ان تكبر فتكبر ثم تنحني وتتلوى مثل ثعبان خرافي قبل بلوغ الجسر الحديدى المنصوب على نهر روخانه. وما ان يجتاز الجسر ويبلغ المحطة، إلاً ويبدأ بالتخفيف من هديره، بيد انه يطلق الصفير واحداً تلو آخر، شاقاً به عنان السماء، ثم يفح ويقذف البخار.

كان الفلاحون يعتقدون ان ركوب القطار، الذي سمُّوه بالحمار الرمادي، خاص بفئة معينة من أهل المدن، ولكن تبين لهم فيما بعد انه مفتوح لكل من يرغب بالسفر، على ان يدفع ثمن التذكرة الى الشخص المسؤول الذي يسمونه بـ«التيتي».

تحوَّل المكان المخصص لإنتظار الزبائن في الطاحونة، والذي سمَّاه الفلاحون ببيت الشيطان، الى مجلس دائمي مفتوح ليلاً ونهاراً، يجري فيه تجاذب أطراف الحديث حول كل شيء: نوعية المحصولات، أسعار الحبوب، أخبار العشائر، قوتها وعلاقتها بالحكومة. وكان أهم شيء هو التعارف المباشر بين افراد العشائر المختلفة وجو النقاش الحر البعيد عن الجو المضيف الذي يتصدره رئيس العشيرة، حيث لا يستطيع أحد فتح فمه، إلاً بعد ان يطُلب إليه ذلك.

في تلك الجلسات الطويلة التي يسهر فيها الفلاحون بكل حرية، دون أن يفكِّروا بالاستيقاظ المبكر لسقي الزرع أو تعليق الحيوانات، يعدّون الشاي ويطبخون ويخبزون ويتبادلون المعلومات، هناك اكتشفوا بأنهم يستطيعون اختصار العديد من الطرق التي تستغرق عندهم أياماً. وبأن ثمن التذكرة من قرية زوراب إلى محطة قرية سليمان بك، التي لا تبعد كثيراً عن وادي كفران الجبل، عبارة عن عشرة فلوس فقط هناك ايضاً علموا بأنَّ شيخو بك رجل مضياف، وان مجلسه مفتوح لكل فرد. وثمة عشاء يومي يقدم بعد مغيب الشمس لكل الحاضرين، بغض النظر عن انتمائهم العشائري. ليس التمتع بلذة الطعام الساخن هو الذي يدفع بزبائن الطاحونة لزيارة مضيف شيخو بك حسب، بل الفضول لرؤية هذا الشخص الأسطوري الذي زاره الملك بنفسه في قصره، والاطلاع ولو على جزء من القصر من الداخل ومشاهدة تراكتوراته التي تنجز من أعمال الحراثة خلال اليوم الواحد ما لا تنجزه مئات البغال والثيران. السهرة تنتهى في المضيف عادة في العاشرة مساءً، حيث يطرد مردان الضيوف بأدب، ثم يُحكِم اغلاق البوابة من الداخل بطريقة لا يتقنها إلاَّ لص محترف. بعد ذلك يستحيل فتح البوابة مهما كان السبب، فيعودون إلى بيت الشيطان ليواصلوا سهرتهم ويعقبوا باسهاب على أحداث النهار ولاسيما ما رأوه في المضيف. بعد سيل المديح لكرمه وتواضعه وتقواه، تتحول دفة الحديث الى شخصية والده المرحوم زوراب، وغالباً ما يدس شيخو احدهم، ليس لمجرد سماع ما يتحدثون به، بل للحديث عن مآثر عشيرة وادي كفران في أيام سفر برلك العثمانية، ورئيسها الشيخ الاسطوري

زوراب، الذي كان لا يتحدّى اليوردو العثماني حسب، بل يصارع العفاريت والجن، ومن مآثره انه وضع حداً لتجاوزات البابانيين الذين اعترفوا فيما بعد بهيبته وتصاهروا معه. ورغم ان بعض الفلاحين كانوا غير مضطرين للبقاء، لأن دقيقهم كان جاهزاً للنقل، إلاّ انهم كانوا يظلون لقضاء ليلة او ليلتين في المجلس الفريد الذي انتشرت أخباره في كل مكان. وبعد ان كانت عملية نقل القمح او الشعير الى الطاحونة المائية القديمة، مهمة مزعجة، وبدأ الآن كل فرد داخل العائلة الواحدة يتسابق للقيام بهذا العمل الشيّق. ولما كان المكان يضيق يوماً بعد يوم بالزبائن، لذا طلب مسؤول الطاحونة الى مردان بإيجاد حل لهذه الأزمة. وكان ان اصدر مردان قراراً باخراج كل مَن انتهى طحن قمحه. ورغم ذلك فإنّ المشكلة لم تحل، اذ راح الفلاحون يجلبون كميات كبيرة من الحبوب، كي تطول فترة الانتظار، كما ان البعض اتخذ الهواء الطلق ملجأً لمواصلة السهرة. وتبيَّن للبعض أن المجلس هناك أطيب.

ذات يوم جاء رجل الى القرية ونصب خيمة سوداء كبيرة في المكان الذي اتخذه زبائن الطاحونة مجلساً، قائلاً لهم انهم من الآن فصاعداً يعتبرون ضيوفاً عليه، رغم انه كان لا يملك شروى نقير. ورغم ان الفلاحين عرفوا بأنه هو قد فرض نفسه ضيفاً عليهم، فإنّهم رحبوا به لأنه أوجد لهم سقيفة يحتاجونها فعلاً. ولما كان يشد على رأسه خرقة خضراء، راحوا ينادونه بالسيد. قال إنّه لم يأكل منذ عدة أيام فقدموا له الطعام والشاي وسكاير، وبعد ان شبع تمدَّد في مكانه متكئاً على صرة أسماله وهو يشكر الجميع متمنياً من الله عزَّ وجل وجدّه الأكبر النبي محمد العربي ان يوفقهم ويمنحهم الخير والبركة. بعد فترة وجيزة وصل الخبر الى القصر، فجاء مردان قائلاً له بأن العشيرة، ترحب بكل مَنْ يريد السكن بين ظهرانيها، ولكن ليس بهذه الطريقة، فالأمور ليست تائهة كما يتصوّر. أجاب الرجل بصورة أدهشت الحاضرين، بأنه ليس غريباً هنا، فإنّ هذه العشيرة انما هي عشيرته هو ويعتبر نفسه كأي فرد من أفرادها، وانه، رغم كونه من نفس عشيرة الملك فيصل، فإنّه لم يتنازل أمامه وفضّل المجيء إلى وادي كفران. وبعد ان أغمض عينيه لهنيهة، فتحهما محدقاً إلى وجه مردان وقال بنرفزة:

«ألست أنت مردان؟».

تساءل مردان مبتسماً:

«من أين تعرفني؟».

قال الرجل بسخرية:

«أنت ذلك الشخص الذي كان يعمل كشحنة عند المرابي جهانكير وتشرب العرق مع مراد جاووش وتسرق ليلاً، ولكن الله ارسل لك شيخو بك ابن المرحوم الشيخ زوراب فجعل منك آدمياً،

هيًا اذهب واتركني لشأني مع هؤلاء الطيِّبين، فأنا لم أسرق مال أحد».

اعتقد الحاضرون، ان مردان، الذي يهاب منه الجميع، سيفجِّر رأس الرجل باطلاقة من بندقيته، بيد انهم استغربوا حين وجدوه ينحني على الرجل، الذي كان لا يزال متمدِّداً في مكانه، ويقبِّل يده معتذراً منه وطالباً اليه ان يصطحبه الى مضيف شيخو بك الذي ينتظره».

قال الرجل بهدوء بعد ان ارتاح لموقف مردان:

«لا يا مردان لا، شيخو بك، اللّه يحفظه، ما ينتظرني لأنه لايعرفني. أنا هنا في بيتي، فإذا اراد منِّي شيئاً فليزرني».

عاد مردان إلى شيخو الذي كان يشرب شاي فترة العصر كعادته في الشرفة المطلة على الحوض مع الأسطة حسين علي وسليمان، ونقل له حكاية الرجل الغريب بحذافيرها. قال شيخو انه ليس من المعقول ان يترك السيد جواد قبره ويرجع الينا بهذه البساطة، ولذلك فإنَّ الرجل إمَّا من أقاربه او من معارفه، على كل حال لندعه وشأنه.

٢٣

حين اجتازا مجرى نهر روخانة العريض والذي كانت مياهه القليلة قد شكلت جداول صغيرة هنا وهناك، قال ولي لأبيه انه يريد ان يترجل كي يتبول. عرف رستم ان ذلك مجرد حجة، الغرض منها هو اللعب بالرمل والماء وجمع الأحجار الملونة. سحب زمام حصانه واستدار باتجاه ابنه قائلاً:

«هذه هي المرة الثالثة وأنت تريد ان تتبول يا ابني، ألاَ تقل لي من أين لك كل هذا البول؟».

«يا بابا هل البول ممنوع؟».

«البول ليس ممنوعاً يا ابني، ولكن لا تنس انهم ينتظروننا الآن لتناول طعام الغداء معهم، اننا يجب أن نسرع ثم انني أريد أن اريك اليوم الطاحونة ومحطة القطار».

ما ان تذكّر الصبي الطاحونة ومحطة القطار، إلاّ وهمز الحصان بكعبيه قائلاً: «هيًا يا بابا لنتسابق؟». صاح رستم وهو يحاول عبثاً اللحاق به:

«ولكن، ألاَ تريد أن تتبول يا ولي؟».

كان شيخو بك يذرع الأرض ذهاباً وإياباً فوق سطح القصر وهو ينتظرهما على أحرّ من الجمر. وعندما رآهما من بعيد وهما يتسابقان، تنفس الصعداء فهبط السلم بسرعة.

كان مردان وقادر وعباس قد وقفوا امام البوابة الرئيسية وهم يحملون هداياهم: مردان بجرو أبيض جميل، قادر بفرخ غزال وعباس بقبج داخل قفص. قبل ان يترجّل رستم ، قفز الصبي. قبل ان يترجّل رستم، قفز الصبي من على ظهر حصانه وهو يعانق الثلاثة ويداعب هداياه. واما شيخو بك الذي قابلهما في الفناء فقال للصبي انه ليس صياداً جيّداً مثل هؤلاء اللصوص الثلاثة، لذلك فله هديةً من نوع آخر يستطيع ان يسافر بها مع والده الى كركوك ليشتري بها ما يحتاجه من الدفاتر والأقلام، وكان ان دسًّ في يده رزمة صغيرة من الدنانير.

قال شيخو وهو يعانق رستم بحرارة:

«اذا كان لقاء الجبال مستحيلاً، فإنّ لقاء الرجال ممكن. نحن من دم واحد، قد نجرح ببعضنا البعض، ولكن يستحيل كسر العظم فيما بيننا».

اعتذر رستم مؤكّداً بأن سبب انقطاعه الطويل عن زيارته، هو في الحقيقة خوفه على حياة ابنه، وانه ليس مستعداً للمغامرة بحياته الغالية عليه.

طمأنه شيخو بأن حمه غريبو الذي كان يقود الحملة ضد الصبي، قد تخلَص هو الآخر من حماقته وانهم لقنوه اكثر من درس واحد، وانه لا خوف ابداً على حياة الطفل، ورغم ذلك فإنً قادر وعباس ومردان سيحافظون عليه، كحفاظهم على عيونهم.

رغم عدم تحمُس رستم لفكرة الزواج، فإنً مجمل العملية قد أيقظ فيه الرغبة الجنسية التي خبتها عاطفته الجياشة لذكرى مادلين التي ظلت تتوهَج في قلبه المعذب مثل شعلة ازلية تحول دون ان يقتحم من قبل امرأة اخرى. اعتبر الزواج، في قرارة نفسه، خيانة لذكراها، بيد انه سرعان ما علًل ذلك كأمر مفروض عليه، لا بدً له من تنفيذه. وبذلك لا تكون روحه هي التي ستتزوج، بل جسده، فلتفعل به الإمرأة المجهولة التي لن يراها إلاً في ليلة الدخلة ما تشاء.

كان شيخو قد قرًر ان يحوًل مناسبة زواج رستم الى تظاهرة، لم يسبق للمنطقة ان شهدت مثلها من قبل، ولذلك، حين رجاه رستم باجراء مراسيم الزواج بصمت، أجاب بلهجة مقنعة وبهدوئه المعتاد بأن فترة عشر سنوات من الحداد لم تحصل في تاريخ العشيرة، وان مثل هذا الشيء ان جلب معه امراً، فإنًما الشر لا غير، فهل يريد ان يكون باعثاً على الشر؟ ان العادة الجارية في العشيرة منذ الأزل هي ان مدة الحداد سنة واحدة فقط، وإلاً فإنً الله يزيد في عذاب الميت الذي يكفي انه يعاني عذاب القبر، ثم ان الابن نفسه بحاجة الى رعاية امرأة، حتى وان كانت هذه الإمرأة زوجة أب.

كانا جالسين وحدهما في الشرفة المطلة على الحوض، حيث الصبي ولي يلعب مع أولاد شيخو. بعد مداولات غير قصيرة اتفقا ان يتصرف رستم بعد ليلة الدخلة كما يشاء، فله حرية العودة الى مسكنه في مركز القضاء او الذهاب الى قرية بانشاخ، على ان يجري الاحتفال لمدة اسبوع بالشكل الذي يقرًره شيخو، كما اتفقا ان تبدأ مراسيم الزواج فوراً.

قبل البدء بتناول طعام العشاء تمً احضار الملا. كان كل شيء مهيئاً قبل مجيء رستم بيومين، حتى أن كريم وزوجته فاطمة قد وصلا بعد وصول رستم بثلاث ساعات. كانت العروس التي رأى رستم جانباً من وجهها المغطًى بشال تقف بين فاطمة وزوجة شيخو البابائية، وأمًا رستم فيحيط به والده كريم وعمًه شيخو من جهة والملا من جهة أخرى. عندما سأل هذا العروس، ما اذا كانت موافقة على الزواج من المدعو رستم كريم زوراب، أطلق رستم ضحكة قصيرة مكتومة، جلبت انتباه شيخو الذي ابتسم هو الآخر واستفسر بهمس عن سبب الضحك. همس رستم في أذن شيخو:

«لماذا لا يوجَه لي أنا هذا السؤال؟».

لكزه بمرفقه مقاطعاً الملا ومحاولاً اشاعة المرح في الجو:

«ابن أخي رستم أفندي مستعجل جداً. لا تخف بعد قليل ستكون وحدك معها».

كانت الليلة الأولى لحفلة العرس، التي قرَّر شيخو أن لا تقل عن اسبوع، مخصَّصة للأهل والأقارب والعشيرة فقط، على أن تكون الليلة الثانية خاصة بالشيخ البرزنجي ودراويشه، وأما الليالي الثالثة والرابعة والخامسة للمسؤولين الكبار والموظفين في اللواء ورؤساء العشائر. وتكون الليلة السادسة والسابعة مفتوحة للكل ولاسيما لأفراد العشائر المجاورة وزبائن الطاحونة، وتقرَّر أن يكون الطحن خلال اليومين الأخيرين مجاناً.

بذل رستم جهوده من اجل أن تبقى مسألة العرس غير واضحة بالنسبة إلى ابنه ولي، وبأن العملية كلها هي لمناسبة قدومه هو ووالده إلى القرية. ورغم ان الصبي عند أول وصولهما القرية ترك والده منشغلاً بهداياه وظلَّ متعلقاً بقادر وعباس اللذين كانا يرويان له أنواع الحكايات، فإنَّ رستم ظلَّ يؤكِّد على إبعاده قدر الامكان عن جو العرس. وجد قادر وعباس ذلك فرصة جيدة كي يتهربا من مسؤوليات الخدمة المرهقة خلال فترة العرس، فاتفقا، بعد التشاور مع شيخو، على ان يسافرا مع الصبي بالقطار إلى وادي كفران الجبل. اذ ذاك فقط ارتاح رستم وقال انه يستطيع ان يبدأ ليلة الدخلة براحة بال.

ذهب كريم بصحبة مردان الى السيد لدعوته لتناول العشاء، اذ رسخت عنده القناعة بأنَّ هذا الشخص الذي يعرف كل شيء عن مردان لا بدَّ ان يكون من أقارب المرحوم سيد جواد، الذي كان يُعتبر فرداً من العائلة.

كانت الخيمة تضج بالفلاحين المنهمكين بشرب القهوة والتدخين والأحاديث المتشعبة، حين دخل كريم ومن ورائه مردان. سرعان ما أطبق الصمت على جو الخيمة، وقام الجميع احتراماً لكريم آغا الذي عرفه معظم الجالسين، حتى ان عدداً من فلاحي اللك راحوا يتهامسون فيما بينهم بفخر واعتزاز بأن زوجته الصغرى من عشيرتهم. حيَّا كريم الجميع، راجياً منهم الجلوس ثم توجَّه إلى السيد الذي كان يتقدَّم منه هو الآخر فاتحاً ذراعيه قائلاً:

«أهلاً ومرحباً بكريم آغا... أهلاً ومرحباً بكريم آغا...».

لاحظ كريم أوج الشبه بين هذا الرجل والسيد، وراحا يتعانقان بقوة. لم يجلس الآخرون، إلاَّ بعد ان اتخذ كريم مكانه جنب السيد الذي راح يكرِّر ترحيبه به وبأنَّ حلمه في اللقاء بكريم آغا قد تحقَّق، وبأنَّه من الآن فصاعداً أسعد انسان على الأرض. وقبل أن يبادر كريم بالاستفسار عن علاقته بالمرحوم السيد جواد الذي يعتبره أباه الروحي، قال الرجل وهو يصب له القهوة بأنَّه ابن أخي السيد جواد، اسمه سيد نعيم. وان السيد جواد، رحمه اللّه، قبل وفاته بفترة وجيزة، قد زار العشيرة مع زوجته شمسة التي ماتت هي الأخرى بعد وفاته، وأخبرهم عن كل صغيرة وكبيرة في العشيرة وادي كفران. وكان من المفروض أن يأخذه معه في حينه، كي لا يبقى مكانه فارغاً بعد مماته، ولكن الظروف العائلية حالت دون سفره معه اذ ذاك. ولما كان قد سبق له ان

أعطاه كلام شرف بأنّه سيلتحق به، فها انه قد جاء بعد ان ظلّ يسأل هنا وهناك عن المكان، وانه بعد ان تستقر أمورهُ هنا سيسافر الى ديرته كي يجلب زوجته وأولاده.

قبل أن يدخل رستم الغرفة المعدّة لليلة الدخلة والواقعة في الجناح المسمّى بالحريم، أعطاه شيخو قصبة وطلب اليه ان يصعد معه السطح، عرف ان عمّه يريد مواصلة التقليد المتبع في العشيرة، وتطبيقه عليه هو الآخر رغم كونه أفندياً، فلم يعترض. صعدا السلم ووراءَهما مجموعة من الاقارب. جُلبت العروسة من بيت أبيها على ظهر فرس، وما ان ترجلت أمام باب الغرفة، إلاّ وانهالت عليها حفنات الملبس وضربها رستم بطرف القصبة الطويلة على ظهرها بضربات خفيفة تكاد لا تلمس ظهرها. قال شيخو بلهجة جادة:

«اضربها بقوة يا رستم أفندي، وإلاّ فإنهًا لن ترضخ لك».

قال رستم:

«كلا، عمًي شيخو بك، ان فعلت ذلك فإنًها ستنتقم منًي فيما بعد».

عندما دخل رستم الغرفة وأغلق الباب من ورائه، أمر شيخو الجميع بترك الفناء وعدم ازعاج العروسين، فلم يبقَ سوى زوجة شيخو وفاطمة ووصيفة العروس، وذلك بانتظار انتهاء الدخلة والقماشة الملطخة بدم العذرية.

جلست العروس في ركن بعيد عن الفراش مثل قطة متوحشة، وهي لا تزال بملابسها الزاهية. ظلّ رستم واقفاً في مكانه ينظر اليها باستغراب وهو ينقل نظراته بين الفراش الوثير الخالي وبينها. تراءت له مادلين وهي مستلقية عارية،، فاستغرق للحظات في شرود عميق. ألقى سدارته جانباً ونزع سترته وحذاءه وعندما بدأ بحل رباطه، استغرب من نفسه: تُرى لماذا البدلة والرباط والسدارة؟ ألاَ أشبه غراباً ابيض وسط أسراب الغراب؟

ها هي الشمعة الكبيرة التي تتجاوز المتر، والتي شهدت زواج الجد زوراب والوالد كريم والعم شيخو وغيرهم من أبناء العشيرة، تشتعل وذبالتها الجميلة المتراقصة تكاد تتكلم وتقول: ما بالكما تنتظران؟ هيًا تعرًيا كي أغسل جسدكما بنوري... اقترب منها. انحني محدقاً إلى عينيها الوجلتين، اللتين كانتا تشبهان عيني قطة محاصرة من قبل كلب:

«هل أنت خائفة؟».

لم تتكلم، توترت منكشمة على نفسها ثم إنسحبت الى جهة الجدار رافعة يديها اللتين تقوست أصابعهما مثل المخالب، وبدت كما لو انها تصد عنها خطراً. اراد ان يمسك يديها، ولكنه قبل ان يمسهما قفزت من مكانها بخفة هائلة وحطت في الركن المقابل وهي تكاد تدخل الجدار. استدار اليها وهو يبتسم، قال وهو واقف في منتصف الغرفة:

«انظري يا منيرة، انا لم أجبرك على الزواج منّي، وليست لي أية رغبة في الركض وراءك. اذا كنت غير راغبة للزواج منّي فأنا سأترك الغرفة حالاً وأسافر إلى حيث أتيت. هناك في المدينة نساء كثيرات، فهل تريدين الذهاب إلى الفراش أم لا؟».

ظلَّ ينتظر الجواب دون جدوى. قال وهو يرتدي سترته:

«إنَّني الآن سأترك الغرفة وارجع الى المدينة، وأمَّا أنتِ، فيمكنك الذهاب إلى أهلك. إنَّني لا أريد أن أتزوج من طفلة جاهلة».

انتظر هنيهة، ولمَّا لم تستجب لكلامه، قال، في أمان اللّه وتوجه نحو الباب، بيد انه قبل ان يبلغه، وثبت من مكانها وألقت بنفسها على قدميه مطوقة ساقيه بقوة وهي تبكي. انحنى عليها رافعاً إيَّاها. وضعت رأسها على كتفه، وقالت بصوت مليء بالنشيج:

«لا تذهب، ابق هنا».

نفذت إلى أنفه رائحة القرنفل التي ذكَرته بجدته سنجان. ضغط بيسراه على يدها، بينما راح يداعب خدَّها بيمناه. شعر بالارتياح لملامح وجهها، الذي كان يخشى أن يكون قبيحاً، وعرف ان الخجل ما زال طاغياً عليها، أمَّا خوفها فقد زال، بدليل ان يدها الباردة فقدت تشنجها وراحت تستقبل الحرارة. عندما تأكَّد من استسلامها، طوَقها برفق واضعاً فمه على عنقها الدافئ. ظلاهَ واقفين بهذا الوضع دون حراك، إلاّ أنَّ أنامل يده اليمنى كانت تمسد عمودها الفقري، زاحفة ببطء باتجاه وركها لتستقر في مكان قريب من العانة. أراد ان يذهب أبعد، بيد انه خشي ان تنقلب مرة أخرى إلى قطة وحشية، لذلك حرَّك أنامله باتجاه الشمال. حين استقرت يده بين نهديها، أحسَّ من حرارة أنفاسها وتنهداتها انها قد استسلمت نهائياً. حرَّك شفتيه بين خدها وشفتيها، فشعر ببلل دموعها. كان شيء ما في قلبه يزيد في الخفقان ويكبت عنده الجانب الجنسي، تأكَّد انه ليس حباً، بل شفقة معينة تجاه صبية لا تفقه شيئاً. قال بصوت وادع:

«اعتقد انكِ الآن لستِ خائفة، أليس كذلك؟».

قالت بخجل:

«كلا».

«هل تحبين أن نذهب إلى الفراش؟ أم نؤجّل ذلك الى وقت آخر؟ ولكنهم في هذه الحالة يعتقدون أنَّني لست رجلاً او انكِ لا تريدين البقاء معي».

«كما تشاء أنت، أنت زوجي».

قادها إلى الفراش. اراد ان يجردها من كل ملابسها، بيد انه ما ان وقعت نظراته على فخذيها وفرجها الحليق، إلاّ ووثب عليها وهو يكاد يحطم ضلوعها. لم تكن هي أقل اندفاعاً منه.

بعد قليل استيقظت فيه الرغبة من جديد وأراد ان يعيد الكرة، ولكنه تذكّر كلام عاصم بك، الذي قال ذات مرة ان المرء يجب ان يكتفي بمضاجعة واحدة في ليلة الدخلة وعلى ان لا يعود إليها إلا بعد ثلاثة أيام كي يلتئم الجرح، أمّا اذا كانت العروس ارملة، فإنّها ستظل مستلقية على ظهرها ماسكة بفريستها التي تظل تحلبها إلى أن تخور قواها.

قبل ان ينتهي من ارتداء ملابسه، بدأت الطرقات تتوالى على الباب. كان والده، شيخو ومردان واقفين أمام الباب. وهم يضربون الأخماس بالأسداس، لأن العملية قد طالت أكثر من اللازم. وما ان انفتح الباب وأطل عليهم بابتسامة النصر، إلاّ وهرعت وصيفة العروس الى الداخل. كان هناك عدا فاطمة وزوجة شيخو عدد آخر من القريبات والأقارب. كان الصمت قد أطبق على المكان وعيون الكل مشدودة على الباب. بعد فترة انتظار قصيرة خرجت الوصيفة وهي تلوح بالقماشة البيضاء الملطخة بالدم. وصعدت الهلاهل والزغاريد وراحت تختلط بأزيز الرصاص الصادر من فوهات البنادق والمسدسات الموجهة إلى السماء.

بارك السيد نعيم الزواج بشده خرقة خضراء على ساعد رستم. وأبى كريم إلاّ أن يجري تناول طعام العشاء في خيمة السيد، التي أكّد انها بمثابة خيمة ميرزا التي أحرقها الانكليز. وأصرّ أن تجري حلقة الرقص الجماعي «ره ش به له ك» خارج القصر، وبالذات أمام الخيمة قائلاً لأخيه شيخو:

«فقط هذه الليلة، أريدها ان تكون ليلة من ليالي وادي كفران الجبل، وأمّا الليالي الأخرى، فتصرف بها كما تشاء».

في اليوم الثاني، خرجت القرية كلها لإستقبال الشيخ البرزنجي ودراويشه. كانت الساحة الواسعة أمام بوابة القصر التي تنتهي بالجدول الذي تنتصب الطاحونة وراءه مباشرة، مليئة بالأطفال والنساء والرجال، وكانوا قد انتشروا على طول الساقية فالطريق الزراعي الذي يتفرع إلى فرعين، فرع يؤدّي إلى مركز القضاء والآخر إلى وادي كفران الجبل. كان بعض رجال القرية ممن يعتبرون انفسهم من مريدي الشيخ، قد تركوا القرية في وقت مبكر وذلك لإستقباله في أبعد نقطة من القرية، فظلّوا ينتظرونه في قرية خضر ولي الواقعة وراء سلسلة المرتفعات التي تفصل الكفرانين. وهم لو عرفوا أي طريق سيسلكه الشيخ، ليذهبوا أبعد من ذلك.

عندما وصلت قافلة الشيخ المتكونة من الخيول والبغال والحمير الى جانب عدد كبير من الدراويش المشاة، مخلفة وراءها غيمة من الغبار، ارتفعت هتافات: اللّه أكبر... اللّه أكبر... كان حمه غريب آغا قد ذهب خصيصاً مع عدد من رجاله بأمر من شيخو بك لدعوة الشيخ ودراويشه، فما ان بلغوا الساحة إلاّ وقفز من على ظهر حصانه وهو يسابق الدراويش الآخرين في تناول زمام حصان الشيخ ومساعدته في الترجل. وقفز الدراويش من على ظهر دوابهم ودون أن

ينفضوا غبار الطريق المتراكم على لحاهم وشعورهم وجدائلهم، استلوا سيوفهم وخناجرهم وراحو يهزونها في الفضاء بشكل ينسجم مع ايقاع نقرات الدفوف التي راحت تطغى على كل شيء. وبدأت النقرات تتناغم مع حركة الرؤوس والأجساد التي تتمايل يمنة ويسرة في وحدة الايقاع مع كلمة الشهادة: درم... درم... لاااا إلااااهـا الا اللـلاه ... لاا الـه الا اللـلاه... لا الـه الا الله... درم... درم.... درم درم درم... واستمر الذكر لأكثر من ربع الساعة.

كان الناس يتفرجون بصمت وهم يردِّددون: لا اله إلاَّ اللَّه... وكان الأطفال قد التصقوا بأمهاتهم وهم ينظرون بذعر. رفع الشيخ يده وقال بصوت جهوري: لا اله إلاَّ اللَّه، اللَّه أكبر... وتوقف الذكر. قبل ان يتوجهوا إلى البوابة قبَّل كل من شيخو وكريم وحاشيتهما يد الشيخ ثم راح الحشد يتسابق في تقبيل يده وأطراف ثيابه، وهو يسير ببطء، كي ينال أكبر عدد ممكن من الناس حصته من بركاته. كانت الشمس الساطعة التي لم تبلغ بعد منتصف السماء الزرقاء الصافية، قد بدأت بنشر قيظها اللافح في كل مكان. عندما بلغ الشيخ باب المضيف، تقدم بعض الخدم وراحوا يقبِّلون يده. كانت الأرض قد فرشت بامتداد الجدران من الجانبين بالسجاد. تقدَّم شيخو بك والشيخ واتخذا مكانيهما في الصدر على فراش عال وثير، تحيطه الوسائد. نزع الشيخ سيفه ووضعه أمامه وهو يبسمل ويتمتم بين فينة وأخرى، ماسحاً لحيته: الحمد لِلَه... الحمد لِلَه... تقدَّم مردان من الشيخ، وهو يحمل بيده اليمنى ابريقاً فضيًّا وبالأخرى آنية فضيَّة يتوسطها غطاء مقعر إلى أعلى بثقوب منتظمة تحيطها نقوش مزخرفة، تحمل في منتصفها قطعة صابون بول موليف. غسل الشيخ يديه ووجهه وراح يمسحها بمنشفة متدلية من كتف مردان. وتوزع الخدم حاملين الأباريق لصب الماء على أيادي الضيوف. وراح قهوجي القصر يوزِّع القهوة المرَّة بنفسه. وبعد ان صبَّ للشيخ وشيخو وكريم آغا وحمه غريب آغا، أشار إلى اثنين من مساعديه لتقديم القهوة والسكاير لبقية الضيوف.

كان شيخو يفكر في اختيار الكلام المناسب لإخراج الشيخ من صمته الذي ان دلَّ على شيء، إنَّما على الاحتجاج المزمن الكامن في أعماقه ليس تجاه شيخو بك، الذي لم يزره منذ تسلمه رئاسة العشيرة حسب، بل تجاه والده المرحوم زوراب ايضاً. وكان شيخو يعرف ذلك جيداً، لذلك بعث حمه غريب خصيصاً لتوجه الدعوة اليه، وكان الشيخ يعتبر هذا رجله اليسرى داخل العشيرة. وأكَّد حمه غريب نفسه عدة مرات لكل من شيخو وكريم، بأنَّه لولاه هو وإلحاحه على الشيخ لما تمَّت تلبيه الدعوة من قبله.

والحقيقة ان الشيخ كان قد قرَّر ان يقوم بسلسلة من الزيارات مع دراويشه ليس للعشائر الواقعة ضمن لواء كركوك حسب، بل ضمن ألوية أربيل والسليمانية ويعقوبة، وذلك لعرض قوته ومعجزاته في هذا الزمن الفاسد الذي بدأ فيه الانكليز وأعوانهم يدخلون عادة شرب الويسكي

والبوكر وإحياء الحفلات الغجرية الى كل بيت، هذا بالاضافة إلى ان تكيته التي تقوم بإعالة عشرات الدراويش، تحتاج إلى مساعدات لا يمكنه ان يستغني عنها.

وجد شيخو ان الفرصة مواتية كي يضرب عصفورين بحجر، أولاً ليقدِّم اعتذاره لعدم زيارته، ثانياً إعتبار المال الذي وصله من قبل شخص غريب هو تبرّعه الذي يستحقه، وشاهِدُ الحادث حمه غريب جالس إلى جانب الشيخ بنفسه. اقترب شيخو منه قائلاً:

«يا شيخ، اننا قبل ان نبدأ بتناول طعام الغداء، أحب ان أذكر لك معجزة تتعلق بجنابك، عشناها أنا وحمه غريب».

قبل أن يكمل شيخو كلامه فتح الشيخ عينيه وراح يحدق إليه بفضول قائلاً: «اللّه أكبر».

وحين أطبق الصمت على الجو، التفت اليه الشيخ يريد سماع بقية القصة.

قال شيخو:

«لو عشت القصة وحدي، لما صدقّني أحد، ولكن لحسن الحظ والحمد للّه، شاهدي هو حمه غريب، أليس كذلك يا ابن عمّي حمه غريب؟».

قال حمه غريب بفخر:

«صحيح، واللّه يا شيخ، إنّها لمعجزة حقاً».

روى له شيخو حكاية الملكين الذين جاءا اليه أولاً معتقدين بأن المال المخصّص لتكية الشيخ من قبل عشيرة وادي كفران موجود عنده، وكان ان بلغهما بوجود التباس في الأمر، فأحلهما إلى حمه غريب آغا الذي تأخّر في ايصال المبلغ إلى التكية.

سرد شيخو الحكاية بأسلوب منمق جميل ثم طلب الى حمه غريب ان يكمل القصة. وبدأ حمه غريب الذي كان ينتظر دوره على أحر من الجمر برواية القصة بأسلوب حماسي لم يدع أي شك يتسرب الى قلب الشيخ الذي ظلّ بين مصدق ومكذب. ولكنه كان على علم يقين بحقيقة ناصعة وهي ان المبلغ قد وصل فعلاً وان المرسل كانٍ مجهولاً. فالشخص الذي سلّم الكيس إلى أحد مؤتمني الشيخ كان قد قال: «هذا الكيس لا يفتحه إلاّ الشيخ بنفسه» ثم اختفى دون ان يعثر عليه احد.

قال الشيخ وهو يهز رأسه متأملاً وماسحاً لحيته:

«سبحان اللّه، سبحان اللّه، الشخص الذي بحثنا عنه كان ملكاً إذن».

بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء توزع الدراويش على بيوت الفلاحين. وقبل ان يستسلم الشيخ للقيلولة اكد لشيخو بأنّ الذكر مساءً سيكون من نوع خاص وانهم في اليوم الثاني، وبعد تناول الفطور مباشرة سيتحركون لمواصلة زيارته إلى العشائر الأخرى.

افتقد كريم السيد نعيم، فسأل مردان ما اذا كان قد نسي توجيه الدعوة إليه، فأجابه بأن السيد

قد اعتذر عن تلبية الدعوة، كونه في حالة صحية غير مرضية، ولكن مردان لم يقتنع بالحجة، فراح يلحَ عليه. وكان انَ أقرَّ السيد بأنَّ سبب عدم تلبيته الدعوة هو انه اذا حضر هناك فينبغي عليه ان يقبل يد الشيخ كأي فرد آخر، ولكن بما انه حفيد النبي، فلا يجوز له تقبيل يد أحد. وعندما قال له مردان، بأن الشيخ ايضاً حفيد الرسول، نفى السيد ذلك وقال بسخرية: كلا يا مردان، الشيخ كردي، والحفيد لا يجوز إلاَّ أن يكون عربياً هاشمياً. وكان ان أخذ مردان

حصته من الطعام الى خيمته، دون أن يفهم شيئاً من كلام السيد.

مساءً، وبعد غروب الشمس جرت الترتيبات في فناء القصر للبدء بالذكر. وحضر معظم أهل القرية لمشاهدة معجزات الدراويش. وأشرف كريم بنفسه على التحضيرات، يساعده في ذلك حمه غريب. قبل البدء بنقر الدفوف بفترة وجيزة، جاء مردان مرتبكاً وجارًا كريم الى ركن منزو قائلاً له، انه لا يستطيع الوصول الى شيخو بك لأبلاغه بالأمر لأنه مشغول بالحديث مع الشيخ، ولذلك يجب عليه تدبير الأمر بسرعة. ثم ابلغه بوصول الغجر، وانهم يريدون معرفة المكان الذي يمكنهم نصب خيامهم فيه.

سأل كريم بارتباك:

«ألم نتفق معهم بأن يصلوا غداً؟».

قال مردان بحيرة ممزوجة بسخرية:

«أنت تسألني عن الاتفاقية مع الغجر يا كريم آغا؟ إنهم الآن في مشارف القرية. واجبنا هو العمل دون وصول الخبر إلى الشيخ، وإلاَّ سيجن جنونه».

«وماذا تريدني ان أفعل كي لا يصل الخبر إليه؟».

«إنَّ تأمرهم بنصب خيامهم وراء محطة القطار، وعلى أن لا يدخلوا القرية إلاَّ غداً بعد ترك الشيخ لها».

تمَّ لمردان ما أراد ولم يصل الخبر إلى الشيخ أو إلى دراويشه، بيد أن الخبر سرى بسرعة بين شباب القرية الذين راحوا ينسحبون من بين جمهور المتفرجين على ألاعيب الدراويش، التي وجدوها أقل تشويقاً من الحفلة الغنائية الساهرة للغجريات.

في وقت متأخر من الليل، حين عاد كريم من الحفلة الغنائية، قال له شيخو، في معرض بحثهما للتحضيرات المطلوبة للأيَّام الثلاثة القادمة:

«لو كان المرحوم والدنا حيًا، ورآنا ونحن محاطون اليوم بالدراويش والغجر، وغداً بالانكليز ومن لفَّ لفهم، للعن الفرمان ومَن أعطانا إيَّاه ولعن الشيطان ولعننا نحن أيضاً إلى يوم القيامة».

٢٤

حاول قادر وعباس بكل جهودهما إخفاء خبر وصول الصبي ولي إلى وادي كفران الجبل، إذ ان كل فرد هناك، بخلاف وادى كفران السهل، يعتبره ولياً حقيقياً من أولياء اللّه الذين يتميّزون بمعجزاتهم الخارقة، لذلك قرّرا أن يدخلا المنطقة في الظلام. ولما كانت المسافة بين محطة قطار سليمان بك ووادي كفران الجبل لا يمكن قطعها مشياً بالنسبة للصبي ولي، وذلك لبعدها ووعورتها، لذلك قرّرا تحقيق فكرتهما القديمة في زيارة الشيخ عواد قوجة لقضاء النهار عنده واستعارة ثلاثة خيول منه لمواصلة رحلتهم إلى هدفهم. كانت هذه هي سفرتهما الثانية بالقطار، في المرة الأولى سافرا من محطة قرية زوراب إلى كركوك. لم يكن غرضهما من السفر الفضول والتعرُّف على القطار نفسه عن كثب حسب، بل التعرُّف على الأماكن التي يمرّ منها، سرعته، إمكانية صعوده أو نزوله أثناء السير، المنعطفات التي تخفّف فيها السرعة، كيفية فتح النوافذ وإغلاقها، طبيعة الناس المسافرين، نوعية أمتعتهم، الناس المشرفين على القطار. وعلما ان القطار يمكن إيقافه في الحالات الاضطرارية. ووضعا أنواع الخطط للسطو على القطار، بيد انهما في كل مرة يلغيان خطتهما لعدم امكانية تنفيذها مائة بالمائة. وكان السبب الرئيس في ذلك يكمن في ان القطار يمر بالمنطقة نهاراً فقط ورغم ذلك فإنّهما لم يتخليا عن فكرتهما، بل أجلاّها إلى اشعار آخر.

استقبلهم الشيخ عواد قوجة، الذي كان قد طعن في السن، بحفاوة بالغة، وقبّل يد الصبي ولي الذي كان قد سمع به، وقال ان زيارته سوف تجلب الخير والبركة للمنطقة وانه سيكون سعيداً جداً اذا تزوّج هذا الصبي المعجزة في المستقبل احدى حفيداته. ورغم إلحاحاته المتكرّرة لقضاء ليلة واحدة على الأقل عنده، اعتذر قادر وعباس، مؤكّدين انهما يجب ان يسلما الصبي لوالده الذي ينتظره هناك. وتكريماً لزيارة الصبي، أهداه عواد قوجة فرساً بيضاء.

لم تكن الشمس قد اختفت وراء الأفق بعد حين بلغوا وادي كفران الجبل من الجهة الجنوبية. وكان عليهم، قبل ان يطلوا على آوه سبي، إجتياز مضيق والسير عبر طرق صخرية متعرجة والالتفاف حول سلاسل من المرتفعات الصخرية بقمم مدبّبة. قال قادر موجهاً كلامه الى الصبي ولي الذي كان يراقب كل شيء بإهتمام بالغ:

«هل ترى هذا الطريق يا ولي؟ انه طريق لا يسلكه إلاّ المهربون واللصوص، سنصل بعد قليل إلى منطقة الأبواب التسعة. انها كانت قرية يسكنها الجنّ». ردّد ولي باستغراب:

«قرية يسكنها الجن؟ ولكن والدي لم يحدّثني عنها».

أعلمه عباس بأن والده نفسه لا يعرف عنها شيئاً، لأن الطريق المار من هنا كما قال قادر لا يسلكه إلاّ المهربون. قبل أن يسأل ولي عن سر وماهية قرية الجن، أراد أن يعرف معنى التهريب والمهربين. شرح له قادر بأنّ العبارة لها علاقة بالتبغ الذي لا يجوز بيعه إلاّ بعد استحصال موافقة الحكومة، والحصول على مثل هذه الموافقة صعبة وتحتاج إلى تكاليف تؤدّي إلى ارتفاع سعر التبغ، ولذلك فإنّ المهربين الأكراد من مختلف المناطق يجلبون التبغ الى قرية، سنصلها قريباً، وهناك يبيعونها للعرب القادمين من الجنوب، ويأخذون منهم مقابل ذلك، التمر والسكر والشاي.

بعد تفكير غير قصير سأل ولي ما اذا كان الجد زوراب ايضاً مهرباً. أجاب عباس بفخر، بأنّ جدّهم كان في شبابه، ليس مهرباً جريئاً حسب، بل لصاً يهاب منه أكبر شارب في المنطقة. توقع ولي دخول قرية كبيرة بأسواق وبيوت كثيرة، ولكنه فوجئ بستة أكواخ تقبع بين سلسلتين من الصخور الحادة توازيان سلاسل لا نهائية متداخلة بين منخفضة وعالية. وكان ثمة في أسفل القرية المنتصبة على مرتفع، بستان كثيف من أشجار التوت والصفصاف والتين وخمس نخلات بائسة بلا ثمر تثير الاستغراب لوجودها بين هذه الصخور، تتدفق من تحتها مياه عذبة.

بعد ان ترجلوا وشربوا الماء البارد من النبع، أجال ولي عينيه في أنحاء المكان وكأنه يبحث عن شيء ما، ثمّ استفسر عن مكان المهربين والأسواق. أجاب قادر بأنّ الأسواق التي يعنيها لا تشبه تلك الموجودة في مركز القضاء، انها هذه البيوت، وأحياناً يجري اللقاء في الهواء الطلق. سأل ولي ما اذا كانت هذه القرية تابعة ايضاً لوادي كفران. عقب عباس بسرعة:

«طبعاً يا ولي، انهم أقاربنا ايضاً، ان وادي كفران كبير جداً».

علّق قادر بحسرة:

«لقد تركنا والدك للدراسة في وقت مبكر جداً، لذلك لم تتسن له الفرصة لمشاهدة الكثير من المناطق، منها هذه القرية مثلاً».

«والأبواب التسعة؟».

«لم يرها أيضاً».

قال ولي بزهو بأنه أحسن من والده إذن، ذلك انه أطّلع في وادي كفران على أماكن أكثر مما اطلع عليه هو. أكّد له قادر بأن كلامه ليس صحيح حسب، بل ان والده رستم أفندي، بسبب تفضيله الحياة في المدينة، قد نسي الكثير من معالم وادي كفران، وانه يتمنى ان لا يحذو ولي حذو والده فينسى العشيرة وارضها. ولمّا لم يرد ولي بسبب استغراقه في تفكير عميق، أيقظه عباس من

شروده، سائلاً إيَّاه عن رأيه تجاه ما قاله قادر. أجاب ولي وهو نصف حالم بأنه لن ينقطع عن زيارة وادي كفران، وانه اذا كبر، سيبني له بيتاً خاصاً على نهر اوه سبي. تشاور قادر وعباس اذا كان من المستحسن أخذ قسط من الراحة في القرية قبل مواصلة السير الى بانشاخ. وقبل ان يأخذا رأي ولي، بادر قائلاً بأنَّه يجب ان يذهبوا إلى هناك، لأنه بحاجة الى استراحة ويحب ان يتعرف على أقاربه. علّق عباس بأنّهم يستطيعون تحقيق الفكرة فقط في حال عدم وجود غرباء في القرية ويشرط ان لا تعرف كل القرية بوجود ولي، وانهم سيزعجوننا بإلحاحاتهم في المبيت عندهم وإقامة الذكر حتى الصباح. قال قادر بطريقته اللاأبالية، انهم لا يستطيعون اخفاء ولي عن الأنظار إلى الأبد. اننا سنفعل ما نريده نحن، وليس ما يفرضونه علينا. قال ولي بصوت عال: «كلامك صحيح يا عم قادر».

عندما أراد قادر توجيه حصانه إلى القرية، تساءل ولي ماذا اذا كانا قد نسيا الأبواب التسعة، ثم جعل من زيارة القرية شرطاً للذهاب إلى هناك. هنا قال بوجل: «ولكن الشمس مائلة إلى الغروب. اذا هبط الظلام فإنَّ الأبواب التسعة ستكون خطرة جداً». ضحك ولي بصوت عال قائلاً باستخفاف: «منذ متى وأنت تخاف من الظلام يا عم عباس».

قال قادر وهو يحس بالورطة:

«عمّك عباس لا يخاف من الظلام يا ولي، ولكننا نخاف عليك».

توقفوا بالقرب من النبع. الشمس الواهنة قد انحدرت الى داخل المضيق، مرسلة من هناك شلالاً من الضوء الذي تؤطره ظلال المرتفعات الغارقة في لون بنفسجي قاتم يميل إلى أزرق داكن ما يلبث ان يتحول إلى سواد.

أخرج ولي من الكيس المعلّق على رقبته دفتراً وقلماً وراح يرسم بسرعة بعض التخطيطات. أمَّا قادر وعباس، فراحا ينظران إلى بعضهما البعض بحيرة، تارة يلويان شفتيهما وأخرى يبتسمان، وهما يتذكران ما قاله لهما رستم: «اذا أخرج ولي دفتره وقلمه، فلا تتدخلا في شأنه انتظرا إلى ان ينتهي من الرسم».

قال بعد ان قلب صفحة أخرى وهو ينقل نظراته بين منظر غروب الشمس والدفتر: «عمّي قادر، أعرف انكما لا تخافان من الظلام، وبأنَّكما لصَّان لا تعملان إلاّ في الليل، ولكن هل تعتقدان بأنَّني أنا الذي يخاف الظلام؟ ان ما تحملته أنا في غار الدب لا يتحمله أي انسان آخر».

علّق عباس بلهجة اعتذار:

«ولي، يا عزيزي، اننا نعرف بأنَّ شجاعتك لا حدود لها، ولولا معرفتنا بذلك لما رافقناك. ان ما قصدته بالنسبة للأبواب التسعة هو خطر آخر، غير الظلام».

أضاف قادر:

«لقد كلَفنا والدك للحفاظ عليك يا ولي، اننا بصراحة نخاف عليك».

قال وهو يرسم بحماس، دون ان يلتفت اليهما:

«اعرف ذلك، انكم كلكم مجانين، اذا استمر والدي على معاملتي بهذه الطريقة، فسأهرب إلى عشيرة والدتي».

تبادل قادر وعباس نظرات الحيرة والاستغراب، أعطى الأول اشارة من يده بالكف عن الكلام. بعد فترة صمت واصل ولي:«انني سأظل أرسم هنا إلى ان تظلم الدنيا وتبزغ النجوم، لذلك لا داعي لإنتظاري. انتما تستطيعان الذهاب إلى القرية والعودة بعد بزوغ النجوم».

استفسر عباس عن سبب انتظار بزوغ النجوم، أجاب انه يريد ان يرسمها من هذا الموقع، لأن مثل هذه الفرصة لن تتكرّر بالنسبة له. حاول قادر اقناعه بالقيام بذلك في بانشاخ، بدليل ان النجوم هي نفسها في كل مكان، ولكن عبثاً.

كان عباس قد أغرم بمغنية غجرية جميلة لا تستجيب لحبه. كانت تتدلل وتتحجّج بمختلف الحجج للتهرب منه. وكان ان اطرح مشكلته للملا، فاقترح عليه هذا بعد ان قرأ طالعه في كتاب سميك بأنه يستطيع حلّ الأمر بحمل فرج ضبعة، اذ ذاك تتعلق، به ليست الغجرية المدلّلة حسب، بل أي امرأة يريدها. فرأى انه من المناسب الآن الذهاب إلى غار الضبع القريب. حين طرح فكرته على قادر، أجابه انه سينتظر هنا في كل الأحوال وأمره للّه، ولكن عليه ان لا يتأخر، كما ان عليه ان يشق الضبع من منتصفه ويجلب معه النصف الذي دخلت منه الاطلاقة، فأكله حلال.

حين عاد عباس بغنيمته، كانت الشمس قد غابت، ولكن النجوم لم تظهر بعد. وكان حشد من أهل القرية قد خرج لإستطلاع مصدر الاطلاقة، فطمأنهم قادر بأن لا داعي للقلق وعليهم العودة إلى بيوتهم، بيد ان بعض الفضوليين راحوا يتقدّمون لمعرفة السبب الذي جعل الصبي الجالس على ظهر فرسه ينظر بشكل غريب باتجاه الغروب ويخطّط في دفتر. كانوا ينظرون في نفس الاتجاه كما لو انهم يريدون استطلاع شيء ما. ورغم محاولات قادر وعباس لإعادتهم إلى بيوتهم، بصورة محمومة دون ان يلتفت إلى أحد، ويبدو كما لو انه لا يرى أحداً، بيد ان احتجاجات قادر وعباس ومحاولاتهما لطرد النّاس، أخرجته من شروده فأزعجته. قال باحتجاج وهو يضع القلم والدفتر في الكيس المعلّق على رقبته:

«إنّني لا أستطيع ان أرسم بعد، ماذا تريدان من هؤلاء؟ هل التمتُّع بمنظر غروب الشمس ممنوع؟».

أراد قادر وعباس ان يقولا شيئاً، بيد انهما قبل ان يفتحا شفتيهما، أطبق الجمع من كل الجهات

على الصبي ولي وكل فرد يحاول لثم يديه ورجليه وهم يردّدون بصوت كأنه من فم واحد: «الله أكبر، ابن الجنية ولي ولي الله أكبر، ابن الجنية ولي ولي الله أكبر ...». وراح الصبي ولي نفسه يردّد: «الله أكبر، الله أكبر...». وظل قادر وعباس خارج دائرة الحشد وهما يحاولان عبثاً الوصول إلى ولي. ولمّا تأكدا من انه يرتاح لمجمل العملية التي فيها خطر على حياته تركاه وشأنه. وراح الحشد يقود فرسه بصورة عفوية الى القرية. اقترب رجل مسن بلحية بيضاء طويلة من قادر وعباس وقال بلهجة عتاب بأنّهم ايضاً من أولاد أعمام الشيخ زوراب، فلماذا التسلّل دون المرور على الأقارب؟ هل ثمة ما يدعو إلى الخجل والقطيعة؟ أم انهم لا يريدون ان يعرفوا عنهم شيئاً لأنهم فقراء؟

ترجّل قادر وعباس وراحا يعانقان الرجل، قال الأول بلهجة اعتذار بأنّهم كانوا سيمرون عليهم في كل الأحوال لتناول طعام العشاء عندهم، ولكن الصبي ولي أراد ان يرسم الغروب. أشار عباس الى نصف الجثة المسلوخة قائلاً بأنّ هذه هي هديتهم له وانه يستحيل ان يمرّوا بالقرية دون ان يعرّجوا على أقاربهم. وحين حاول قادر اقناع الرجل بأنّهم يجب أن يواصلوا سيرهم بعد تناول طعام العشاء، رفض الرجل رفضاً قاطعاً وقال انهما لو كانا وحدهما لتركهما وشأنهما، ولكن أن يواصلوا سيرهما ومعهما الصبي ولي ابن الجنية، فمسألة مستحيلة:

«ان الطريق الوحيد الذي عليكم اجتيازه، يمر عبر الأبواب التسعة. هناك، بعد مغيب الشمس وحلول الظلام تحلّ القيامة، حيث الجن يحتفلون طيلة الليل. لقد شاهدت السعلوة بعيني، حتى اني سمعتهم يذكرون اسم ولي ابن الجنية. ان هؤلاء الذين يصيحون، ابن الجنية ولي، ولي الله، يعرفون ذلك جيداً. إنّنا يجب أن نشدّد الحراسة هذه الليلة كي لا يخطفوا الصبي».

خلال تناول طعام العشاء سمع ولي ما دار من الحديث بين الرجل المسن وكل من قادر وعباس. ورغم انهم كانوا يتهامسون، بغية عدم وصول الكلام إلى مسامعه، فإنّه كان يسمع كل شيء بوضوح. واكتشف ولي بذلك قابيلة جديدة في نفسه كان لا يعرفها من قبل، اذ تبيّن له اذا ركّز أذنيه في مصدر صوت ما، حتى دون النظر الى تلك الجهة، يستطيع ان يلتقط الصوت مهما كان خافتاً. في تلك اللحظة أحسّ بسعادة طاغية. أراد ان يتأكد من صحة تقديره، فوجّه أذنيه إلى رجلين يتهامسان في أقصى المضيف، وجاء الصوت واضحاً. ودفعه فضوله لمعرفة محتوى الحديث:

«ان موضوع هذا الصبي المعجزة يجب أن يبقى سراً في وادي كفران. من حسن الحظ لا يوجد بيننا اليوم أي غريب».

«أنا سمعت به قبل سنوات ثم انقطعت أخباره، هل صحيح انه يشفي المرضى؟».

«هذه مسألة يعرف بها كل فرد يا بني في وادي كفران».

حوَّل ولي أذنيه بصورة لا ارادية إلى الرجل المسن وهو يفكِّر فيما اذا كان بامكانه فعلاً شفاء المرضى؟ ولم يتذكَّر انه قام بمثل هذا الشيء، ولكنه راح في قرارة نفسه يحاول أن يصدِّق ما جزمه الرجل. دفعه فضوله لمعرفة كل ما يدور من الكلام بين الجالسين الذين كانوا ينظرون اليه بعطف وفضول ورهبة ومحبة. كانوا خلال تبادل أطراف الحديث يمنحونه نظرات خاطفة، فعرف انه الموضوع الرئيس لمجمل الأحاديث الدائرة. عرف من مقتطفات الأحاديث التي وصلت إلى أذنيه ان أقاربه في هذه القرية النائية يعرفون كل شيء عن وادي كفران الجبل، رغم انهم لم يغادروا قريتهم، ومما أثار انتباهه واستغرب له أشد الاستغراب انهم لا يعرفون شيئاً ليس عن مركز القضاء حسب، بل حتى عن وادي كفران السهل.

تناهى إلى مسمعه صوت نسائي محتج، فالتفت بلا ارادة منه الى جهة الباب، فرأى امرأة تدخل المضيف عنوة وهي تجرجر طفلاً كسيحاً. حاول رجل منعها من الدخول. قفز ولي من مكانه زاجراً الرجل وطالباً اليه ترك الإمرأة التي تقدَّمت منه وانحنت أمامه محاولة تقبيل رجليه. أمسك ولي بها بقوة، لم يعهد بها من قبل، من كتفيها ورفعها قائلاً بأنَّه لا يسمح بتقبيل رجليه، ثم توجَّه إلى الطفل الملقى على الأرض مثل خرقه لا حياة فيها. حدَّق إليه الطفل الذي لم يكن قد بلغ السابعة بعد بعينين حزينتين. أطبق على الجو صمت مطبق. ظلَّ ولي يحدِّق إلى عيني الطفل. العيون كلها مشدودة اليه. تحوَّل المكان للحظات إلى غمامة بيضاء أطلت عليه من خلالها والدته بوجهها الحزين قائلة له بصوت دافئ خافت: «ليس أمام أنظار الآخرين يا ولي، ان عيون الحاسدين مثل السهام السامة».

«تلفت حواليه وهو يحدِّق إلى العيون الوجلة. وضع يده على رأس الطفل قائلاً بصوت آمر: «اتركوا هذا المكان فوراً».

خرج الرجال واحداً بعد آخر بخطوات وئيدة دون أن ينبسوا ببنت شفه وهم تحت تأثير قوة سحرية غريبة. لم يبقَ سوى الرجل المسن وقادر وعباس، حدَّقوا إلى عينه بنظرات فيها استفسار واضح ما إذا كان الأمر يشملهم أيضاً، فأشار برأسه أن يتركوا المكان الإمرأة مازالت مزروعة فى مكانها مثل نجت من ضربة صاعقة والطفل الممدَّد ما زال يحدِّق إلى عينيه برجاء وحزن. وطلب اليها ان تجلس، فجلست في مكانها على الأرض. قال لها: «ليس على الأرض، اتخذي مكانك هنا إلى جانبي فوق هذه السجادة». فعلت ما أراده وهي تردِّد: «أطال اللّه عمرك يا ولي...».

تحوَّل المكان مرة أخرى للحظات الى غمامة بيضاء، أطلَّ من خلالها وجه والدته وهي تقول بصوت خافت: «ضع كفيك على رأسه يا ولي ثم اطلب إليه أن يمشي». واختفت مثل الطيف.

حمل الطفل الخفيف ووضعه على السجادة ثم غطَّى رأسه بكفيه ودون أن يلتفت اليها، طلب من الامرأة أن تكف عن التوسلات. أحسَّ بيديه تتنقلان بلا ارادة منه في كل جزء من جسم الطفل

وبأنً قوة غريبة تشد الجسم الى باطن كفيه. أراد ان يجرّب ما اذا كان بامكانه تحرير كفه، فلم يستطع. بلغت كفاه رجلي الطفل الباردتين، ثم صعدتا بحركة بطيئة إلى الأعلى إلى أن استقرتا فوق الرأس وبعد هنيهة أحسً بيديه تتحرران. ولشد ما كانت دهشته قوية حين رأى الطفل يترك وضعه القديم متربعاً في مكانه، وهو لا يزال يحدّق إلى عيني ولي الذي سأله عن اسمه فأجاب: «حمه». قال مبتسماً: «أنت تحمل اسم النبي يا حمه... والآن حاول أن تقف على قدميك».

انطبعت ابتسامة رقيقة على وجه الطفل الشاحب الذي شدً عينيه بشكل غريب بعيني ولي، ثم حوّلهما إلى وجه والدته كأنه يريد ان يقول شيئاً. أعاد ولي كلامه وهو يراقب الطفل باهتمام:

«هيا يا حمه، حاول أن تقف على قدميك».

وضع الطفل كيفه على الأرض في محاولة للاتكاء عليهما. سحب رجليه ثم رفع عجزه ببطء ومدً قامته واقفاً على رجليه وظلً منتصباً في مكانه. أجهشت الامرأة في بكاء عميق وحاولت أن تلقي بنفسها عليه، بيد ان ولي صدًها بساعده قائلاً، دعيه، وهو لا يكاد يصدُق ما يراه بأم عينيه.

الظلام في الخارج أطبق على كل شيء. ورغم محاولات قادر وعباس والرجل المسن بإقناع الناس للعودة إلى بيوتهم، فإنًهم أبوا إلاً ان يقفوا كي يروا المعجزة بعيونهم. بعد فترة صمت وترقُب قصيرة، خرج ولي ويده بيد الطفل الذى كان يمشي إلى جانبه بخطوات متزنة ومن ورائه الامرأة التي تبدو مثل سائرة في حلم. وارتفعت الصيحات:

«اللّه أكبر، ابن الجنية ولي، ولي اللّه.... اللّه أكبر، ابن الجنية ولي، ولي اللّه...».

«اللّه أكبر، لقد عاد الينا خدرزنده (المهدي المنتظر) وسوف يعم الخير والبركة».

قال ولي، الذي رفعوه على الأكتاف، بصوت جهوري غليظ لا يشبه صوت صبي لم يتجاوز العاشرة، راحت أصداؤه تتردّد برهبة:

«اذا كنتم تحبّونني ولا تريدون الاساءة إليّ فاتركوا هتافاتكم واتخذوا أماكنكم في المضيف او اذهبوا إلى بيوتكم».

انتشر الخبر بسرعة غريبة في المنطقة. أوّل مَنْ تلقاه هو عواد قوجة الذي قفز من مكانه مثل قطة عند سماع الخبر قائلاً بأنً الصبي ولي في الواقع معجزة أرسلها اللّه في هذا الزمن الرديء، بيد ان فرسه، التي أهداها له، قد لعبت دوراً حاسماً في إظهار القوة الالهية الكامنة في هذا الصبي. وادًعى انه قبل حلوله ضيفاً عليه بأيام، قد حلم به وفي نفس الوقت حلم بملاك نازل من السماء، طلب اليه ان يهدي ولياً فرساً. وأخبره هاتف في الحلم بأنً فرسه من سلالة البراق الذي امتطاه النبي محمد (صلى اللّه عليه وسلم) عند زيارته للعرش الالهي. ومنذ ذلك الحين

أعلنت عشيرة عواد قوجة بأنّها ستبقى حليفة أبدية لعشيرة وادي كفران. ولم تتوقف عند حد مجرد الاعلان حسب، بل دخلت معها في علاقات زواج بحيث ان دم العشيرتين بدأ يمتزج فعلاً.

أمّا التكية البرزنجية، فاعتبرت القصة مجرد تلفيق، ولكن التأكيدات التي جرت من قبل مَنْ شاهدوا العملية فعلاً، دعتها تعلن، بأنّ مثل هذا الشيء، وان كان قد وقع فعلاً فإنه بدعة وزندقة من عمل الشيطان.

انتقل الخبر الى قصر شيخو بواسطة حمه غريب، وخلال أقل من ساعة عرف الجميع به. كانت طريقة حمه غريب في نشر الخبر خبيثة وتشم منها رائحة الاثارة والتحريض ضد الصبي ولي، الذي قال عنه انه سيجلب الكوارث للعشيرة ان عاجلاً أم آجلاً. وربط ذلك في نفسه فوراً بالملكين اللذين ظهراً له وصادراً أمواله. وترسخت لديه فكرة ان روح هذا الصبي الشيطان تلاحقه أينما حلّ، وانه لذلك لا يستطيع القيام بأي عمل سرّي بعيد عن معرفة شيخو.

ازدادت مخاوف رستم، وندم على ارساله لإبنه ولي مع كل من قادر وعباس، وقرّر ان يسافر فوراً إلى وادي كفران الجبل مع والده وفاطمة وزوجته. كانت مخاوف كريم وفاطمة على الصبي ولي أكثر حتى من مخاوف رستم، ورأيا ان انتشار الخبر بهذا الشكل سيجلب المشاكل والمتاعب للصبي ولي الذي عاش عدة سنوات عند أبيه بهدوء. وقال كريم لإبنه رستم وهما يتهيئان للسفر بأن الصبي يجب أن يبقى حالياً عنده في وادي كفران الجبل وبأنّه سيخفيه في مكان أمين دون ان يستطيع أحد تعقبه، ان عودته الى مركز القضاء لا تجلب له سوى المشاكل.

«ودراسته؟ هل تريدني ان أحرمه من الدراسة يا أبي؟».

قال ذلك رستم وهو حائر في أمره،، تتضارب في رأسه موجة من الأفكار والتساؤلات.

أجاب كريم بأن ما يسمّى بالدراسة مجرد هراء وكلام فارغ، وبأنّ الصبي يعرف كل شيء ثم إنّ أعداءهُ أكثر من محبّيه. إنّه يجب أن لا يحتك بأحد كي يبقى في مأمن من الشرور.

كان المستر معارف ومستشاره الهندي جاندرا من ضمن المدعوين لحفلة زواج رستم. عندما بلغه الخبر، علّق قائلاً لصديقه الهندي ان الشرق لن يتخلص من جذور التخلّف ولا يمكن ان يلتحق ببساطة بركب الحضارة اذا لم يتخلص من هذه الخرافات التي ينسجونها بمهارة. ضمّت الجلسة المتصرف وبعض الموظفين الكبار إلى جانب شيخو الذي يتنقل بين الضيوف دو أن يستقر في مكان معين، متجنباً أن يكون طرفاً في أي نقاش مهما كان. جاندرا قد اعتاد على مثل هذه التعليقات التي لا تستفزه ولا تخرجه من طوره، بل يعتبرها شيئاً طبيعياً من شخص أوروبي يعتقد انه يمثّل أعظم دولة في العالم. قال له جاندرا انه لا رغبة له الآن لدخول نقاش عريض وطويل حول هذا الموضوع الذي سبق لهما ان تطرّقا اليه ذات مرة، ولكنه يحب أن يؤكّد بأنّ هذا الكون ليس عبارة عن مجرد مادة خرساء، بل هناك روح أو أرواح توجّه الأشياء. رد المستر

معارف بأنّ هذه مسألة لا يختلف معه حولها، ولكن ما علاقة هذا الكلام بالادعاء ان الصبي ولي يعالج الكسحان. انزويا جانباً ثم وقفا بالقرب من الحوض، كانا قد اعتادا ان يتناقشا بعيدين عن الآخرين. اقترح جاندرا، حسماً للنقاش استدعاء الطفل والتحدُّث معه مباشرة ومشاهدة معجزاته عن كثب».

«فكرة جيدة، يا مستر جاندرا هيًا لنبحث عن رستم أفندي».

لم يعثروا على رستم، ولكنهما التقيا بشيخو وعرضا عليه رأيهما. كان شيخو هو الآخر قد تباحث بالتفصيل مع أخيه كريم ورستم مسألة الصبي ولي فاتفقوا بالاجماع على نفي الخبر واخفاء ولي في إحدى قرى وادي كفران الجبل النائية الواقعة خلف مضيق (خورنه وه زان). على ان يبقى هذا سراً بينهم فقط، وإلاّ فإنّ حياة الصبي في خطر حقيقي.

قال شيخو وهو يتصنّع ابتسامة ساخرة:

«هل صدّقتما هذا الكلام فعلاً؟ إنّ مثل هذا الصبي لا يُوجد أساساً...».

٢٥

قرَّر قادر وعباس أن لا يكرِّر الخطأ الذي حدث معهم في قرية المهربين، واتفقا على ان لا يتورطا مرة أخرى بمرافقة ولي الذي لا يجلب سوى المشاكل ووجع الرأس الذي هما في غنى عنه. ولذلك دخلوا قرية بانشاخ مع هبوط الظلام. وكان كريم ورستم وفاطمة قد بلغوها ظهراً، منتظرين قدومهم بقلق وعلى أحر من الجمر. كان رستم منفعلاً جداً حتى ان قادر، الذي لم يسبق له ان رآه بهذا الانفعال والنرفزة، تنحَّى به جانباً وسأله ما اذا كان قد حصل أمراً سيئاً، كما سأله عن سبب عدم مجيء العروس، حيث كان من المقرّر أن تأتي هي الأخرى معهم.

اختلى رستم بقادر وعباس وحدَّثهما بالتفصيل عن القرار المؤلم الذي اتخذوه للحفاظ على حياة ولي وبأنً خير مكان يمكنه العيش فيه هو قرية الأجداد (قه والي) الواقعة وراء جبل بازوخ، حيث لا يستطيع أحد الوصول إليه أو تتبُّع أخباره. قال وهو عبثاً يحاول التغلب على دمعة انحدرت على خدِّه: «لقد قصم هذا القرار ظهري».

وأمَّا عن سبب عدم مجيء العروس، فقال ان هذه النحسة، ابنة الكلب اللعينة، قد رفضت السفر معهم بكل وقاحة، وان هذه علامة سيئة. وكان ان أعطى الحق لكل من عمه شيخو وأبيه كريم اللذين ألحَّا عليه بدوس رجلها بقوة في ليلة الدخلة بعد ان رفض ضربها على ظهرها بعود القصب. وقال سينتقم منها حين يكونان في مركز القضاء.

اكتظ مجلس كريم بالرجال الذين جاؤوا للترحيب برستم والتبرُّك بولي الذي وصلتهم أخباره بكل تفصيل. أخبرهم كريم بأنً الصبي ولي غير موجود وانهم لا يتوقعون وصوله، ورجاهم أن يذهبوا إلى بيوتهم، لأنَّه يريد أن ينام، حيث أمامه في اليوم الثاني أشغال كثيرة. اختلى عباس بفاطمة ورجاها ان تقوم بدبغ قطعة جلد صغيرة يحتاجها لأمر ما وهو يخشى ان تفسد. كانت فاطمة مشغولة في المطبخ بوضع الحليب على النار. كانت تعرف قصة حبِّه للغجرية، قالت له مبتسمة:

«قطعة جلد يا عباس؟ هل تريد أن تصنع مندراً من جلد الماعز؟».

أجاب عباس بخجل:

«كلا يا زوجة عمِّي فاطمة، إنَّها قطعة صغيرة، أصغر من حجم الكف. يقول الملا انها تطرد الأرواح الشريرة ليلاً، أنتِ تعرفين بأنً معظم تحركاتي في الليل».

فقالت فاطمة وهي تشعل النار تحت القدر الأسود الكبير:

«منذ متى وأنت تخاف من الأرواح الشريرة يا عباس؟ وقادر؟ ألاَ يحتاج مثل هذه التعويذة؟ أم انه أجرأ منك؟».

امتقع لون وجه عباس وقال بلهجة رجاء مرتبكة:

«يا زوجي عمّي فاطمة، لماذا تعتقّدين الأمور، انه طلب بسيط لا أكثر».

بعد ان ارتفع اللهب، قامت فاطمة من مكانها طالبة اليه ان يعطيها القطعة. تنفّس عباس الصعداء ومدّ يده بارتباك إلى عبّه وأخرج لفة قماش صغيرة، نشرها على كف يمناه. وراحت فاطمة تحدّق في قطعة الجلد التي كان أثر الدم مازال عليها ضحكت بخبث وهي تحدق إلى عينيه الخجلتين:

«عباس، هل تضحك عليّ؟ هذا كس الضبعانة، مَنْ هي المحظوظة التي تريد كسب قلبها؟ ان لم تعترف لي لن أدبغها».

شعر عباس بحاجب الخجل يتهاوى بينهما:

«إنّها الغجرية وردة يا زوجة عمّي».

قالت فاطمة بلهجة تحذيرية:«إنّني سأدبغ لك تعويذتك، ولكن إيّاك أن تقع في حبّها. إنّ ارتباطك بها يعني اننا سنفقدك إلى الأبد يا عباس».

رافق رستم وقادر وعباس الصبي ولي إلى قرية الأجداد الواقعة وراء جبل بازوخ. عندما تركوا قرية بانشاخ، كان الخيط الأبيض قد شقّ الظلام الدامس في الأفق الشرقي. وكان الهواء الصاعد من وادي نهر اوه سبي بارداً منعشاً يبعث فيهم الحيوية والنشاط.

كان الصبي ولي سعيداً مرحاً على ظهر فرسه الأبيض، يكاد يسابق الريح من فرط سعادته. قالوا له ان القرية جميلة، تقع على جبل يطل مباشرة على اوه سبي في مكان يشق فيه الصخور، حيث الكهوف وأنواع النباتات وأعشاش الطيور. وهناك طاحونة قديمة ما زالت تعمل ليلاً ونهاراً تعود لأحد أقاربهم، وحكى له قادر قصة الفطر الكبير الذي نام تحت ظلّه عمّهم المرحوم رمضان ذات مرة مع حصانه وأمّا عباس فحكى له حكاية النملة العملاقة التي وضعت ارجلها على جانبي (آوه سبي) بحيث تدلت أثداؤها على النهر مثل أكياس مملوءة بالحنطة. كان الصبي ولي يتمتع بسيل الحكايات التي تتوالى عليه بدون انقطاع، حتى انه نسي المدرسة التي كان في كل الأحوال لا يذهب اليها برغبة كبيرة، كما انه نسي أيضاً زيارة قبر والدته للتمتع برؤية النور المتصاعد منه. وحاول عدة مرات في قرارة نفسه مقاطعتهم بأسئلة، كانت تقفز إلى رأسه، بيد ان انشداده الى جو الحكاية وعالم الظلام المتلاشي أمام زحف الخيط الأبيض، كانا يسحرانه

ويشلاّن لسانه. كان شعوران مختلفان ينتابانه، شعور الفرح لزيارة القرية الجديدة المرتبطة بذهنه بالحرية، وشعور الحزن للعودة إلى الجدران الأربعة، والاستيقاظ اليومي المبكر فالذهاب إلى المدرسة. وكان يعرف بأن الدوام في المدرسة سيبدأ بعد اسبوع. وما ان يتذكّر ذلك، إلاّ وتتجهم قسمات وجهه.

قال وهو يتأمّل نجمة الصبح اللامعة بشكل لافت للنظر:

«بابا، كم يوماً سنبقى هناك؟».

كان رستم قد هيّأ نفسه لمثل هذا السؤال:

«كما تشاء يا ولي، الأمر بيدك أنت».

سحب ولي زمام حصانه بقوة وبحركة لا ارادية، فتوقفت الفرس:

«والمدرسة؟ ألاَ تعاقبني اذا انقطعت عنها؟».

«قلت لك يا ولي ان الأمر بيدك أنت، قرّر ما تشاء».

أطلق ولي صيحة فرح عالية وحثّ فرسه برجليه على الانطلاق مخلفاً وراءه غيمة من الغبار. نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض بإنشراح، قال قادر ان الخطة قد نجحت. قال رستم انه كان يعرف بأنه لا يذهب برغبة إلى المدرسة، ولكنه كان لا يعرف بأنّه يكرهها إلى هذه الدرجة. وعلّق عباس قائلاً بأنّ ظاهرة المدرسة طارئة على العشيرة، المهم هو حياة الصبي.

عندما بلغوا قمة جبل بازوخ، بعد ان اتخذوا أقصر طريق وعر، لا يتخذه إلاّ المهربون، وقفوا ينظرون الى سلسلة المرتفعات اللانهائية المتداخلة التي يشقها نهر آوه سبي، الذي بخلاف سعته في وادي كفران، قد أصبح ضيقاً عميقاً، تحيط به الجروف العالية. القرية الراقدة على حافة جرف، تطل مباشرة على مضيق خورنه وزان. الشمس لم تشرق بعد، بيد ان الشفق الوردي الذي لوّن الأفق بأضوائه الفاتحة قد نشر النور في كل مكان وطرد آخر نجمة في السماء.

كانت قرية (قه والي)، التي عاش فيها فيما مضى جدّهم الأكبر ناله كوركه، مقطوعة نهائياً عن عالم وادي كفران. وكانوا اذا احتاجوا شيئاً، يسافرون إلى مدينة كفرى التي لا تبعد عنهم كثيراً، بيد ان سفراتهم هذه كانت نادرة أيضاً. ولا يعرف لماذا بقيت القرية معزولة عن وادي كفران. وعندما اتخذوا قرارهم لإخفاء الصبي ولي هناك، تباحث كل من شيخو وكريم حول هذه المسألة بالتفصيل. واستغرابا انه حتى والدهم المرحوم زوراب حين تزوج للمرة الثانية نسيهم ولم يدعوهم إلى حفلة زواجه. وقال شيخو ان لأقربائنا هناك حقاً علينا وان ارسال الصبي ولي اليهم، فاتحة لإعادة العلاقات معهم ولاسيما لأنّهم حضروا في حينه تأبين المرحوم زوراب. ودسّ حزمة من الدنانير في يد رستم مؤكّداً بأنّهم لا شك سيفرحون بها.

كان رستم وقادر وعباس حين يرعون الأغنام على سفح جبل بازوخ في صباهم قبل «أطول عام». ينتقلون أحياناً إلى الجانب الثاني من الجبل ويحلّون ضيوفاً على أقاربهم. وذات مرة اضطروا ان يبقوا هناك لعدة ليال بسبب الأمطار الغزيرة والفيضان الذي يعزل جانبي آوه سبي عن بعضها لعدة أيَّام، بل أحياناً لعدة أسابيع. كانت القرية لم تسمع بعد لا أنباء معجزات ولي ولا بالتطورات التي حصلت في وادي كفران السهل.

قبل أن يصلوا القرية قال رستم:

«إنَّنا يجب ان نأخذ وضع أقاربنا هنا بنظر الاعتبار، فهم ما زالوا يعيشون في زمن «أطول عام».

علَّق قادر ساخراً:

«لا يا ابن عمِّي العزيز رستم أفندي، إنَّهم يعيشون في زمن ما قبل «أطول عام»، إنَّنا يجب أن نضبط أعصابنا ولا نضحك على سذاجتهم».

أجال ولي عينيه بين سلسلة المرتفعات والجبال المتداخلة وبين القرية المطلّة على نهر آوه سبي الذي يشق الجبل ويعانق الصخور وأحسَّ بنفسه أشبه بطائر يحلّق في الأعالي، حراً، طليقاً، وتذكّر غرفته الداكنة في بيتهم بالسنجق فانقبض قلبه، قال بتحسُّر:

«بابا، لماذا سجنتني كل هذه الفترة هناك، ولم تجلبني إلى هنا من قبل؟ إنَّني سأبقى هنا ولن أرجع معكم».

قال رستم وعلائم الحزن بادية على وجهه المتعب:

«قلت لك يا ولي، الأمر بيدك أنت، قرّر ما تشاء».

وراح قادر يصف من جديد محاسن العيش في الريف، وبأنَّه لا يستطيع ان يعيش يوماً واحداً في المدينة. وأخيراً تنفَّس الصعداء لإقتناع الصبي بعدم العودة إلى المدينة. وقرَّروا ان يبقى قادر معه عدة أسابيع، ريثما يتأقلم ولي مع الجو الجديد. وكان من المفروض ان يبقى عباس معهما ايضاً، بيد ان رستم تساهل معه قائلاً بأنَّ الوجدان لا يقبل منعه من الوصول إلى حبيبته الغجرية.

كان من المفروض ان يسافر كريم هو الآخر مع الأولاد إلى قرية (قه والي)، بيد انه قال بأنه لا يريد أن يذهب الى أقاربهم بيد فارغة، ولا سيما لأن وضعهم المالي ليس على ما يرام، حيث ان مساحة الأرض القليلة الصالحة للزراعة والمحيطة بالقرية تكاد تكفي بالكاد لمعيشتهم. واذا كان شيخو قد ارسل حصته من المساعدة بدنانير، فعليه ان يساهم هو الآخر بمواد عينية. وكان ان قام بحملة جمع تبرعات في العشيرة حصل فيها على كونية تمر زهدي وحلان تمر خستاوي

ونصف كونية قيسي (مشمش مجفَف) وصفيحة دبس وتبرع هو شخصياً بست قزناغات قمح وعشر قزناغات شعير. قال بعد ان حملها كلها على ثلاثة بغال، انها تكفي لمدة سنة كاملة.

أشار قادر الى بيت أكبر بكثير من الأكواخ الأخرى المنتشرة على سفح بازوخ، يقع على طرف القرية الواقع على الطريق، بحيث ان أي عابر سبيل، اذا أراد ان يدخل القرية، يجب أن يمر من أمام بوابته:

«هذا هو بيت العم جوامير، أذكر اننا زرناهم قبل «أطول عام»، فذبح لنا أرنباً قال انه صاده بعكازه، وقال هيًا كلوا كي تركضوا مثل الأرنب».

قال رستم وهو يحاول استعادة الصورة القديمة في ذاكرته:

«وعقبت زوجته مازحة، لا تصدِّقوا الشايب، ان الأرنب كان مريضاً فمسكه من رقبته».

أكمل عباس:

«وقال العم جوامير اسكتي يا مجنونة ثم رفع الأرنب وأرانا ساقه المكسورة ثم ادعًى انه كان في شبابه يصيد حتى الغزلان بالمقلاع. وحين بقينا وحدنا في غرفة المضيف، كدنا ننفجر من الضحك لإدعاءاته التي لم نصدِّقها».

عقب قادر مبتسماً وحاكاً رأسه:

«عندما رجعنا إلى بانشاخ حدثناهم عن كل شيء هناك، وكان ان قال عمًي المرحوم رمضان، ان اللّه عندما خلق ابن عمّنا جوامير، فإنَّه عجنه بكونية من الكذب. ثم قال جدّنا المرحوم زوراب ان الكذب لا ضريبة عليه، ولكنه دافع عنه مؤكِّداً بأنَّه كان فعلاً صياداً ماهراً».

كان الصبي ولي غارقاً في شروده، لا ينتبه اليهم. خُيِّل اليه انه في حلم. كان لا يزال يجيل عينيه في ارجاء المكان الذي لم يبد له غريباً ولا جديدا. انه كان هنا ذات يوم، ولكن متى؟ كانت كل شجرة وصخرة ونبتة وبيت معروفة له. كان هنا اكثر من مرة، بل وكان هنا منذ الأزل. الأفق الذي تقتحمه سلسلة المرتفعات والجبال المدبَّبة المنحنية، غير غريب عليه. وهذا الشيخ الطويل النحيف الطاعن في السن بلحيته البيضاء الكثة وبوجهه الطفولي المرح الذي عانقه بكل حرارة، يعرفه ايضاً منذ الأزل. هذا هو العم جوامير، الذي قال عنه العم المرحوم رمضان ان اللّه عندما خلقه انما عجنه بكونية من الكذب. ربما هذا هو جدّهم الأكبر ناله كوركه بنفسه. وهؤلاء هم أولاده وأحفاده الذين يبدون كما لو انهم نسخة طبق الأصل منه، وهم يعيشون جميعاً في هذا البيت الكبير الذي يتوسع عاماً بعد عام دون أن يغادروه. نسجت وحيكت خيمة ميرزا التي أحرقها الانكلين، بعد ان عجز العثمانيون من مسِّها.

... أين أنتم يا أولاد العم؟ لماذا لا تسألون عنا؟ أهكذا يفرّق الزمن الرديء بين أفراد العائلة

الواحدة؟... الجبال لا تستطيع اللقاء ببعضها، لأن الله مدَّ جذورها في أعماق الأرض، فإنَّها ان تحركت، لحلّت الكوارث والمصائب، وأمَّا البشر، فإن الله قد منحهم العقل والعين كي يعرفوا أقاربهم، ومنحهم الأرجل كي يتحركوا بها ويزوروا بعضهم بعض. لقد فرّق بيننا جبل بازوخ، ولكن، هل أصبح اجتياز هذا الجبل من الأمور المستحيلة؟... نحن أدينا واجبنا وزرناكم عند تأبين المرحوم الشيخ زوراب الذي يندر ان تنجب العشيرة مثله. انتم ايضاً رجال يا أحفاد ناله كوركه، ان سعادتي مطلقة لوجودكم هنا، ولكن أين هم الكبار؟ هل يستنكفون زيارة أولاد أعمامهم الفقراء؟ إننا لا نريد منهم شيئاً، اننا نريد ان نراهم ونتمتع برؤياهم حسب. كان جوامير يتكلم بصوت عميق دافئ يبعث الطمأنينة والمرح ويدعم كلامه بحركات انسيابية من يديه المعروقتين الهادئتين. وخلال حديثه يطبق الصمت على المكان. كان الصبي ولي يتابع كل شيء باهتمام بالغ وقد غمره شعور غريب بالفرح الطاغي. واما الثلاثة فأحسوا انهم بين ظهراني أهلهم. قال رستم انه ليس جبل بازوخ، بل أي قوة في العالم لا تستطيع ان تفرّق بين أفراد العائلة الواحدة اذا كانت ثمة رغبة لجمع الشمل، وأكبر دليل على ذلك وجودهم الآن هنا، وليس هذا حسب، بل انهم من الآن فصاعداً سيجعلون الطريق بينهم وبين وادي كفران عامراً بزياراتهم المستمرة، ذلك ان ابنه ولي يريد ان يعيش هنا بين أفراد عشيرته. وأمَّا الكبار فلم ينسوكم.

قال جوامير بفرح طفولي:

«ان هذا الطفل أعقلكم جميعاً، حتى انني أستطيع ان اقول بأنَّه أعقل حتى من المرحوم جدّه الشيخ زوراب، ان حنينه إلى منبته أصيل».

في اليوم الثاني التحق بهم كريم هو الآخر. قرَّر ان يبقى هو الآخر بمعية الصبي لعدة أيام بدلاً من قادر. وبعد قضاء ليلتين ترك الثلاثة القرية وهم في حالة حزن شديدة. وكان رستم ساهماً، شارداً، اجتاحته موجة يأس لم يسبق له ان عُهد بها من قبل، حتى كاد ان يقرّر البقاء في وداي كفران الجبل وعدم العودة الى السنجق التي راح يلعنها ويلعن اليوم الذي تمَّ فيه عقد قرانه على هذه الإمرأة المدلّلة النحسة.

في طريق العودةاطبقت عليهم فترة صمت طويلة، خرقها قادر بعرض خطته التي أكّد فيها على ضرورة اتخاذ أقصر طريق الى قرية زوراب، وهي الذهاب مباشرة الى قرية الشيخ قوجه عواد لإعادة الحصانين اليه ومن ثمَّ السفر بالقطار. وحين أراد عباس ان يعترض وذلك للتأكيد على ضرورة المرور بقرية بانشاخ، كي يتسنّى له جلب تعويذته، قاطعهما رستم مؤكّداً تأكيداً حاسماً بأنَّه لن يمر لا ببانشاخ ولا بقرية الشيخ قوجة عواد ولا بقرية زوراب. قال قادر باستغراب:

«ولكن ما هذا القرار يا ابن عمّي رستم؟ وزوجتك؟ ألا تريد ان تأخذها معك الى السنجق؟...».

أجاب رستم بأنّه لم يتزوج برغبة ذاتية، بل أرغموه على الزواج. وان الذي أرغمه على الزواج يستطيع أن يرافقها إلى بيته، ويعكس ذلك يمكنها العودة الى بيت أبيها او ان شاءت فالبقاء إلى الأبد عند العم شيخو. ثمّ طلب اليهما ان يتركاه وحده ويبلّغا العم شيخو بقراره. وانطلق بحصانه باتجاه الطريق المؤدّي الى المقبرة التي ترقد فيها مادلين.

ظلّ قادر وعباس ساهمين على ظهر حصانيهما جامدين في مكانيهما وهما يحدّقان إلى غيمة التراب التي خلفها حصان رستم. قال عباس بصوت منكسر يائس: «هل نتركه يذهب وحده؟ هيا لنلتحق به».

«دعه يذهب وحده، لا فائدة من اللحاق به».

اضطر عباس ان يعترف بأنّ سبب اصراره للمرور بقرية بانشاخ هو جلب تعويذة «كس الضبعة» التي يأمل ان تفيده في استمالة قلب الغجرية وردة، التي لا تستجيب لحبه. حاول قادر ان يقنعه طيلة الطريق بأنّه بحبّه هذا إنّما يلعب بالنار، وبأنّ عواقب هذه اللعبة ستكون وخيمة، بيد ان عباس لم يعطه اذناً صاغية، وأصرّ بأنّه لا يحس بالسعادة إلاّ حين يكون جنب هذه الفتاة التي لا يريد منهما سوى ان تلتفت اليه وتفهم مغزى نظراته.

قالت له فاطمة، عندما أعطته التعويذة، افعل معها ما تشاء، ولكن حذار ان تقع في حبّها وتتزوجها، وإلاّ سنفقدك وتفقدنا يا عباس، العشيرة، يمكنها ان تتساهل في الكثير من الأمور، واما ان نتصاهر مع الغجر، فمسألة مستحيلة. علّق قادر بأنّ المسألة كلها عبارة عن مزاج مؤقت، سيزول عندما يرحل الغجر.كان الشيخ قوجة عواد ينتظر على أحر من الجمر عودة الصبي ولي ليعالج له مرضاه الذين منّاهم بقدومه، وكان أن خاب ظنه، وهدّه اليأس، حين أكّد له قادر بأنّ الصبي ولي قد اختفى فجأة. قال قوجة عواد انه كان يعرف بأنّ هذا الصبي لا ينتمي إلى بني البشر، بل إلى الجن، وانه لا بدّ ان يظهر ذات يوم. ثم سأل عن مصير الفرس، فأجابه قادر فوراً بأنّها هي الأخرى قد اختفت. قفز الشيخ قوجة عواد من مكانه وقال بفرح طفولي: «ألم أقل لكم ان فرسي هي حفيدة براق النبي، لا تخافوا، انهما سيظهران ذات يوم، وسيجلبان لنا الخير والبركة...».

٢٦

كان شيخو طريح الفراش، حين وصل قادر وعباس مساء بعد غروب الشمس بالقطار الصاعد. وكان الارهاق على وجهه بشكل ملحوظ، حيث التجاعيد العميقة قد جعلت منه شيخاً طاعناً في السن. كان يحيط به مردان والسيد نعيم. ورغم ان مردان قد ألمح لهما بعدم ازعاجه، فإنَّ قادر لم يتمالك نفسه، بل ألقى بنفسه عليه وراح يقبِّله من وجهه وهو يحرِّكه بقوة:

«عمِّي شيخو، عمِّي شيخو...».

لفَّ شيخو الخيط الأخضر الذي أعطاه إيَّاه السيد نعيم على معصمه وقال بعد ان فتح عينيه بصعوبة:

«قادر، هل رجعتم؟ أين رستم وعباس؟ ماذا فعلتم بولي؟». وضع عباس يده على رأسه وقال انه جالس إلى جنبه، وان رستم قد اضطر للسفر الى السنجق كي يلتحق بالدوام وأمَّا الصبي ولي فإنَّه عند العم كريم، وان كل شيء على ما يرام وان ما يهمهم هو صحته فقط.

جلبت له زوجته الأولى عصير المشمش، طالبة اليه ان يشربه كله دفعة واحدة، قائلة انه أحسن دواء ضد العياء، ثم عاتبته بأنَّه أهمل صحته طيلة الاسبوع منشغلاً بالسهرات الليلية معتقداً انه ما زال شاباً، في حين انه قد بلغ السبعين: «هيًّا اجمع قواك واجلس...».

عندما اقترح مردان جلب طبيب من المدينة، ابتسم شيخو قائلاً: «لو سمعك الآن المرحوم زوراب يا مردان لضربك بعكازه».

بعد ان انتهى من شرب العصير، أحسَّ بانتعاش، فتململ في فراشه وراح يحاول الاتكاء على الجدار وقال ملتفتاً الى زوجته:

«والله إنَّكِ أحسن طبيبة يا خه جه».

قالت زوجته بصرامة:

«اذا قمت من فراشك، فعليك ان تعرف حدودك، أنتم الرجال مثل الأطفال».

شدَّ السيد خرقة خضراء على معصمه، وقال انه يجب ان لا تموت يا شيخو بك فالعشيرة ما زالت بحاجة ماسة إليك.

كان شيخو يعرف حق المعرفة بأنَّ أجله قد حان، وان الموت قد أصبح قاب قوسين او أدنى منه،

وان عاش فأيام معدودات لا أكثر. كان قد حلم طيلة الليلة الماضية بأبيه الشيخ زوراب، ورمضان وميرزا وهابو. كانوا قد تجمّعوا في خيمة ميرزا، التي انتصبت في مكان مجهول، وهم يرحّبون بقدومه الذي قالوا انهم كانوا ينتظرونه منذ أمد بعيد.

كانوا لا يعرفون ما اذا كان يهذي أم انه يتحدّث اليهم، بيد انه كان يتكلم بصوت خافت متقطع دافئ كما لو انه يتحدّث في الحلم: -

... انا أعرف ان العشيرة بحاجة إليّ، كانت العشيرة بحاجة الى الشيخ زوراب أيضاً، ولكنه قد مات، أنا لا أستطيع ان أبقى إلى الأبد للعشيرة. إنّني يجب ان أذهب إلى الخيمة، انهم ينتظرونني هناك. إنّني لا أتحمل أكثر، ولا هم يستطيعون التحمُّل. انهم ينتظرونني. أريد ان أشرب استكاناً من الشاي بكل هدوء مع والدي زوراب والعم رمضان وميرزا وهابو. لعنة الله على الفرمان اللعين الذي أخرجنا من طورنا وأفقدنا توازننا. لولا هذا الفرمان المشؤوم لعاشوا حتى الآن وما احترقت الخيمة. رستم... أين رستم؟ أين كريم؟ كونوا رفقاء ببعضكم وحافظوا على كرامة العشيرة. كونوا طيِّبين مع حمه غريب، انه رغم حماقاته طيِّب جداً.

في وقت متأخر من الليل توقف قلبه عن الحركة. كان آخر مَن ودَّعه هو قادر وعباس ومردان،، اذ أبوا إلاّ أن يبقوا إلى جانبه ويسهروا طيلة الليل. أمّا الآخرون، فلم يخطر ببال احد منهم بأن ملاك الموت كان قد وقف أمام الباب.

نزل نبأ موت شيخو على الجميع مثل الصاعقة. وقبل ان تُجرى مراسيم الدفن تمّ استدعاء كريم ورستم وجميع الاخوان وأولاد العم. كان الرجال قد مرغوا اكتافهم بالطين وأمّا النساء فرؤوسهن، وكنّ يولولن ويلطمن وكانت إحدى النساء المتمرسات تناجي بصوت حزين وهي تصف مآثر شيخو بك، الذي كان رجلاً حقيقياً وأباً كريماً للعشيرة التي لن تنجب باراً مثله إلى الأبد.

كانت المشكلة الحقيقية التي جابهتها العشيرة، هي، مَن يتولّى رئاستها.

في أيّام المأتم الذي استغرق اسبوعاً كاملاً، جرت عدة جلسات جانبية طويلة حضرها كريم واخوانه الخمسة المتوزعون على قرى وادي كفران الجبل وحمه غريب ورستم وغيرهم من الأقارب والمسنين. ولمّا كانت الصراعات حامية جداً بين جماعة حمه غريب وجماعة كريم، الذي رفض مقدماً تسلُّم مهمة رئاسة العشيرة، لذا حسم الأخير النقاشات بالعودة إلى الطريقة التقليدية في تعيين الرئيس، والتي سارت عليها العشيرة منذ الأزل، ألاَ وهي إناطة المسؤولية إلى أكبر الاخوان سناً. تبيَّن للجميع، ان حمه غريب كان يتمنى ذلك لنفسه، رغم محاولته اخفاء ذلك. ولذلك حاول احراج كريم، مذكراً إيّاه بأنّه في حينه قد تولّى رئاسه وادي كفران الجبل رغم كونه أصغر الاخوان. قال ذلك بلهجة فيها نوع من الاهانة والاستخفاف. وقبل ان يبادر كريم بالكلام،

انبرى الأخ الأكبر الذي تمَّ تعيينه رئيساً تواً، وقال بصرامة وهو يؤشر اليه بسبابته:

«انظر يا حمه غريب، ان الذي سيتكلم ويحسم الأمور من الآن فصاعداً هو أنا . أنا لست المرحوم والدي الشيخ زوراب، الذي أنقذك من الجوع وعلَّمك الكلام والجلوس، ولست المرحوم أخي الأكبر شيخو، الذي دلَّلك وتحمَّل كل تفاهاتك، كما ولست أخي الأصغر كريم، الذي احترمك أكثر من اللازم. أنا نريمان، الابن الثاني للشيخ زوراب، كنت فلاحاً وسأظل فلاحاً، رغم كوني الآن رئيساً لعشيرة وادي كفران. انك يا حمه غريب قد تجاوزت حدودك منذ مدة غير قصيرة، لقد احترمناك بسبب الأم الكبيرة سنجان، ولكن يبدو انك لست أهلاً له. ان كنت تريد ان تعيش معنا، فعليك ان تحترم نفسك وتحترمنا».

أطبق الصمت على الجميع. تنفَّس كريم ورستم الصعداء للَّهجة غير المتوقعة التي نشرت الخوف على ملامح الكثيرين. تبادل قادر وعباس ومردان النظرات بارتياح بالغ وأنساهم الفرح أحزان التأبين. همس حسين علي كركوكلي في أُذن كريم قائلاً بأنَّ هذا الأحمق حمه غريب لا يفيده سوى مثل هذه اللهجة.

قبل ان يعلن نريمان انتهاء الجلسة، وجَّه كلامه إلى حمه غريب مرة أخرى مؤكِّداً له أنه رغم كل شيء، يحبه وانه اذا اقتضى الأمر يضحِّي بحياته من أجله لأنهما من دم واحد، وانه يستحيل ان يكسر عظمه، ولكن لكل شيء حدود وان الانسان يجب أن يمدَّ رجله بقدر لحافه. وانه هو نفسه كإخوانه الاخرين، حين كان المرحوم شيخو يدير شؤون العشيرة، لم يتدخلوا في أي شأن من شؤون العشيرة، بل ان احداً لم يحسَّ بهم.

كان نريمان، الذي اكتفى بلقب آغا دون لقب بك رأى انه لا يستحقه لأنَّه لن يبلغ مستوى أخيه الأكبر شيخو بك، رجلاً صامتاً، نادراً ما يتكلم. وكان كبقية اخوانه المغمورين، عدا شيخوا وكريم، يعمل ليل نهار. وكانت قريته الواقعة في أقصى شمال وادي كفران تقع على سفح جبل بازوخ على جرف مطل على مدخل خورنه وه زان مباشرة. وكان ثمة عين تقع على شمال القرية، تتدفق منها المياه العذبة، شاقة وادياً ضيقاً عميقاً تظلِّله أشجار التين والخوخ والصفصاف، ثم يصب في نهر آوه سبي عند بحيرة عميقة تطلُّ عليها صخور هائلة. كان والده يسمِّيه بناله كوركه وذلك لصبره وعناده وشجاعته. كان مؤمناً لايعرف الكذب واللصوصية كما انه لم يرَ في حياته مسجداً او تكية. اقترح عليه شيخو ذات مرة ان يستدعي الملا إلى قريته كي يعلمهم الصلاة، فقال له ان الانسان الصادق مع نفسه يكون صادقاً مع اللّه أيضاً، ان كنت لا تكذب ولا تسرق ولا تقتل نفساً بريئة وتساعد المحتاجين، فلماذا الخوف من الجحيم؟ ولما كانت قرية كه رمك مهمة جداً، وذلك لوقوعها على الطريق المؤدِّي إلى ما وراء بازوخ حيث عشائر زه نكه نه والطالبانية والجبارية، لذا قرَّر في حينه والده المرحوم زوراب، وكان ذلك قبل عدة سنوات من «أطول عام»

ان يكون هو المسؤول عنها، ذلك لأنّه –كما قال زوراب– يقظ مثل الذئب، حيث ان بوابة مثل بوابة كه رمك، لا يمكن ان يحرسها إلاّ رجل مثل نريمان الذي لم يحد قيد شعرة عن جدّه الأكبر ناله كوركه. ولذلك عندما انتهوا من تعيينه كرئيس جديد للعشيرة، التفت كريم إلى الملا الأسطة حسين علي كركوكلي، الذي كان قد طعن في السن وقال لو الشيخ زوراب كان حيًا، لفرح لهذا الاجراء وان بعض الكسالى ممن يكرهون العمل، سوف يعانون الأمرّين على يديه، وان زمن التساهلات قد ولّى.

من القصص التي تُروى عنه انه ألقى ذات مرة القبض على لصّين اراد التسلّل إلى أراضي العشيرة، ولمّا أصرّا على عدم الاعتراف بانتمائهما القبلي، وثقهما ببعضهما بحبل وألقى بهما في زريبة، وعندما رضخا لإرادته أركبهما على حمارين بالمقلوب وأوصلهما إلى عشيرتهما حيث سلّمهما لرئيس العشيرة، الذي قال ان مثل هذا العمل الجريء لا يمكن ان يقوم به إلاّ حفيد ناله كوركه. ثم انهال عليهما بالضرب وحرّم عليهما مهنة اللصوصية التي تحتاج الجرأة والدهاء.

رغم ان حمه غريب كان قد سمع الكثير عنه، إلاّ انه حلف أمام جماعته باللّه العظيم بأنّه سوف ينتقم لتلك الاهانة وانه سيجعله أضحوكة أمام العشيرة.

ذات ليلة، وفي وقت متأخر اختلى حمه غريب بثلاثة من رجاله الذين يعتمد عليهم وطلب اليهم ان يقوموا بالسطو على إحدى السيارات المتوجهة من كركوك إلى بغداد أو بالعكس. ولمّا كان الجسر العثماني الواقع على نهر روخانة هو المنفذ الوحيد الذي تمر به السيارات، لذا فإنّ عملية السطو تكون من السهولة بمكان بحيث ان شخصاً واحداً يكفي لذلك. ويعرف كل فرد في العشيرة معرفة جيدة، بأنّ مسؤولية وقوع أي حادث على أراضي العشيرة، كالسطو على القطار أو وضع حاجز على السكك الحديدية او السطو على سيارة على الطريق المار بالعشيرة، يتحملها رئيس العشيرة. اذ ان رؤساء العشائر قد تعهّدوا أمام متصرف اللواء بصورة خطيّة للحفاظ على أمن وصيانة السكك الحديدية والطريق العام المؤدّي إلى بغداد.

عند وضع خطة السطو، استغرب الثلاثة لإصرار حمه غريب على تنفيذها على أرض العشيرة، وكان ان أقنعهم بأنّ وفاة شيخو بك قد غيّرت الأمور ثم انه من السهولة بمكان اشاعة الخبر بأنّ اللصوص انما هم من عشيرة مجاورة، وأغراهم بأنّ هؤلاء الذين يسافرون الى بغداد بالسيارة يحملون معهم كميات هائلة من المبالغ، لأنهم من كبار تجار كركوك. وأكّد لهم بأنه لا يريد منهم سوى عشر ما يحصلون عليه، كي يقدّمه بدوره للشيخ.

في اليوم الثاني، ترك الثلاثة القرية قبل غروب الشمس مشياً. عندما بلغوا الجسر الواقع وراء قرية الامام زين العابدين، كان الظلام قد لفّ كل شيء. كان احدهم قلقاً ومتشائماً طيلة الطريق،

ففي الوقت الذي كان فيه الآخران مبتهجين، يتكلمان كثيراً ويحلمان بالثروة، كان هو صامتاً ومنشغلاً بالتدخين. كان الطريق في الجانب الأيمن، الواقع على أرض وادي كفران، يخترق منطقة جبلية وعرة بصخور بركانية ناتئة وملساء. حين اتخذوا أماكنهم تحت صخرة كبيرة مطلة على الطريق، لاحظ أحد الاثنين صمت صاحبهما فسأله ما اذا كان خائفاً أم انه يحلم بالثروة القادمة. وقبل ان يفتح هذا فمه قال الآخر بأنً ابن عمهما أمين لا يعرف الخوف، وانه معروف بين أفراد العشيرة بجرأته وإقدامه.

قال الآخر: «لماذا أنت ساكت اذن يا ابن عمّي؟».

أجاب أمين وهو ينفث كمية من الدخان:

«إنّني أُفكّر طيلة الطريق في مسألة واحدة فقط، ألاَ وهي لماذا هذا الاصرار من قبل حمه غريب آغا للقيام بالعملية على أرض العشيرة؟ يكفي ان نعبر الجسر كي نكون على أرض الطالبانية».

أكّد الآخران بأنً المهم بالنسبة لهما هو تنفيذ العملية، ولا يهمهما ما اذا كان ذلك هنا أو هناك، ولا شك ان حمه غريب لا يقصد بذلك أي شيء، ثم إنّهم اذا سطوا على كميات محترمة من الأموال لن يرجعوا لا إلى حمه غريب ولا إلى العشيرة. يمكنهم ان يذهبوا إلى فروع عشيرتهم المتواجدة في أطراف الموصل وديار بكر، حيث سيتزوجون وينتهي كل شيء.

ظلُّوا ينتظرون إلى وقت متأخر دون أن تمر سيارة حتى انهم يئسوا وأرادوا السطو على عابري السبيل والقوافل الصغيرة، بيد انهم اقروا انهم انما جاؤوا كي يسطو على سيارة وليس على أي شيء آخر. في منتصف الليل تنفسُّوا الصعداء حين لمحوا من بعيد ضوءاً قوياً يخترق ظلام الليل الدامس. دحرجوا بسرعة عدة صخور قطعوا بها الطريق، وأشرفوا عليه محتمين بالصخور المنتشرة على الجانبين. بعد انتظار قصير بلغت السيارة المكان بضوئها القوي واضطرت للوقوف، ثم حاولت الاستدارة الى الاتجاه المعاكس. هنا أطلق أحدهم النار مستهدفاً الاطار وكان أن فوجئوا ببوابل من الرصاص يخترق صمت الليل وينفث شعاعات من النار في كل الاتجاهات. وجرى تبادل النار إلى ان عادت السيارة إلى حيث أتت.

حين تأكّدوا بأنً أي واحد منهم لم يصب بأذى غمرتهم النشوة، بيد ان الشعور بخيبة الأمل كان أقوى.

في يوم الثاني جاء مدير الشرطة العام مع المحقق العدلي وممثل المتصرف إلى مركز القضاء واجتمعوا بالقائمقام، وقبل تناول طعام الغداء في بيت الأخير، كان قد تمً استدعاء كافة رؤساء عشائر المنطقة لمقر القائمقام. أمر هذا فراشه بإخراج كافة المراجعين من الدائرة وعدم استقبال أي مراجع كما وطلب من كافة أفراد الشرطة والموظفين ان يظهروا بأحسن هندام. كان القائمقام

خائفاً جداً، إذ ان علامات التوتر والغضب البادية على وجه مدير الشرطة العام تنذر بالشر، ومما زاد في خوفه ان هذا الأخير لم يفصح عن السبب الذي جاء من أجله بهذه الطريقة المفاجئة.

ولما كان نريمان آغا لا يملك ملابس تليق بهذه المناسبة، لذا اقترح عليه الأسطة حسين علي كركوكلي، الذي رافقه إلى مقر القائمقام، أن يرتدي بدلة أخيه المرحوم شيخو بك التي كان يرتديها في مثل هذه المناسبات. ورغم ان البدلة كانت كبيرة عليه، فإنّه بدا مهيباً ولكن بمسحة مرحة.

كان نريمان آغا قلقاً بعض الشيء ولا يدري سبب استدعائه من قبل القائمقام، بيد ان الأسطة حسين علي كركوكلي طمأنه بأنَّ مثل هذه اللقاءات اعتيادية، حيث يجري فيها عادة بحث أمور العشائر وعلاقاتها ببعضها البعض من جهة وبالحكومة من جهة أخرى.

اتخذ مدير الشرطة العام مكانه وراء مكتب القائمقام، وبعد ان رحَّب برؤساء العشائر، أكَّد بأنَّه قد أُصيب بخيبة أمل كبيرة لم يتوقعها أبداً. ثم حدَّثهم بالتفصيل عن الحادث الذي وقع معه بالذات على الجانب الأيسر من الجسر العثماني، والذي قُتِلَ فيه شرطي أثناء اداء الواجب. وكان المتصرف قد نصحه ان يكون هادئاً مع رؤساء العشائر، وأكَّد له انه يستطيع التوصل إلى القاتل فقط بأسلوب اللين والدبلوماسية، وليس بلغة التهديد والوعيد. تمكَّن المدير من ضبط أعصابه وقال انه يترك الأمر لهم، ولكن القاتل يجب ان ينال عقابه أمام القضاء. وبعد مداولات لم تدم كثيراً، اتفقوا بالاجماع على ان تُعطى لهم مهلة اسبوع لتشخيص المتهم وتسليمه لمركز الشرطة في مركز القضاء.

بعد انفضاض الاجتماع تنحَّى رئيس العشيرة الطالبانية بنريمان آغا وقال له ان الحادث قد جرى مباشرة على الحدود بين عشيرتيهما، وانه واثق كل الثقة بأنَّ القائمين بالجريمة ليسوا من رجاله، لأنه يعرف لصوصه جيداً، وإنَّهم لا يخطون خطوة دون ان يعرف بها. كان نريمان ذاهلاً، تتضارب في رأسه الأفكار المتناقضة، وعندما لمح العيون وهي تحدِّق إليه بفضول واستغراب، بدأت حاسته السادسة تُنبئه بأنَّ الفاعل من أهل بيته، وعليه البحث عنه هناك وليس في أي مكان آخر. وان الطالبانيين هذه المرة بريئون حقاً.

قبل ان يرجع نريمان آغا إلى القرية مع رجاله، زار رستم في منزله وقضى عنده حوالي الساعتين، تباحث معه خلالها ما جرى في اللقاء. كان نريمان يشك في قادر وعباس، بيد ان رستم أكَّد بأنَّه من المستحيل أن يقوما بمثل هذا العمل الذي هو اساءة مباشرة للعشيرة نفسها، ثم انهما لا يقومان بأي عمل لصوصي دون ان يبلغا رئيس العشيرة.

عندما بلغ الثلاثة مضيف حمه غريب فجراً، كان هذا لا يزال ينتظرهم على أحرَ من الجمر. وحين

علم بفشلهم راح يضرب كفاً بكف نادباً حظَّه، واستنتج من نوعية وابل الرصاص الذي خرج من بندقية رشاشة، بأنَّ السيارة كانت بلا شك تابعة للحكومة، ولما أبلغوه بأنَّهم اضطروا للقيام بالعملية على الجانب الثاني من الجسر، هدأ روعه، ولكنه مع ذلك حذَّرهم من العواقب الوخيمة فاقترح عليهم بترك ارض العشيرة الى مكان آخر ريثما تهدأ الأمور. قالو انهم، مهما كانت العواقب، يستحيل ان يتركوا العشيرة وانه إذ ورَّطهم بمثل هذا العمل، كان ينبغي عليه ان يحسب هذا الحساب ايضاً.

عند وصوله القرية قبل مغيب الشمس استدعى نريمان قادر وعباس وقال لهما انه قبل استدعاء جميع رجال وادي كفران إلى مجاسه، يريد أن يسمع رأيهما بخصوص ما حدث. كان نريمان غاضباً، يتطاير الشرر من عينيه ولم يسبق لقادر وعباس أن رآيا شيئاً من هذا القبيل من قبل، لا عند جدِّهم زوراب ولا العم شيخو ولا عند كريم. اتخذوا أماكنهم في الشرفة المطلة على الحوض. شمس الخريف الواهنة والمائلة الى الغروب، تضفي على الأوراق الصفراء التي لم تتساقط بعد، لوناً ذهبياً مشرقاً:

«أنا أعرف أنَّكما لصَّان، ورغم ان رستم قد أكَّد لي بأنَّكما بريئان في هذه القصة، ولكنَّني أحب أن أسمع رأيكما أنتما قبل ان ابدأ بالتحقيق مع الآخرين الذين أشك فيهم».

قال قادر باستغراب:

«هل تعتقد يا عمِّي نريمان من كل قلبك بأنَّنا قد قمنا بذلك؟».

«أنا لم أقل بأنَّني أعتقد ذلك، قلت أريد ان أسمع رأيكما».

أقسم الاثنان بروح الشيخ زوراب والعم شيخو وبكل المقدسات بأنهما بريئان، وانهما يستحيل ان يقدما على مثل هذا العمل الذي لا يأتي من ورائه إلاَّ الاساءة لشرف العشيرة ورئيسها. وحين استعرضوا بعض الأسماء التي تميل إلى اللصوصية وحب المغامرة داخل العشيرة، قال قادر ان الشخص الوحيد الذي يمكن ان يقدم على مثل هذا العمل هو أمين نادر وعصابته التي يحميها حمه غريب. علَّق عباس ان أمين بطبيعته انسان طيب، ولكنه يميل الى حمه غريب، وأنَّه يظن بأنَّ هذا هو الذي دفعه لذلك، إذ ان حمه غريب منذ اليوم الذي تورَّط فيه باستلام مبلغ من الانكليز، بدأ يخلق المتاعب للمرحوم العم شيخو، وان طموحه لتسلُّم رئاسة العشيرة لا يخفى على أحد.

هزَّ نريمان رأسه وبدا كما لو انه جمع الخيوط بكلتا يديه وراح يدمدم بصوت خافت: «عندما كنت جالساً في مجلس مدير الشرطة العام، كانت الأنظار كلها قد توجهت إليَّ. كان أحد الوجوه الثلاثة التي مرت برأسي، هو وجه حمه غريب».

عندما ذهب مردان لاستدعاء أمين نادر ورفيقه، كان خبر الحادث ومقتل الشرطي قد وصل إلى

كل بيت. اجتمع الثلاثة في بيت أهل امين للتباحث في مصيرهم. كانوا يتوقعون كل شيء، اما ان يكون أحدهم قاتلاً، فلم يمر ببال أي واحد منهم. لم يجدوا، بعد المناقشات الطويلة، مخرجاً لورطتهم، ولذلك قرّروا ان يضعوا الحقيقة كاملة امام نريمان آغا، على أن لا يذكروا اسم حمه غريب. وقبل ان يعثر عليهم مردان ذهبوا بأنفسهم اليه.

حين أصرُّوا على عدم ذكر اسم آخر رابع، جلب نريمان نسخة من القرآن الكريم داخل كيس أخضر، وطلب أولاً إلى أمين ان يضع يده عليه ويحلف بأنَّ ليس هناك شخص رابع يعرف بهذا الموضوع. ارتجف أمين وامتقع لون وجهه ورفض ان يفعل ذلك. حين طُلب ذلك إلى الآخرين، رفضا بدورهما ايضاً. أقسم لهم نريمان، بعد ان اختلى بهم بأنّه يريد ان يعرف ذلك لنفسه فقط، وان هذا الامر سيبقى سراً لن يبوح به حتى لذلك الشخص الرابع الذي يعرف الخطة. أصرَّ الثلاثة بكل عناد بأنّهم غير مستعدين لذكر أي اسم، فله أن يفعل بهم ما يشاء بما فيه تسليمهم للحكومة. قال نريمان بلهجة هادئة فيها ثقة مطلقة بالنفس:

«إنّني أستطيع ارغامكم على الكلام، ولكن من المفضل ان تبادروا بأنفسكم لقول الحقيقة».

وظل ينتظر لدقائق بلا جدوى، اذ بدأوا يضربون عن الكلام نهائيا. قال نريمان في نفسه، ان عرق هذا العناد يرجع الى ناله كوركه، ولكنه عناد ليس في موضعه، فالقضية فيها قتل، وهو ان لم ينجح في هذا الامتحان فاقرأ عليه السلام.

تكلَّم مع كل واحد منهم على انفراد، ولكن دون جدوى. ترك الغرفة طالباً إلى أمين ان يتبعه، وهو يحسّ في نفسه باذلال في كرامته، مرَّ بالشرفة حيث قادر وعباس ومردان وطلب اليهم ان يتبعوه. توقف عند شجرة الصفصاف المطلة على الحوض. أمّا الآخران فطلب اليهما أن يبقيا جالسين في الشرفة ريثما ينادي عليهما. وقف تحت شجرة الصفصاف هنيهة ثم قطع غصناً طويلاً رفيعاً راح يقلّمه بخنجره. بعد ان انتهى من تجريد الغصن من الأوراق، التفت إلى أمين قائلاً له ان هذه هي المرة الأخيرة التي يُطلب فيها منه أن يذكر الاسم. ظلَّ أمين مصراً على الصمت. اصفرت أرنبا أنف نريمان. ظلَّ هنيهة جامداً وبأسرع من لمح البصر مسك أمين من رقبته وألقى به في الحوض وهو ينهال بالضرب على رأسه. وغطس أمين كي يتفادى الضربات المتلاحقة، ولكنه سرعان ما كان يخرج رأسه كي يتنفس، ولكن الضربات السريعة المتلاحقة كانت تعيده إلى تحت الماء ليخرج في موضع أبعد من المكان الذي يقف فيه نريمان، بيد ان العصا الطويلة كانت تلاحقه أينما حلَّ وهو يكاد يختنق. أعطاه نريمان فرصة للتنفس قائلاً:

«اقسم بالله وبمحمد رسول الله وبالقرآن الذي رفضت ان تضع يدك عليه إنّكَ لن تخرج من هذا الحوض إلاّ بعد ان تقر الحقيقة يا ابن عمّي»، فلنرَ أي واحد منا أكثر عناداً، سأحسب إلى ثلاثة فقط».

قبل أن يبدأ نريمان بالعد، استسلم أمين وقال انه مستعد لقول الحقيقة، ولكن له فقط.

اجتمع نريمان بثلاثتهم وقال لهم بأنً الجريمة التي تورطوا بها نتيجة انصياعهم لحماقة حمه غريب، يجب ان يتحمّلوا مسؤوليتها، وانه لا خيار أمامه إلاّ ان يسلمهم للسلطات المسؤولة ليقدّموا للمحاكمة، وانهم بحماقتهم هذه لم يسيئوا إلى أنفسهم وعوائلهم حسب، بل أساؤوا إلى سمعة العشيرة أيضاً: «تصوّروا لو ان القتيل لم يكن شرطياً، بل مدير الشرطة العام نفسه، فماذا كان يحدث؟».

قال أحدهم بلهجة فيها اهانة، انهم حين جاؤوا اليه كي يضعوا الحقيقة أمامه، إنّما لكي يساعدوه وليس كي يسلمهم الى السلطات، وإلاّ كانوا يستطيعون الهرب والاختفاء الى الأبد.

أجاب نريمان بحزم لو انهم صعدوا إلى السماء او اختفوا تحت الأرض لعثر عليهم، وان مَن يسلّم لحيته بيد رجل أحمق مثل حمه غريب يجب أن ينال جزاءه: «أين هو الآن؟ لماذا لا يأتي كي يساعدكم؟».

٢٧

شجرة التوت التي تناثرت أوراقها الصفراء في أرجاء الحوش، تشيع الكآبة والحزن في جو البيت الذي وجده رستم خالياً مقفراً بسبب غياب ابنه ولي. كل شيء بالنسبة اليه موحش، سواء ذاته هو أم حواليه. ظلَّ يتنقل تائها بين غرفته وفناء الدار وهو يلعن اليوم الذي ترك فيه وادي كفران للدراسة في المدينة، وتمنّى لو كان طليقاً حراً مثل قادر أو عباس.

بعد تردُّد غير قصير، فتح بباب غرفة ولي، وراح يتأمَّل زاويته ورسومه المعلَّقة على الجدار. عصرت يد خفية قلبه المثقل بالحزن العميق. بدأت الدموع تطفر من عينيه، وسرعان ما ألقى نفسه على فراش ولي، آحتضن المخدَّة واستغرق في بكاء عميق. ومما ضاعف حزنه وفاة عمّه شيخو الذي أحسَّ انه بموته قد فقد آخر حلقة تربطه بوادي كفران. كان هذا، بالنسبة اليه، بعد وفاة جدِّه زوراب، هو وادي كفران بعينه. وها ان ذلك الوجه المشرق، الذي كان يذكِّره بكل تفاصيل حياته الماضية، طفولته، صباه، مراهقته، وبأرض وبشر وادي كفران، قد اختفى إلى الأبد. واذا كان جدّه زوراب هو روح وادي كفران، فإنَّ شيخو كان لحمه النابض بالحياة. تُرى، هل بموت شيخو قد ودَّع وادي كفران إلى الأبد؟... بمَن يرتبط هناك؟ بوالده كريم؟ انه من صلبه حسب، ولكن لا تربطه به أي علاقة روحية. بقادر وعباس؟ لم يعد يستطيع التفاهم معهما بعد، انتهت العلاقة الروحية بهما مع انتهاء عهد الطفولة. عمّه نريمان، الرئيس الجديد لوادي كفران؟ لم يلتق به إلاَّ نادراً. المعروف عنه انه كان يرجع من الحقل مع عتمة المساء، وبعد تناول طعام العشاء يذهب إلى الفراش، كي يستيقظ في اليوم الثاني قبل صياح الديكة. رغم كل ذلك فإنَّه، حتى اذا أراد ان يقطع صلته بوادي كفران، سيبقى مرتبطاً بوادي الأجداد ان شاء أم أبى. ستكون صلته الروحية ابنه ولي الذي نفاه قدره إلى نبع الأجداد، واما صلته الجسدية فهي زوجته التي فرضتها عليه روح وادي كفران المتجسدة في شيخو. انها آخر هدية تمنحه إيّاها أرض آوه سبي.

ترك الغرفة وراح يتمشّى جيئة وذهاباً في ساحة البيت وهو يشعر بالوحشة والعزلة وبأنَّه بحاجة إلى انسان وأي انسان. وتذكَّر ليلة الدخلة وزوجته المتوحشة التي لا يعرف عنها أي شيء. حتى انه لم يستطع ان يستجمع في ذاكرته صورتها. تراءت له كجسد جميل بلا وجه. تحركت فيه رغبة كامنة، وتمنّى لو كانت الآن إلى جنبه، ولكن عليه ان ينتظر ليلة أخرى، فقد أكَّد له قادر وعباس انهما سيجلبان له زوجته في نهاية الأسبوع، ونهاية الاسبوع في عرفهما هي يوم الخميس وليس يوم الجمعة. وقالا له انه يستطيع ان يتمتع بها طيلة الليل وينام في اليوم الثاني حتى الضحى، حيث لا دوام ولا تدريس ولا هم يحزنون.

٢٨

توطهدت العلاقة بين الشايب جوامير والصبي ولي بعد أول لقاء بينهما. وراحا يقضيان معظم أوقاتهم معاً، ولا يفترقان إلاّ بعد ان يذهب كل واحد منهما إلى فراشه. علّمه الشايب طريقة نصب الافخاخ لصيد الطيور وكيفية استعمال المقلاع لصيد الأرانب ومطاردة الذئاب، وأمًا ولي فعلّمه كيفية صيد السمك بالشص الذي كان قد جلبه معه من السنجق. وحين رأى الشايب الشص، صنع واحداً مثله من مسمار. وكان أول صيد له هو سلحفاة ضخمة راحت تطلق غازات برائحة كريهة. أعادها الشايب إلى النهر قائلاً: يبدو ان هذا المخلوق لا يفترس سوى خبز الشعير.

عندما كانا يسيران بمحاذاة نهر آوه سبي، حيث الشايب يقلع بين حين وآخر جذور عرق السوس ونباتات أخرى، يتحدثان في الوقت نفسه عن أمور كثيرة، ينتقلان من موضوع إلى آخر بصورة عفوية. الشايب يريد أن يعرف منه المزيد عن حياة المدينة وعن قرية زوراب. وحين يحدّثه الصبي بالتفصيل عن المدينة وعن السيارة والقطار والطاحونة التي تعمل بدون ماء، يهزّ الشايب رأسه متظاهراًبالاستغراب والدهشة، بيد انه في الحقيقة يعتقد ان الصبي إنّما يهلوس. ولكنه يجاريه بكل أدب دون أن يجعله يحس بشعوره. وإذ يتصنّع الشايب في ابداء اعجابه بما يقوله الصبي، يؤشر بيده إلى الجرف العالي لمضيق خورنه وه زان، ويقول بعد ان يتوقف قليلاً: «انظر يا ولي، هل ترى ذلك الأخدود الملتوي الذي ينحدر من أعلى الجرف إلى النهر؟». ويتوقف الصبي ولي هو الآخر محدّقاً في الاتجاه نفسه:

«نعم يا جدّو جوامير، ماذا عن الأخدود؟».

وقبل أن يروي له الشايب حكاية الأخدود، يؤكّد له بأنّ العجائب لا توجد بين السنجق وقرية زوراب حسب، بل انها كانت موجودة هنا حتى قبل مئات السنين، ثم يروي له بالتفصيل- كما لو انه عاش الحدث بنفسه- كيف ان الشاه اسماعيل وبعده كريم خان زند وغيرهما من الملوك والأمراء كاوا يقضون صيفهم قرب نهر آوه سبي، تحت ظلال خورنه وه زان الأزلية:

كان الطعام يطخ في أعلى الجرف، حيث نصبت الخيام وأمامها القدر، وينتقل في مواعين فضيّة بغطاء. وكان صف من الرجال يقفون جنباً إلى جنب بامتداد الأخدود. وكانت الأواني تنتقل عبر أيديهم من الخيمة الى آخر رجل في عمق الوادي، خلال فترة قصيرة جداً، بحيث ان الطعام كان يصل الى الملك وضيوفه وهو ما زال ساخناً. وإذ يسيل لعاب الصبي للطعام الساخن، يستفسر بفضول: «ولكن لماذا كانوا لا يطبخون هنا مباشرة على النهر».

ويجيب الشايب بعد تفكير قصير: «لا يا ولي، لا يجوز ازعاج الملك بدخان النار وضجيج الطبّاخين والخدم».

وفجأة يخطر سؤال غريب ببال الصبي: «لماذا لا تسافر يا جدّو جوامير إلى قرية زوراب كي ترى كل شيء بأم عينيك؟».

ويردّ الشايب بحزم وبلهجة قاطعة: «كلا يا ولي، أنا لن أترك قريتي إلى أي مكان آخر. إنّني اذا تركت هذا المكان فسأموت فوراً. إنّني مثل أي سمكة، ما ان خرجت من الماء تموت مباشرة، ثم اذا تركت البيت لعدة أيام. فمَن يعتني بالأغنام والمواشي والأرانب والحمام. والجلود المنشورة في الشمس للدبغ تحتاج إلى عناية خاصة، كلاّ يا ولي، لا يجوز ذلك».

الصبي يتبع الشايب مثل ظلّه، ويفرح لكل مهمة يكلّفه بها، وهو منذ اليوم الذي وصل فيه إلى هنا لم يحس بأي ملل، بل بالعكس، النهارات أقصر بكثير مما هي عليه هناك في السنجق، حتى انه لا يجد الوقت الكافي كي يرسم، ذات مرة أصرّ ان يسهر مع جوامير حتى الفجر كي يرى بأم عينيه كيف تلد الفرس مهرها، ومن فرط فرحته تغلب على نعاسه، وظلّ معه حتى شروق الشمس وهما يعتنيان بالفرس ومهرها.

وفي الأماسي، بعد تناول طعام العشاء، يجلسان في ضوء اللمبة الزيتية المعلّقة على الجدار، إما وحدهما أو مع بعض الأقارب الذين كانوا يأتون عادة للتمتّع بحكايات جوامير التي كان يرويها بطريقة تجعلك تعتقد كما لو أنه ساهم فيها شخصياً:

في قديم الزمان مرّ من هنا العديد من الأنبياء والحكام. وحين كانوا يصلون الى مضيق خورنه وه زان، كانوا يأخذون قسطاً من الراحة بعد عناء الرحلة الطويلة متمتعين بظلاله ومائه العذب، وبعد ان يتركوا المكان يودّعونه بلحن جميل:

يا عابر السبيل
يا مَنْ تأتي إلى خورنه وه زان
وتتمتّع بظلاله ومائه العذب،
لاشك انك لن تنسى هذا المكان
ولا بدّ انك ستعود اليه
مرة أخرى

وقبل ان يفكر النبي محمد صلى اللّه عليه وسلم بنشر الاسلام في هذه المنطقة، جاء ذات مرة إلى وادي كفران على ظهر براقه. وعندما أراد ان يأخذ قسطاً من الراحة تحت ظلال خورنه وه زان الوارفة، تغلّب عليه النعاس، فنام عاماً كاملاً. وبعد ذلك صعد إلى السماء، وهناك أبدى أعجابه لهذه الجنة التي خلقها اللّه على الأرض. وطلب اليه اللّه أن يعامل الناس هناك برفق

ومودة، وإلاً فإنَّهم قوم صعب المراس، لا يمكن التغلب عليهم بقوة السيف. وعندما عاد إلى مكة، بعث بابن عمه علي بن أبي طالب إلى وادي كفران.

أخذ علي سيفه المعروف بذي الفقار وطار وكان ان نزل على قمة جبل الإمام علي، الذي سُمّي بأسمه منذ ذلك اليوم. وكان هذا الجبل يُسمَى قبل ذلك بجبل الملح، وذلك لوجود نبع في سفحه يتدفق منه ماء مالح، وهذا النبع موجود حتى الآن، اذ ان هذا الملح الذي نتناوله مع طعامنا من هناك. واما في المكان الذي وقف فيه علي فتمَ تشييد مزار، مازال قائماً حتى الآن، يزوره الناس في الأعياد والمناسبات الدينية. وبقفزة واحدة تمكّن الامام علي عليه السلام ان يبلغ قمة جبل قاجر، ومن هناك راح يتأمل وادي الفردوس. ولما كان علي بطبعه شاعراً، لذا أطال وقوفه كي يتمتّع بجمال الطبيعة ثم تمدد على العشب الندي كي يزيل من جسده بقايا حرارة الصحراء التي كانت لاتزال عالقة به. وكان خلال هبوطه هناك قد لمحه رجل مسن بلحية بيضاء، فما كان من هذا الشيخ الذي داهمه الخوف من هذا الانسان الذي هبط من السماء، إلاّ أن ألقى بنفسه أمامه على الأرض وراح يتكلم بلغة غير مفهومة، وهكذا أستمع علي لأول مرة في حياته الى لغة غير العربية. وحاول الشيخ ان يُقبِّل يد الامام علي، بيد ان هذا سحب يده بأدب، قائلاً بأنه مثل أبيه، فلا يجوز ذلك. ويبدو ان الشيخ لم يفهم كلام علي فقال: «عربي؟». أجاب علي بأن النبي محمد رسول اللّه قد كلفه بإدخالهم الى الدين الجديد، الاسلام... وعرف علي بأن الشيخ لم يفهم كلامه. بيد ان هذا تناول يد الامام وأخذه الى قرية قريبة تقع وراء مرتفع من الصخور. كانت القرية تحتوي على خمسة بيوت ومعبد تشتعل فيه النار. فهم علي من اشارات الرجل بأنه كاهن هذا المعبد. أجلس الرجل علياً على المنبر وقدّم له الخبز واللبن، ثم وقف على مكان عال وراح ينادي بصوت جهوري. وما ان انتهى علي من تناول طعامه إلاّ وتدفّق عدد كبير من النساء والرجال والأطفال الى المعبد كي يبايعوه. وتألّم علي لعلائم الفقر المدقع المتغلب عليهم فقال: «لو كان الفقر رجلاً لضربته بسيفي». ثم بدأت الدموع تسيل من عينيه بلا انقطاع. وعندما بلغت دموعه أرض المعبد، انشق منها نبع راح يتدفق منه الماء العذب. وبعد ان مسح دموعه، راح يخطب فيهم:

«أيها الناس، إنّكم لأجمل مَن رأيتهم في حياتي، واللّه لو لم يأمرني النبي بالعودة، لبقيت بينكم إلى الأبد، ولم أترك هذا المكان الجميل».

إذ ذاك طلب الكاهن إلى رجل مهيب، كان يقف ضمن الحشد، ان يتقدم. انحنى الرجل أمام علي وراح يتكلم معه باللغة العربية قائلاً بأنَّه الشخص الوحيد الذي يتكلم هذه اللغة في وادي كفران، وانه تعلّمها بحكم اشتغاله بالتجارة مع العرب. ثم بدأ بترجمة الحوار الدائر بين علي والكاهن من جهة وبين الأهالي وعلي من جهة أخرى. ولمّا كان الكاهن قاب قوسين أو أدنى من الموت، لذا كلّف التاجر بالقيام بمهمة نشر الدين الجديد في وادي كفران، بعد ان يستوعب مبادئها على

يد الإمام علي. وبعد ان هداه علي للدين الجديد واتفقا على لقاء قريب، اختفى مثل شبح. كان وادي كفران الجبلي حتى ذلك الحين، لم يطأه انسان، كان عبارة عن غابة كثيفة تعيش فيها أنواع الحيوانات.

توغّل الصبي ولي بكل خياله في ذلك الماضي الغابر، فلم يستيقظ إلا بعد ان انقطع جوامير عن الحديث الذي أعقبه صمت عميق، وإذ هزَّ الآخرون رؤوسهم للقصة التي سبق ان سمعوها منه لعشرات المرات، قفزت أسئلة عديدة الى رأسه:

«جدّو جوامير، اذا كان أبن عم النبي قد جاء الى هنا بنفسه، فلماذا لايوجد عندنا مسجد كما هو عليه في قرية زوراب؟».

ويجيب الشايب بلهجة واثقة بأنّهم لا يحتاجون إلى المسجد، ذلك لأن اللّه يعرفهم معرفة تامة، وبأنَّ الذين يحتاجون المسجد والعبادة المستمرة، إنّما هم أصلاً مذنبون.

«لماذا يموت الناس يا جدّو؟».

ويجيب جوامير فوراً بأنَّ ألله هو الذات الوحيدة التي تبقى خالدة إلى الأبد.

«والنجوم؟ هل تموت هي أيضاً؟».

وتنطبع ابتسامة طفولية على وجه الشايب الذي لا يستعصي عليه أي سؤال: «النجوم هي أرواح هائمة لبشر سبق ان ماتوا».

«وهل يمكننا اللقاء بالأرواح؟».

«كلا. هذا غير ممكن للبشر، ولكننا سنلتقي بهم بعد الموت».

اراد ولي ان يثبت له بأنّه يلتقي بانتظام بروح والدته، ولكنه تذكّر نصيحتها التي منعته من التطرُّق الى سر لقائهما.

«وهل سنلتقي بموتانا بعد الموت».

«طبعاً، يا ولي، سنلتقي بأرواحهم».

كان ولي قد التقى في الليلة الفائتة بوالدته. كانت قد ارتدت كعادتها ملابس بيضاء ناصعة، تتكلم معه من وراء السياج قالت له، ربما هذه هي المرة الأخيرة التي تتراءى له فيها، وقبل ان تختفي نصحته بأن يعتني بالفتاة البصيرة التي تسكن في البيت المجاور لمسكن جوامير، عليه ان يمسد رأسها بكفيه إلى ان تستعيد بصرها. واذا استعادت الفتاة بصرها، تكون هذه هي أخر معجزة يقوم بها، وعليه عدم القيام بأي محاولة أخرى، كما وأكّدت عليه ان يقوم بذلك سراً.

بعد الانتهاء من تناول الفطور، سأل الشايب الصبي ما اذا بودّه مصاحبته إلى الطاحونة. والحقيقة كان الصبي مشتاقاً جداً لمصاحبته إلى هناك، بيد انه سبق ان قد خطّط للّقاء بالفتاة

البصيرة التي لم يرها بعد، فاعتذر منه قائلاً بأنه يريد ان يبقى في البيت وينشغل بالرسم.

زوجة الشايب العجوزة هي الوحيدة التي بقيت في البيت، حيث انشغلت بخض القربة المليئة باللبن والمتدلية من وسط ثلاث حمالات، قالت له فرحة أنها ستجازيه لبقائه في البيت إلى جانبها بحفنة من الزبدة الطرية وبيضة مسلوقة على نار البعرور. عرف ولي بأنَّ الفتاة البصيرة، هي من أقاربهم. وحين سأل العجوز ما اذا كان بإمكانه اللعب مع الفتاة البصيرة، قالت له انها من بنات العمومة، وهي يتيمة ومنعزلة وانها ستكون سعيدة جداً اذا لعب معها، ثم نادت عليها من وراء الجدار: «نسرين، تعالي، ابن عمك ولي يريد ان يلعب معك».

جلست نسرين في مكانها وهي ممسكة بيد ولي ومحدِّقة إلى الفراغ بعينين عميقتين سوداوين دون أن يبدو عليها أي أثر للعمى. هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ولي في حياته انساناً أعمى. حين اتخذت مكانها، أراد ولي ان يسحب يده، ولكنها ظلَّت ممسكة بيده بقوة، طالبة منه ان يتركها هنيهة في يدها، ولما رضخ لها ولي، مرتاحاً لدفء يدها وضعت باطن كفها الآخر على ظهر يده قائلة:

«ما أرق هذه اليد، دعني أراك بأناملي يا ولي».

استسلم ولي للخدر المنبعث من يدها، فلم يقل شيئاً، بل ظلَّ يحدِّق كالمأخوذ إلى وجهها الجميل. أراد ان يقول لها بأنه لم يسبق له ان رأى وجهاً بمثل هذا الجمال، ولكن شيئاً ما في داخله منعه الكلام. ظلَّت ممسكة بيده بيسراها، وأمَّا بيمناها، فراحت تتفحص جبهته وحاجبيه وانفه ووجنتيه، ثم أحاطت رأسه بكلتا كفيها: «الآن تعرفت على ملامح وجهك، كنت طيلة فترة وجودك في بيت العم جوامير، أتصور وجهك من خلال صوتك فقط».

سأل بصوت شارد: «منذ متى وأنت لا ترين يا نسرين».

ابتسمت بحزن: «منذ ان جئت الى الدنيا».

الأسئلة التي تدور في رأسه كثيرة، بيد ان شيئاً ما أشبه بسحابة بيضاء مرَّت من أمام عينيه بسرعة، أطلَّ من خلالها وجه أمِّه التي أكدت له ان يسرع في عمله ويبقيه سراً. وسرعان ما وضع كفيه على رأس الفتاة التي لا تتجاوز الرابعة عشرة. اعتقدت هذه ان الصبي إنَّما يريد ان يلعب معها، وكانت قد قرَّرت مسبقاً ان تكون رفيقة معه وتستغل الفرصة السانحة لتلبية نداء عواطفها الجيَّاشة المتعطشة لأقل لمسة من الجنس الآخر، حتى ولو كان هذا صبياً لم يبلغ سن الرشد. ولذلك مدَّت يديها الى كفَّيه بغية امرارهما، بصورة عفوية على نهديها الصغيرين، ولكن ولي، الذي لم يفهم قصدها بالطبع، طلب اليها ان تستكين للهدوء ولا تتحرك، وأكد لها بأنَّها سوف تراه بعد قليل بأم عينيها، وان النور سوف يعود الى عينيها، ولكن عليها ان لا تفضي لأحد بأنه هو الذي عالجها.

استسلمت الفتاة للخدر المنبعث من راحتي يديه الدافئتين، فلم تستطع الكلام. العجوز في الخارج لاتزال تخض القربة، قالت كما لو انها تتكلم مع نفسها: «بعد قليل سأنتهي من الخض، فأجلب لكما الخبز الحار والزبد والبيض المسلوق في نار البعرور». مرًت فترة صمت، صمت غريب، تخرقه أصوات ونداءات غير مسموعة صادرة من مكان بعيد مجهول، بعيد، بُعد النجوم والسماوات التي فوقها. كانت الفتاة تحلم أحياناً بفتى جميل شبه عار يزورها في فراشها، يمرِّر أنامله على حلمتيها، يقبِّل بطنها وحين يحاول مضاجعتها، تستيقظ من نومها، فتتحسَّر وهي تمرر يدها بصورة لا أرادية على بطنها فزغب عانتها. مرّت بها هنيهة اعتقدت خلالها أنها في حلم، وكان ليديه الدافئتين الراقدتين فوق رأسها، نفس مفعول يد الفتى المجهول.

بدأت الراحتان تتحركان من تلقاء نفسيهما، وتمران برقة على أجزاء وجهها فعنقها ثم انحدرتا كي تمرا بنهديها وبطنها الى ان استقرتا فوق فخذيها. إذ ذاك مرًت رعشة مخدًرة عبر جسمها هزت كل كيانها، رعشة لم تعهد بها من قبل، رعشة كانت تنتظرها دوماً ولاسيما في الحلم. اعتقدت انها ستموت، ولكنها حين تنفست ملء رئتيها عرفت انها أصبحت امرأة. لم يسبق ان قال لها ذلك أحد، ولكنها عرفته من تلقاء نفسها. استمرت الرعشة، وخشية من ان تتوقف، تشبثت، بصورة عفوية بكلتا يديها بولي، الذي سأل بصوت دافئ: «هل ترينني يا نسرين؟».

ظلًت ممسكة به بقوة الى ان بدأت الرعشة تخف رويداً رويداً وتنتقل عبر أعصابها الى حيث التلاشي. وفجأة تحول الظلام اللانهائي الذي ولدت معه الى شيء آخر، عرفت فيما بعد انه النور، ثم أطلّ من ثنايا النور شبح غير واضح المعالم، بدأ يتوضح أكثر فأكثر. وكان ان رأت أوًل وجه في حياتها، وجه ارتبط بدفء يدين رقيقتين وبأول رعشة أضرمت النيران في أحشائها. وظلًت تحدًق إلى عينيه.

كانت فيما مضى قد سمعت بالألوان خلال الأحاديث العابرة بين أفراد الأهل، ولكن لم يكن بمقدورها تصور ماهية اللون. كانت تعرف ان السماء زرقاء وان لون الشمس اصفر مثل لون الذهب وان شعرها اسود كلون الظلام. وكانت تعرف ان لون وجهها هو مثل لون القمح وان خبز الشعير الذي يأكلونه يومياً أسمر يميل الى السواد. والحليب أبيض مثل الثلج. ارادت ان تعرف ذات مرة لون الماء فقيل لها بأنه أبيض أو أزرق ولكن العم جوامير، الذي كانوا يرجعون اليه في القضايا المستعصية، قال ان الماء لا لون له. وظلًت حائرة في أمر شيء لا لون له.

سألها مرة أخرى وهو يحدًق الى عينيها اللتين تحوًلتا باتجاه عينيه بعد ان كانتا تحدًقان إلى الفراغ:

«هل ترينني يا نسرين؟».

ابتسمت وأجابت بصوت حالم خافت:

«لا أدري ما اذا كنت أحلم يا ولي أم انها الحقيقة؟».

«إنها الحقيقية يا نسرين، ولكن دعيها الآن سراً. غداً، حين تستيقظين من النوم، أعلنيها للأهل. حذار ان تفشي بالسر وإلاّ ستفقدين بصرك مرة أخرى».

«لا تخف يا ولي، لن أذكر أسمك أبداً، ولكن ألا تريد ان تعالج الآخرين؟ هناك من يحتاج إلى مساعدتك».

«هذا الشيء لن يتكرر بعد يا نسرين، إنّني الآن لا أختلف عن أي انسان اعتيادي أخر».

كان والد نسرين الذي توفي منذ أعوام، هو أحد أبناء عمومة الشايب جوامير، وأمًا والدتها فتنتمي إلى عشيرة زمنگەنه. بعد الوفاة خيّرها جوامير بين العودة الى عشيرتها والبقاء هنا، ولكنها فضّلت العيش حيث أهل زوجها. وكان ان أهداها جوامير سبعة رؤوس غنم وبقرة على أن يزرع لها سنوياً شكارة، بحيث يكفيها المحصول لأكثر من سنة، كما خصّص لها قطعة أرض صغيرة قرب النبع لزراعة البصل والمخضرات الأخرى. وبيتها عبارة عن كوخ وزريبة يعزلهما جدار واطئ، ولكن ضمن الحوش الكبير العائد لجوامير. ولنسرين ثلاثة أخوان آخرين، من زوجة أبيها الأولى، تعيش معهم في قرية أخرى، يزورونهم مرة أو مرتين في السنة.

سُرّت العجوز للعلاقة الوطيدة التي بدأت بسرعة بين الأثنين، اذ انهم كان يهمهم قبل كل شيء راحة ولي وعدم شعوره بالملل.

استغرب ولي من معرفة نسرين لأسماء كل الألوان، وراح يشك في مدى صحة ادعائها بالعمى، بيد ان نسرين شرحت له بابتسامتها التي لم تعد حزينة بعد، بأنّها تعرف الأسماء مقرونة بالمواد فقط، وذلك لكثرة ما سمعته من الآخرين.

«حسناً، ما هو اللون الأحمر؟».

قالت وهي منهكمة بتقشير البيضة الثانية:

«اللون الأحمر هو لون الدم والشفق».

أجال ولي عينيه في أرجاء الكوخ، فوقعتا على لحاف أحمر مصفوف فوق دكة الافرشة: «حسناً، أريني اللون الأحمر».

«لا أستطيع تشخيصه يا ولي، انني يجب ان أرى الدم أو الشفق».

«انظري الى تلك الأفرشة الملونة وحاولي ان تعثري عليه».

الألوان كثيرة ومتداخلة، اشارت بسبابتها الى لون بنفسجي داكن.

«كلا، هذا اللون بنفسجي. الأحمر هو هذا».

لم تسمع باللون البنفسجي ولم تكن تعرف بأن هناك شيئاً أحمر غير الدم والشفق.

اعتقد رستم انه سينسجم مع زوجته الجديدة مع مرور الزمن ويتخلص من هذا الفراغ القاتل الذي بدأ مع وفاة زوجته الأولى، وتضاعف مع انتقال ابنه ولي إلى أقصى شمال وادي كفران الذي مازال يعيش في فترة ما قبل «أطول عام». وحين زاره هناك آخر مرة حسده على حياته الهادئة والبسيطة التي لا تعرف الملل. وكم تمنَّى أن يبقى هناك، ويعيش إلى الأبد تحت ظلال خورنه وه زان وعلى ضفاف آوه سبي كما كان في صباه، ولكنه تأكد بأنَّ تلك الراحة قد ذهبت الى الأبد، ومن المستحيل ان تعود، ذلك ان حياة المدينة قد أفسدت عليه كل شيء.

ذات مرة سأل قادر وعباس ما اذا كانا يحسّان بمثل هذا الفراغ الذي يسيطر على حياته، فلم يفهما ما يعنيه، ولكنهما أكَّد له بأنهما اذا أحسا بالملل فإنَّهما سيقومان إمَّا بوضع مقلب لأحدهم أو يضعان خطة دقيقة للسطو على أحد البيوت في المدينة. واذا استطاعا تدبير كمية من المال سافرا إلى كركوك لقضاء بعض الوقت هناك.

مرَّت ثلاث سنوات على حياته مع زوجته بصورة رتيبة وبطيئة. كانا غريبين عن بعضهما لا يجمعهما أي رابط. هو يستيقظ مبكراً، يعد الفطور ثم ينبهها لتناوله معه. كانت تحتاج إلى وقت غير قصير لترك الفراش والاغتسال. وفي معظم الأحيان يضطر لتناول فطوره وحده كي يستطيع اللحاق بالدوام. ولما كانت لا تعرف الطبخ، لذلك فضَّل البقاء في المدرسة على ان يقضي فترة استراحة الظهر في البيت، اذ اتفق مع زميله المعلم اليهودي اسحاق افندي، بأن تقوم زوجة هذا بالطبخ الذي تتفنَّن فيه، فيجلب لهما فراش المدرسة الطعام في سفرطاس بثلاثة طوابق، الطابق الأول يحتوي على الرز والثاني على مرق الفاصوليا اليابسة أو البامية أو الباذنجان والطابق الثالث يحتوي على كبة حلب أو قيمة مقلية مع البصل والثوم مع عدة شرائح خبز. وحين يقوم رستم بتفكيك الطوابق، حيث تنبعث الرائحة الشهية، يقول: «والله يا اسحاق افندي هذه ليست زوجة، بل نعمة نازله من السماء وامَّا زوجتي فنقمة خارجة من تحت الأرض». وعندما كانا ينتهيان من الأكل يدفعان الفضلات للفراش الذي انتهى من إعداد الشاي لهما.

كان يعود إلى البيت بعد ساعة من انتهاء الدوام الذي يستمر إلى الرابعة عدا يومي الاثنين والخميس اللذين يستمر الدوام فيهما الى الثانية عشرة والنصف، فيتناولان طعام الغداء في البيت، فتطبخ له زوجته الأكلة الوحيدة التي تتقنها، وهي إما تشريب لحم الغنم أو الدجاج.

وامَّا الأماسي فكان يقضيها إمَّا في نادي الموظفين أو عند صديقه اسحاق افندي. وبعد ان علَّم

زوجته كيفية إعداد المزة التي تتكون عادة من اللبلبي والفول واللبن بالثوم واللحم المشوي، تمكّن من دعوة اسحاق لزيارته في البيت مع زوجته، ثم شاركهم في مجلسهم شكري افندي الذي كان لا يرتاح من جلسات النادي.

كان الجيل القديم في السنجق، والذي عرف بالدهاء والطيبة والعلاقات الحميمة أمثال عاصم بك وكريبيت أفندي ومراد شاووش قد توفوا.

وقبل ان تبلغ الساعة عشرة مساء ينهون جلساتهم وهم في منتهى النشوة. ويذهب رستم، الذي يبعث فيه الخمر الطاقة الى فراشه، فيستلقي الى الجانب زوجته الناعسة أو الغارقة في النوم. وبعد ان يضاجعها وهي شبه نائمة، يستسلم للنوم العميق.

ذات يوم سافرا، بإلحاح منها الى كركوك لزيارة طبيب اخصائي لمعرفة سبب عدم الانجاب، فقال له الطبيب، انه حسن حظه، وإلاّ فإن الطفل سيكون اما كسيحاً أو أعمى أو مشوهاً. وعندما مرًا بمستشفى المجيدية تذكر مادلين، فظلّ لعدة أيام كئيباً صامتاً، اعتقدت زوجته ان سبب ذلك انما كلام الطبيب الذي في الحقيقة نسيه بعد تركه اياه.

بعد انقضاء ثلاث سنوات وعدة أشهر على زواجه، فارقت زوجته الحياة بالسكتة القلبية. كان ذلك في نهاية مايس من عام ١٩٣٠ وكانت العطلة الصيفية قد بدأت منذ عدة أيام. لم يتوقع انها ستغادره بهذه الطريقة المفاجئة التي تركت في نفسه حزناً عميقاً، ولاسيما لأنّه اعتاد على الحياة الرتيبة التي قضاها معها. كان لا يحبها مثلما كان يحب مادلين ولا ينزعج منها حين يكون إلى جانبها، ولا كان يحن اليها حين تزور أهلها لعدة أسابيع، ولكنه كان يرتاح اليها ويحتاجها لسبب لا يعرفه. ورغم ذلك فإنّها لم تسد الفراغ الذي كان يعاني منه، وحين ماتت اتسعت فجوة الفراغ بعض الشيء بيد انها سرعان ما زالت، فعاد الفراغ الى وضعه الطبيعي، لكن بمسحة كآبة، فقرّر ان يذهب الى ابنه ولي ويقضي هناك جانباً كبيراً من عطلته الصيفية.

كان جوامير قد توفي، وأبى أولاده إلاّ ان يستلموا حصتهم من الارث ويخرجوا من البيت، فلم يبق سوى الابن الأكبر. وأما ولي فكان قد تزوج من نسرين وقرر ان يبقى في الدار نفسها. وبعد ان تسلّم الطاحونة المائية من صاحبها العجوز، تحسنت أموره المالية. حاول والده اقناعه للعودة إلى وادي كفران أو إلى المدينة للاشتغال بالتجارة، ذلك ان الخطر على حياته قد زال نهائياً، بيد أنه رفض رفضاً قاطعاً ترك الحياة هناك، والتي قال عنها بأنه لا يبدلها حتى بالجنة.

بعد قضاء شهر عند ابنه ولي، الذي ترك الرسم نهائياً ونسى القراءة والكتابة، بقي رستم في طريق عودته عند والده عدة أيام. كان كل شيء على سابق عهده، سوى ان الأطفال قد كبروا، وبلغ الصبيان سن الرشد. وكان كريم يستقبل ضابط التجنيد بكل حفاوة ويغدق عليهم الهدايا ويقيم

لهم الولائم السخية. وكانت النتيجة ان يعودوا الى دوائرهم دون ان يأخذوا معهم مكلفاً واحداً، فالمكلفون للخدمة يسجلون إمًا كمتوفين أو معيلين لعوائل لا رجال لها، أو معوقين إلى درجة لا يصلحون للعمل حتى كجندي شغل.

حاول رستم اقناع والده بفتح مدرسة، بيد ان كريم رفض ذلك رفضاً قاطعاً، بدليل انها ستكون موقعاً دائماً لقدم الحكومة التي لا شك ستبدأ ببسط هيمنتها على المنطقة كما هو الأمر عليه بالنسبة الى وادي كفران السهل، حيث تحوًل أخوه نريمان إلى رجل حكومي لا يختلف عن أي موظف آخر، فهو لا يسلم المكلفين للخدمة الى المسؤولين بنفسه حسب، وانما يلزم الفلاحين للتعهد بعدم تقديم أي معلومات خاطئة سواء له أم لضباط التجنيد. وقالت فاطمة ان ظروف المنطقة التي تشبه راحة اليد هي التي تفرض عليه ذلك، حيث لا يمكن إخفاء أي شيء، ثم راحت تتحسر على الأيام الماضية وتؤكد بأن الحياة في وادي كفران سواء بسهله أم جبله قد تغيًرت نهائياً بعد وفاة شيخو الذي في عهده كان الخير والبركة يعمان كل شيء.

كان في نيًة رستم ان يبقى فترة أطول عند والده، ولكنه لم يتحمًل الوضع، فعاد الى بيته في المدينة، حيث أخلد الى الراحة.

توقًف عن الشرب اكراماً لروح زوجته، فراح يدخن كثيراً ويقرأ بعض الكتب التي استعارها من اسحاق افندي الذي كان يملك مكتبة صغيرة تحتوي على مختلف الكتب الأدبية والسياسية. ورغم اقتراح اسحاق عليه بضرورة قراءة بعض الكتب التي تهتم بالسياسة الانكليزية ووضع الشرق الأوسط وموقف الالمان، فإنًه نحى كلها جانباً واختار مجموعة من دواوين عمر الخيام بمختلف اللغات وهو يقول: «يا اسحاق افندي كل الكوارث تأتي من السياسة، والمسألة كلها ضراط في ضراط، اقرأ عمر الخيام، ان شعره يسري مثل الخمر في الشرايين، وعن طريقه تفهم معنى الحياة».

كان اسحاق افندي يتكلم قليلاً، ولكن اذا كان الكلام يتعلق بالسياسة فإنً شهيته تنفتح، كما كان يقول شكري افندي الذي يكره السياسة هو الآخر، فقال بلهجة ودية:

«إنًك يا رستم افندي مدير مدرسة، تتخرج على يديك أجيال من المتعلمين، إنًك تساهم في تبديد ظلام الجهل بنشر المعرفة، ولذلك عليك ان تتسلح بالعلم وتقرأ كل ما يقع في يدك من الكتب. هناك أحداث مهمة في العالم. هناك امبريالية عالمية تستغل الشعوب ان الروس قد اصبحوا الآن قوة كبرى تخيف هؤلاء».

قاطعة رستم بإبتسامة ساخرة:

«اسحاق افندي لا تخشنا في ايراد ومصرف، لقد سبق ان مررت بهذه المعمعة في أول سنة من عودتي إلى التعليم في العهد الجديد. تصور، لقد اتهمني مدير المعارف الانكليزي آنذاك

بالبلشفية، لأنني كنت أرفض الرضوخ لنصائح المرحوم عمي الشيخ شيخو للعمل في سلك الادارة، ولأنني اقترحت فكرة جعل التعليم إلزامياً في مدينتنا. ولا تنسَ يا اسحاق افندي بأنّ هناك تعليمات سرية تمنعنا من الحديث في شؤون السياسة، ثق انها كلها ضراط في ضراط».

علّق اسحاق افندي بشيء من الوجل:

«تعليمات سريّة؟».

«نعم، تعليمات سريّة يا اسحاق افندي».

بعد هنيهة صمت اقترب منه رستم وقال بصوت خافت:

«تصوّر، هناك تعليمات تؤكّد على ضرورة شرح المواد للطلاب فقط بالعربية دون استعمال اللغة المحلية كالكردية أو التركمانية».

دمدم اسحاق افندي كما لو انه يتحدّث مع نفسه:

«يجب ان نكون حذرين اذن».

رغم محاولات صديقيه اسحاق وشكري لإخراجه من عزلته بدعوته الى جلسات الشرب، إلاّ أنّه ظلّ يعتذر مؤكداً انه لا يستطيع مشاركتهم في ذلك إلاّ بعد مرور الذكرى الأربعينية لوفاة زوجته.

كان في أيام عزلته التي صادفت شهري تموز وآب ينشغل بالقراءة والصلاة والتدخين. وعندما كانت الشمس تميل الى غروب يرتدي بدلته، ويترك البيت لممارسة رياضته المفضلة، المشي، التي تستغرق ما لا يقل عن ساعتين، كان خط سيره يبدأ من مقر القائمقامية باتجاه المنارة، وقبل ان يصل الى وادي النهر، يعود كي يلتف حول البلدة من جهة الشرق ثم يمر ببستان المرحوم عاصم بك وبيته الموازيين للجدول المحاذي للطريق وعندما يصل الى خان جهانكير سابقاً، ينعطف الى السوق فيتوجه الى بيته.

كان خط سيره لا يتغير، وكانت كل خطوة فيه تشده بألف خيط من الذكريات التي تتحرك في دائرة تمتد من وادي كفران الى الموصل. كان احياناً، بلا ارادة منه، يحرك يديه باشارات معينة، يضحك، يتجهم، يتكلم بصوت عال. كانت الصور تتحرك أمام عينيه واضحة بكل تفاصيلها: الجد زوراب، سنجان، قادر ورستم، ميرزا، هابو، مادلين، رمزي، صائب، حياته في كركوك ومن ثم في الموصل. وراح يحن بشكل غريب الى صديقيه رمزي وصائب اللذين انقطعت اخبارهما. وفي الليل، عندما يستسلم للنوم، يجتاحه سيل الأحلام، وعندما يستيقظ، لا يريد مغادرة الفراش. يحاول ان يغمض عينيه كي يستعيد معالم الحلم. يحلم دوماً بدار جميلة بنوافذ مطلة على حديقة، أكبر بكثير من بيته الحالي. ولمّا ظلّ الحلم يتكرر بشكل غريب، سأل إمام المسجد ما اذا كان بامكانه تفسير حلمه، فقال له الإمام بأنه سيتزوج ويكون سعيداً في حياته معها.

قبل ذهابه الى قرية زوراب بأيام لإجراء الذكرى الأربعينية لوفاة زوجته، وعند مروره كعادته ببيت عاصم بك، التقى بأرملته التي كانت واقفة أمام الباب، واسته، راجية له طول العمر والصبر والسلوان. وقبل ان ينصرف انفتح الباب لتطل من ورائه ابنة عاصم بك التي كانت قد بلغت السابعة عشرة من عمرها. كان لم يرها منذ أكثر من ثلاث سنوات. لحظات سريعة جداً مرَّت مثل الطيف. ابتسمت بخجل وتورَّدت وجنتاها وهي تحدِّق الى عينيه اللتين بقيتا بدورهما مشدودتين إلى عينيها. وخفق قلبه بصورة غير طبيعية، وهدر شيء مجهول ليصب مثل شلال في فراغ أعماقه. واختفيتا وراء الباب بسرعة كما لو انهما تريدان تفادي رؤية هذا اللقاء المفاجئ من قبل أي عابر سبيل، ولكنهما قبل ان تختفيا وراء الباب، استطاع ان يبلغهما بسرعة بأنَّه يمر يومياً وفي مثل هذا الوقت من أمام بابهم.

٣٠

منذ اليوم الذي سلَّم فيه نريمان، الرئيس الجديد لعشيرة وادي كفران، عصابة أمين نادر التي تورّطت بتكليف من حمه غريب في حادث مقتل الشرطي عند قطع الطريق على سيارة مدير الشرطة العام قرب الجسر العثماني، الى السلطات، تغيَّرت الأوضاع كلياً داخل العشيرة.

حمه غريب سحب نفسه تدريجياً من مجلس نريمان دون أن يعلن مقاطعته بصورة رسمية. وجعل من مجلسه هو مركزاً ثانياً مدللاً ضيوفه بعشاء يومي وشاي، مكتفياً بالصمت تجاه عملية تسليم جماعته إلى السلطات. كما وراح يزور السلطات في مركز القضاء وكركوك بصورة مستقلة ودون استشارة نريمان الذي علم بأنَّ القائمقام نفسه يقوم بتشجيع حمه غريب. ولما كان هذا يقوم منذ سنوات بالاستثمار المباشر للأراضي المحيطة لقريته، لذا سهَّل له مدير الطابو بإشارة من القائمقام عملية نقل المقاطعة باسمه، وبذلك أصبح لا يقل أهمية أمام السلطات، عن نريمان إلا بالدرجة العشائرية. وكان غرض القائمقام من إبراز حمه غريب هو اعتقاده بمد سيطرته على وادي كفران الجبل، وازاحة كريم الذي مازال يعزل المنطقة كسابق عهده.

أيَّدت أغلبية أبناء العشيرة إجراء نريمان بتسليم المتهمين الذين صدر بحق كل واحد منهم قرار السجن بالأشغال الشاقة لمدة عشرين عاماً. في حين رأته أقلية ضئيلة، مخالفة لا تنسجم مع التقاليد. وان الشيخ زوراب أو شيخو لو كانا على قيد الحياة لما سمحا لنفسهما بالقيام بمثل هذا العمل. وأمَّا الكفرانيون الجبليون فلم يسمعوا به اصلاً، اذ احتفظ كريم والجماعة المحيطة به بالخبر لأنفسهم، مؤيِّدين فكرة معاقبة حمه غريب ايضاً بدليل انه هو المحرض الأساسي في الجريمة.

ذات يوم اجتمع نريمان بكل من حمه غريب وقادر وعباس وأكَّد لهم بأنَّهم يستطيعون القيام بأي عمل من أجل الحصول على المال الحلال، ولكنه حذَّرهم من اللجوء الى اللصوصية أو التحريض عليها، وقال ان مصيرهم سيكون أسوأ من مصير أمين نادر، ذلك ان سمعة العشيرة أهم عنده من أي شيء آخر. وسأله حمه غريب ما اذا كان لعب البوكر ومعاقرة الخمر ايضاً محرمان مثل اللصوصية، أجاب نريمان إنَّ هذه الأعمال تدخل في باب العادات الذميمة التي يتحمَّل مسؤوليتها ونتائجها الفرد نفسه وليست العشيرة.

لم يعلق قادر وعباس على تحذيرات نريمان الشديدة ولم يوجها اليه أي سؤال، اذ عرفا ان

المقصود بالتحذير إنّما هما حسب، وليس حمه غريب الذي سبق أن نال عقابه بتسليم عصابته الى السلطات الحكومية. وحين خرجا من عنده راحا يتشاوران فيما بينهما بغية التأكُد ما اذا كان عمهما نريمان جدياً في تحذيره لهما، وما اذا كان يسلمهما فعلاً إلى السلطات فيما إذا قاما بعمل لصوصي كما فعل مع عصابة أمين نادر. قال قادر ان طبيعة نريمان تختلف اختلافاً كلياً عن طبيعة كل من الجد زوراب والعم شيخو وبأنه قاس مثل جدّهم الأكبر ناله كوركه وانه اذا هدّد فإنّه لا يتوانى عن تنفيذ تهديده، ولما ظلّ عباس يخالفه في رأيه، اتفقا ان يحتكما الى مردان الذي لا يخطئ في تقدير مثل هذا الأمور.

كان مردان يعد النار لشاي العشاء في المضيف المخصّص للفلاحين حين جاءه قادر وعباس. عرف من ملامح وجهيهما وخطواتهما انهما في حالة غير مرضية، فلم يستطع إخفاء ابتسامته التي تأتيه عادة حين يرى قادر بملامح متجهمة لا تليق بوجهه الطفولي المرح. اتخذا مكانيهما على اللباد المفروش أمام المنقلة دون ان يتفوها بكلمة، وراحوا يتبادلون النظرات. قال مردان: «اذا كنتما جئتما لشرب الشاي عندي، فإنّه يقدّم بعد تناول طعام العشاء». أجاب قادر بلهجة لا تخلو من النرفزة: «نعرف ذلك». ثم قال عباس انهما لم يأتيا كي يشربا عنده الشاي، بل جاءا لأمر مهم يريدان استشارته به، وانهم يجب ان ينتهوا من هذا الموضوع قبل ان تبدأ الحركة في المضيف.

بعد ان استمع مردان بامعان إلى كلام عباس، بدأت ملامحه تكتسي بالجد، حكّ رأسه وقال ان عهد شيخو بك قد ولّى إلى الأبد، وانهما اذا أرادا ممارسة اللصوصية، فعليهما ترك العشيرة والقيام بذلك في مكان آخر غير قريب من هنا، ثمّ نصحهما ان ينشغلا بمهنة أخرى، هي أضمن وأسهل وتدر عليهما ربحاً كثيراً دون ان يجلبا عليهما بذلك غضب عمّهما نريمان الذي لا يعرف التساهل، إلاّ وهي مهنة التهريب. ثم اقترح عليهما ان يتصلا بالسيد نعيم كي يدلهما على أقاربه العائشين في أطراف حويجة، والذين يشتغلون بدورهم في تهريب التبغ والأسلحة. ورأى مردان انه من المستحسن ان يذهب هو معهما لمفاتحته بالموضوع، خشية ان لا يثق بهما.

كانت خيمة السيد نعيم لاتزال ملتقى ليس لزبائن الطاحونة حسب، بل لفلاحي القرية أيضاً. وبعد ان جلب زوجته وأبنه الذي لم يتجاوز السابعة، ترك السكن في الخيمة وانتقل الى الكوخ الذي بناه له أهل القرية لصق الطاحونة، وكان يعيش من مساعداتهم ومن الهدايا التي يتلقاها مقابل الأدعية التي يكتبها للمرضى والعاقرات. وكانت الهدية تتضاعف عندما يُشفى المريض وتحبل العاقر التي تقدّم الهدية مرتين، مرة عندما تحبل وأخرى عندما تنجب. وحتى في الحالات التي لا تتحقق فيها أمنية الشخص المعني، فإنّه كان لا يقتر عليه، وذلك أملاً منه في شفاء آجل.

كانت العاقر التي تأتي عادة مع زوجها، لا تأتي إلاّ بعد ان كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً بقدرة

السيد ومعجزته التي يستمدها من جدّه الرسول محمد (صلى اللّه عليع وسلم). وكان هو الآخر يسألها ما اذا كانت تؤمن إيماناً حقيقياً بقدرته، وإلاً فإنّ أقل شك يؤدّي الى فشل مجمل العملية. وكان على الزوج ان يؤمن هو الآخر ايماناً مطلقاً بتلك القدرة الربانية. والحقيقة ان طالب الشفاء كان لا يأتي ان لم يكن ايمانه مطلقاً. وكانت شهرته في المنطقة لا غبار عليها، حتى انها كانت قد تجاوزت شهرة سلفه السيد جواد. وهو بعد ان تحسّنت حالته المالية، كان يعتني بهندامه ونظافته ويحلق وجنتيه بعناية تاركاً لحية ذقنه الخفيفة الشبيهة بهلال وشاربه المشذب بعناية بحيث تظهر شفتيه الممتلئتين الحمراوين تحت أنفه الدقيق الذي تحمل نهايته وشماً يقابل الوشم المطبوع على وجنتيه اليسرى الممتلئة. وغالباً ما كان الفلاحون المعدومون يقولون، بعد إلقاء أول نظرة عليه، بأن وجهه يقطر بنور النبي محمد (صلى اللّه عليه وسلم) وأمّا زوجته القبيحة الملتفة بعباءة سوداء خشنة من الصوف فتقول بعد ان ينتهي هو من حلق وجنتيه وتشذيب حواجبه وشاربه من الشعر الزائد: «واللّه يا سيد صدك وجهك يقطر نور، لا تراوي وجهك لكل من هب ودب. عيون الحساد تؤذي». وبعد ان تردّد أكثر من مرة: «اللهم صلّي على محمد وآل محمد». تقوم من مكانها لتعدل له وضع لفافة رأسه الخضراء، بحيث ينزل جزء من القماش على جانب من وجهه. ويقول هو باعتزاز: «لا تخافي يا حرمة، عيون الحساد فيها عود. عين الحسود لا تؤثر على حفيد النبي».

وغالباً ما كان السيد نعيم يختفي، احياناً لعدة أيام وأخرى لعدة أسابيع دون ان يدري أحد أين ذهب. وحين يسألونها تتظاهر كما لو ان امراً خارقاً هو الذي أخفاه عن الأعين. وباتت مسألة طيران السيد وتحليقه في الأجواء امراً لا يقبل الجدال، رغم ان احداً لم يره في تلك الحالة، بيد ان معجزة ركضة فوق عربات القطار باتت معروفة للجميع. وقيل انه كان يستطيع ايقاف القطار وتعطيله عن الحركة بنفخة واحدة من فمه.

ذات مرة اجتاحته حالة عصبية، وراح يرتجف من الغضب، وتحدّي كل الجالسين في خيمته بأنّه مستعد ان يريهم الجحيم ويسلط عليهم نيرانه التي هي كفيلة بحرقهم في لحظات. وكان أن تصاعدت نداءات «اللّه أكبر... اللّه أكبر...» ثم راح الفلاحون يقبّلون يده ويرجونه بعدم القيام بذلك.

كانت زوجته هي الأخرى تعتقد اعتقاداً راسخاً بمعجزاته، وقبل ان تنتقل الى بيت الزوجية، قال لها أبوها، الذي لا ينتمي الى سلالة النبي، بأنّ زوجها المقبل، أنّما هو رجل ليس ككل الرجال، بل إنّه ينتمي إلى سلالة الرسول الأعظم، وعليها ان تطيعه ولا تتدخل في شؤونه ولا تسأله عن أسراره وأسباب اختفائه وغيابه.

بعد ان تحسّن وضعه المالي نتيجة انهمار الهدايا عليه، قام بتوسيع الكوخ وذلك ببناء جناح

خاص، منعزل لسكن المرضى والعاقرات ممن يحتاجون الى علاجه ورعايته لعدة أيام وأسابيع، كما أحاط بيته بسياج طيني يحتوي على فناء وزريبة. وكان يستعمل الزريبة كمحطة للخرفان التي تقدم له من قبل المرضى. والغريب في الأمر ان هذه الخرفان كانت لا تبقى في زريبته أكثر من يومين، بل تتوارى عن الأنظار دون ان يعرف أحد عن مصيرها شيئاً.

ذات يوم، عندما كان جالساً مع الأسطة حسين علي كركوكلي ومردان، سأله الأول عن سبب عدم تكوّن قطيع لديه، علماً ان الفلاح الاعتيادي يستطيع تكوين قطيع صغير خلال ثلاث سنوات، في حين يستلم هو خلال السنة الواحدة اكثر من عشرة رؤوس. كان السؤال نفسه يدور في رأس مردان ايضاً، فعلق بأن هذا العدد يمكن ان يتضاعف في موسم الولادة. كانوا قد جلسوا وحدهم يحتسون الشاي في مضيف نريمان، الذي كان كعادته يقضي وقته خارج القرية. انطبعت ابتسامة ساخرة على وجه السيد ثم أغمض عينيه مخفياً وجهه بكفيه كعادته عندما يريد ان يوحي للآخرين بأنّه في حالة الاتصال بعالم آخر، عالم الأرواح والجن. بقي في هذه الوضعية لفترة غير قصيرة تبادل خلالها الأسطة حسين علي ومردان نظرات مريبة.

ازاح السيد نعيم كفيه من على وجهه وفتح عينيه قائلاً:

«انها قرابين من حصة الجن، أنا حرام عليَّ التصرُّف بها».

«سبحان اللّه» قال مردان ثم تساءل ما اذا كانت الجن تأكل ايضاً مثل البشر. وراح يصف هذه المخلوقات العجيبة الشرهة التي لا تأكل سوى اللحم. «ان النعجة لا تبقى في زريبتي أكثر من ليلتين، وأحياناً تختفي الليلة الأولى».

«سبحان اللّه، سبحان اللّه»، ردَّد الأسطة حسين علي «ولكنك أنت أيضاً تحتاج اللحم يا سيد».

«كلا يا أسطة حسين، حرام عليَّ ان أمد يدي إلى ما هو ليس ملكي. القرابين هي ملك الجن، لأنها هي التي تُشفي المرضى وتمنح الأطفال للعاقرات».

وحين انصرف السيد نعيم، ظلَّ الأسطة حسين علي ومردان يحلّلان كلام السيد دون ان يقتنعا به. وعندما جاء نريمان، احتكما اليه لمعرفة رأيه في سر اختفاء الأغنام بهذه الطريقة، مؤكّدين عليه بأنّهما لا يصدقان مزاعمه، فأجابهما بأن اللّه هو الذي يرزق الناس، وأمَّا ماذا يفعل الناس بالأرزاق التي يحصلون عليها، فهذه مسألة تخصهم هم. إن الناس يجلبون له الهدايا برضاهم، وهم يصدّقون كل ما يقوله، وسواء صدقتما بكلامه أم لم تصدقاه، فأنتما لا تستطيعان تغيير أي شيء في الأمر. قال ذلك نريمان ثم انصرف. وأقسم مردان بشرفه وبشرف الشيخ البرزنجي بأنّه سيعمل المستحيل من أجل اكتشاف سر اختفاء الأغنام.

كان مردان بحكم مراقبته من برجه، وقيامه بالإشراف على الدوريات المنتظمة، يعرف حركات

الداخلين والخارجين للقرية. ولما كانت مراقبته تتركز بالدرجة الأولى على الطاحونة، تفادياً لهجمات اللصوص، فإنً بيت السيد نعيم الملاصق للطاحونة، يخضع عملياً للمراقبة. وقد سبق له ان لاحظ زيارة اعرابي له في وقت متأخَر من الليل، وتركه القرية فجراً بصورة مريبة. وكان التعرف على الاعرابي في الظلام سهلاً جداً، وذلك من بياض غطرته الذي كان يلمح بصورة ملحوظة.

ذات ليلة، بعد ان تأكًد من دخول الاعرابي بيت السيد، نصب كميناً مع كل من قادر وعباس في المكان الذي يترك فيه القرية عادة. وما ان بدأ الخيط الأبيض بالظهور في الأفق الشرقي، إلاّ وظهر الاعرابي بغطرته البيضاء اللماعة وهو يقود حماراً بحمل ثقيل وثلاثة خرفان. وظلّوا يتابعونه الى ان ابتعدوا عن القرية مسافة غير قصيرة. وبعد ان التف على تل صغير لإتخاذ الطريق المؤدي الى نهر روخانة، صرخ مردان: «قف، لا تتحرك» أجاب الرجل بصوت هادئ وهو يعد بندقيته للدفاع عن نفسه: «صديج، صديج».

قال مردان بعد ان اتخذوا مواقعهم وراء التل:

«أحنه هم صديج، لكن شوف كاكه عرب، أنت اذا يستعمل بندقية، رأسك يطير، أحنه بس يريد يعرف أنت منين جاي ووين رايح».

«والّله خوية آنه ابن عم السيد نعيم، آنه موش حرامي».

«زين كاكه عرب، روح الّله وياك».

التفت قادر وعباس باستغراب الى مردان وقالا بصوت واحد:

«هل انت تخرف يا مردان؟ ما هذا التصرف؟».

كان الظلام قد انقشع، وبدأ الشفق الوردي ينشر ألوان اواخر الخريف فوق الحقول المحروثة. وكان نهر روخانة الملتوي يلمع تحت الأضواء التي تبعثها الشمس المختفية وراء الأفق.

أجاب مردان وهو يضحك بانتصار:

«لا ليست مخرفاً، ولكن منذ متى نسمح لأنفسنا بسرقة أموال السيد نعيم؟ هل تريدان ان يسلط علينا جيوش جنه الجبارة؟».

وفي مرة أخرى التقى بالإعرابي، وعرف منه مباشرةً بأنّه يشتري الأغنام من السيد وبأنّه بحاجة الى كميات كبيرة من التبغ الذي يمكنه بيعه في منطقتهم بأسعار مغرية. وأكًد الاعرابي انه ليس ابن عم السيد نعيم وليست له اي قرابة بالسادة، بل انه مجرد تاجر يتاجر بكل شيء، وان له رغبة شديدة للوصول إلى وادي كفران الجبل لغرض المتاجرة مع أهله. ووعده مردان بأنه سيسهل له أمره عندما تحين أول فرصة لذلك. ورجاه الاعرابي ان لا ينقل الى السيد ما دار بينهما

من الحديث، لأنه لا يريد ان يخرب علاقته به. وعرف مردان من التاجر ايضاً بأنّ السيد يشتغل هو الآخر بالتجارة، حيث يشتري القمح والتبغ من زبائن الطاحونة.

ويبدو ان خلافاً ما بين السيد نعيم والاعرابي قد حصل نتيجة عدم الاتفاق على الأسعار، وكان ان اختلى في مرة أخرى بمردان وراح يفضح السيد. أكّد له الاعرابي بأنّ السيد نعيم ليس ابن عم السيد جواد، بل من أحد أقاربه البعيدين، وان ادعاءه بأنّه جاء الى هنا بتوصية من السيد جواد فكذب تعرفه كل عشيرته. وأمّا السبب الحقيقي لمجيئه هو ان العشيرة نبذته وطردته بعد ان حاول مضاجعة امرأة عاقر. ولما كان مردان بطبيعته لا يأخذ الأمور على علاتها ويشك في كل شيء، لذلك لم يأخذ كلام الاعرابي بجد.

في الحقيقة كان كلام الاعرابي صحيحاً، ولكنه هو الآخر يعرف القليل من أعمال السيد نعيم الذي قال عنها الشيخ ربيع بأنّها راحت تزكم الأنوف، وتسيء الى جدّه الرسول. وكانوا يغضون النظر عن كل ما يفعله ويقوم به اعتقاداً منهم، ان له الحق في ذلك، لولا انه تطاول على إحدى نساء عائلة شيخ العشيرة الجميلات، والتي رفضت التجاوب معه، إلى ان قال الشيخ: «هذا اذا ما نلبسه الباب، ينكح كل نسوانه».

وقبل ان يبدأ السيد نعيم حياته في قرية زوراب، قرّر ان يحذو حذو قريبه السيد جواد وينصرف الى الصلاة ويترك سفاهاته، بيد انه ما ان تحسنت أوضاعه، ويدأ المرضى والعاقرات يتدفقون اليه من مختلف انحاء المنطقة، إلاّ وبدأت عاداته القديمة تراوده من جديد.

كانت أول عاقر جاءته مع زوجها، قادمة من منطقة الحويجة، حيث السمعة القديمة للسيد نعيم لا تزال سارية المفعول. كانت اعرابية جميلة، رشيقة القوام بخصر أهيف وتزوجت منذ سنة. ويبدو ان زوجها قد تعقّد من كثرة تعليقات اقرانه التي تنعته بضعف الرجولة.

كان ذلك بعد الوصول السيد بسنة الى قرية زوراب، وفي يوم ممطر من أيام الاسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني، حين وصل الاعرابي مع زوجته الى قرية زوراب. وما ان ترجل من على ظهر بغلته أمام الخيمة، إلاّ وهرع اليه السيد نعيم وأخذهما الى الكوخ. هذا أول ضيف يحل عنده طلباً للعلاج. جلب الرجل معه نعجة وكمية من السكر والشاي كهدية للسيد، وعرف هذا من هيئة الرجل وبندقيته الانكليزية الجديدة، انه من المرفّهين. وراح يعطي أوامره لزوجته باشعال النار وإعداد الشاي والطعام. للكوخ جناحان وغرفة صغيرة للذخيرة ملحقة بالجناح الأيمن. اتخذوا أماكنهم على اللباد المفروش أمام الموقد. وراح السيد نعيم يردّد باستمرار: «أهلاً وسهلاً بالضيف... أهلاً وسهلاً بالضيف العزيز...». أمّا الاعرابي الذي يبدو عليه التعب فأكّد كونه سعيداً جداً لعثوره على السيد، بعد ان بحث عن مكان سكنه طويلاً. أجال السيد نظراته الفضولية في وجه الامرأة التي تنظر الى الأرض بخجل، بعينيها المحاطتين بأهداب طويلة سوداء وحاجبين رفيعين ووجنتين

متوردتين. قال مداعباً حبات سبحته الطويلة: «انشاءاللّه... انشاءاللّه... كرامة النبي. السيد ما خيّب أحد». قال الاعرابي بلهجة واثقة: «أنا لو لم أتأكّد من ذلك لما قطعت هذه المسافة الطويلة».

وراح السيد يصطنع حركته التقليدية المعروفة بوضع كفّيه على وجهه محاولاً الاتصال بالعالم الخارجي. ودون ان يفكّر عرف سبب الزيارة، وعرف بفطرته انهما حديثا الزواج. واستعاد في مخيلته ملامح وجهها الجميل ونهديها المكورين وخصرها النحيف ثم عراها مجرداً إيّاها من كل جزء من ملابسها، وعندما انتقل من صرتها الى فرجها الذي شبّهه بثمرة شفلح، فتح عينيه منتفضاً في مكانه كما لو انه اصيب برجفة حمى وقال بصوت متشنج: « اللّه أكبر... اللّه أكبر...» وكررت زوجة السيد الاعرابي الكلام نفسه، ولكن بحماس ورهبة. التفت الرجل الى زوجته الساكتة: «قولي اللّه أكبر يا حرمة، لماذا انت ساكتة؟ هل تخجلين من السيد، انه حفيد النبي. حرام عليك ان تخجلي».

قالت زوجة السيد: « انشاءاللّه شفت الخير يا سيد».

عقب الاعرابي بصورة لا ارادية:

«السيد ما يشوف إلاّ الخير».

اصطنع السيد الحركة أخرى واضعاً يديه على عينيه للحظات ثم قال وهو يحدّق في الفراغ:

«النعجة لازم تنذبح يا حرمة، هناك جني شرير يجب طرده».

قالت زوجة السيد موجهة كلامها الى زوجة الاعرابي:

«لا تخافي يا بنتي، السيد يطرد الجني وانشااللّه تحبلين».

وكانت زوجة السيد تعرف جيداً ان اعتصام الجني الشرير في جسد المرأة يعني ضرورة بقاءها عندهم لفترة لا تقل عن أسبوع:

«أنت تبقين عندنا أسبوع يا بنتي، هذا بيت النبي (صلى اللّه عليه وسلم). الذي يدخل عندنا لا يخرج إلاّ بالخير والبركة».

وكان الاعرابي متأكّداً من كل ذلك، ولكنه قبل ان يبدأ بذبح النعجة، أراد ان يعرف من السيد بالضبط عدد الليالي التي ينبغي على زوجته قضاءها عندهم. فاتّفقا ان يأتي بعد انقضاء الليلة السابعة. ولكن هذا لا يعني انه يستطيع أخذها اذ ذاك، اذ انه لا يستطيع ان يضمن طرد الجني الشرير لذلك الحين، فالأمور كلها بيد اللّه.

بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء وشرب الشاي نام الاعرابي لحوالي الساعتين كي يستعيد نشاطه، اذ انه قرّر العودة في اليوم نفسه لإنجاز بعض الأعمال في طريقه. كما وطلب السيد من

زوجة الاعرابي ان تأخذ هي الأخرى قسطاً من الراحة، ذلك ان الجني الشرير يعصى في الجسد المتعب.

راح السيد نعيم يتنقل بين بيته والخيمة فالطاحونة كمن تناول سماً، تتضارب في داخله مشاعر القلق والخوف والترقب. ولأول مرة يحس بالوقت يمر بطيئاً وبالنهار يطول وهو يرسم في رأسه مختلف الخطط للَيلة القادمة التي بدت له كأنَّها لا تريد ان تأتي. قال لزوجته:

«الكبدة والقلب أريدها للجني يا حرمة».

قالت له بأنَّها قلتهما محتفظة بهما في القدر ثم التفتت إلى زوجة الاعرابي التي بدأت تتأقلم مع الجو الجديد قائلة لها بأنّه يستعمل القلب والكبدة كطعم للجني الشرير. ثم حدَّثتها عن أنواع الجن وأساليبها في الدخول الى جسد الانسان، وكيف انها تفترس الوليد في بطن الأم، وصورت لها ايضاً المعارك التي تدور بين السيد والجن، والمطاردات التي تجري بين الطرفين وأكَّدت انها احياناً تهجم على السيد في مجاميع كبيرة، فيضطر السيد للفرار أو الطيران خوفاً منها، بيد ان جدَّه الرسول لا يخذله ابداً، ففي اللحظة الحاسمة يصرخ: «يا اللّه، يا رسول اللّه»، فتتلاشى مثل الدقيق أمام الريح.

ورداً على اسئلة زوجة الاعرابي الفضولية، طمأنتها زوجة السيد بأن العملية لا يصاحبها أي ألم وبأنَّها تجري عادة في الليل، حيث تستيقظ الجن من رقاد النهار الطويل وهي جائعة.

عندما هبط الليل ولفَّ الظلام كل شيء ترك السيد الخيمة قائلاً لضيوفه انه يجب ان يتركهم ليغيب عن هذا الكون، وانهم يستطيعون البقاء في المضيف، وأكد لهم انه قد لا يظهر إلاَّ بعد مرور عدة أيام. وراح البعض يردِّد: «اللّه أكبر... اللّه أكبر...».

قبل ان تذهب زوجة السيد الى فراشها، رافقت زوجة الاعرابي الى الغرفة الصغيرة الملحقة بالجناح الأيمن حيث فراشها ثمَّ جلبت شمعة وصحناً يحتوي على كمية من البخور وأعشاب أخرى فالقدر المحتوي على الكبد والقلب. وبعد ان نصحتها بأن لا تخجل من السيد، لأنَّه مثل أبيها تمنت لها ليلة سعيدة، وذهبت الى فراشها. كان السيد جالساً بشرود أمام الموقد، يحدِّق الى الفراغ، وظنت زوجته، كعادتها، انه خائف من المعركة المقبلة مع الجن، فقالت له:

«لا تدير بال سيد، جدَّك الرسول ما يخذلك».

أشعل لفافته بجمرة متقدة من الموقد وقال نافثاً دخاناً كثيفاً:

«أنا ما خايف يا حرمة، لكن هذا الجني بلاء».

حين تأكَّد من استسلام زوجته للرقاد، تسلَّل الى غرفة زوجة الاعرابي، وكان لا يزال يجهل اسمها. كانت ممدَّدة في فراشها تحدِّق إلى نور الشمعة المتوهج بشيء من الوجل، فما ان رأته، إلاَّ

وقفزت بحركة عفوية جالسة في مكانها. ردد السيد بصوت ممطوط: «بسم اللّه الرحمن الرحيم... بسم اللّه الرحمن الرحيم... اللهم صلّي على سيدنا محمد وعلى آل محمد...».

اتخذ مكانه على قطعة لباد وقال وهو يضرم النار في البخور:

«ما اسمك يا بنتي؟».

أجابت باستحياء:

«حمدية».

قال السيد وهو يقرب منها صحن البخور الذي يتصاعد منه دخان أبيض كثيف برائحة مخدرة:

«هل انتِ خائفة يا حمدية؟».

«شوية».

حرك يده اليمنى داخل عمود الدخان المتصاعد، موجهاً إيّاه باتجاه وجهها:

«ليش يا حمدية؟».

استنشقت الدخان بارتياح:

«أخاف ما أحبل سيد، زوجي يطلقني اذا ما أحبل. حاط عينه على امرأة أخرى».

«لا تخافين يا حمدية، انا أطلع الجني من جسمك».

قالت بصوت دافئ، تسرّب مثل تيار ماء ساخن في كيان السيد:

«أروح لك فدوة سيد، سويلي جارة».

«متى تزوجتما؟».

«قبل أكثر من سنة».

«أنا أسألك أسئلة تجاوبيني عليها بدون مستحى، وإلاّ ما نتغلب على الجني».

«أي واللّه أجاويك بدون مستحى يا سيد، زوجي خلف قال ما مش مستحى من السيد».

قام السيد من مكانه وترك الغرفة ثم عاد بعد قليل بطاسة ماء، وطلب اليها ان تتناول منه جرعة ثم أمرها بفك كل شيء ملفوف ومعقود في جسمها، ودون أي استفسار بدأت بفك الشال من على رأسها وأزاحت الحزام الملفوف حول خصرها. ثم راحت تنظر الى السيد بانتظار أوامر أخرى.

أضاف السيد إلى البخور المشتعل كمية من بذور الخشخاش وأعشاب يابسة أخرى:

«شمّي هذه الروائح يا حمدية، يبدو ان هذا الجنّي جبّار».

وراحت حمدية تستنشق الدخان الكثيف بقوة:

«أروح لك فدوة يا سيد طلع لي هذا الجني».

«حيف يا حمدية تروحين فدوة، خلّي يروح الجني فدوة لك».

اقترب منها السيد مبسملاً:

«بعد ما بقت عقدة بجسمك؟ وإلاّ ما يطلع هذا الجني اللعين».

وتذكرت حمدية ان ثمة عقدة أخرى ما زالت لم تنفك بعد وهي عقدة رباط لباسها الداخلي، فاكتست وجهها حمرة الخجل. كان السيد يراقب وجهها الجميل المتوهج في ضوء الشمعة، فعرف بخبرته ان العقدة الأساسية لم تنفك بعد، فقال لها بصوت شهواني:

«ما مش مستحى يا حمدية، أنا حفيد الرسول».

مدّت حمدية يديها بخجل الى تحت ثوبها وحلّت العقدة. أذ ذاك تحوّل السيد الى كتلة من النار، بيد انه سرعان ما قال في نفسه: «العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن». كانت حمدية تتوقع خروج شيء ما من جسمها، ولا تدري لماذا كانت تعتقد ان هذا الشيء سيترك جسدها عن طريق فرجها.

طلب اليها السيد ان تستلقي على ظهرها، كي يتسنى للجني بالخروج. وأحست حمدية بخدر لذيذ يتسرب الى أعصابها، واجتاحتها رغبة شديدة للكلام والثرثرة، بعد ان زال منها كل اثر للخجل:

«حمدية».

«نعم سيد».

«هل كان خلف يضاجعك بصورة صحيحة ؟».

«ماذا تعني بصورة صحيحة يا سيد؟».

«يعني سلاحه كان تمام؟».

«لا والله مش تمام يا سيد».

«هذا هو السبب يا حمدية، اذا كان السلاح موش مضبوط، يجي الجني اللعين».

«أروح لك فدوة يا سيد، طلّع لي هذا الجني اللعين، زوجي يريد يطلقني».

عرف السيد ان الروائح المخدرة قد فعلت فعلها. وكانت حمدية متوترة، شديدة الترقب والفضول للحدث القادم. وكان السيد حذراً جداً، فتجربته مع قريبة الشيخ كادت تؤدّي بحياته، ثم انه لا يدري من أي طينة هو هذا الاعرابي الذي لم يحدثه عن أصله، لولا انه عرف من زوجته بأنّه من عشيرة البو جحش. وحين قال السيد لزوجته بأنّه لم يسمع بمثل هذه العشيرة، ردّت هذه بشيء

من الاستهزاء بأن هؤلاء في الأصل عبيد.

سحب السيد القدر واقترب منها قائلاً:

«حمدية، رخّي شوية جسمك، انا لازم أكلم الجني، يبدو ان البخور ما يؤثر على هذا اللعين».

كانت حمدية قد شبكت يديها على بطنها. وقف السيد على ركبتيه وأمسك بيديها بعد ان وضع القدر جانباً. قال وهو يفرك باطن يدها اليمنى:

«تشبيك اليد على البطن يمنع الجني من الخروج يا حمدية».

وضع يمناه على أسف ثديها الأيسر، ثم راح يمر بيديه على بطنها بحركات دائرية منتظمة، محدقاً إلى وجهها لمعرفة مدى تجاوبها. كانت قد أغمضت عينيها مستمتعة بالتدليك الرقيق. ثم راح يضغط برفق بأطراف أصابعه على أماكن مختلفة من بطنها وخصرها كما لو انه يبحث عن شيء. وكان بين فينة وأخرى يمدد يَدهْ بلمسة رقيقة على نهدها وقدمها.

«أنا خايف هذا اللعين صاعد للرأس يا حمدية، عندك أوجاع بالرأس؟».

قالت بصوت ناعس دافئ:

«لا واللّه سيد».

«بس لا يكون خاش بالقلب».

«قدرتك يا سيد، أروح لك فدوة».

«لا تخافين يا حمدية، هذا اللعين ما يعصى عليّ».

وضع أذنه على نهدها الأيسر وهو يمرًر يديه بحركات مدروسة، تبدو عفوية على أماكن مختلفة من جسمها، وأحس من تنهداتها أنها تتجاوب مع كل لمسة من يده الخبيرة، ولا شك ان هذا الغبي الجاهل خلف الذي لا يعرف قيمة الكنز الذي يملكه، لم يستعمل يديه سوى في الحصاد والحراثة.

قال السيد فجأة وهو يطوقها بقوة من خصرها:

«كضيتك يا لعين، لعنة اللّه على الشيطان الرجيم».

«أروح فدوة لجدك يا سيد».

عرف انها استسلمت نهائياً، وانها مستعدة للتجارب مع كل ما سيقوم به. رفع رأسه ويداه ممسكتان بنهديها:

«حمدية، هذا اللعين عاصي بالقلب، لازم تنزعين كل ملابسك، اذا ما اكتب الدعاء على بطنك ما يطلع».

قامت من مكانها وراحت تنزع ثوبها الأزرق. تكوّم شعرها الأسود على كتفيها، وأنشدت عينا السيد على نهديها النافرين وجسمها الأهيف القمحي الملتمع في ضوء الشمعة. قالت بعد ان تمدّدت متخذة وضعها القديم ومثنية ساقيها الممتلئتين:

«أروح لك فدوة يا سيد، خلّصني من هذا الجني، وأنا أريد ولد من عينك».

تناول السيد قطعة من الكبدة وبعد ان قطع منها لقمة ناولها إيّاها طالباً منها ان تأكل إلى ان تشبع تماماً، ثم أخرج من عبه قصبة صغيرة راح يمرّرها برفق على بطنها كما لو انه يكتب. ناولها قطعة أخرى مؤكّداً عليها عدم التوقف عن الأكل إلاّ بعد ان تشبع تماماً، ذلك ان بطنها اذا امتلأ من الأكل، فإنّ الجني سيهرب نتيجة لضيق المكان في بطنها ولتأثير الدعاء عليه، كما وان عليها ان تغمض عينيها وتحاول النوم، لأن الجسد في تلك الحالة سيلفظ الجني.

«مثل ما تريد سيد، أروح فدوة لجدك».

أغمضت عينيها مستمتعة بمساج القصبة التي كانت تدب، ليس على بطنها حسب، بل نهديها وساقيها وعانتها. حين أحسّ السيد بتنهداتها وتأوهاتها، أولج قضيبه في فرجها ودفعه بقوة قائلاً:

«شرد الجني اللعين يا حمدية، الحمدالله».

طوقته حمدية بهستيرية ورغبة جارفة لم يسبق لها ان عهدت بهما من قبل: «أروح لك فدوة يا سيد، يا روحي».

بعد فترة غير قصيرة سألت وهي ما زالت تطوقه بقوة:

«أروح لك فدوة سيد، صدك طلع الجني وبعد ما يرجع».

«هو طلع طلع، بس لازم نسد عليه الباب حتى لا يرجع».

قالت بدلال وغنج:

«يعني شلون نسد عليه الباب سيد؟ يا باب هذا؟».

أجاب وهو يضع يده على فرجها:

«هذا الباب يا حمدية، لازم كل ليلة مثل هذا الوقت اكتب الدعاء على بطنك وأقفل هذا الباب الى ان ينقضي أسبوع».

٣١

عندما جاء مردان إلى السيد بصحبة كل من قادر وعباس، عرف ان مجيئهم في مثل هذا الوقت، حيث ضيوفه بدأوا بالانصراف، ليس لمجرد الزيارة. كانت الساعة تشير الى حوالي التاسعة والربع مساء. وكانت العاشرة هي الموعد الذي يذهب فيه الناس عادة الى الفراش. اقترح السيد نعيم ان يتعللّوا عنده في البيت، حيث هناك أدفأ وأريح.

أعدت لهم زوجته الشاي ثم ذهبت الىَ الجناح الآخر. تحدثوا في البدء حول الطقس والمطر واستبشر السيد بالخير الذي سيعم الموسم القادم. ثم افتتح مردان الموضوع قائلاً بأن قادر وعباس يريدان الاشتغال بالتجارة بعد ان استشارا بذلك نريمان آغا، وهما يحبان الاتجار مع حويجة والمناطق المحيطة بها ولما كانا لا يعرفان احداً هناك، لذلك يحبان ان يعرفا مدى امكانية مساعدتهما من قبله لتسهيل أمرهما هناك، لأن الاتجار مع ناس مجهولين قد تؤدِّي الى مزالق وخسائر يجب تفاديها مقدماً.

رحَّب السيد نعيم بالفكرة وبأنًّها طريقة شرعية للكسب الحلال، رغم انه كحفيد للنبي، لا يحق له الاشتغال بالتجارة، ثم شرح لهم بالتفصيل كيفية الاتصال بأقاربه هناك.

كان قادر وعباس ينظران الى بعضهما ويخطِّطان في مخيلتهما أنواع الخطط وبعدما استمعا الى المقترحات التفصيلية التي قدمها السيد، توصلا بعد مجمل الحديث الى محصلة، لا يمكن بدونها البدء بالعمل، ألا وهي تدبير «سرماية» كما أكًّد السيد وقبل ان ينصرفوا، قال قادر انهما سيسافران أولاً بالقطار كي يتعرفا على أوضاع المنطقة وما يمكن بيعه أو شراؤه هناك. هزَّ السيد رأسه باستغراب وقال بخبرة مَنْ يعرف أمور التجارة جيداً:

«ولديًّ، لو أنا مكانكما، لما ذهبت الى هناك فارغ اليدين، ثم لماذا بالقطار؟ انكما تستطيعان السفر مشياً وعلى الأقل بصحبة حمل بغل. ألا تستطيعان تدبير حمل تتن؟ التتن يمشي هناك بصورة جيدة، حتى لو كان اسوأ نوع».

قال مردان محاولاً انهاء الزيارة:

«هذه ليست مشكلة يا سيد، هذا الأمر متروك لهما».

في طريق العودة، حيث الظلام يلف كل شيء، اطبق الصمت على الثلاثة. كان كل واحد منهم يفكر في موضوع السرماية بطريقته الخاصة. وظلًّوا صامتين الى ان بلغوا المضيف. قال قادر

بأنّه لن يستطيع النوم هذه الليلة اذا لم يجد حلاً لمشكلة السرماية. وكان الشاي الثقيل الذي شربوه عند السيد قد بعث فيهم النشاط والحيوية.

بعد نقاش طويل وعريض توصلوا الى نتيجة وهي ان الحصول على مبلغ من المال سواء من نريمان، كريم أو حمه غريب من اجل توظيفه لهذا الغرض مسألة مستحيلة. كما ان أخذ البضاعة من أي شخص في العشيرة كقرض، ولاسيما من قبل قادر وعباس المعروفين بصعلكتهما فغير وارد ايضاً أولاً لأن هذين المجوالين غير مضمونين، ثانياً لأنهما طارئان على التجارة. وحين فكر مردان في رستم ردّ قادر بأنه غير مستعد لمفاتحته، أولاً لأنه يعرف جيداً بأنّه لا يملك نقوداً ثانياً لأنه لا يريد ان يثقل علاقته بمثل هذه المسائل حتى وان أبدي استعداده لمساعدته. حين لم يتوصلوا الى إيجاد حل، قال مردان بحزن بأنّه يؤسفه جداً انه في وضع لا يمكنه مساعدتهما، ثم تساءل ما اذا كان ذلك ضرورياً لمعيشتيهما، هما العائشان في بحبوبة في قصر نريمان آغا؟ ودون ان ينتظر جوابهما ذهب إلى برجه.

في الحقيقة كان الاثنان لا يعانيان من مشكلة معينة، كانا يشاركان نريمان آغا في حياته كأقرب المقربين اليه من حاشيته التي يعتمد عليهما اعتماداً كلياً. وكانا كسابق عهدهما في زمن شيخو يقومان بواجبهما في الحفاظ على أمن العشيرة والاشراف على عمليات الحراثة والبذار والحصاد وجمع حصص القصر ومرافقة نريمان وكذلك تنظيم الأمور في الطاحونة، الخ من الأعمال التي يكلفهما بها نريمان آغا. كانوا يأكلون من القدر نفسه الذي يأكل منه نريمان، ويرتدون أحسن الملابس ويسكنان في غرفتين خاصتين بهما. كانا يتحركان بكل حريتهما دون ان يتقيدا بنظام معين: ورغم ان نريمان كان يحاول الاشراف على كل شيء ومتابعة كل صغيرة وكبيرة فإنّه كان لا يتدخل في شؤونهما، ذلك لأنّه كان متأكداً من حرصهما على سير الأمور في العشيرة، والذي لا يقل عن حرصه هو.

كانا يتنقلان بين وادي كفران السهل والجبلي بانتظام كسابق عهدهما ويقضيان عند كريم احياناً عدة أسابيع، أو يزوران رستم وحمه غريب وولي دون ان يمنعهما احد. كان عليهما ان يبلغا نريمان فقط بوجهة سفرهما وعدد الأيام التي سيقضونها هناك. وكان نريمان يعتبر ذلك كجزء من واجبهما للاطلاع على شؤون العشيرة والاستفسار عن أوضاع الأقارب، حيث يرجعان بكومة من المعلومات التي يستمع اليها نريمان بشوق.

كانا فيما مضى لا يفكران بمشكلة، ولم يتصورا بتاتاً أنهما سيعانيان ذات يوم من مشكلة ما، بيد ان هذه التي كانوا لا يتوقعونها قد جاءت، وبصورة عنيفة بالنسبة اليهما. لقد جاءت بالضبط بعد وفاة شيخو واستلام نريمان مقاليد الأمور.

كانت الضربة الأولى التي أحسًا بها تحدّ من حريتهما المطلقة، هي تلك التي تلقاها عباس، فهو

بعد ان استطاع بوسائله المختلفة منها حمل «كس الضبعة»، ان يستميل قلب الغجرية وردة، نهره نريمان وهدّده بالقتل ان لم يكف من ملاحقة هذه العاهرة الغجرية التي لن تجلب للعشيرة سوى العار والشنار. ومما زاد في غيضهما هو وقوف حمه غريب الى جانب نريمان، وتشفيه لهذه العملية التأديبية التي كان ينبغي ان لا تجري أمام هذا الأحمق. ولولا نصائح قادر ومردان المستمرة لعباس لترك العشيرة الى جهة مجهولة، ولكنه أقسم باللّه بأنّه في المرة القادمة لن يسمح بمثل هذه الاهانة من أي كان.

وأما الضربة الثانية فقد جاءتهم عندما سلم نريمان عصابة أمين نادر الى السلطات وحذرهما بأن مصيرهما سيكون مثل مصيره في حالة القيام بأي عمل له علاقة باللصوصية.

وفي مرة التي رافقا نريمان الى كركوك، أحسًا في السوق انهما لا يستطيعان شراء أي شيء وذلك لافتقارهما الى النقود التي وجداها اعتباراً من ذلك اليوم شيئاً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه. وحين ألمحا بذلك الى نريمان بصورة غير مباشرة، قال انه يحمل عنده ما يكفي من الفلوس التي يرى انها ليست سوى قذارة يضطر الانسان لحملها في هذا الزمن العجيب، وانه يستطيع ان يشتري لهم كل ما يحتاجونه. أمًا ان يعطيهم مبلغاً من المال ليحملاه في جيبيهما ويتصرفا به كما يشاءان فلم يخطر بباله، أو انه أراد ان يضن عليهما ذلك.

سهرا إلى وقت متأخر من الليل وهما يتباحثان وضعهما ويقارنان نفسيهما مرة بمردان وأخرى برستم. اذ ذلك أقرًا ان رستم حسناً فعل عندما انسحب إلى خارج العشيرة واستقل بنفسه، وتوصلا الى نتيجة بأنّهما لا يمكنهما ان يصبحا مثل مردان، الذي رغم صلاحياته الواسعة يبقى خادماً مطيعاً لا يستطيع ان ينحرف قيد شعرة عن الأوامر التي يستلمها من نريمان.

قال عباس بإصرار بأنّه لا ولن يترك وردة ولن يستغني باللقاء بها حتى اذا أدى الى قطع رأسه، فهو يحبها، كما انها هي الأخرى تحبه وهي مستعدة ان تهرب معه الى حيث يشاء، ولم يحاول قادر ان ينصحه، ذلك ان نصائحه السابقة كلها ذهبت في أدراج الرياح. وأكّد هو الآخر بأنّه لم يعد يطيق الحياة في القصر، وبعد ان شبّه نفسيهما بخروفين يفترسان أحسن أنواع العلف، قال انه لا يستطيع الاستغناء عن هوايتهما المفضلة: اللصوصية.

وقبل ان يذهبا الى فراشهما قرّرا ان يلتقيا في اليوم الثاني بنريمان ويطلبا منه ان يقرضهما مبلغاً من المال للاشتغال بالتجارة أو ان يعملا لصالحه هو. المهم هو ان يجدا مخرجاً للخروج من هذه الحياة التي أصبحت مملة بالنسبة لهما.

قال عباس:

«ألم يقل لنا بأنّنا نستطيع ممارسة أي شيء عدا اللصوصية؟ فليسهل لنا الفرصة لذلك».

علّق قادر بلهجة واثقة:

«لا تعلّق عليه الآمال يا عباس، اننا لن نحصل منه على فلس واحد، مع ذلك يجب ان نطرح عليه الأمر، وبعد ذلك نتصرف مثلما نريد نحن وليس مثلما يريد هو».

في اليوم الثاني، وبعد الانتهاء من الفطور اختليا في المضيف بنريمان. كان الجو في الخارج منعشاً، حيث الشمس المتوهجة في السماء الزرقاء الصافية، التي ظلّت مكفهرة بالغيوم والأمطار لمدة أسبوع، تغرق بأشعتها الذهبية الأرض الندية. بدأ قادر الكلام بمقدمة حول التجارة والأرباح التي يمكن ان تدرها واستشهد بكلام السيد ثم فاتحة بأنهما هو وعباس قرّرا الاشتغال بالتجارة.

أطرق نريمان برأسه ثم قال وهو يحدّق إلى عينيهما بفضول:

«إنّنا عملياً مربوطون بتجار اصدقاء، نرتاح الى معالمتهم وأسعارهم، فهم يأتون الينا في المواعيد المعينة ويشترون الصوف والحبوب والسمن، وأمّا التبغ فيجهزه لنا كما تعلمون عمكم كريم آغا، فماذا يعني قراركم: الاشتغال بالتجارة؟ مع مَن تريدون المتاجرة؟ ثم انكما اذا قرّرتما الاشتغال بالتجارة مسبقاً فلماذا تسألانني؟».

كان جواب نريمان مصحوباً بلهجة احتجاج وسخرية. تبادل عباس وقادر النظرات بحيرة وقلق. وكل واحد منهما يتوقع ان الآخر هو الذي سيبدأ بالكلام. وحين طال الصمت قطعه نريمان:

«أعرف ماذا تريدان، انكما يحككما جحركما، وتريدان التملص من واجباتكما للتسكع في المدينة والانصراف الى سفاهاتها. هذا هو كل مطلبكما».

رأى قادر ان السكوت لا يفيد، وانه اذا لم يبادر للكلام فإنّ عباس لن يتكلم، فقال بهدوء:

«يا عمّي نريمان، انك نفسك قلت لنا بأنّنا نستطيع ممارسة أي مهنة عدا اللصوصية، وها اننا الآن نريد الاشتغال بالتجارة، لأننا نحس بأنّه لا حاجة هنا الينا، اننا نقضي كل أوقاتنا بالأكل والنوم دون ان نستفيد أو نفيد، فلماذا ترفض مشروعنا؟».

حاول نريمان اقناعهما بهدوء بأنّ الفِلاحة هي المهنة الوحيدة التي يمكن لأفراد وادي كفران ممارستها، ذلك لأنهم يمارسونها منذ الأزل وهي أشرف المهن وتخلو من أي غش وحيلة، واما التجارة، فلا يمكن ان يمارسها إلاّ مَن وُلِدَ لها وبدأ بها منذ الصغر وهي تعتمد على الغش والكذب، تلك الأعمال التي لا تجلب سوى الشؤم وغضب الله وبالتالي يكون مصير الانسان بعد الموت في جهنم وأسفل السافلين. ثم ذكر لهما مَثَل المرحوم جهانكير، الذي خسر كل الأقارب والأصدقاء بما فيهم ود الشيخ البرزنجي في سبيل الثروة والجاه، وأخيراً بعد ان بلغ اوج الثراء، عرف انه يسير في الطريق الأعوج، وكان ان ترك الحياة في المدينة وعاد إلى وادي كفران، «فهل تريدان

ان تكونا مثله؟».

تبيَّن لنريمان انهما مصران على رأيهما، لأنه لم يستطع اقناعهما حتى بفكرة الزواج وتكوين عائلة، ولكنه رفض منحهما أي قرض أو مساعدة بحجة عدم امتلاكه مالاً. ثم تركهما وشأنهما قائلاً بأنَّهما اعتباراً من هذا اليوم، بالنسبة اليه ميتان.

بعد فترة صمت طويلة من التفكير العميق الذي صاحبته خيبة الأمل والكآبة، قال قادر:

«إذا كان هو يعتبرنا بالنسبة اليه ميتين، فنحن بدورنا سنعتبره ايضاً ميتاً».

علّق عباس بارتياح:

«ليس لنا خيار آخر، إنَّني لن أنسى ما دمت حياً، كونه رفض ان يعطينا حتى مصرف جيب يكفينا لمدة يومين في كركوك».

«إنَّه يريد ان يثبت بأننا لا نستطيع العيش بدونه، يجب ان نثبت له عكس ذلك».

قبل ان يسافرا الى كركوك، قرَّرا زيارة عمّهما كريم آغا في بانشاخ، وحين أرادا دخول الزريبة لأخذ حصانيهما، تصدَّى لهما مردان قائلاً بحزن وأسى بأنَّ نريمان آغا أمره بمراقبتهما ومنعهما من أخذ أي حاجة بما في ذلك حصانيهما، قالا باستغراب بأنَّ كل فرد يعرف بأنَّ الحصانين هما ملكهما منذ الصغر، وانه لا يحق له ان يصادرهما بهذه السهولة، وحين احتد قادر، أجاب مردان:

«قادر، لماذا تحتد عليَّ؟ أنت تعرف جيداً بأنَّني أحبكما ومستعد للموت من أجلكما، ولكن لا تنس بأنَّني خادم هذا البيت، وان الشخص الذي يعطيني الأوامر هو نريمان آغا لا غير، اذا عندك اعتراض على أي شيء فتحدث معه».

استفسر عباس بشرود:

«والبندقيتان؟ هل صادرهما ايضاً؟».

أجاب مردان بدهشة:

«حول أي شيء تحدثتما معه اذن؟ ألم تبحثا معه كل هذه الأمور؟».

قال قادر بغضب:

«انه سألك عن البندقيتين».

أجاب مردان بهدوء:

«قلت لكما انه أمرني ان أراقبكما وأمنعكما من أخذ أي حاجة، وقال بالحرف الواحد: انهما يجب ان يتركا القرية وهما لا يحملان سوى ملابسهما، فهل فهمتماني؟ إنَّني لا أعرف أي شيء عمَّا دار بينكم».

قالا بأسى وألم:

«هكذا إذن...».

وحين همًّا بالذهاب، ألقى مردان نفسه عليهما، معانقاً إيَّاهما وهو يجهش في البكاء، وعبثاً يحاول منعهما من ترك القصر.

رغم الكآبة وخيبة الأمل اللتين لفَّتا مشاعرهما، إلاَّ انهما أحسَّا بنوع من الانطلاق والانشراح. وكانت الشمس التي تبعث الدفء تزيد هي الأخرى في الشعور بالانعتاق، بيد ان مشاعر الخوف من المجهول تضعهما مرة أخرى أمام شعورين متناقضين. كانا صامتين على غير عادتهما وكل واحد منهما مازال يعاني من تأثير الصدمة. كان كل واحد منهما يحاول في قرارة نفسه ان يقنع نفسه بحقيقة الأمر الواقع، وان يعرف مدى تأثير ذلك على صاحبه. كان الندم والثبات على الموقف يختلطان ببعضهما ثم يجد كل واحد منهما ان واجبه يكمن في دعم صاحبه وتشجيعه لعدم الاصابة بالخذلان أمام الضربة الأولى.

أحسَّ عباس ان قادر اكثر ثباتاً وتحدِّياً منه، ولولا هذا الموقف الواضح منه، لعاد هو الى عمِّه نريمان نادماً ومقبلاً يده طالباً منه الصفح والغفران، ولكن هل يحل هذا الموقف مشكلته؟ هل يستطيع فيما بعد ان يتصرف كما يشاء ويقترن بالغجرية التي تكاد تكون مشكلته الأولى؟.. كلا ابداً. انه اذا عاد فعلاً الى نريمان، فيعني هذا انه سيتحوَّل هذه المرة الى خادم حقيقي بمهمات وواجبات، لا تقل عمَّا يقوم بها مردان.

وأمَّا قادر، فكان واثقاً من نفسه، وقد أخبرته حاسته السادسة بأنَّ عمَّه نريمان حين قال انهما ميتان بالنسبة اليه، عرف انه سيعاقبهما على الطريقة التقليدية التي سارت عليها عشيرة وادي كفران منذ الأزل، ذلك انهما في الواقع متمردان على العشيرة. وعرف قادر ايضاً بأنَّ هذا هو أول تمرُّد حقيقي في حياة العشيرة. ولولا هذا الموقف المتعنت من نريمان، الذي لا يعرف التساهل، كان يمكنهما ان يتوصلا معه الى حل وسط، ربما يحول دون هذه القطيعة. ولاشك ان شيخو أو الجد زوراب كانا سيحلاَّن هذه المشكلة بطريقة أخرى، ولكن انتهى كل شيء فالرصاصة – كما كان يكرِّر شيخو دوماً – قد انطلقت ولن ترجع الى مكمنها.

كانا يتمشيان بمحاذاة الجدول، يطبق عليهما صمت عميق لا تشوبه سوى دقات صفير الطاحونة المنتظمة. وكانت الشمس تتوجَّه ببطء إلى منتصف السماء. خرق عباس الصمت:

«بماذا تفكِّر يا قادر، هل تشعر بالندم؟».

التفت اليه قادر بغضب غير معهود وأجاب بحدة:

«ندم؟ على أي شيء؟ انا أفكِّر في خطة نستعيد بها الحصانين والبندقيتين».

حاول عباس تهدئته واقناعه بعدم التفكير بمثل هذه الخطط التي لا تخلق سوى الفرقة والحزازات داخل العائلة الواحدة، وبأنّهما يستطيعان الاعتماد على نفسيهما في تدبير أمورهما، وأكّد انهما في كل الأحوال لا يستطيعان الآن الاستفادة لا من البندقيتين ولا من الحصانين، خاصةً لأنهما قرّرا السفر بالقطار إلى كركوك.

قال قادر باصرار:

«انظر يا عباس، انني لن اترك القرية بدون حصاني وبندقيتي، وأمّا اذا كنت تريد التنازل عنهما، فمسألة تخصك انت».

«ولكنك بذلك تعقد الأمور يا قادر».

«انهما ملكي الشخصي، ورثتهما من جدّي زوراب وعمّي شيخو وهما مثل عيني ويدي لا يمكنني الاستغناء عنهما، سأسترجعهما هذه الليلة حتى لو انقلبت الدنيا، المبلّل لا يخاف المطر».

اذا كان هذا قرارك الأخير، فأنا لا أخالفك عليه، سأذهب معك حتى الى الموت، ولكن أليس من المستحسن ان نستفسر العم كريم أو رستم على الأقل قبل الاقدام على مثل هذا القرار الخطير؟».

ردّ قادر بحزم:

«هذا هو قراري الأخير يا ابن عمّي عباس، إنّني الآن أريد ان أسمع رأيك الأخير ايضاً، أنت حر تستطيع ان ترجع إلى عمّك نريمان، وسينتهي بالنسبة اليك كل شيء».

هزّ عباس رأسه باستخفاف:

«أن أرجع إلى عمّي نريمان، فهذه مسألة مستحيلة. ضع أنت الخطة وأنا سأطبقها معك».

تنفس قادر الصعداء، حكّ رأسه وابتسم قائلاً:

«الآن اقتنعت قناعة تامة بأنّك معي».

كان قادر وعباس يعرفان بأنّ عدداً غير قليل من أقاربهم الفلاحين قد سحبوا أنفسهم من دائرة القصر، ليس بعد تسلُّم نريمان لمقاليد الأمور حسب، بل قبل ذلك بفترة غير قصيرة، تعود بالضبط الى فترة تسلُّم شيخو لمقاليد العشيرة. وكان البعض يعتقد بأنّ سبب ابتعادهم هو زواج شيخو من البابائيين. وأمّا البعض الآخر فكان يرجع السبب الى انه قد ضرب لعلاقات القرابة داخل العشيرة في عرض الحائط، وانصرف للأبهة وتحوّل الى أداة سهلة بيد الحكومة. واما الحقيقة التي كان يعرفها قادر وعباس، هي عدم إعفاء اقرب المقربين من الضرائب المتصاعدة، فالعشر الذي كانوا يدفعونه فيما مضى بشيء من المضض، قد تحوّل فيما بعد الى الخمس. وبعد ان كان القصر يستحصل من كل مائة رأس رأساً واحداً، راح يجبي من كل عشرة رؤوس رأساً واحداً، كما وكان على كل بيت دفع كمية من السمن والصوف حسب عدد رؤوس الأغنام والأبقار

التي يمتلكها. وبالاضافة الى كل ذلك، كان على كل فرد بلغ سن الرشد ان يساهم مرة في السنة بالحصاد الجماعي المجاني الخاص بالقصر، ومرتين في تنظيف وحفر الجداول والترع المستعملة للسقي. وكانت الأداة التنفيذية الصارمة لكل ذلك هي، مردان الذي كان يتفادى أي صدام مع أحد، بل يلجأ إلى أسلوبه الأخوي المرن، ويردِّد جملته الشهيرة: «أنا خادم هذا البيت، وان الشخص الذي يعطيني الأوامر هو نريمان آغا، اذا عندك اعتراض على أي شيء فتحدّث معه».

ويبدو ان شيخو، فيما مضى، ونريمان في الوقت الحاضر، كانا يتعمدان تكليف شخص من غير ابناء العشيرة لمثل هذه المهمة التي لا تجلب لصاحبها سوى الكراهية والعداء.

بعد ان استعرض قادر وعباس اسماء اولئك الأقارب الذين يقفون موقفاً سلبياً من القصر، اتفقا ان يزورا أحد الذين لم ينحازوا الى الصراعات التي حصلت بين الكتل المتنازعة. وان يتناولا غداءهما هناك ويبقيا عنده الى وقت متأخر من الليل ثم يبدأ بتنفيذ خطة استعادة الحصانين والبندقيتين.

تسلّلا الى البيت دون ان يراهما أحد. كان الرجل يُعتبر من أغنياء الفلاحين في القرية، يسكن معه أولاده الثلاثة المتزوجون. كانوا لا يتردَّدون إلى مجلس القصر، إلاّ حين يُستدعون بصورة رسمية لتلقي المعلومات الخاصة بشؤون القرية. كان الرجل الذي تجاوز الستين من العمر قد جلس في الشمس أمام غرفة المضيف، يرفع فردة كلاش، فما ان رآهما. إلاّ ورمى الكلاش ماسكاً المخيط بيمناه وقام من مكانه متوجهاً اليهما وهو ينهر الكلاب الهائجة.

اعتقد انهما جاءا بتكليف من نريمان آغا لاستحصال ضريبة ما فقال بعد ان رحب بهما ببرود:

«يبدو ان نريمان آغا بدأ يتبّع طريقة جديدة في استحصال الجباية، ألاَ يستطيع مردان القيام بواجباته بصورة صحيحة؟».

وقبل ان يكمل كلامه، قال قادر وهو يعانقه:

«نحن جئنا بإرادتنا لزيارتك يا عمّي رشيد، لم يكلفنا لا نريمان آغا ولا غير نريمان آغا، ألسنا أقارب؟ أم انك تريد ان تنكر ذلك؟».

أجاب الرجل بعد ان بدأت البشاشة تنطبع على وجهه المستطيل الأسمر الذي تغطيه لحية بيضاء خفيفة:

«كيف أستطيع ان أنكر ذلك يا ابني قادر، هل يمكن لدم ان يتحوّل إلى ماء، ولكن ما العمل تجاه الزمن الرديء؟».

تناولا معه طعام الغداء، ثم تمدّدا في مكانيهما، وقبل ان يستسلما للنوم، رجاه قادر ان لا يخبر أحداً مهما كلن عن تواجدهما هنا ثم أخبره بأنّهما تزاعلا مع عمهما نريمان وأنهما سيتركان

القرية هذا اليوم الى الأبد. عرف الرجل انهما لا بدَّ مقدمان هذا اليوم على عمل معين قبل ترك القرية، فالدم نفسه الذي يتحرك في جسميهما، يتحرك في جسمه هو، لذلك يعرف جيداً ما يدور في رؤوس أحفاد ناله كوركه الذين لا تهمهم من أين وقعت عليهم الحجارة، فهم يردّونها الى صاحبها، حتى وان كان من أعز المقربين. لم يستعجل في محاورتهما، بل انتظر الى ان أخذا قسطهما الكامل من النوم. ولم يفاتحهما بالأمر إلاّ بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، حيث أوعز الى أولاده بالانصراف، كي يختلي بهما. كان ما يخشاه، هو ان يكونا قد خطّطا لعملية قتل داخل العائلة، الأمر الذي يستحيل ان يوافق عليه. نظر اليهما ملياً وبعد طول تحديق قال:

«يا أولاد عمّي، إنّني لا أريد ان أتدخل في شؤونكما، فأنتما والحمدالله رجلان متكاملان، ولكن قلبي يخبرني أنكما تنويان الإقدام على عمل، أخشى ان يؤدّي الى عواقب وخيمة».

قال قادر كمن كان يتوقع مثل هذا الكلام:

«يا عمّي رشيد، كنا في الحقيقة سنفاتحك بالأمر حتى لو لم تسألنا، ولكن ما نرجوه منك هو ان لا تحاول اقناعنا بالعدول عنه، لأننا سبق ان قرّرنا القيام به مهما كان الأمر».

روى له قادر القصة بكاملها ثم تابع:

«وفي هذه الليلة سنقوم بارجاع بندقيتينا وحصانينا ثم نترك القرية الى الأبد».

قال الرجل بلهجة هادئة:

«أنا أفهمكما جيداً وأعطيكما الحق، ولكن لي نصيحة واحدة فقط سأعطيكما أنا بندقية واحدة وحصانين وارجوكما ترك هذا الموضوع».

ابتسم عباس ورد بلهجة واثقة من النفس:

«نحن لن ننسى هذا العرض يا عمّي رشيد واحسبنا مديونين لك ولكن لن نعدل عن فكرتنا، فمسألة مستحيلة. إنّنا لا نقوم بأي شيء مخالف للعرف. كل ما في الأمر هو اننا نريد استرداد حقنا».

«ولكن هل ضمنتما المسألة؟ ماذا اذا اصابت أحدكما طلقة طائشة في جنح الظلام؟».

«اذا كان اجل أي واحد منا قد جاء، فلا يمكن تأخيره».

كان رشيد يعرفهما جيداً، وكان واثقاً من انهما سيسترجعان حقهما، ولكنه مع ذلك كان خائفاً جداً. ثم قال:

«الانسان لا يمكنه ان يعرف ما يخبئه له القدر، فإذا أُصيب أي واحد منكما بمكروه لا سمح الله، فستأتيان الى هنا، إنني سأترك الباب مفتوحاً وأظل ساهراً طيلة الليل».

كانا يعرفان ان عمّهما نريمان لا يعتمد بالدرجة الأولى على مردان في شؤون الحراسة، بل يستيقظ في الليل بين حين وآخر ويقوم بجولة في أنحاء القصر ليتأكد بنفسه من ان كل شيء في موضعه. ولا يستسلم إلى النوم العميق إلاّ بعد ان يبدأ الخيط الأبيض بشق الظلام في الأفق الشرقي. وكان يردّد دوماً بأنّ الانسان يستطيع بعد ذلك ان ينام مطمئناً دون خوف، ذلك ان اللص الحقيقي لا يبدأ بعمليته في هذا الوقت، بل بالعكس يكون قد انتهى من مهمته وترك القرية قبل ذلك الوقت. وكانا يعرفان ايضاً بأنّ مردان هو الآخر يستسلم الى النوم العميق في نفس الوقت.

كانت ثمة ثلاثة منافذ إلى داخل القصر، منفذان لتصريف مياه المطر، ومنفذ واسع يرتبط بقناة صغيرة تسحب الماء من الجدول الى الحديقة. وقفا أمام المنفذ الأخير وكل واحد منهما يريد ان يكون هو البادئ لعبوره، بيد ان عباس استطاع ان يقنع قادر بأنّه أخف منه بكثير وبأنّ المنفذ أضيق من ان يعبره بجسده البدين.

لم يخطر ببال عباس ذات يوم انه سيتسلل الى هذا القصر بهذه الطريقة، ليسرق منه حاجته الشخصية، هو الذي كان حتى يوم أمس يحرس هذا المكان ويحافظ عليه كحفاظه على حدقتي عينيه. كان الظلام الدامس يلف كل شيء والنجوم تلمع بقوة. لم يحس بأي وجل، بيد ان هاجساً غريباً كان يحيط بقلبه، وهو يجيل نظراته في أنحاء الحديقة الصامتة. بدا له المكان مهجوراً. ترك الحديقة بسرعة الى الفناء. سحب السلم الخشبي المؤدّي الى برج مردان، كي يضمن هذا الجانب ثم توجه الى البوابة ففتحها بحذر. كان قادر، كما اتفقا واقفاً وراء الباب. تسلل الى الداخل وأطبق الباب هامساً:

«الآن ستقف انت هنا، وأنا سأكمل البقية».

عندما عاد قادر بعد قليل بالبندقيتين، كان عباس قد فكّ رباط الحصانين في الزريبة المجاورة. قبل ان يمتطيا حصانيهما قال قادر انهما لا يستطيعان ترك البوابة مفتوحة، فاتفقا على ان يغلقها عباس من الداخل ويخرج كما دخل:

«والسلم الخشبي، هل أعيده إلى مكانه؟» تساءل عباس.

«اتركه وشأنه، حتى لا يتهموا مردان بالتعاون معنا».

قبل ان يتركا القرية، مرا على رشيد، الذي كان لا يزال ساهراً، فودعاه متمنين له نوماً هادئاً بعد ان قال له قادر بأنّه اذا سمع ذات ليلة ثلاث دقات منتظمة على حائط المضيف الذي ينام فيه عادة، فإنّه يستطيع ان يفتح لهما الباب.

عندما تركا القرية، علّق عباس:

«والآن يستطيع عمّي نريمان ان يمسك خصياننا».

كان همّهما الأول هو الابتعاد عن القرية بمسافة كافية، قبل ان ينقشع الظلام، ولذلك حثّا حصانيهما للجري السريع. في مفترق الطريقين المؤدّيين الى وادي كفران الجبل والسنجق، توقفا لتحديد الهدف من رحلتهما، فقرّرا ان يزورا أولاً العم كريم في بانشاخ، على ان يحدّدا هناك هدفهما اللاحق في ضوء موقف كريم منهما.

بلغا بانشاخ قبل ان تبلغ الساعة الثانية عشرة. عرف كريم من ملامحهما انهما قد أقدما على فعله ما، ولكنه لم يبادر لطرح أي سؤال عليهما، اذ انه كان متأكداً من انهما لن يخفيا عليه أي شيء.

بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء، قال قادر بعد ان سحب من لفافته نفساً عميقاً:

«عمّي كريم، إنّنا، أنا وعباس قد أُرغمنا على القيام بعمل قد يُعتبر شنيعاً بالنسبة لأعراف العشيرة، وان العشيرة لا شك ستنبذنا، ولكننا قبل ان نهجر العشيرة إلى الأبد. نحب ان نسمع رأيك».

اجتاحت موجة خوف غريزي كيان كريم الذي شعر بخفقان شديد في قلبه وقال: «يا الله، يا ستار».

ظنّ كريم ان ثمة قتلا قد حصل، ولكنه عندما سمع القصة التي رواها قادر، تنفّس الصعداء ثم استغرق في تفكير عميق، وبعد فترة صمت غير قصيرة قال:

«اذا بصقت في السماء، فإنّ البصقة تنزل على شاربي، واذا بصقت على الأرض فعلى لحيتي، لا أدري جانب أيكما التزم، ذلك أخي وانتما أولاد أخي. على كل حال اذا كان ما رويته لي صحيحاً يا قادر، فأنا لا أُؤيّد موقف أخي نريمان، انه يستطيع ان يتصرف كيفما يشاء، اما ان يجردكما من بندقيتيكما وحصانيكما فمسألة غير صحيحة».

وراح الاثنان يقسمان بأغلظ الايمان بأن كل ما رواه قادر صحيح ولا مبالغة فيه. طمأنهما كريم بأنّهما هنا، في وادي كفران الجبل، في امان كسابق عهدهما وانهما يستطيعان التصرُّف كيفما يشاءان. واذا كان نريمان يتصرف هناك كما تتطلب أوضاع الحكومة، فإنّه لا يعترف بكل ما له علاقة بالسلطة.

٣٢

منذ اليوم الذي التقى فيه رستم بأرملة عاصم بك وابنته، تغيَّر تغييراً كلياً، فقد أحسَّ بالفراغ الذي تركه موت مادلين في قلبه، قد ولّى إلى الأبد. وان نفس العاطفة التي كانت تغمره تجاهها قد بدأت تعود اليه، ولكن هذه المرة تجاه شخص آخر. وراحت صورة ابنة عاصم بك كلباغ تلاحقه في كل لحظة، حتى انه حين كان جالساً في الحفل التأبيني للذكرى الأربعينية لوفاة زوجته في مضيف عمه نريمان، بدا له الأمر كما لو انه ليس في حفل تأبيني. لم يبق أي أثر من الحزن والكآبة في داخله. تراءت له حياته الماضية، كما لو انها كانت حلماً خاطفاً استغرق لحظات. وانه قد ولد من جديد أو جاء تواً الى هذه الحياة التي لم تعد قاتمة وكئيبة، بل مرحة وشفافة ومشرقة تبعث النشوة والفرح.

لقد أصبح خفيفاً تكاد قدماه لا تمسان الأرض. وشعر بذلك كل من صديقيه اسحاق أفندي اللذين استغربا انه رفض، بعكس الطريقة المتبعة، استعمال العصا مع بعض الطلبة المشاكسين. يتمشّى يومياً في نفس خط سيره، وحين يكون على مقربة من بيت عاصم بك، وفي الوقت نفسه الذي يلتقي فيه بابنته مع أمها، يتباطأ في السير، وقلبه يكاد يطير من الفرح والترقب.

وفي لحظات سريعة أشبه بطيف تساقط شهاب، ينفتح الباب، ويطل من وراءه الوجه الطفولي الجميل كما لو انه الشمس تطل من خلال ثغرة في جدار الغيوم الكثيفة.

ويتحول الطريق الموازي لجدران بستان عاصم بك الذي يجري بينهما الجدول المتفرع من نهر روخانة بمائه العذب الرائق إلى أجمل طريق في العالم. وهذا الجدار الواطئ المبني بالطين واللبن المجفّف في الشمس، والذي تطل من ورائه رؤوس النخيل وأشجار الليمون، قد تحول عنده إلى سياج الفردوس الذي تختفي وراءه أجمل حورية في الكون.

وأصبحت جولاته في طريق الحب منتظمة مثل حركة ساعته، وما ان يبلغ نقطة اللقاء، يبدأ قلبه بالخفقان ويتباطأ السير أكثر فأكثر وينفتح الباب ببطء وتطيل هي وقفتها ايضاً. ويجري تبادل النظرات والابتسامات. لقد انتقلت مادلين الى عالم النسيان إلى الأبد وحلّت محلها في قلبه الحائر كلباغ.

أحسّت خادمته العجوز «ننه» بأنَّ شهيته للأكل قد بدأت تقل وانه أصيب بهزال ملحوظ. يدخن كثيراً ويشرب وحده، ويقرأ كثيراً. اعتقدت في بادئ الأمر ان مبعث حزنه هو وفاة زوجته، بيد

انها بعد ان زارتها امرأة من أقارب عاصم بك توصلت الى الحقيقة التي لم تخطر ببالها ابداً.

جاءت المرأة الغريبة في وقت غياب رستم عن البيت قبل الظهر. وبعد ان قدمت نفسها كقريبة للمرحوم عاصم بك، قالت انها تريد ان تتحدث في موضوع خاص مع والدة رستم أفندي. أكّدت لها «ننه» بأن والدته لا تعيش معه، وانها تستطيع ان تتكلم معها لأنها بمثابة والدته أو تنتظر إلى ان يأتي هو فيتحدث معها. أجابت المرأة بأنها غير مخولة للتحدث معه، ولكن المهم في الموضوع هو ان يصله الكلام، ولكن بأسلوب ودّي لا يؤدّي إلى جرح مشاعر الأفندي الذي كان صديقاً حميماً للمرحوم عاصم بك. ثم بدأت المرأة التي لم تتجاوز الخمسين من عمرها بمقدمة طويلة في الأخلاق والعادات والتقاليد والشرف، وبأن السنجق مدينة صغيرة يمكن ان ينتشر فيها الخبر كسريان النهر في الهشيم.

اعتقدت العجوز ننه ان أحد الطلاب الكبار لا شك قد تحرَّش بإحدى البنات، وطالما كانت مثل هذه الشكاوى تصل الى المدير، ولكن عن طريق الآباء. ونادراً ما كانت إحدى الأمهات تأتي مشتكية من سوء تصرف الولد في البيت، فترجو من رستم أفندي بتأديبه واسداء النصيحة اليه.

قاطعتها ننه بشيء من الكبرياء الذي يوحي كما لو انها هي المديرة الحقيقية للمدرسة:

«يا إبنتي، أعتقد ان الموضوع يتعلق بإبنكم في المدرسة، لذلك أرى من المستحسن ان يجري الكلام معه مباشرة، لأنه لا يحبذ أن يتدخل أحد في شؤون المدرسة».

كانتا جالستين في البهو على الأرض، ردّت المرأة بلهجة ودية:

«لا يا خالة لا، أنت فهمت كلامي خطأ. الموضوع يتعلق به هو، المقصود هو رستم أفندي بنفسه. إنّك يجب أن تتحدثي معه هو بالذات».

«ماذا تريدين ان أتحدث معه؟ أنا لا أفهمك».

وراحت المرأة تلف وتدور دون أن تدخل الموضوع. كانوا قد نصحوها ان لا تدخل في صلب الموضوع إلاّ بعد مقدمات طويلة وعريضة، وإلاّ فإنّه سيفقد أهميته ولا يؤخذ بالجد. وكانت ننه قلقة لا تستطيع التركيز على كلامها بسبب تركها القدر على النار القرية في المطبخ. استأذنت منها كي تلقي نظرة على القدر، فقامت المرأة هي الأخرى متبعة إيّاها، وقائلة بأنها يمكنها مواصلة كلامها في المطبخ، ثم راحت تسترسل بصوت خافت:

«أنت تعرفين يا خالة بأن للمرحوم عاصم بك أقارب كثيرين وانهم بدأوا يشكون من التمشّي اليومي لرستم أفندي أمام باب بيته، فلولا ابنته البالغة السابعة عشرة من عمرها لما استدعى ذلك انتباه أحد. كما تعلمين يا خالة فإنّ البنات فضوليات، وهنّ يقفن طيلة النهار وراء الباب ينظرن من خصاصه لعابري السبيل. وبين فينة وأخرى يفتحن الباب ويلقين نظرة الى الطريق.

وصادف ان فتحت البنت الباب أكثر من مرة عند مرور رستم أفندي من هناك. وجرى تصوير المسألة من قبل بعض نساء المحلة الثرثارات كما لو ان لرستم أفندي علاقة بالبنت. ربما انها مجرد صدفة وان رستم أفندي بريء كل البراءة من هذه التهمة، ولذلك حفاظاً على سمعته وسمعتة البنت وخوفاً من ان يثير ذلك حفيظة أولاد أعمالها الكثيرين، لذا يرجو عم البنت رجاء أخوياً من رستم أفندي ان يراعي وضع العائلة ويكف عن المرور من أمام بيت المرحوم عاصم بك».

سكتتا لبرهة غير قصيرة، رفعت خلالها العجوز القدر بأنفعال من على النار، ثمَّ وضعت عليها المقلاة المحتوية على الدهن والبصل المثروم. وراحت تنشغل بترتيب الأواني والقدر المصطفة على دكة مبنية من الطين. صبت البصل المقلي مع الدهن في القدر المحتوي على الرز ثم وقفت تتأمل المرأة وهي تمسح يديها بقطعة قماش:

«ألهذا السبب أرسلوك إليَّ يا بنتي؟».

«نعم يا خالة انها مسألة شرف، وأنت تعلمين جيداً كم هي حساسة مسألة الشرف في يومنا هذا».

تساءلت العجوز بهدوء متناه:

«هل طرق رستم أفندي باب بيتهم».

«كلا».

«هل كلَّم البنت؟».

«كلا».

«هل مشى وراءها في زقاق ما؟».

«كلا».

«قولي لعم البنت إنَّه مخرف».

«ولكن ما هذا الكلام يا خالة؟ يبدو أنك قادمة من الريف. نحن هنا في المدينة لنا تقاليدنا. ان المرأة هنا يجب ان تلبس العباءة وتتحجب ولا يجوز للرجل ان يرى وجهها».

كانت المرأة لا تزال مرتدية عباءتها السوداء. تذكرت العجوز كيف انهم عند أول نزوحهم إلى السنجق نصحوها بارتداء العباءة والحجاب، ولكنها رفضت رفضاً قاطعاً ان تفعل ذلك، قائلة بأن صيانة الشرف لا تتم بارتداء العباءة والتشبه بالغراب. وانها ستظل ريفية بكل ما في الكلمة من معنى.

ابتسمت العجوز وعلقت بفخر:

«طبعاً أنا قادمة من الريف يا بنتي، وأنا فخورة بذلك، ألا ترين ملابسي؟ إنّني سأتكلم مع رستم أفندي».

وقبل ان تكمل كلامها قادتها إلى الباب، هناك عندما ودعتها المرأة أضافت:

«مع ذلك قولي لعم البنت انه مخرف».

وقفت العجوز لهنيهة حائرة في مكانها بعد ان أغلقت الباب بانفعال وهي تفكر في كلمات المرأة وملامح وجهها. عادت الى المطبخ شاردة وخائفة من ان تكون قد نسيت شيئاً ثم خرجت الى الفناء وراحت تنتقل بين الغرف والبهو والمطبخ كما لو انها أصيبت بدوار أو بصاعقة. مرّ برأسها مزيج من المشاعر والأسئلة: هل ان عم البنت فعلاً مصاب بالخرف؟ أم ان رستم أفندي الذي يعرف عائلة عاصم بك منذ سنوات عاشق فعلاً؟

إنّها تعرف قصته كلها، تعرفها أحسن من أي انسان آخر. وهو بنفسه لم يخف عليها أي شيء. ألم تشهد هي قصة حبه مع مادلين؟ ألم تجلب لها بنفسها ملابس ابنتها وشدّت لها شال رأسها وحزامها؟ ألم يعترف لها بأنه لا يحب زوجته الثانية التي أرغموه على الزواج منها، وأنه لن ينسى ذكرى زوجته الأولى؟ لماذا أخفى عليها همومه إذن؟

عاد رستم الى البيت حوالي الواحدة بعد الظهر. وكان قد بلغها كعادته قبل ان يذهب الى المدرسة، بأن اليوم هو الأربعاء وانه سيتناول غداءه في البيت. بدل ملابسه ثم غسل يديه ووجهه دون ان ينطق بكلمة واتخذ مكانه على سجادته الصغيرة المفروشة على قطعة لباد أمام المنقلة والصينية المحتوية على صحنين من الرز ومرق الفاصوليا اليابسة وقرصة خبز صغيرة.

كانت هي تراقبه عن كثب بفضول وود وعطف وبشيء من خيبة الأمل لعدم مصارحتها بعواطفه التي تحرقه من الداخل، فهو يعتبرها دوماً الأم التي لا تعوض، وهي بدورها تعتبره ابنها الوحيد الذي تحبه أكثر من حبها لأبنتها الحقيقية. ولكن لماذا لم يصارحها؟ ترى، هل غيّر موقفه منها؟ هل قامت هي بتصرف أزعجه؟

كانت تجلس قبالته عادة بعد ان ينتهي من تناول طعامه، حيث تنقل الصحون الى المطبخ ثم تجلس على الأرض لتصب له الشاي الذي يجب ان يكون جاهزاً بعد الأكل مباشرةً. عندما أرادت ان تتركه ليأكل وحده، تناول الخبز ملتفتاً إليها بوجه بشوش قائلاً على غير عادته:

«ننه، لا داعي ان تتركيني وحدي، اجلسي معي».

«ولكنني أخشى ان تفقد شهيتك نهائياً يا رستم أفندي».

انطبعت ابتسامة باهتة على وجهه الشاحب: «كلا يا ننه، سآكل بشهية مفتوحة، تسلمت اليوم رسالة من صديق عزيز».

اتخذت مكانها على مندرها قرب المنقلة ووجدت ان الفرصة قد حانت كي تبدي ملاحظتها بخصوص الأكل:

«انك يجب ان تجبر نفسك على الأكل يا رستم أفندي، ألا ترى وجهك في المرآة؟ ان شاءاللّه كتب صديقك ما يفرحك».

«هل تتذكرين رمزي؟».

«الاسم ليس غريباً عليّ، ولكن الحق يقال يا ابني ان ذاكرتي أصبحت مثل الغربال».

ضحك رستم:

«أهكذا تنسين ابن المرحوم جهانكير؟».

ضربت بيمناها على خدها:

«آخ، تقصد رمزي، انني فعلاً بومة عجوز يا ابني، أين هو الآن؟ كيف أحواله؟ هل تزوج؟».

«إنّه يريد ان يزورني في العطلة الربيعية. يريد ان يقضي العطلة كلها عندي، وسوف نذهب لزيارة أخيه في وادي كفران».

«شيء جميل منه ان يكتب اليك بعد هذا الانقطاع الطويل».

«يقول انه كتب عدة رسائل دون ان يتسلم الجواب، وينذرني بأنّه لن يكتب مرة أخرى اذا لم أكتب اليه، مع العلم انني لم أستلم حتى الآن سوى هذه الرسالة، يبدو ان الرسائل تضيع في الطريق».

«كل شيء يضيع في هذا الزمان يا ابني، أكتب له تحياتي وقل له اننا ننتظر وصوله».

قررت العجوز ان تفاتحه بموضوع المرأة مساءً بعد تناول طعام العشاء وبعد ان يكون منتشياً من تأثير العرق الذي يرتشف منه يومياً كأساً واحدة، ولكنها عندما لاحظته منفتحاً بمزاج جيد غيَّرت رأيها وقررت ان تفاتحه فوراً بعد ان انتظمت في رأسها مجموعة من الأفكار التي تشغلها في كل الأحوال.

بدأت بالموضوع بالاستفسار ما اذا كان رمزي قد تزوَّج، فأجاب بأنه متزوج منذ ثلاث سنوات وله طفلان ولد وبنت، وانه عندما سيزورهم يأتي وحده بعد ان يترك زوجته وطفليه عند أهلها في كركوك. قالت العجوز ان لها امنية ترجو ان تتحقق قبل ان تترك هذه الدنيا، واذا تحققت فإنّها إذ ذاك تكون أسعد مخلوقة على الأرض. ولما سألها رستم بفضول عن محتوى أمنيتها، أجابت بأنها لا تريد الآن ان تذكر له هذه الأمنية، لأنها تخشى ان يستهزئ بها. قال رستم وهو يرشف الشاي:

«مستحيل ان أستهزئ من أمنياتك يا ننه، يجب ان أعرفها الآن».

قالت مبتسمة:

«لولا خوفي من ان أموت وان تبقى الأمنية كامنة في صدري لما أفصحتك إياها».

وسكتت وطال سكوتها. وظلَّ هو ينتظر بدون جدوى. أشعل سيكارة واتكأ على المخدة:

«أنا مازلت انتظر جوابك يا ننه، أم ان أمنيتك قد تسربت من خلال غربال ذاكرتك؟».

اقتنعت العجوز في قرارة نفسها بأن مزاجه النفسي الآن في أحسن حال، لا شك انه سعيد جداً بمحتوى الرسالة، ولكنها خشيت ان تكدر عليه مزاجه بملاحظة غبية قد لا تنسجم مع الموقف. ولما كانت قد استنتجت من مجمل كلام المرأة، التي لا شك لم يرسلوها اليها اعتباطاً، بأنه عاشق، لذا رأت انه من المستحسن ان يذكر اسم الفتاة، لأنه من المستحيل ان يتكدر مزاج العاشق حين يجري التطرق الى اسم حبيبته:

«أمنيتي يا رستم أفندي، يا عزيزي هي ان أرى زواجك من الفتاة التي تحبها فعلاً».

علَّق بلا أبالية:

«أهذه كل أمنيتك يا ننه؟».

«كلا، هذه نصفها».

«والنصف الثاني؟».

«النصف الثاني هو ان تتزوج من الفتاة الجميلة كلباغ ابنة عاصم بك».

قفز في مكانه بحركة لا إرادية وحدَّق إلى عيني العجوز الذابلتين بنظرات مشعة:

«ما هذا الكلام يا ننه؟».

أجابت العجوز بهدوء:

«هل أنت غاضب عليَّ، لأنني أفحصت عن أمنيتي؟».

عرفت العجوز جيداً بأنه ليس غاضباً، بل بالعكس، أصابته نشوة غريبة عند سماع الاسم، ولكنه فُوجئ بالموضوع كما لو انه أصيب بصاعقة.

«أنا لن أغضب عليك ابداً، ولكنني أريد ان أعرف سبب ذكرك لهذا الاسم بالذات».

«يا بني، أنا أمك ولا أريد ان أقول مثل أمك، أنا أعرف أنك عاشق. لماذا لا تفتح لي قلبك؟ هل تخجل مني؟ ألم تحدثني عن كل أسرارك؟ هل خيبت ظنك ذات يوم؟ أم غيَّرت رأيك تجاهي؟».

أطبق عليهما الصمت. هو شارد تائه يدخن بلا انقطاع. اجتاحته رغبة عنيفة كي يفرغ قلبهُ

دفعة واحدة ووجه كلباغ مطل عليه بعينيها السوداوين وابتسامتها الطفولية العذبة، ولكنه أراد ان يعرف الحقيقة، فهذا التأكيد الذي جاء بصورة فجائية ليس مجرد صدفة. لا بدَّ انها قد سمعت بملاحظة ما. ولكن ممن؟ إنَّه لم يصرح بذلك حتى الى أعز أصدقائه:

«انظري يا ننه، أنت تعرفين جيداً مبلغ حبي لك، وبأنَّني أعتبرك أمي الحقيقية، اننا اليوم يجب ان نكشف كل الأوراق، قولي لي فقط لماذا ذكرت بالذات اسم كلباغ التي أعترف أمامك لأول مرة بأنني أحبها حتى انني نسيت حبِّي الأول».

قالت العجوز بنشوة مَن انتصر على العالم كله:

«كنت أعرف بأنك عاشق، ولذلك دفعني فضولي لمعرفة المعشوقة، فرحت أتتبع خطاك من بعيد الى ان تأكدت من أين تسير وأمام أي باب يخفق قلبك».

تنفس رستم الصعداء وأحسَّ بشيء ثقيل قد أزيل عن كاهله:

«هل انت زعلانة عليَّ يا ننه، لأنني لم أفاتحك بذلك؟».

«بعض الشيء».

«لا ليس لك الحق في ذلك، كان سيعتبر ذلك قلة أدب من عندي، ولاسيما لأنه لم يمر الوقت الكافي بعد على وفاة زوجتي».

تنهدت العجوز هازَّة رأسها:

«لك الحق كل الحق يا بني، لقد كنت أنا الغبية كشأني دائماً».

في المساء، وبعد ان ارتشف كأسه الأولى التي تبعتها فيما بعد كؤوس أخرى، أعدت له العجوز مائدة عامرة بالمزة، اذ لاحظت انه يأكل بشهية عالية. وهي تعرف انه لا يكون صريحاً إلاَّ بعد ان يسري الخمر في أعصابه. وعندما كانت تراه منطلقاً سعيداً، تغمرها السعادة هي الأخرى. كرَّر لها عن سروره لإستلام الرسالة من رمزي وبأنه سعيد جداً لزيارته ثم عرج الى الموضوع كلباغ فعبَّر عن قلقه وخوفه من أن تكون مخطوبة لأحد أقاربها.

نصحته العجوز ان لا يتردد من الآن فصاعداً الى محلتهم، لأن أهل الفتاة، حسب العادة الجارية في المدن، اذا عرفوا بأنَّ ثمة علاقة بين الفتى والبنت، مهما كانت هذه العلاقة ضئيلة، فإنَّهم سيقفون حجر عثرة في طريق الزواج. وقالت انها مستعدة لزيارة أم كلباغ لجس النبض واستقاء المعلومات:

«البنت مازالت صغيرة، وأنت في كل الأحوال لا تستطيع التطرق الى موضوع الزواج إلاَّ بعد مرور سنة على وفاة المرحومة، المهم، اننا يجب ان ننيشن الفتاة، اننا يجب ان نكسب الأم يا ابني».

رفع رستم كأسه قائلاً بنشوة:

«أنت يا ننه عظيمة جداً، كل ما أتمناه هو ان يطول عمرك. أنا أترك الأمر لمبادراتك أنت».

«ولكن هل تعطيني كلام شرف بأنّك لن تتردد من الآن فصاعداً الى محلتهم؟».

«إنّني مستعد ان أعطيك كلام شرف يا ننه، ولكنني ان لم أستطع التمتع بمشاهدة عينيها، فيجب على الأقل ان أسمع أخبارها».

«ستستمع أخبارها من عندي».

«اذن أمرك واجب عليّ».

ظلت كلباغ لخمسة أيام متتالية تفتح الباب في الموعد المحدد دون ان ترى اثراً لرستم أفندي ودون ان تعرف سبب عدم تردُّده لمحلتهم. كانت تخشى ما تخشاه ان يكون قد أصيب بمرض أو بأمر مكروه. وكانت والدتها تعتقد انها حين تهرع الى الباب لإلقاء نظرة عليه، انما لأنه كان صديقاً حميماً للمرحوم والدها فهي بذلك تتذكره، هي التي كانت تحبه كثيراً، بحيث انها ظلت تبكي لأيام طويلة لوفاته. وكان هو يحبها ويدللها ويقول دوماً انها يجب ان تتزوج من رجل متعلم، وليس من فلاح جاهل وحتى اذا كان هذا الفلاح من أبناء عمومتها. ولكن الأم، بعد ان لاحظت كيف انها تهرع الى الباب قلقة حائرة ومهمومة تنظر بعينين مليئتين بخيبة الأمل لعدم مرور رستم أفندي من أمام باب بيتهم، بدأت تفكر بطريقة أخرى، وتستعيد في ذهنها ما سمعته من عمة البنت من الكلمات التي لم تأبه بها في حينه، إذ انها كانت لا تزال تعتبر ابنتها صغيرة، بل طفلة لا تعرف من أمور الدنيا شيئاً.

قبل أيام جاءت أخت عاصم بك كعادتها وأبدت ملاحظة سريعة في غياب كلباغ، قالت ان للجدران عيوناً وآذاناً، وان البنت قد كبرت وأنها يجب ان لا تطل من وراء الباب وتنظر الى المارة. وهي في كل الأحوال محجوزة لأحد أبناء عمومتها الكثيرين. كانت العبارة الأخيرة تردَّد دائماً من قبل القريبات والأقارب حتى انها قد تحولت إلى اسطوانة متهرئة، لذلك كانت الأم لا تأبه بها، ولكنها في المرة الأخيرة أكّدت باحتجاج بأن ابنتها مازالت طفلة وليس لأي فرد الحق في حجزها مهما كان ثم انها هي المسؤولة الوحيدة عن بنتها وليس الأعمام الذين لا هم لهم سوى العمل من أجل أخراجها من البيت ومصادرة البستان وتمثيل دور الورثة.

ربطت الأم مسألة مقاطعة رستم أفندي للمحلة بتلك الملاحظة فاستنتجت بأنهم لاشك أسمعوه كلمة ما بهذا الخصوص. وها انها تتوصل من خلال ذلك الى استنتاج آخر، هو ان كلباغ قد نضجت وراح قلبها يخفق لرجل. لم تكن علاقة عاصم بك جيدة مع أقاربه على طول الخط، ومن حيث تريد أو لا تريد انعكس ذلك عليها هي أيضاً. وكانت تعرف انهم يحدقون عليها لأسباب

كثيرة. وقد سمعت أكثر من مرة بأذنها بأنّ هذه الكردية المتوحشة لا مكان لها داخل عائلتهم التركمانية المحافظة. وكانت تتظاهر دوماً بأنّها لم تسمع شيئاً، فتغطي ألمها بابتسامة مشرقة تستفز الجانب الآخر.

كان عاصم بك يعرف أقاربه جيداً، وكيف انهم كانوا يحاولون دوماً استنزاف الأموال منه، ولذلك حل المشاكل المتعلقة بالارث في حياته: بيوته الأربعة سجلها بأسماء زوجاته الأربع وأمّا الخان والدكاكين فسجلها بأسماء بناته الثلاث، حيث رزق من كل امرأة بنتا واحدة. تمكن اثنان من أولاد العم الزواج من البنتين وبذلك ضمنا الأملاك من التسرب إلى الأيدي الغريبة عن العائلة. بقيت كلباغ التي دارت الدوائر حولها دون الوصول الى نتيجة. وقد فكر أكثر من قريب من أقارب عاصم بك الكثيرين بالزواج من أرملته أم كلباغ بحجة انها مازالت صغيرة وبحاجة الى رعاية، بيد ان هذه لم تستجب لتلك الطلبات التي اعتبرتها وقحة ومخجلة مؤكّدة بأنها ستبقى مخلصة لذكرى عاصم بك إلى الأبد وبأن أي رجل في العالم مهما كان لا يستطيع ان يحل محله سواء في قلبها أم في بيتها.

وعرفت أنهم يخطّطون من أجل تزويج ابنتها من أحد الأقارب سواء باللين أم بالشدة. وأحست انها الآن بحاجة حقيقية الى زوجها الراحل، ولكنها قرّرت في داخلها عمل المستحيل من أجل احباط خططهم، وكانت تعرف جيداً بأنّ ابنتها ستقف الى جانبها. وتذكرت اليوم الذي مرّ فيه رستم أفندي من أمام باب بيتهم وكلماته التي أكّد فيها بأنّه سيمر يومياً في مثل هذا الوقت من هنا. اذ ذاك لم تأخذ كلامه بالجد ولم تفسره، ولكنها اليوم تعرف ماذا كان يقصد بذلك.

قالت لإبنتها وهي تريد ان تستطلع في عينيها تأثير كلامها:

«هل لاحظت أيضاً بأنّ رستم أفندي لا يمر من أمام باب بيتنا منذ عدة أيام؟».

احمرت وجنتا كلباغ بصورة لا أرادية وقالت متنهدة:

«خمسة أيام ولا أثر له».

وسكتتا دون ان تتطرقا إلى هذا الموضوع.

في المساء، عندما بدأ الظلام يهبط على المدينة اخترقت صمتهما طرقات منتظمة على الباب. كانت كلباغ مشغولة بتلميع المرآة العاكسة للمبة الزيتية المشتعلة وأمّا أمها فكانت تعد النار في المنقلة، قامت هارعة الى الباب:

«لاشك انها أحدى عماتك، جاءت لتكرر علينا اسطوانتها المتهرئة».

«أنا سأنسحب الى الغرفة الجانبية ولا أريد أن أراها».

رغم ان العجوز كانت تزورها في فترات متباعدة فإنّها أدركت بغريزتها بأنّ هذه الزيارة

تختلف عن سابقاتها. وكانت هي ترتاح للعجوز التي كانت ترافق رستم أفندي عند زياراته الدورية المنتظمة لزوجها الراحل عاصم بك، فتجلسان في الركن الخاص بهما مع كلباغ التي كانت لم تتجاوز الرابعة عشرة بعد آنذاك. وأمًا عاصم بك ورستم أفندي فكانا يتخذان مكانهما في غرفة الضيوف شتاء أو في الحديقة صيفاً. عانقتها العجوز ثم عانقت كلباغ وهي تذرف الدموع على تلك الأيام التي كان المرحوم عاصم بك يملأ ليس البيت حيوية وحركة حسب، بل المدينة كلها، ولكن هكذا هي الحياة الغدارة، الرجال الحقيقيون يموتون وأما أنصاف الرجال فيسرحون ويمرحون.

بعد حوالي الساعة من المقدمات والاستفسارات عن الصحة والأوضاع والتعليقات على علاقة الصداقة الودية بين عاصم بك ورستم أفندي، قالت العجوز انها في الحقيقة جاءت لمسألة مهمة، ولكنها لا تعرف ما اذا كان من الصحيح التطرُّق إليها في الوقت الحاضر، لاسيما لأن الموضوع لم يأتِ أوانه بعد. ولما أكدًت لها زوجة عاصم بك بأنها ليست غريبة، بل تعتبرها واحدة من أقرب المقربين لها، رجت العجوز من البنت ان تتركهما وحدهما.

أقتربت العجوز من صاحبتها وراحت تتكلم بصوت خافت:

«أنت تعرفين جيداً يا أم كلباغ بأن رستم أفندي صاحب عشيرة، وله سمعة طيبة وهو مدير مدرسة قدير له مستقبل لامع ومضمون، لقد تزوج مرة من العشيرة ولا يريد أن يكرِّر ذلك وقد كلًفني ان أبحث له عن بنت الحلال من عائلة شريفة، ففكرت أنا في كلباغ. أنا أعرف طبعاً بأن لكلباغ أعماماً كثيرين يريدونها لأولادهم. والشيء الذي أردت ان أعرفه في الحقيقة هو ما اذا كانت كلباغ مخطوبة لأحد الأقارب أم لا؟».

كانت العجوز تعرف بأنها لا تطيق أقارب زوجها، ولكي تستفزها أكدت مراراً بأنها لا تريد ان تخلق الحزازات داخل العائلة الواحدة، وبأن ابن العم اذا تقدم فإن طلبات الآخرين ستبطل.

قالت الأم انها تنظر بعين الاحترام والمودة الى رستم أفندي وأنها لا تنسى حقيقة كونه كان صديقاً حميماً للمرحوم زوجها، وانها في كل الأحوال لا تجد لإبنتها زوجاً أفضل منه. وأمًا بالنسبة لمسألة الأقارب فإنًها من المستحيل ان توافق على زواج ابنتها من أي واحد منهم، بيد ان المشكلة هي ان ابنتها مازالت صغيرة.

تنفست العجوز الصعداء:

«أنا أعرف أيضاً بأنها صغيرة بالنسبة الى مقاييس أهل المدن، وأمًا في الريف فإنً النساء يتزوجن وهن أصغر منها بكثير. الزواج هو ستر للبنت يا أم كلباغ ومع ذلك فإنً رستم أفندي هو الآخر غير مستعجل. ان امنية عمري هي ان أرى كلباغ متزوجة وأخدمها بنفسي. انك لا يمكنك ان تتصوري كم هو طيب رستم أفندي».

أرادت أم كلباغ ان تعرف ما اذا كانت الفكرة من عندها هي أم ان رستم أفندي هو الذي وضعها في رأسها. قالت العجوز، بأن الكل يعرف بأن رستم أفندي كان صديقاً حميماً للمرحوم عاصم بك، وانه لا يمر يوم دون ان يأتي ذكره على لسانه، فهو بالطبع سيكون أسعد انسان اذا اقترن بابنة أعز صديق له.

قالت أم كلباغ مبتسمة:

«أفهم من كلامك انه هو الذي أرسلك الينا».

همست العجوز بانشراح:

«انه يفكر فيها ليل ونهار».

قالت الأم باعتزاز بأنها لا مانع لديها، ولكن عليه بالصبر وتحمل المشاكل التي سيخلقها له أقارب البنت».

«انه مستعد ان يصبر ويتحمل كل شيء من أجلها».

٣٣

حدثت مشادة عنيفة بين كل من نريمان وأخيه كريم بعد ان علم الأول بأن الثاني التزم جانب قادر وعباس ولم يعاقبهما بطردهما من أرض العشيرة بسبب سرقتهما لبندقيتين وحصانين من بيته. وكان ان ردَّ كريم مؤكداً بأنه يعرف كل المعرفة بأن البندقيتين والحصانين إنما هي ملكهما الشخصي، وأن تجريد أي فرد من أبناء العشيرة من ملكه الشخصي بهذه الطريقة، ترفضه أعراف عشيرة وادي كفران. وحين أراد نريمان ان يفرض سطوته كونه الأخ الأكبر وبأنه هو الرئيس الفعلي للعشيرة، أكّد له كريم، بأن هناك حقيقة بدأت قبل وفاة أخيهم الأكبر المرحوم شيخو، وهي ان هناك عشيرتين: وادي كفران السهل، ووادي كفران الجبل، وأنه هو الرئيس الفعلي والوحيد للكفران الأخير، ولذلك ما على أخيه نريمان آغا إلا ان يهتم بشؤون كفرانه هو، ولا يتدخل فيما لا يعنيه.

بعد تلك المشادة التي جرت بين الأخوين في بانشاخ، عاد نريمان الى قرية زوراب في اليوم نفسه. ورغم ان كريم زاره بعد عدة أيام معتذراً منه، فإنَّ شبه قطيعة ألقت بظلها على العلاقات بين الجانبين.

ولكي لا يكونا هما السبب لهذه القطيعة فإنَّ قادر وعباس قد أكّدا لعمّهما كريم بأنهما مستعدان لترك أرض العشيرة والسكن في المدينة أو أي مكان آخر، فإنَّ أرض الله واسعة. استسخف كريم فكرتهما وبيَّن لهما بأن هذه المشكلة قديمة وتعود الى فترة ما قبل وفاة المرحوم شيخو بك.

قبل ان تبدأ فترة الحصاد تمكن قادر وعباس من إيجاد الصلة مع أقارب السيد نعيم في كركوك ومنطقة الحويجة، علِما هناك بأن البضاعة الوحيدة التي يمكن ان تدر عليهما بالربح الوفير والسريع، هي التبغ، بيد ان المشكلة كانت تكمن ليس في تدبير التبغ، بل نقله الى الأماكن التي يباع فيها بسعر مغر. بعد دراسة أوضاع الطرق ونقاط الخطر التي تتعرض للقوة المسلحة السيارة التابعة لمديرية التبوغ والكمارك، رأى قادر وعباس بأنَّهما يحتاجان الى شريك عربي مطلع على خفايا ومسالك الطريق الواقع بين كركوك وحويجة، وهكذا بعد المداولات والمناقشات تمكنا من الاتفاق مع المدعو «حمود» الذي كان قد أوصى السيد بالاعتماد عليه في كل شيء، إذ انه من أحد أقاربه المقربين، وتفادياً للقال والقيل والشبهات التي قد تؤدّي الى تسرب اخبارهم

الى السلطات الحكومية، اتفقوا ان يرتدي قادر وعباس الزي العربي في المناطق العربية وان يرتدي حمود الزي الكردي في المناطق الكردية.

ولما كان لحمود خبرة جيدة في تهريب التبغ لممارسته إيّاه منذ سنوات في نطاق القرى العربية، حيث كانت له في كل قرية ركيزة في بيت قريب أو صديق، يحل فيها متى ما شاء ولاسيما ليلاً، مخفياً بضاعته في مكان سري أمين لا تطاله أيدي الشرطة، لذا أقترح على قادر وعباس ان لا يعتمدا على كل من هب ودب من الناس، وأن يشتريا البضاعة من أشخاص يعتمدان عليهم أعتماداً كلياً ومن المستحسن ان يكون هؤلاء من الأقارب، وإلاً فإنّ الربح أحياناً يكون خيالياً بحيث انه يعمي عيون أصحابه ويزيل من قلوبهم الرحمة.

وراح يشرح لهما كيف أنهما يجب ان يعتمدا على قريب معين في كل قرية من قرى وادي كفران الجبل وضرورة بناء مخبأ وعدم التنقل نهاراً، وقبل ان يكمل كلامه قاطعه قادر ضاحكاً:

«كاكه حمود أنت شيحجي، وادي كفران الجبل كله مخبأ. وادي كفران ماكو حكومة».

أجاب حمود محذراً دون ان تكون في ذهنه أي صورة عن وادي كفران:

«لا كاكه قادر أحنه هالشكل ما نكدر نشتغل. قوة السيارة المسلحة بلاء، انها توصل الى كل مكان».

ضحك قادر وعباس وشرحا له بأن السيارة مهما كانت لا تستطيع الوصول الى وادي كفران الجبل بل ان ذلك مستحيل، لأنه حتى البغال تعاني صعوبة في ذلك، بالإضافة الى ذلك فإنّ الناس هناك كلهم من الأقارب وليس لأي فرد صلة بالحكومة. قال حمود بفرح:

«هاي إذن نعمة، نسوي العشيرة خزينة للتتن».

لم يعرف حمود بأنّه ثاني شخص عربي تطأ رجلاه أرض وادي كفران الجبلي، فالمعروف بين أبناء العشيرة بأنّ العربي الأول الذي تشرف وادي كفران بمقدمة هو الإمام علي بن أبي طالب الذي جاء الى هنا قبل ألف عام حسب تقديرات الشيخ زوراب. وكانت كلمة العربي مردوفة في كل الأحوال بالسيد. كما ان السيد جواد الذي عالج كريم وأنقذه من براثن الجنية في سنة «أطول عام»، كان معروفاً في كل بيت من بيوت وادي كفران الجبل رغم انه لم تتسنّ له الفرصة لزيارته. ولقد ظلّ اسمه مرتبطاً بسلسلة من المعجزات الخارقة التي كان آخرها سر موته أو بالأحرى اختفائه الفجائي. حتى ان الكثيرين في وادي كفران الجبل ظلّوا لسنوات طويلة ينتظرون عودته. وعندما سمعوا في حينه بمجيء السيد نعيم، الذي نصب خيمته جنب الطاحونة، قالوا بأنّه لاشك هو السيد بنفسه قد رجع الى الحياة مرة أخرى، ولكنه يخفي ذلك على الناس كشأن كل الأولياء. ولذلك كان كل من ينتهي من طحن قمحه، يذهب الى خيمة السيد، يتبرع له كمية من الدقيق أو

دجاجة، ويتبرك بشرب فنجان قهوة أو تناول لقمة خبز عنده.

عندما سمعت القرية بوصول سيد بصحبة كل من قادر وعباس إلى مضيف كريم آغا تدفّق الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً الى هناك.

عانق كريم حمود، الذي أكّد مراراً وتكراراً بأنّه أبن عم السيد جواد، بكل حرارة، ورحّب به معتبراً إيّاه ليس ضيفاً عزيزاً حسب، بل صاحب البيت، وقال له ان السيد جواد الذي لم يترك وراءه قبراً لأنه لاشك طار الى السماء، كان بمثابة أبيه. وحكى له بالتفصيل كيف انه قضى أجمل أيامه في خيمته وكيف ان السيد كان يحبه ويعتبره أبنه هو. وان تلك الأيام، هي من أجمل الأيام التي قضاها في حياته. ثم روى له بالتفصيل، كيف ان المرحوم والده الشيخ زوراب كان يحب ويتحرم السيد جواد، بحيث انه قرّر ان يقضي بقية حياته بالقرب من حفيد النبي، وكيف ان الدنيا في ذلك الزمن كانت أجمل عندما كان مجلس الشيخ زوراب يضم السيد جواد وهابو ورستم ورمضان وشيخو.

وجد كريم ان أحسن طريقة لصرف الناس الذين ملأوا المضيف وتزاحموا أمام بابه هو إعطاء كل فرد شريحة صغيرة من لفافة رأس حمود الخضراء، ليشدوها على معاصمهم كتعويذة يتبركون بها ويتقون شر الشيطان الرجيم والعفاريت الشريرة. وراح حمود يقطع الشرائح بيد خبيرة وبمقدار يكفي شده على المعصم. وعندما أتى على اللفافة مدّ يده الى عبّه وأخرج قطعة قماش خضراء مطوية، اذ انه يعرف بأن الطلب على هذه المادة المباركة شديد في كل مكان. كان يشد الخرقة على معصم الشخص بنفسه ويعطيه قرص نعناع أو ملبس بعد ان يبسمل وينفخ فيه. وقبل ان يغادر الشخص المضيف يقول له قادر بأن التعويذة لا يسري مفعولها، إلاّ بعد جلب هدية للسيد وبأن قيمة الهدية تلعب دوراً حاسماً في تحقيق أمنية الشخص. وسرعان ما عاد الجميع من جديد محملاً بالدجاج والبيض والسمن.

لم يكن حمود يتصور بأنّ قماشته الخضراء ستجلب هذه الكمية الكبيرة من النعمة وبهذه السرعة ولذلك التفت إلى قادر وهمس في أذنه مبدياً إعجابه لمبادرته التي لم تخطر بباله هو واقترح عليه ان يقوموا بجولة في جميع قرى المنطقة، فأجابه قادر بأنهم كلما توغلوا شمالاً فإنّ هدايا الناس تزداد.

تناولوا طعام الغداء المتكوّن من تشريب الدجاج بشهية مفتوحة. وعندما جُلب الشاي بدأوا بوضع الخطط لكيفية الحصول على التبغ بأرخص ثمن وأماكن خزنه والكميات التي بوسعهم نقلها. وعندما كان كريم آغا يؤكّد دوماً بأن هذه الأمور كلها بسيطة ولا تكلف شيئاً وانه سيضع قراه تحت تصرفهم، تدخل حمود معلقاً بأن العمل الذي يقومون به يدخل في باب المعاملة التجارية، وبأنّ هذا العمل سيدر عليهم ربحاً وفيراً اذا كتب له اللّه النجاح، ولذلك فإن اللّه

ورسوله وأولياءه لا يقبلون استغلال أحد، فالشخص الذي يؤجِّر بغاله يجب ان يُدفع له أجره. ومما دفع بحمود ان يظهر تقواه ويكرِّر اسم اللّه ورسوله هو هذا الموقف الذي لم يسبق ان مرَّ به من قبل، وراح يصدق في أعماق نفسه بأنَّه سيد من الطراز الأول، على الأقل في هذه المنطقة التي لا منافس له فيها. ولما أكَّد له كريم آغا بأن الرجال هم رجاله والبغال ملكه هو، وانه يضعهم في خدمته اكراماً لشخص السيد جواد، رد حمود باستحالة مثل هذا الشيء. وبعد المداولات الطويلة التي اقترح من خلالها حمود ان يكون كريم آغا شريكاً بالمناصفة، أيَّد هذه الفكرة وأبدى أستعداده لمشاركتهم، ولكن في نطاق اراضي وادي كفران الجبل على ان يتحمل هو مسؤولية حماية البضاعة من مداهمات مديرية انحصار التبغ التي تستعمل عادة وحدات الشرطة الخيالة في عمليات الزركة. وعقب حمود بأنه سيتحمل المسؤولية نفسها في المناطق العربية، على ان تكون التنقلات وشحن البضاعة ليلاً فقط.

أخبرهم كريم بأن لحفيده ولي علاقات جيدة بمزارعي التبغ بواسطة طاحونته وأنهم يستطيعون هناك شراءه بأسعار مناسبة، ولكنه حذَّرهم من التحدُّث معه بخصوص أي شيء له علاقة بالتجارة، اذ انه قد أنصرف للتنسك والعبادة ولا يأخذ من زبائنه مقابل طحن قمحهم سوى ما يتبرعون هم له. ونصحهم ان يوحوا اليه بأنَّهم يحتاجون التتن لاستعمالهم الشخصي ولأقاربهم لأنه يعتبر التجارة تهريباً والتهريب من عمل الشيطان.

كان ولي الذي تزوَّج من نسيرين بعد حب عنيف، قد انتقل من قرية قه والي الى الجانب الثاني من نهر آوه سبي حيث الطاحونة، لأن تنقلاته اليومية واضطراره لعبور النهر مرتين في اليوم، تتعبه، هذا بالاضافة إلى ان الفلاحين في قرية الطاحونة الذين ينظرون اليه بإجلال ويعتبرونه ولياً من أولياء اللّه الصالحين، قد بنوا له بيتاً بثلاث غرف، إحداها كبيرة بُنيت خصيصاً كمضيف وراحوا يلحون عليه بالسكن قربهم. وهكذا ترك بيت العم الراحل جوامير إلى هناك.

كانت القرية عند انتقال ولي اليها تتكون من سبعة بيوت توزعت بين الصخور والأشجار المطلة على نهر آوه سبي في الجانب الثاني من جبل بازوخ، الذي يعتبر امتداداً طبيعياً ونهاية لوادي كفران الجبل. في يوم وصول ولي قرَّرت القرية ان تذبح نعجة وتقيم وليمة على شرفه، ولما كانت أكبر غرفة في القرية هي تلك التي بنوها كمضيف له، لذا جرت الوليمة هناك.

كانت الشمس قد غابت عندما حضر الرجال لتناول طعام العشاء. رحَّب بهم ولي واحداً واحداً وشكرهم لتجشمهم عناء بناء البيت وتجهيزه له ولزوجته وأكَّد أنه سيظل مديناً لهم الى الأبد، ولكي يستطيع دفع جزء من هذا الدين، فإنَّه لن يأخذ أي أجر مقابل طحن الحبوب من أهل القرية، وعليهم من الآن فصاعداً ان يعتبروا هذه الطاحونة ملكهم هم. ورغم ان الصحون والأطباق كانت موضوعة أمام الجالسين، فإنَّه ظلَّ يتحدث دون ان يمد يده إلى الأكل.

قاطعه أحد الكبار في السن:

«يا ملا ولي، أنا لا أريد ان أقاطع كلامك الجميل، فالوقت أمامنا كثير لسماع كلامك القيم، ولكن الأكل سيبرد، إنّنا ننتظر ان تمد يدك لتناول اللقمة الأولى. نحن بصراحة جياع».

ضحك ولي وعلّق باستغراب:

«هل تريدونني أنا ان أبدأ؟ أنا أنتظر ان تبدأوا أنتم بالأكل».

«كلا يا ملا ولي، إنّنا، قبل ان تصل الى هذا المكان قرّرنا ان نجعلك كبيرنا».

«قررتم أن أكون أنا كبيركم؟ كيف، ولماذا؟ أنا مجرد صاحب طاحونة لا غير».

يبدو ان الرجل الذي بدأ بالكلام هو آغا القرية، لذلك لم يبادر غيره للكلام:

«ان هذه هي ارادتنا، ونرجو منك ان لا تخيب أملنا».

«اذا كانت هذه ارادتكم، فأنا احترمها، ولكن هل انتم الرجال السبعة كل أهل القرية؟ أليس لكم أخوان ونساء وأطفال؟».

«طبعاً يا ملا ولي، أم تعتقد أننا خرجنا من الأرض مثل الفطر؟».

«الحمدللّه الذي لم يخرجكم من الأرض مثل الفطر. إذن أريد ان يحضر كل أهل القرية الى هنا لمشاركتنا بالأكل».

نظر الجميع اليه باستغراب، قال المسن:

«ولكن هذا مضيف يا ملا ولي، كيف يمكن للنساء والأطفال حضوره».

«هذا المكان ليس مضيفاً، انه اعتباراً من هذا اليوم تكية ولكن لا على الطريقة النقشبندية ولا القادرية، بل على طريق الحق، فإذا كنتم تريدون فعلاً أن أكون صاحب الكلمة الحاسمة فيكم فعليكم اقرار هذا الشيء».

التفت الرجل المسن إلى الرجال:

«تكلموا، الأمر بيدكم أنتم، أنتم اتفقتم عليه بالاجماع».

أجابوا بصوت واحد ودون أي تردُّد:

«نحن قلنا كلمتنا ولا نريد ان ننقضها».

صاح ولي بصوت عال على زوجته وطلب إليها ان تدعو كل نساء وأطفال القرية الى التكية ثم وجّه كلامه إلى الرجال قائلاً بأن طريقة الحق لا ترى فرقاً بين النساء والأطفال والرجال، إنّهم كلهم سواسية أمام اللّه.

بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء الذي ساهم فيه كل أبناء القرية، علم ولي ان بعض

المرضى لم يتمكنوا من حضور الوليمة، لذلك أعد بنفسه لكل مريض صحناً من الطعام، قرأ عليه بصوت خافت بعض التعاويذ. وما ان تناول المرضى الأكل إلاّ وقاموا من أماكنهم متوجهين إلى التكية. ولما رأى الرجال المرضى وهم في أحسن حال، هرعوا إلى ولي يقبلون يده، وبسرعة جلبت الدفوف والسيوف. وراحوا يدورون في حلقة الذكر وهم ينادون بأعلى أصواتهم: «لا إله إلا اللّه، ولي وليّ اللّه...».

ولم يتوقف الذكر، إلاّ بعد ان طلب اليهم ولي بالكف عن ذلك، إذ نبهه أحد الرجال بقدوم ثلاثة ضيوف. وكان أن دخل قادر وعباس وحمود.

كانت القرية لم تسمع بعد لا بأخبار السيد جواد ولا بأسم السيد نعيم ولا بوجود قرية زوراب. كان أبعد مكان وصله كبيرهم جنوباً هو قرية كه رمك الواقعة وراء جبل بازوخ، إذ ان اجتياز المسالك الوعرة المؤدّية الى الجانب الثاني لم يكن سهلاً.

رحبوا بالضيوف الجدد ترحيباً حاراً وقدموا لهم الأكل والشاي، وفي الوقت الذي شرح فيه ولي لأهل القرية درجة قرابته لقادر وعباس وكيف انهما رافقاه إلى عمّه الراحل جوامير، التفت قادر الى حمود وراح يهمس في أذنه بأن خرقته الخضراء في هذه القرية لا قيمة لها لأن الناس هنا لم يسمعوا باسم السيد ولا يعترفون بكراماته.

بعد استفسار قصير عن صحة الوالد والجد كريم والأعمام والأقارب، سكت ولي برهة، ضغط خلالها بكلتا كفيه على رأسه، إذ أحس أنه بعد شفاء المرضى قد عادت اليه حالة التجلّي التي فقدها بعد عودة البصر الى عيني نسرين العمياوين، فعرف تواً السبب الذي جاء من أجله قادر وعباس. وسرعان مازال من جهة أثر الفرحة الطفولية لمقدمهم، فقال بلهجة جافة:

«عمي قادر هل جئتم لزيارتي فقط؟ أم ان لكم هدفاً آخر من الوصول إلى هذا المكان البعيد».

عرف قادر فوراً من ملامح وجهه انه قد عاد الى طبيعته القديمة، فأقل انحراف عن قول الحقيقة سيؤدّي إلى مشاكل وسوء تفاهم.

«الحقيقة يا ولي اننا لم نأتِ الى زيارتك الشخصية، لقد حدثت أمور وتطورات كثيرة داخل العشيرة أدّت الى ان نتصرف أنا وعباس بالشكل الذي تراه».

لم يفهم الحضور كلامه، وأمّا ولي فتململ في مكانه وهو يضحك:

«الحق سينتصر دوماً يا عمّي قادر. كن الى جانب الحق فستنتصر دوماً».

«هل تعتقد ان موقفنا كان صحيحاً؟».

«اذا كان الباعث هو الحق، فلم لا يا ابن عمّي؟».

«هل انت غاضب علينا لأننا لم نأت لزيارتك حسب؟».

ضحك ولي بصوت عال:

«كلا أبداً، كنت سأغضب لو لم تقل الحق، أنتم ضيوف أعزاء بل وأصحاب البيت».

قال حمود:

«بارك الله فيك... بارك الله فيك».

ثم همس في أذن قادر:

«كاكه قادر، إنّنا يجب ان لا نتحدث في الموضوع الذي جئنا من أجله، إلاّ بعد ثلاثة أيام، وإلا سيعتبرنا ابن عمك تجاراً مبتذلين».

خلال الأيام الثلاثة التي حلُوا فيها ضيوفاً على ولي، شمت القرية رائحة سبب مجيء هؤلاء الثلاثة، ولاسيما هذا الشخص الذي قال عنه قادر بأنّه سيد عربي من أحفاد النبي محمد، ولكن الشيء الوحيد الذي تعرفه القرية عن العرب أنهم يبيعون التمر ويشترون التبغ، وهكذا راحوا يجمعون التبغ من القرى القريبة ويكدسونها عندهم.

في اليوم الثالث فاتح قادر وعباس وحمود ولي بخصوص عقد صفقة لشراء التبغ من أهل القرية وأنهم يحبون ان يسمعوا رأيه بالموضوع، أبدوا استعدادهم أيضاً لشراء كافة البضائع المتوفرة مثل القمح والشعير والصوف والأغنام والسمن، وتزويد القرية بكل ما يحتاجونه كالسكر والشاي والقهوة وأوراق اللف والزيانة والتمر...

اقترح عليهم ولي ان يتصلوا مباشرةً بأهل القرية ويتفقوا معهم حول التفاصيل، إذ انه لا يريد التدخل في كل صغيرة وكبيرة، رغم انهم انتخبوه قبل أيام بالاجماع ليكون رئيساً عليهم.

البيوت تشبه مدرجات تطل على بعضها منحدرة من سفح الجبل على شاطئ نهر آوه سبي المتكون من الصخور البركانية الملساء الصلدة، تتخللها نتوءات كلسية بيضاء بأخاديد حفرتها الأمطار. وتلف أشجار البلوط والتين وشجيرات الدفلة الصخور بجذوعها وجذورها الضارية في الأرض الرملية الصلبة. الطاحونة، بجعجعتها المستمرة ليلاً ونهاراً تقع في الجانب الأيمن من القرية تحت عين يتدفق منها الماء بقوة ليصب في الجدول الضيق الموجه على مروحة الطاحونة الخشبية التي لا تعرف الراحة. رغم شروق شمس نهاية تشرين الأول منذ أكثر من ساعة، فإنّ القرية مازالت تتفيأ بظل الجبل.

بعد ان التفوا حول عدة بيوت وصخور بلغوا آخر بيت في نهاية القرية حيث مسكن الرجل المسن الذي استقبلهم بحفاوة بالغة، ولكنه سرعان ما اعتذر عن كونه، لا هو ولا أي فرد آخر في القرية، عدا ولي، يستطيع البت في مثل هذه المسائل. قال قادر بلهجة ارادها ودية، ولكنها لم تخل من جفاف:

«ولي هو الذي أرسلنا اليك يا عمّي».

أجاب الرجل بود:

«انظروا يا أولادي، هذه القرية التي ترونها أمامكم هي في الحقيقة بيت واحد، تسود فيه شريعة الحق، هل تعرفون بالمناسبة ماهي شريعة الحق؟».

أجاب عباس بصورة لا أرادية:

«لا يا عمّي، ماهي شريعة الحق؟».

ناولهم الرجل لفافات من صنعه وهو ينظر اليهم بوجه بشوش لا تغادره الابتسامة:

«نحن داخل هذه العائلة لنا كيس نقود واحد فقط، كل ما نكسبه، مهما كان مقداره وقيمته، يوضع داخل هذا الكيس الذي يزودنا الطعام بالتساوي، فليس لأي فرد الحق في ان يأكل أحسن من غيره. وقد تمّ تسليم هذا الكيس الى صاحب شريعتنا ولي، ولذلك ارجو ان تتكلموا معه هو. بالمناسبة ان القرية مليئة بالتبغ».

«أمرنا للّه».

قال ذلك قادر ثم عادوا إلى منزل ولي الذي استقبلهم بضحكته الطفولية: «يا عمّي قادر ان من يشتغل في التجارة يجب ان يكون صبوراً ويتنقل بسرعة».

«المهم انك لا ترسلنا الآن إلى شخص آخر يا ابن عمّي».

«كلا يا عمّي قادر، الآن نستطيع القيام بعقد الصفقة، ولكنّني أُحذّركم من أي نوع من أنواع الغش، لا تنسوا انكم تتعاملون مع أهل الحق. وكما قلت لكم فإنّ الحق ينتصر دائماً».

ابتسم قادر محاولاً التغلب على علائم الخجل والارتجال المرتسمة على وجهه:

«هل نبدو غشّاشين يا ابن أخي ولي؟».

«كلا يا ابن عمّي قادر، أنتم لا تبدون غشاشين، ولكننا الآن سندخل في عمل، تلعب فيه الفلوس دوراً حاسماً. وأينما وجدت الفلوس حضر الشيطان».

تدخل حمود محاولاً إضفاء الشرعية على كلام ولي:

«هذا كلام صحيح، يجب ان لا نفسح المجال للشيطان بالتدخل فيما بيننا فإنّ مال الدنيا لا يسوي شيئاً. واللّه يشوف كل شيء».

أكّد عليهم ولي ضرورة ان لا يكونوا صادقين معه فحسب، بل مع كل فرد يتعاملون معه، ثم ناول كل واحد منهم سيكارة لفها بنفسه، طالباً منهم ان يُبدوا رأيهم حول تبغه بكل صراحة. وعندما راحوا يمدحون التبغ بحماس وهم يدخنون بشراهة، علّق بأنه انطلاقاً من مبادئ أهل الحق التي

تعمل من أجل العدالة المطلقة، لا يتعامل إلاّ بالبضاعة الجيدة، وان الأرباح التي سيحصل عليها لا تدخل جيبه هو، بل تصب في كيس القرية. وانه لا يريد ان يتسرب إلى داخل هذا الكيس أي فلس حرام، لأن مثل هذا الشيء لا يجلب سوى الأوبئة والكوارث والمجاعة.

بعد مناقشة الأمور التفصيلية اتفقوا ان لا يتاجروا بالتبغ حسب، بل بكل المواد الأخرى التي تنتجها المنطقة. ولما كان الفلاحون يدفعون المواد العينية فقط مقابل طحن حبوبهم، لذا تجمعت عند ولي كميات كبيرة من القمح والشعير، الفائضة عن الحاجة. التمعت في ذهن حمود فكرة نقل البضائع كلها الى خارج وادي كفران الجبل وخزنها في إحدى القرى الواقعة على الطريق العام الذي يرتبط بين كركوك وبغداد، على ان يسافر هو بسرعة إلى كركوك ويرجع بسيارة شحن لوري تحتوي على المواد التي تحتاجها المنطقة. ناقشوا فكرة اخفاء التبغ تحت أكياس القمح والشعير خوفاً من تفتيشات وحدات شرطة مديرية انحصار التبغ، بيد ان حمود، الذي طرح الفكرة وناقشها بكل جوانبها، أكّد بأنّه لا خوف من مثل هذه المداهمات. فسيارة اللوري لا تتحرك في طريق العودة إلاّ ليلاً، ثم انها لا تسلك سوى الطرق الخاصة بالمهربين. وحتى في حال تعرض السيارة الى زركة من زركات الشرطة، التي نادراً ما تحصل في تلك الطرق، فإنّهم سيتكلمون صراحة مع أفراد الشرطة تحت جنح الظلام، فإمّا ان يقبلوا بالرشاوي وينتهي كل شيء بسلام أو يرغموننا على الاقتتال. وهذا أمر نادر من المستحيل ان تتورط الشرطة فيها. هذا بالإضافة الى ان معظم أفراد الشرطة من العرف والأقارب وأبناء العشيرة.

جرت عمليات النقل وتجميع البضائع داخل منطقة وادي كفران الجبل في وضح النهار واستعملوا أحد مخازن التبن الكبيرة العائدة لكريم في بانشاخ لهذا الغرض. ولم يتركوا وادي كفران وراءهم، إلاّ بعد ان خيَّم الظلام على كل شيء. وجعلوا من دار والد فاطمة العم فتاح في القرية القريبة من الجسر العثماني الواقع على نهر روخانه محطة ومخزناً للبضائع.

اعتبر دخول اللوري، المحمل بالتمر والسكر والشاي والأقمشة، القرية حدثاً فريداً لم يسبق للقرية ان عهدت بها من قبل. كان بعض الكبار قد سبق لهم ان رأوا السيارات، سواء في السنجق أو عند قطعها الطريق العام، وأمّا النساء والشيوخ والأطفال الذين أحاطوا بالشاحنة من كل الجهات، فكانوا يحدقون بدهشة واستغراب لهذا الشيء الغريب الذي يهدر مثل عفريت. وبلغت الجرأة نفراً قليلاً فقط من الصبيان للاقتراب منها ولمسها. وفي الوقت الذي كان السائق، الذي يرتدي البنطلون الذي رآه البعض لأول مرة ايضاً، يتباهى بالانشغال بالمحرك، كانت عبارات: «سبحان اللّه واللّه أكبر» تتصاعد هنا وهناك.

وزع حمود وقادر حفنات تمر الزهدي على المتفرجين ورجيا ان لا يسدوا الطريق على الرجال الذين راحوا يفرغون الحمولة. وقبل ان تغيب الشمس امتلأ اللوري بالبضائع ووضعت أكياس التبغ

في منتصف الشاحنة بحيث أحاطت بها أكياس القمح والشعير من جميع الجهات ويسمك يستحيل ان يجتازها رأس قضيب المفتش.

عند عبور الجسر العثماني أوقفهم سيارة جيب عائدة لإدارة انحصار التبغ. يبدو أنهم نصبوا كميناً لجماعة من المهربين. سألهم مفوض الشرطة المسؤول عن محتوى البضاعة وصاحبها، ولمّا تبيّن لحمود من لهجته انه من عشيرة الجبور، أجابه باللهجة نفسها بأن متحوى اللوري عبارة عن القمح والشعير والصوف وبأن نصفه عائد لعشيرة وادي كفران والنصف الثاني للسيد نعيم من الحويجة. ارتاح المفوض للهجة ثم استفسر ما اذا رأوا في طريقهم عابري سبيل مع بغال بأحمال لا تقل عن السبعة.

ناوله حمود دجاجتين وعدة حفنات تبغ:

«واللّه جناب المفوض تعرف واحد بالظلام ما يشوف، شفنا بعض القوافل، لكن لم نفرق بين الحمير والبغال. أكو اخبارية؟».

سلم المفوض الدجاجتين لمرافقيه:

«إن شاءاللّه نشوف الخير من بركة السيد».

توادع الطرفان في جنح الظلام، وكل واحد منهما يتمنّى الخير والتوفيق للطرف الآخر.

عندما بلغت الشاحنة مشارف مدينة كركوك، جرى نقاش طويل بين السائق وحمود لم يساهم فيه لا قادر ولا عباس. رأى السائق، الذي هو في الوقت نفسه شريك حمود، بأنه لا داعي لسلوك الطرق الوعرة والالتفاف على المدينة، بل دخول المدينة وافراغ الحمولة كلها، عدا التبغ ثم مواصلة الرحلة الى الحويجة. ذلك ان الحبوب والصوف لا يمكن بيعها إلاّ في كركوك. ووجد حمود ان الدخول الى المدينة بهذه الكمية الكبيرة من التبغ ثم الخروج منها بدون غطاء يتقيه، مخاطره وحماقة. ورغم ان السائق أكّد له مراراً وتكراراً بأن أفراد الشرطة يستبعدون حصول التهريب بالشاحنة وبأنه يعرف معظم العاملين هناك، فإنّ حموداً ظلّ يعاند. هنا طلب السائق من قادر وعباس ان يبديا رأيهما ايضاً، بعد ان أكّد مرة أخرى بأن عملية تهريب التبغ مرتبطة بالبغال فقط، اذ انه يستحيل على أفراد الشرطة ان يفكروا بحصول التهريب بواسطة نقل غير البغال.

حكّ قادر رأسه وهو يحدّق الى بقعة النور الذي يخترق جدار الظلام اللانهائي: «واللّه كاكه أنا ما يريد يتدخل في شؤون السائق. هو يعرف أحسن من عندي مثل ما آني يعرف أحسن في وادي كفران».

ضغط السائق بحماس على مسند البانزين وعلّق:

«رحم اللّه والديك كاكه قادر، هذا خوش حجي».

ردَّ حمود بعناد:

«ولكن هذه مخاطرة يا كاكه قادر، قد نخسر الأول والتالي».

قال عباس بهدوء متناه:

«كاكه حمود أنت ليش خايف؟ يا هره يا وه ره. اذا اللّه يريد يعطينا هذا الخبز، يعطينا، أمَّا اذا ما يريد يعطينا، ما يعطينا».

«خلف اللّه عليك يا كاكه عباس. هسه يا سيد حمود، كلامك أنت، لو كلامنا أحنا الثلاثة؟».

بعد هنيهة صمت لا يخرقه سوى هدير المحرك علّق حمود:

«أمرنا للّه الواحد القهار».

عندما بلغت الشاحنة نقطة التفتيش المطلة على وادي نهر خاصة صو سحب السائق رجله من مسند البنزين وداس بقوة على الكابح موقفاً إيَّاها ومطفئاً المحرك دون ان يطلب اليه ذلك أحد ودون ان يرى أحداً من أفراد الشرطة. قال حمود وهو يستغرب من موقف السائق:

«دوس بنزين واطلع يا حسون، أنت مخبل؟».

لم يرد حسون، بل بادر الى فتح الباب محاولاً النزول، ولكن قبل ان تطأ رجله الأرض، أطلَّ عليهم شرطي ضخم بشاربين مفتولين كما لو انه نزل من السماء، وهو يوجه عليهم حزمة النور المنبعثة من مصباحه اليدوي، قال ضاحكاً:

«حظك يا حسون، واللّه لو ما واقف كان نشبعك صليات».

سلمه حسون كيساً:

«آني بعد ساعتين راجع قاط لاخ، شجيبلكم».

«جيبلنا أكل، أكل حار، منو هذولة وياك؟».

«هذولة جماعتي تريدني أفرغ الحمولة بوحدي؟».

استغل حمود فرصة وجود الضوء، فنظر بانفعال الى ساعته المربوطة بسلسلة فقال بصورة عفوية:

«أنا أخوك».

سأل الشرطي:

«ساعة بيش سيد؟».

«نص الليل».

«اللّه وياكم، لكن لا تنس فطورنا حسون».

«مو حيف أبو طيارة».

لم يكن حمود يتصور بأن هذا الانسان المعروف بالسذاجة الى حد الغباء والهادئ الذي نادراً ما ينادونه باسمه بل بـ «السائق» ذكي الى هذه الدرجة، وليس هذا حسب، بل قليل الكلام لا يكشف شيئاً عن خططه وعمّا يعرفه، إلاّ في اللحظة الحاسمة. وها انه يستعمل نقطة التفتيش نفسها لترك المدينة، بعد ان افرغوا هناك ليس أكياس الحنطة والشعير حسب، بل جزءاً كبيراً من أكياس التبغ الذي يعتبر ايصاله الى داخل المدينة عملاً صعباً ومغامراً جداً.

قبل ان يغمر النور القرمزي للشفق الأفق الشرقي، توزعت أكياس التبغ في القرى المحيطة بحويجة. توقفت الشاحنة أمام بوابة كبيرة سرعان ما خرج منها اعرابي استقبلهم ببشاشة وود وهو يعانقهم واحداً واحداً.

داخل الفناء الواسع وفي غرفة المضيف، تصاعدت رائحة الخبز الساخن والشاي ونار البعرور، تناولوا طعام الفطور الذي زاد من نعاسهم، بشهية كبيرة.

طيلة الرحلة التي بدأت لهما شيّقة وجديدة ومنعشة، رغم التعب والخوف، فكّر وتوقّع قادر وعباس كل شيء، أما ان يريا بأم عينيهما ويجدا في أيديهما هاتين اللفتين من الدنانيرو فلم يخطر ببالهما.

٣٤

لم يكن رستم يتوقع ان الأمور ستتطور بهذا الشكل وتصل الى درجة التهديدات التي لا يدري ما اذا كانت جدِّية أم مجرد عرض عضلات للتخويف. ثم لماذا هذا العناد المتهور الذي لا معنى له؟ وهذا العداء البغيض الذي لا يفهمه؟ ألم يكن صديقاً حميماً لعاصم بك نفسه؟ أليست زوجته أيضاً كردية؟ لماذا يحق لعاصم بك ان يتزوج كردية، ولا يحق له ان يتزوج تركمانية، أو بالأخرى نصف تركمانية؟. لماذا لا يقولون له ذلك وجهاً لوجه بصراحة، ويكتفون بترديدها فيما بينهم وفي الخفاء؟ هل يخافون منه؟ أم يخجلون منه؟

إلى متى سيظل يمارس معهم لعبة جر الحبل التي لا تنتهي؟

ان رفضهم غير القاطع يدل على انهم غير متفقين فيما بينهم. ان هذه المشكلة يجب ان تُحل، بل ويجب ان تُحل لصالحه هو سواء عاجلاً أم آجلاً. يجب ان تُحل لصالحه سواء باللين أم بالقوة. اذا كانوا هم يريدون ان يتحدوه، فيجب عليه ان يتحداهم هو بدوره أيضاً. اذا كانوا هم عائلة كبيرة داخل مدينة صغيرة، فإنَّ عشيرته بالمقارنة لهم لا حدود لها، سواء في القوة أو الثروة، يكفي ان يرسل اليهم قادر وعباس ليلاً كي يهزا العائلة هزاً، ولكن هل من الضروري اللجوء إلى مثل هذه الطريقة البدائية لتحقيق الزواج؟ ولماذا؟

ها إن أكثر من عام قد مرَّ على طلبه يد كلباغ دون ان يتسلم الجواب القاطع، سواء بالنفي التام أو بالرفض القاطع. أعمام البنت يؤكّدون بأنَّ الزواج لن يتم، حتى إذا أدّىَ ذلك الى قتل البنت. قتل البنت، ولكن لماذا قتل البنت؟ أين يكمن العداء؟ تُرى كيف كان يكون موقف عاصم بك نفسه لو لم يك ميتاً؟ أُم البنت تؤكّد بكل تحدٍّ بأنَّ هذا الزواج سيتم، واذا كان ثمة شخص سيقترن بإبنتها فهو رستم أفندي، الذي كان من أخلص أصدقاء المرحوم عاصم بك. أكّدت مراراً وتكراراً بأنَّها لا تعرف بهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أولاد عم عاصم بك، أين كانوا عندما احتاجت رعايتهم ومساعدتهم؟ ولماذا كانوا لا يزورون عاصم بك عندما كان حياً؟ وأمَّا الآن، حيث هي لا تحتاجهم يلتفون حولها مثل الثعابين ويعتبرون أنفسهم حماتها وحماة البنت وكل غايتهم هي تزويج البنت من أحد أولادهم، ليس حباً بها وانما ليتقاسموا الارث الذي حرموا منه.

انه لا يستطيع ان ينتظر اكثر. وملَّ الانتظار الذي يبدو انه لا نهاية له. وأصبحت هذه المشكلة هي الموضوع الوحيد الذي يدور في رأسه ويشغله ليل نهار. منذ أكثر من سنة وهو لم يرَ وجهها.

لقد حاول مراراً وتكراراً ان ينساها. حتى انه قدم طلباً لمديرية المعارف يطلب فيه الانتقال إلى بلدة أخرى، كي يبتعد نهائياً عن هذه المشكلة التي راحت تعذبه وتؤرقه. ولم يستلم حتى الآن أي جواب.

ظلَّ هذه المدة الطويلة يجتر آلامه وحده دون ان يفاتح بها أحداً. لقد حاول ان ينتهي من حلّ هذه المشكلة وحده وبواسطة العجوز التي هي الأداة الوحيدة لإيصال المعلومات وتبادلها بين الطرفين. ويبدو ان العجوز قد لعبت هي الأخرى دوراً سلبياً في عرقلة الأمور، دون ان تتعمد في ذلك. ظلَّت تؤكِّد له بأن يظل صبوراً ويتفادى تكليف الآخرين بالتدخل في مثل هذا الموضوع الحساس. استنتج رستم من كل ذلك ان العجوز تريد ان يرتبط تحقيق فكرة الزواج بإسمها هي. وانه يجب ان يبدأ بفتح قنوات ووسائل جديدة وإلاَّ فإنَّه لن يتوصل الى أي نتيجة.

اليوم هو الجمعة ويصادف منتصف شهر مايس. عبء الامتحانات قد أزيل عن كاهله. بعد أسابيع يحق للمعلمين ان يتمتعوا بعطلتهم الصيفية ويغادروا المدينة الى حيث يشاؤون. ها هو الصيف يأتي بسرعة كي يزيل آخر اثر للربيع الذي لم يتمكن من إزالة كآبته ووحدته. شجرة التوت الوارفة تنشر ظلها وتحتضن العصافير بزقزقتها التي لا تنقطع، وهي الوحيدة التي تبعث الحياة في بيته الفارغ.

انتهى من تناول طعام الفطور ثم سحب بهدوء سيكارة من علبة «لوكس ملوكي». كان يجلس عادة على الأرض على قطعة لباد سميك في الايوان المطل على فناء البيت الذي تظلله شجرة التوت. لا يدري لماذا تذكَّر عبارة قالتها زوجة أبيه فاطمة قبل اشهر، حين زارهم بصورة خاطفة وحدَّثهم عن نِيَّتهِ في الزواج:

«إنَّ هذه العجوز طيبة يا رستم، انها تحبك كثيراً جداً وتعتبرك ابنها، ولكن لا تعتقد انها جادة في مسألة زواجك، إنَّها تريدك ابناً لها، ولن تستطيع تحمل امرأة في بيتك، أنت لا تعرف النساء يا رستم».

لم يعر في حينه اهتماماً بهذا الكلام، لم يأخذه محمل الجد ونسيه كما ينسى الانسان الأشياء اليومية الصغيرة التي لا أهمية لها، بيد انه قبل أيام حين فاتح صديقه اسحاق أفندي في موضوع زواجه وكيف انه كلف العجوز بمهمة الوساطة أبدي هو الآخر ملاحظة شبيهة بكلام فاطمة:

«هذه العجوز لا تحل مشكلتك، ربما ستعقدها أكثر».

ظلَّ يفكِّر في الملاحظتين ويقارن بينهما. صحيح، ان أي أُم تغار من زوجة الابن، ولكن لماذا كانت فيما مضى لا تغار من زوجته المتوفاة؟ مَنْ يدري؟ ربما كانت تغار في داخلها، ولكنها

كانت في كل الأحوال لا تستطيع تغيير أي شيء فهي كانت واقعة تحت الأمر الواقع. الوضع الآن يختلف، اذ انها هي الآن أحد طرفي المشكلة. على كل حال، ربما هي بريئة من مثل هذا الاتهام.

وفي كل الأحوال، سواء أكانت هي جادة في مسألة زواجه أم غير جادة، فإنّه قد قرَّر ان يبدأ هذا اليوم بداية جديدة وحاسمة في انهاء هذه المشكلة التي طالت، ولكنه قبل ان يبدأ بالخطوة الأولى يجب ان يستشير العجوز أو يجس نبضها.

تأمّلها لأول مرة بصورة موضوعية أقرب إلى النظرة الانتقادية، ولكن ممزوجة بعطف. كانت قد اتخذت مكانها قبالته كعادتها بعد انتهائه من الفطور، تدخن هي الأخرى. في كل مرة تخرق صمتها بملاحظة أو استفسار أو تعليق صغير أو بخبر من أخبار الطرف. وهي من المستحيل ان تعاني من الفراغ أو قلة المواضيع. وهو يعرف جيداً بأنها خبيرة في صنع الكلام. ولها قابلية عجيبة في خلق مواضيع للكلام من لا شيء. ولكن لماذا لم تتمكن هذه العجوز الخبيرة بأمور الحياة من النجاح في المهمة التي أوكلت اليها؟ هي التي تجد دوماً جواباً لكل سؤال مطروح؟

اكتست وجهه ابتسامة متهكمة وهو يصطنع لهجة استفزازية:

«ننه، هل تعرفين بأنّك قد رسبت في الامتحان؟».

لم تفهم كلامه. اعتقدت انه يمزح معها بسبب تخلّصه من عبء الامتحانات التي أرهقته في الأيام الأخيرة:

«هذا مصير مَنْ يدخل المدرسة في عمري».

عرف انها لم تفهم مغزى كلامه، فاصطنع لهجة سخرية من جديد:

«أنتِ لا تريدين ان تفهمي كلامي يا ننه، أو أنّكِ لم تفهمي قصدي. إنّك رسبت فعلاً في مهمتك، وهذا ما كنت لا اتوقعه منك».

«أنا حمقاء وغبية لا أفهم بسرعة، ولكنني لا أعتبر نفسي راسبة، إنّني سأنجح رغم أنفهم».

«لقد رسبت وانتهى كل شيء، هل يمكنك ان تشرحي لي سبب رسوبك؟».

قالت بإصرار:

«هذا ليس رسوباً، المسألة معقدة جداً، علينا بالصبر».

قال بحدة ونرفزة:

«الصبر؟ هل تريدينني أن أنتظر عشر سنوات؟ هل تريدينني ان أتزوج فعلاً؟ أم أنك انت الأخرى تساهمين في عرقلة الزواج؟».

عرفت انه قد فقد صبره وبحق كانت في مثل هذه الحالات تلتزم الصمت والهدوء. ولا تتكلم إلا

بعد ان تتأكَد من كل كلمة تقولها. سقطت الجملة الأخيرة على قلبها مثل الصاعقة، الأمر الذي جعلها تستغرق في تفكير عميق. وأطبق عليهما الصمت، خرقته هي بعد فترة غير قصيرة بلهجة عتاب:

«أنا لست المذنبة يا ابني. كل ما في الأمر هو أنَّني كنت لا أريد مخالفة كلام الأم التي تؤكِّد بأنَّ البنت مازالت صغيرة وان علينا الانتظار».

«إنَّها ليست طفلة، انها في العشرين من عمرها».

- «أعرف ذلك».

«ما العمل الآن؟ هل نترك الموضوع نهائياً ونستريح؟».

«ان ترك الموضوع الآن يعتبر هزيمة شنيعة لك ولعشيرتك واذ ذاك عليك ان تترك هذه المدينة الى الأبد».

«أنت اذن تؤيِّدين اصراري على الزواج من هذه البنت».

«انك اذا تخليت عن هذا الموضوع، فستفقدني انا ايضاً، كما وانك ستتحول الى مسخرة».

تنفس رستم الصعداء وقال بصورة لا إرادية:

«كنت اعتقد انك لا تريدين ان تتحقق الفكرة».

هزَّت رأسها:

«اعتقادك هذا غير صادر من قلبك انت».

قام رستم من مكانه وراح يتمشَّى جيئة وايابا تحت ظلال شجرة التوت وهو يدخن بلا انقطاع، ويضرب اخماساً بأسداس. توقف فجأة كما لو انه وجد حلاً:

«ماذا لو استعمل القوة معهم؟».

«كيف؟».

«ان أرسل اليهم ليلاً مجموعة من الرجال المسلحين».

«هذه وسيلة ليست سيئة، لكنها خطرة، قد تلحق اضراراً بالفتاة وأمِّها. انهم في كل الأحوال بحاجة الى تهديد، ولكن يجب ان لا يتجاوز حالياً مجرد كلام».

«ماذا لو أدخل الخط بنفسي، وأتكلم مباشرةً مع أحد أعمام البنت؟».

«كانت الأم دائماً ضد هذه الفكرة، وعندما نوهت الى ذلك في آخر لقاء بيننا، لم تتكلم. وظلَّت ساكتة رغم تكراري الاقتراح. ثم عرفت منها ان هناك مشاكل بين أولاد العم انفسهم. انهم ليسوا

متفقين فيما بينهم على رأي معين، ام كل واحد منهم يريد البنت لإبنه».

«أنت اذن لست ضد ان أتكلم مع أحد الأعمام؟».

«كلا، أرى من المستحسن ان تتكلم مع أكبرهم: صالح أفندي، ولكن، اذا رفض؟ وهذا ما أتوقعه، فما هي خطوتك اللاحقة؟».

عرف رستم انه سيجابه بمثل هذه المشكلة، توقع مثل هذا السؤال من العجوز. ولذلك كان قد بحث مع نفسه هذا الموضوع. وقد سبق له ان جمع المعلومات الكافية حول جميع أفراد العائلة وعلاقاتهم ومشاكلهم وذلك من فراش المدرسة الذي له صلة قربى بهم، إذ ان تعيينه في عمله قد جرى بتوسط عاصم بك نفسه في حينه. والفراش يميل بدوره الى جانب زواج البنت من رستم. وهكذا عرف منه بوجود علاقة جيدة بين كل من صالح أفندي المذكور ورئيس عشيرة البابائيين. حتى ان الفراش نوَّه إلى وجود نوع من القرابة بين الطرفين، وإذا كان هذا التأكيد صحيحاً، فإنَّ هذه القرابة ستنسحب عليه ايضاً، ذلك ان زواج عمّه المرحوم شيخو في حينه قد أوصل العلاقة بين عشيرتي وادي كفران والبابائيين الى درجة القرابة الأبدية التي لن تنفطر. ربما هذا هو السبب الذي جعل عاصم بك يتزوج في حينه امرأة كردية.

قطع رستم مشيته ووقف ليشعل سيكارة جديدة ثم التفت الى العجوز: «أنا اعتقد ان الرجل سيرفض بشكل قاطع. ولنفرض انه رفض، فما هو رأيك أنت فيما يجب ان أفعله؟».

«ان تستشير عمك نريمان وتطلب منه التدخل لوساطة كبير البابائيين. إذ يبدو هؤلاء يريدون ان تبلغ القضية أعلى مستوى. هذه هي طبيعة العوائل الراقية».

لم يتكلم رستم، بل سحب كمية من الدخان من سيكارته وراح يواصل مشيته ذهاباً وإيَّاباً تحت شجرة التوت وهو يلعن في نفسه كل العوائل الراقية التي يحتاج المرء الى أكثر من سنة ليتعرف على جزء صغير من عاداتهم وقوانينهم المعقدة. وهو إذ بدأ بوضع الخطط العديدة في ذهنه، قرَّر ان ينتهي من مسألة الزواج في العطلة الصيفية حتى اذا أدّىَ ذلك إلى اراقة الدماء. والشيء الوحيد الذي يستطيع ان يعدّله عن قراره الحاسم هو رفض البنت نفسها، ولكنه واثق من انها تريده فعلاً، ليس لأن العجوز أكَّدت ذلك، بل لأنها ارسلت له بواسطتها منديلاً يحتوي على بقعة صغيرة محترقة دلالة على حبُّها الملتهب تجاهه.

ارتدى بدلته البيضاء وترك البيت قبل حلول الساعة العاشرة متوجهاً الى بيت الفراش الذي يسبق له ان زاره رستم أفندي في بيته. وراح يرحِّب به ويبالغ في اظهار فرحته مؤدِّياً القَسَم بأنه لن يدعه يترك بيته قبل ان يتناول معه طعام الغداء. وحثَّ زوجته بجلب دجاجة كي يذبحها فوراً وهو يرجوه ان يتخَذ مكانه على الفراش السميك الذي فرشته زوجته في الغرفة.

وضع رستم يده على كتف الفراش بود وقال انه لا مانع لديه لتناول الغداء عنده، ولكن ليس هذا اليوم، بل في يوم آخر يمكن ان يتفقا عليه. وانه جاء اليه الآن لمهمة يرجوه ان يحققها له حالاً، وهو انه هو واسحاق أفندي يريدان اليوم مساء زيارة صالح أفندي في بيته، لذلك عليه ان يذهب إليه الآن ويبلغه بالأمر وانه سينتظره في بيت اسحاق أفندي.

فرح الفراش للمهمة التي كُلِّف بها وعرف سبب الزيارة، وتركا البيت سوية.

أقترح اسحاق أفندي ان ينضم اليهما كل من الفراش، كونه من أقارب صالح، وشكري أفندي. ولما كان ذا خبرة في مثل هذه الأمور، لذا وجد انه من الأفضل ان تكون هذه الزيارة مقدمة لزيارة أخرى، على ان يدرس ويراقب كل واحد منهم خلال هذا اللقاء وضع صالح أفندي وموقفه بصورة عامة. واذا سنحت الفرصة فإنّه سيتطرق الى الموضوع بصورة غير مباشرة. وفي كل الأحوال فإنّهم سيتركون الأمر للجو العام ولمزاج صالح أفندي.

بعد انتظار غير طويل جاء الفراش وأبلغهما بأن صالح أفندي سينتظرهم مساء هذا اليوم في بيته وانه سعيد باللقاء بهما، فأبلغه رستم بدوره بأن يهيء هو الأخر نفسه كي يرافقهم إلى هناك.

وصل خبر الزيارة بعد أقل من ساعتين، بشكل من الأشكال، الى جميع أولاد أعمام عاصم بك، فتدفقوا بسرعة الى منزل صالح أفندي، الذي هو أكثرهم جاهاً وأكبرهم عمراً. حصل ذلك بعد ان انتهى صالح من تناول طعام الغداء، وبالضبط في اللحظة التي أراد ان يتمدد في فراشه كي يأخذ قسطاً صغيراً من النوم كعادته، حيث جاءت ابنته التي تجاوزت العشرين مبلغة اياه خبر زيارة أولاد العم له، تساءل باشمئزاز ما اذا كانوا كلهم قد جاؤوا.

أجابت البنت بنعم كلهم. ثم كرَّر سؤاله: «خمستهم؟».

«نعم خمستهم».

قام من مكانه بعد ان استلقى على الفراش وهو يدمدم:

«لا أهلاً ولا سهلاً بهم، خذيهم إلى غرفة الضيوف».

كان أولاد العم الخمسة يختلفون عن بعضهم البعض اختلافاً كلياً، سواء في العمر أو المزاج أو الجاه أو ممارسة المهنة أو الطباع، بيد أنهم كلهم ينظرون بهذا القدر أو ذاك باحترام الى صالح أفندي الذي كان يتمتع باحترام المرحوم عاصم بك، ورغم ذلك فإنّ الأخير كان يتحاشى توطيد العلاقة به.

رغم طبيعة الهدوء التي يتمتع بها صالح أفندي، فإنّ موجة من الغضب قد اجتاحته حال سماعه خبر مجيئهم إليه، إذ عرف فوراً انهم جاؤوا للسبب نفسه الذي أصبح بالنسبة اليه مملاً

ومجاً، فهم لا يمر يوم دون ان يتطرقوا بهذا الشكل أو ذاك الى موضوع الزواج. أشعل سيكارة محاولاً التغلب على غضبه ثم طلب الى ابنته ان تعد الشاي كي يتمكن التحدث الى هؤلاء «الأفاعي» بهدوء. عرفت زوجته من ملامح وجهه انه منقبض للزيارة غير المتوقعة وفي وقت لا يمكن لأحد ان يزعجه فيه. وكانت هي الأخرى قد ملَت من هذه الضجة المفتعلة التي تثار حول زواج ابنة عاصم بك، في حين لا يسأل أحد عن بناته الثلاث اللواتي بلغن سن الزواج. قالت بإمتعاض وهي تحثه للذهاب الى غرفة الضيوف وعدم اطالة الحديث معهم:

«أصبحت مسألة زواج گلباغ مثل قصة عنتر، لو كان المرحوم عاصم بك حياً، لما أستطاع أي واحد من هؤلاء ان يفتح فمه. ألا يتركوننا وشأننا؟».

رغم محاولته كبح جماح غضبه واصطناع الهدوء، فإن أولاد العم الذين اتخذوا أماكنهم في المضيف قد أحسّوا بموجة الإنزعاج المطبوعة على وجهه.

اتخذ مكانه الى جانب التمثال الذي صنعه هو بصورة بدائية، والذي يمثل فتاة واقفة بالحجم الطبيعي بشعر طبيعي أسود مسترسل وعينين سوداوين جاحظتين وشفتين حمراوين ووجه ناصع البياض. وراح يجيل عينيه المتعبتين في وجوههم المشدودة اليه ببلاهة. رغم وجود أرائك وكراس في النصف الثاني من المضيف فإنًهم جلسوا مباشرة على الأرض المفروشة بالسجاد والوسائد.

أطلقت عليهم فترة صمت غير قصيرة، خرقها هو:

«هل من جديد؟».

تبادل أولاد العم النظرات فيما بينهم. قال أكبرهم:

«أردنا ان نعرف الجديد من عندك أنت».

أجاب بلهجة جافة:

«أنا لا جديد عندي».

«سمعنا انهم سيأتون اليوم مساء لخطبة البنت».

«لا أدري بذلك، باب مضيفي مفتوح لكل فرد ولا يحق لأي انسان، مهما كان، ان يأمرني بسدّه».

«لم يأمرك أحد بسد بابك، ولكن زيارة هؤلاء لك هذا اليوم ليست مجرد زيارة اعتيادية».

«هل تريدونني ان آخذ موافقتكم لإستقبال هذا وذاك من الناس؟».

«نحن أخوانك، يجب ان تعرف جيداً بأنًنا اذا لم نوافق على شيء فلن يتم».

جلبت الفتاة أدوات الشاي في صحن ووضعتها أمام أبيها ثم انصرفت. لم يتكلم، بل انصرف

لصب الشاي وبعد فترة صمت تساءل بسخرية:

«البنت المعروضة للزواج هي واحدة، والأبناء المرشحون للزواج يتجاوزون العشرة، فهل اتفقتم فيما بينكم على العريس؟».

قال أحدهم:

«هذه ليست مشكلة، اذا وافقت الكردية العنيدة فإننا نستطيع ان نتفق فيما بيننا».

سحب صالح أفندي كمية من الدخان من سيكارته ثم ما لبث ان نفخ في الفراغ بحسرة:

«انظروا جيداً، لنكن واقعيين وصريحين مع أنفسنا. أنا في الحقيقة لا أدري ما اذا كان رستم أفندي وجماعته سيثيرون هذا اليوم مسألة الزواج أم لا، ولكنني قررت ان لا أتدخل في هذا الموضوع، واذا سألني أي انسان عن رأيي أحلته الى البنت وأمها. فهما وحدهما صاحبتا القرار».

قال الأصغر بلهجة استفزازية أثارت صالح أفندي:

«الكردي الذي يريد ان يتزوج من عائلتنا لم يُولد بعد. وأي اصرار في هذا الموضوع لا يؤدي إلاّ الى إراقة الدماء».

«أنت آخر مَن يحق له الحديث عن إراقة الدماء، وأمّا هذا الكردي الذي لم يُولد في نظرك، فموجود رغم أنفنا جميعاً. انه انسان مثقف وصاحب شهادة وبالاضافة الى ذلك فهو صاحب عشيرة، ثم ان كل واحد منا يعرف جيداً بأنه كان صديقاً حميماً للمرحوم عاصم بك، ولو لم يكن الآن ميتاً لتم الزواج منذ أكثر من عام دون ان يتمكن أي واحد منا ان يفتح فمه».

قال أحدهم:

«أنت اذن يا ابن عمنا متفق مع رستم أفندي، لذلك يريد زيارتك هذا اليوم».

«أنا لم أتحدث في هذا الموضوع لا معه ولا مع أي شخص آخر، ولكنني، ما دامت الأمور وصلت الى هذه الدرجة، أراه الرجل المفضل كي يكون نسيبنا. ثم أين هو الابن الذي يستحق البنت من أبنائكم؟ انهم كلهم حفاة وحاسرو الرؤوس لا شغل ولا عمل لهم، ومع ذلك لا تريدون التخلص من غروركم وحماقاتكم».

احتدم النقاش وبلغ حد المراشقات الكلامية والاستفزازات والصياح مما أدى بصالح أفندي ان يقوم من مكانه ويقول:

«الآن عرفت لماذا كان المرحوم عاصم بك يريد ان يبتعد عنا ويرفضنا دوماً. لقد كان محقاً فعلاً في موقفه وتأكيده بأنكم مجرد حثالات لا تستحق الاحترام».

وانصرفوا وهم يلعنون المرحوم عاصم بك وصالح أفندي ويقسمون بكل المقدسات ان لا يطأوا

هذا البيت مرة أخرى وبأن يعملوا المستحيل من أجل ان لا يتحقق هذا الزواج.

حاول أصغرهم ان يقنع الآخرين بقطع الطريق على رستم وجماعته وتهديدهم للحيولة دون تحقيق الزيارة، ولكن لم يؤيِّده في ذلك سوى اثنين ثم جمع عدداً من الأشقياء بحجة تأديب اليهود والاكراد الذين بدأوا يتطاولون على شرف العائلة.

عندما انتهوا من تناول طعام العشاء وأطبق الظلام على كل شيء التقوا كلهم في منزل رستم أفندي: اسحاق أفندي وشكري أفندي والفراش. وقبل ان يتركوا البيت سلم رستم الأخير فانوساً يدوياً قائلاً انه لا يمكن الاستغناء عن شيئين في الظلام، النور والسلاح. علق شكري أفندي بأن الفانوس قد يكون ضرورياً وأمَّا السلاح، فيحتاجه المرء حين يذهب الى معركة وهم الآن ليسوا في طريقهم الى جبهة القتال. قال اسحاق أفندي وهو يعدل من ترتيب سدارته:

«يبدو أنك تجهل طبيعة الكردي يا شكري أفندي، السلاح والمرأة، هما الشيئان الحاسمان بالنسبة اليه، المسدس في جيبه، وأمَّا المرأة، فنحن الآن في طريقنا إليها، أليس كذلك يا رستم أفندي؟».

أجاب رستم ضاحكاً وهم يغادرون البيت:

«خذ الحكمة من فم اليهودي».

ظلوا يتبادلون النكات والتعليقات الى ان وصلوا مرقد بير داوود ثم عرجوا الى الزقاق المؤدِّي الى منزل صالح أفندي يتقدمهم الفراش، وفجأة ظهرت أمامهم مجموعة من الرجال الملثمين، قاطعة عليهم الطريق، فوقفوا في أماكنهم بصورة لا إرادية. نهرهم الفراش بكلمات نابية طالباً إليهم افساح المجال لهم، فهم ضيوف صالح أفندي. ودون ان ينطقوا بكلمة انهالوا عليهم بالهراوات. تلقَّى رستم ضربة قوية على كتفه الأيسر، ولكنه استطاع ان يسحب مسدسه، فأطلق عدة عيارات في الهواء. وكان ان اختفى المهاجمون بأسرع من لمح البصر. وأمَّا هم فظلوا لبرهة مسمرين في أماكنهم. قال الفراش الذي أستلم حصة الأسد من العلقة، غاضباً مرتجفاً:

«أولاد العاهرة، سوف ينالون عقابهم، إنني أعرفهم جيداً».

رفع اسحاق أفندي سدارته الملقاة على الأرض وراح يمسح عنها الغبار:

«والآن الى أين يا رستم أفندي؟».

علَّق شكري أفندي وهو يتحسس مؤخرته بيمناه:

«أعتقد ان زواجك سيؤدي الى حرب عالمية يا رستم أفندي».

قال رستم بألم:

«أنا آسف جداً لأن يحصل كل هذا بسببي».

رد شكري بلا أبالية:

«ولا يهمك يا رستم أفندي، كل شيء يهون من أجل أيرك».

أكد لهم الفراش بأن هذا العمل الجبان إنّما موجه ضد صالح أفندي، وان الهدف منه هو افشال هذه الزيارة، ولذلك يجب ان يواصلوا سيرهم، وقبل ان يبلغوا منزل صالح، خرج أهل المحلة وفي مقدمتهم الأخير، على دوي الاطلاقات التي خرقت سكون الظلام.

قبل ان يتخذوا أماكنهم في مضيف صالح أفندي، اعتذر منهم هذا للحادث المؤسف الذي وقع في زقاقهم، وأكّد بأنّ الاعتداء انما حصل ضده هو وليس ضدهم، وانه يعرف جيداً من دبَّر ذلك وسوف يلقن هذه الحثالات درساً لن ينسوه. وقال انهم يستطيعون ان يقيموا الدعاوي ضد المعتدين، إن شاءوا، وانه على استعداد لحضور المحكمة ليشخص المعتدين الذين، يشكل قسم أقاربه الذين نبذهم في حينه ابن عمه المرحوم عاصم بك. ونوّه بصورة غير مباشرة الى السبب الذي دعا هؤلاء ان يتصرفوا بهذا الشكل الأحمق، وانه اعتباراً من هذا اليوم سينبذهم بدوره أيضاً.

تبادل رستم وجماعاته النظرات في ضوء اللمبة الزيتية ذات المظلة الحليبية بحواش متماوجة ومرآة عاكسة والموضوعة على منضدة صغيرة قرب التمثال الذي يشيع نوعاً من الرهبة في جو الغرفة، الأمر الذي ذكّرهُ بالكنيسة التي التقى فيها بمادلين في أيام دراسته بالموصل.

بادر شكري أفندي للكلام وقال انه في الحقيقة لم يتوقع أبداً حصول مثل هذا الاعتداء الذي لا يقوم به إلاّ أحط وأجبن الناس، ويترك مسألة اقامة الدعوى لرستم أفندي. عرف اسحاق أفندي ان رستم يفضل السكوت حالياً وفهم بإشارة منه انه قد آن الأوان للبدء بالموضوع الذي جاءوا من أجله:

«الحقيقة يا صالح أفندي، إنّنا جئنا اليك لمسألة فيها خير، وكنا قد قرّرنا فيما بيننا ان تكون هذه الزيارة مقدمة لزيارة أخرى، نفاتحك فيها بالأمر، ولكن يبدو ان الأمور اتخذت مجرى آخر. ولما كنت أنت بالذات قد أكدت على العلاقة الحميمة التي كانت تربط بين المرحوم عاصم ورستم أفندي، لذا فإنّنا في الواقع لم نأتِ من أجل نبش الحزازات وتوسيع شقة الخصومة بإقامة الدعوى على هذا أو ذاك، وإنّما لكي نرسخ تلك العلاقة القديمة ونجدّدها بمزج دم العائلتين. وإنّنا اذ اخترناك انت بالذات، فلأننا نعرف جيداً بأن جنابكم، كثاني شخص في العائلة بعد المرحوم عاصم بك، يستطيع حسم الأمر بكلمة واحدة منه».

تململ صالح أفندي في مكانه بجسده الضخم وقد انطبعت علامات الزهو والحرج على وجهه المدور:

«إن شأن عائلتنا يا اسحاق أفندي كشأن الدجاجة، فهي الى جانب وضع البيضات الطرية اللذيذة، تطرح فضلاتها الكريهة ايضاً. ان كلا الشيئين يخرجان من جحر واحد. تفضلوا انظروا للوضع بأنفسكم، العائلة نفسها التي أنجبت المرحوم ابن عمّي عاصم بك، أنجبت واحداً أو أثنين من هؤلاء الأوباش الذين قطعوا الطريق بنذالة وجبن. انا أحترمكم وأتشرف لزيارتكم وإنَّ رأيي في الموضوع الذي جئتم من أجله هو رأي الأم والبنت. وأمّا أولاد أعمامي الآخرين فقد أتمكن من التأثير على بعضهم عدا أصغرهم الذي لا شأن لي به فهو انسان جاهل ومتهور».

ظلوا يتسامرون بود، لم يحسبوا للوقت حساباً، الى العاشرة مساء. وحين ودعوه أراد صالح أفندي ان يرسل معهم رجلاً مسلحاً من أقاربه، بيد ان رستم قال بلهجة جادة، ان الذي سيتصدى لهم هذه المرة سيتطاير مخه في الهواء.

خلال ثلاثة أسابيع من هذه الزيارة، تمكن رستم وجماعته من إقناع جميع أولاد أعمام عاصم بك بالموافقة على الزواج، عدا أصغرهم الذي لم يفد معه حتى التهديد باقامة الدعوى ضده. وكان ان أرسل رستم خبراً الى كل من قادر وعباس يطلب فيه حضورهما الفوري إليه.

عرف رستم ان عدم موافقة فرد واحد على الزواج في داخل العائلة سيؤدّي الى المشاكل، تحول دون تحقيقه بسهولة، ولذلك قبل ان يبدأ بإجراء المراسيم الضرورية وتبليغه والده كريم وعمه نريمان وكل العشيرة بمشروعه، استشار قادر وعباس. هما اللذان رافقا طفولته وصباه وغامرا معه أيام الحرب وفي زواجه الأول، ورافقا زواجه الثاني وانقذا ابنه ولي من أحابيل حمه غريب...

وصل قادر وعباس بعد المغيب وهما يلهثان وحصاناهما يتصببان عرقاً ووغفاً من شدة التعب. استقبلتهما العجوز مطمئنة إيَّاهما بأن أي سوء لم يقع، بل بالعكس، كل شيء على مايرام.

كانت قد مرّت عليهم أكثر من سنة دون ان يلتقوا. راحوا يتبادلون العتاب والذكريات. ونقلا له أخبار ولي الذي يلتقيان به باستمرار وبأنَّهما مازلا لا يترددان الى قرية زوراب ثم أرادا ان يعرفا منه سبب استدعائهما اليه.

حكى لهما رستم قصة مشروع زواجه بالتفصيل الى أن وصل الى موضوع أصغر أولاد ابناء عم عاصم بك، وقبل أن يكمل كلامه، حكَّ قادر رأسه:

«أنت اذن تعد نفسك لفتاة تركمانية يا ابن عمّي رستم أفندي».

علّق عباس:

«لا شك ان طعم الأجنبيات يختلف عن طعم المرأة الكردية».

استمر رستم على كلامه وبيَّن لهما بأنَّ ممانعة أصغر أولاد العم قد تعرقل مجمل عملية الزواج، لذا يجب ان يسمع رأيهما هما اللذان رافقا كل الأحداث الحاسمة في حياته.

كانت العجوز تصغي اليهم بانتباه، وتحاول بين فينة وأخرى ان تجلب انتباههم بأنّها هي الأخرى قد لعبت دوراً حاسماً في حياة رستم. ظلَّ قادر وعباس يفكران في الموضوع بجد، وكل ما يعرفانه عن هذا الرجل هو انه يدير مقهى بطابقين ارضي وعلوي، وانه يستعمل الطابق العلوي كفندق لعابري السبيل وللمسافرين بين بغداد وكركوك، ثم علما من رستم بأنه يبقى في مكان عمله الى وقت متأخر من الليل وينام في معظم الأحيان هناك. تساءل قادر:

«هل تريدنا ان نؤدّبه أم نقنعه بالموافقة يا ابن عمّي رستم؟».

قالت العجوز:

«هذا الكلب لا يفيد معه أي كلام انه يجب ان يُؤدّب».

هزَّ رستم رأسه بالموافقة:

«كلام ننه صحيح، انه في كل الأحوال يجب ان يُؤدب لفعلته تلك الليلة».

علّق عباس:

«اذن سنزيحه عن طريقنا بطلقة واحدة على رأسه».

اعترض قادر باستنكار:

«كلا يا عباس، كل شيء وليس القتل، ان هذا سيتحول بعد الزواج الى قريب لنا».

أيَّد رستم والعجوز رأي قادر ونبذا فكرة القتل بصورة قاطَعة.

حكَّ قادر رأسه وأمال يشماغه وهو يحدق إلى الأرض:

«أنت اذن يا ابن عمّي رستم لا مانع لديك من تأديبه؟».

«كلا، بشرط ان لا تكسرا عظامه».

قبل ان ينتصف الليل بدقائق قفز قادر وعباس على ظهري حصانيهما بعد ان ودّعا رستم والعجوز، قال الأول: «غداً ستسمع أخبار صاحبك».

ذهبا أول الأمر الى المقهى، فلم يجداه هناك، ثم اتجها الى منزله الواقع في نهاية الزقاق المسدود قبالة المقهى مباشرة.

لقد سبق ان تركا خوض مثل هذه المغامرات منذ سنوات وبالضبط منذ مقتل الشرطي على يد عصابة أمين نادر، ليس خوفاً من العواقب، بل التزاماً لكلام عمّهم نريمان. ولكن الحنين لم يفارقهم أبداً لمثل هذه المغامرة. على ان انشغالهم بالتهريب ومشاكله قد لهاهم عن ممارسة أي شيء آخر. وتحوَّل التهريب عندهم الى هواية أكثر مما هو عليه كمصدر للرزق أو الغنى. كان بإمكانها جمع ثروة لا بأس بها، بيد ان اسرافهما وتبذيرهما الفلوس على المطاعم والفنادق

والتنقل بين بغداد وكركوك، كل ذلك حال دون ان تتجمع الثروة بين أيديهم. ولِمَ جمع الثروة؟ مَن أخذها معه الى القبر؟ حتى ولي نفسه أكّد عليهما مراراً وتكراراً بأنّ مال الدنيا زائل. وهكذا لا يرجعان الى التهريب إلا بعد ان يتأكدا بأن ما بقي في أيديهم ليس أكثر من مجرد الرأس مال الذي يجب ان يشتريا به بضاعة.

أطفآ كل الفوانيس التي صادفاها في طريقهما. وقفا بحصانيهما أمام الباب الخشبي الكبير في نهاية الزقاق المظلم الذي يخترقه بصعوبة نور النجوم المتلألئة الباهت. قال قادر وهو يترجل من على ظهر حصانه:

«قلع الباب من شأني».

ظلّ قادر يعالج الباب دون ان يقلع. علّق عباس:

«هذا الباب من صنع يهودي. إنّني سأفتحه لك من الداخل».

ودون ان ينتظر جواب قادر وقف فوق الحصان وقفز فوق السطح وما لبث ان فتح الباب ووقف وجهاً لوجه أمام قادر الذي بهت من سرعته.

ظلّ عباس واقفاً أمام الباب وأما قادر فاتجه الى الفناء، حيث ينام أفراد العائلة. وقع نظره على سريرين، أحدهما واسع بسياج خشبي تنام عليه زوجته مع طفلين، وآخر يتسع لشخص واحد. مال برأسه في وجه الرجل الغارق في النوم. أطبق كفيه على عنقه وهمس في أذنه:

«علي، علي، قم، بير داوود يريدك...».

فتح علي عينيه وهو شبه مغمى عليه. حاول ان يقول شيئاً، ولكن عبثاً. جرّه قادر من مكانه بقوة وهو يهمس في أذنه:

«هششششش، لا تحاول ان تتكلم، هيّا الآن الى بير داوود».

وانقاد الرجل اليه كالمأخوذ وهو يجر رجليه جراً. عندما بلغوا مرقد بير داوود، تمكن الرجل ان ينطق، فقال بصعوبة:

«أنا لم أفعل أي شيء، ماذا يريد مني بير داوود؟».

تذكر قادر ما قاله رستم حول العلقة المحترمة التي حصلت معهم بالقرب من مرقد بير داوود وان مجموع ضربات العصى الغليظة التي تلقوها قد تجاوزت العشر. ودون ان يسمع جواباً لسؤاله انهالا بالضرب على مؤخّرته. وحين بدأ بالصياح مزّق قادر ثوبه وشد به فمه ثم راحا يلهبان جسده بالضربات. ثم أوثقا يديه ورجليه والقيا به في مرقد بير داوود.

قبل ان يتركا المدينة، حاول عباس ان يقنع قادر بالمرور على رستم لإبلاغه بالخبر، بيد ان هذا أطلق حوافر حصانه للريح طالباً اليه ان يلحق به.

٣٥

إنَّه لشعور جميل مصحوب بلذة غريبة ان ينتصر الانسان على أعدائه ويحقق الهدف الذي صارعهم من أجله لفترة دامت حوالي السنتين. كما وان الثمرة التي سيقطفها بعد هذا الانتظار الطويل ستكون لا شك ألذ من أي شيء آخر. ها ان السيدة نفسها المتلفعة بالعباءة، والتي جاءت في حينها لتحذره بواسطة خادمته العجوز من التمشّي أمام باب عاصم بك، تأتي كي تبلغه بخبر موافقة جميع أفراد العائلة لاقترانه بابنة المرحوم عاصم بك. لم تدخل السيدة في تفاصيل الأمور، بل نقلت مجرد الموافقة مع اعتذار صغير للملابسات التي صاحبت القضية، ثم رجت العجوز بإرسال وفد نسائي من أقرب المقربين إلى رستم أفندي لطلب يد البنت من والدتها بصورة رسمية.

رغم موافقة الجميع وارسال الوفد النسائي الذي قدم خاتم الخطوبة للبنت والموافقة على موعد عقد القران وتسليم كامل جهاز العروس، جرت محاولة أخيرة لإحباط كامل العملية، وذلك بالسطو على دار عاصم بك وسرقة كل محتوياته، ليس جهاز البنت حسب، بل البيت كله. وعلم الجميع بأنَّ مدبّر العملية إنَّما هو علي، الذي يبدو انه لم يستفد من الدرس الذي لقّنه إيّاه كل من قادر وعباس. وكان ان جرى لقاء بين كل من رستم وصالح أفندي، الذي رأى بأنَّ مجمل العملية الانتقامية انما موجهة ضده هو وليس ضد رستم، فاستدعى ابن عمه الذي قال عنه انه لا يفيد معه سوى العصا.

رغم المحاولات المتكررة التى أكد فيها علي بأنه لا علم له بحادث السرقة، فإنَّ صالح أفندي لم يطل معه النقاش، بل أعطاه مهلة ٤٨ ساعة باستعادة كافة المسروقات وإلاَّ فإنهً سيودع في السجن. وحين انصرف هذا قال رستم بشيء من اليأس بأنّ التهديد بالسجن لا يثمر عن أي نتيجة، بيد ان صالح أفندي طمأنه مؤكداً بأنه يعرف ابن عمه جيداً وبأن أخشى ما يخشاه هو غرفة التوقيف التي سبق ان قضى فيها ثلاثة أيام وظلَّ يبكي ويصرخ طيلة الوقت كأي طفل.

يبدو ان عليًا، الذي أوجعه الضرب المبرح الذي تلقاه من قادر وعباس، أراد ان يثبت بأنّه يستطيع القيام بعمل انتقامي يسترعي انتباه الجميع، حتى وان كان هذا العمل لا يؤثر بأي حال من الأحوال على سير مجمل العملية التي تمت الموافقة عليها. المهم انه استطاع ان يفعل شيئاً ضد إرادتهم، ويكفي ان ابن عمه صالح قد استدعاه و «رجاه» ان يعيد المسروقات. وفي الليلة نفسها وفي وقت متأخر من الليل أُعيدت كلها الى بستان عاصم بك.

لم يكتف صالح أفندي بذلك، بل أوعز الى رستم ان يسجِّل دعوى ضد ابن عمه علي كي ينتزع منه تعهداً بعدم القيام بأي عمل، بيد ان هذا قدَّم التعهد دون ان يجشم رستم نفسه عناء الذهاب الي المحكمة، وعقب قائلاً: «لا تخف يا رستم أفندي، إنّنا من الآن فصاعداً قد أصبحنا أقارب، وإنَّك قد صرت عضواً في عائلتنا».

أجل، إنَّه فعلاً قد أصبح عضواً في عائلتهم، بل ان دماءه قد اختلطت بدمائهم من خلال أولاده الذين أصبحوا حلقات وصل بين العائلتين اللتين تنحدران من عنصرين مختلفين، ربما قد اقتتلا لمئات سنين مضت ولم يسبق لأي من الطرفين ان فكَّر ذات يوم بمثل هذا الاختلاط الذي كان يعتبر فيما مضى شيئاً مستحيلاً. وكم هو شديد حبه لهذه الفتاة الصغيرة العذراء التي لم تمسها حتى اشعة الشمس. ذكره بعض ملامحها بمادلين التي أحبَّها بعنف، بيد ان حبه الآن يختلف عن ذلك بكثير. شيء ما يشده اليها يوماً بعد يوم، شهراً بعد شهر عاماً بعد عام. ان الزمن يزيدها جمالاً وألفة. وكلما منحته وليداً جديداً، تعلَّق بها أكثر فأكثر. وأحسَّ بنفسه يتفجَّر شباباً وحيوية.

وكم أصبح الزمن سريعاً في حركته، حتى انه يكاد يرى النهاية تقترب لتضع حداً لهذه الحياة السعيدة التي لم يسبق ان عاشها، إلاَّ لفترة تسعة أشهر، مضت مثل سحابة صيف وتلاشت إلى الأبد. ترى، هل ستمضي هذه الفترة السعيدة من حياته بتلك السرعة أيضاً؟ وتلك الأيام الطويلة المملة، أيام الانتظار، لماذا كانت تقف جامدة لا تريد ان تتحرك؟.

أجل، إنَّه فعلاً قد أصبح عضواً في عائلتهم. ولكن، هل تحوَّل فعلاً إلى عضو حقيقي؟ أم إنَّه داخل قوسين ويُنظر اليه انساناً غريباً طارئاً دخل حرم العائلة في غفلة من الزمن؟

يعرِّف عن نفسه انه قد تحوَّل الى حالة فريدة، مغلقة على ذاتها. عائلة زوجته تحترمه، ولكنها لا تريد الاختلاط به أو احتضانه ووداي كفران يلومه لأنه لا يجد الوقت الكافي لزيارته وذلك بسبب تعلّقه الزائد بزوجته التي تمنعه من الإختلاط بأهله. انه يكاد يرى نفسه بين عدوين يتقاتلان في الخفاء. ورغم ان والده يدافع عنه باستمرار ويزوره دوماً، فإنَّ شعوراً خفياً بدأ يوحي اليه بأن سعادته هنا معرضة للخطر، وملَّ هذا الوسط الذي لم يعد يحس فيه بالحرية، حرية العيش مع عائلته التي تريد ان ينصرف لإسعادها فقط، دون ان يبدد وقته في أي شيء آخر.

وها ان عقداً من الزمن ينصرم كما لو انه سحابة صيف، دون ان يحسَّ بأي ملل مع زوجته التي منحته ثلاثة أطفال. ولكن، ما الذي حصل خلال هذه الفترة الطويلة التي مرَّت بسرعة؟ هل حدث ما يستحق الذكر؟... ربما أشياء صغيرة هنا وهناك. إلاَّ فإنَّ كل شيء قائم كشأنه سابقاً. في وادي كفران لم يحصل أي شيء جديد. قادر وعباس يتسكعان بين المدينة والريف، تارة ينشغلان بالتهريب وأخرى باللصوصية. وادي كفران الجبل ازداد انغلاقاً على نفسه ويبدو كما

لو انه لم يكن جزءاً مكملاً لوادي كفران السهل الذي أصبحت أبوابه مفتوحة أمام الحكومة التي فتحت في قرية زوراب مدرسة تضم الآن أربعة صفوف.

ورغم الزيارات المتكررة التي قام بها صديقه رمزي لإقناعه بالانضمام الى حركة هيوا الكردية، فإنّه لم يستطع ان يخفي يأسه من المحاولات التي تنادي باستقلال كردستان. وفي الحقيقة، لم يكن قد سمع بحدوث الحرب العالمية التي حدثت بين دول المحور والحلفاء، إلاّ بعد ان أخبره بها رمزي الذي قال له انه راقد في سبات عميق وبأنّه لا يختلف عن أي فلاح من فلاحي وادي كفران الغارقين في الجهل. لم يغضبه كلام رمزي، بل رده باستخفاف قائلاً بأنّه اذا شكل الحكومة الكردية فعليه ان يُعيّنه بواباً أو حارساً ليلياً في وزارته.

وأمّا صديقه صائب، الذي انقطعت أخباره منذ سنوات طويلة، فزاره هو الآخر ذات يوم بصحبة رمزي وبقيا عنده ليلتين، قضوهما بنقاشات طويلة ذكرتهم بأيّام الصبا وتبيّن لهم كم هم تغيّروا واختلفوا في آرائهم ووجهات نظرهم. كانت نقاشاتهم تتسم بالحدة كسابق عهدهم، بيد ان رستم الذي كان سعيداً بلقائهما، لم يأخذ كلام أي واحد منهما بجد، ورغم انه لم يحاول ان يكون طرفاً في النقاشات، فإنّه أوحى لهما بأنهما يحلمان وان أفكارهما لا يمكن ان تتحقق على أرض الواقع، ولاسيما أفكار صائب التي تؤكّد على حتمية انتصار الثورة البلشفية في جميع أنحاء المعمورة، وبأنّ راية دولة الفقراء سترتفع في كل مكان.

ومما جلب انتباهه أناقة صائب الذي بدا له ببدلته وعصاه وقبعته كما لو انه أجنبي قادم من أوروبا. ولم يخف عليهما صائب كونه قد اتصل في استانبول بمسؤولين من الشوعيين الأرمن والأتراك والذين أخذوا على عاتقهم توعية جماهير الشرق الغارقة في سبات عميق. ولما ظلّ رستم مصراً على عدم تجاوبه مع أفكاره، وصفه صائب بالبورجوازي الصغير الذي لا تهمه سوى مصالحه الذاتية وراحة باله. ويسمع رستم لأول مرة في حياته كلمة البورجوازي الصغير. ولما كان منذ صباه يحترم صائب ويعتبره الشخص الأول الذي يعرف الكثير، لذا وجه اليه كلامه مبدياً حيرته ما اذا كان هو فلاح ساذج، كما وصفه رمزي، أم انه بورجوازي صغير؟.

كان ذلك في نهاية مايس من العام ١٩٤١. وكانوا قد انتهوا من تناول طعام الفطور في منزل رستم. وقبل ان يبادر صائب للاجابة عن سؤال الأخير، جاءهم شكري أفندي الذي سبق له ان سمع جانباً من نقاشاتهم عن كثب ودون ان يساهم فيها. عرفوا من ملامحه انه محمّل بأخبار جديدة جاء لينقلها إليهم، اذ انه الشخص الوحيد بين المعلمين ممن يستمع إلى الأخبار بصورة منتظمة، حتى انه لا يكتفي بالاستماع إلى أخبار إذاعة بغداد، بل يرغم جهاز الراديو على التقاط الأخبار من الاذاعات الخارجية. وهو الشخص الوحيد في المدينة الذي يعرف تفاصيل تحركات جيوش المحور والحلفاء.

لم يفسح له صائب المجال كعادته للبدء بالحديث، بل راح يشرح بالتفصيل معنى كلمتي «الفلاح» و «البورجوازي الصغير» وعلاقتهما بالانتاج ودورهما في المجتمع الطبقي. قاطعه رستم معلقاً انه في كل الأحوال لا يفهم كلامه وانه أراد منه ان يعرف فقط ما اذا كان هو فلاحاً أم بورجوازياً صغيراً؟.

ردّ صائب باسلوبه التهكمي الممزوج بغرور جديد عليه:

«أنت يا رستم تحاول أخذ الأمور بصورة مجردة بعيدة عن الواقع. صيغة سؤالك مثلاً غير واقعية...».

قاطعه رستم بتهكم ايضاً:

«يا ناس، هل أنا فلاح؟ أم بورجوازي صغير؟».

علّق شكري أفندي:

«الحقيقة أنّني سمعت بكلمة البورجوازي وأمّا الصغير فلا».

قال رمزي بتهكم:

«أنت فلاح يا رستم».

رد صائب بصورة عفوية وبحزم:

«كلا، انه بورجوازي صغير».

تنفس رستم الصعداء:

«هذا ما أردت ان أعرفه يا ناس، لأن كل وادي كفران يؤكّد بأنّني نسيت أبسط قواعد الأخلاق الفلاحية».

عاد صائب إلى مواصلة كلامه دون ان يفسح مجالاً لأحد بمقاطعته. ولما أحسّ بتبرم المجلس، أنهى حديثه بنصيحة وجهها الى رستم مؤكّداً فيها على انه ليس بالضرورة ان يكون اشتراكياً أممياً مثله، بل يمكنه ان يحذو حذو رمزي فيكون وطنياً يعمل من أجل استقلال وطنه وهو بذلك يستطيع ان يخدم حركة البروليتاريا العالمية بصورة غير مباشرة. وقبل ان يبادر رستم للإستفسار عن معنى كلمتي «الأممية» و «البروليتاريا»، تدخل شكري أفندي قائلاً بحماس:

«إنّنا نرفض أي شكل من أشكال الأممية العبودية، بل ندعو الى الاشتراكية القومية التي ستدفن المستعمرين ولاسيما الانكليز الى الأبد».

نظر رستم باستغراب الى شكري أفندي الذي خُيِّل اليه كما لو انه يراه لأول مرة في حياته. أراد ان يقول شيئاً، بيد ان صائب وقف في مكانه بانفعال، كما لو انه يستعد لمعركة، وقال بسخرية وغضب:

«آها... بيننا الآن إذن فاشي من الرتل الخامس».

رد شكري أفندي بإنفعال:

«أنت تردد كلام الانكليز يا صائب أفندي، ان الفاشية أشرف بكثير من البلشفية المقيتة التي تحارب الدين والشرائع».

قال صائب مهدداً:

«يبدو انك انسان فضولي تافه تتدخل فيما لا يعنيك. مَنْ أنتَ حتى تتدخل في نقاشنا؟».

قام شكري هو الآخر من مكانه وراح يلوح بقبضته:

«واللّه لولا احترامي لصاحب البيت رستم أفندي للقنتك درساً لن تنساه الى الأبد».

هجم صائب على الكرسي محاولاً رفعه كي يضرب به شكري أفندي قائلاً ان الفاشيين الكلاب لا يستحقون سوى الضرب. ولكن قبل ان يشتبكا في الضرب بالأيدي، تدخل رستم ورمزي مفرقين إيّاهما. ومما زاد في هدوء الجو طرقات زوجة رستم على الباب، حيث جلبت لهم الشاي الذي تسلمه منها رمزي.

بعد فترة صمت قصيرة، حيث اتخذ كل واحد منهم مكانه في غرفة الضيوف، بادر رستم الى الكلام:

«الحقيقة أنّني لست ضد أي نوع من النقاش واما ان يتحول النقاش الى معركة، فهذه مسألة لا أقبل بها. إنّنا كلنا اخوان واصدقاء. واذا كنتم تريدون الاحتفاظ بصداقتي فأرجو احترامي واحترام بيتي».

اعتذر صائب وشكري لتصرفهما رغم ان كل واحد منهما حاول ان يثبت بأنّ الحق الى جانبه. وأكّد صائب بأنّهم يناقشون منذ يومين دون ان يبدر من أي واحد منهم بادرة سوء تؤدّي الى سوء التفاهم، ولكن بما ان هناك حرب عالمية بين المبدأين الشيوعي والفاشي فإنّه لا مانع لديه – وذلك احتراماً لرستم – من ان يدخل حالياً في هدنة مع غريمه شكري أفندي، الذي هو في الحقيقة عدوه.

لم يتمكن رمزي من إخفاء ابتسامته الساخرة:

«اننا نريد، رستم وأنا ان نستفيد من نقاشاتكما، فإذا كنتما مستعدين لمواصلتها بدون معركة، فمرحباً بآرائكما».

لا يدري رستم لماذا نقلته ذاكرته الى أيام زمان مجلس المرحوم جده زوراب، حيث النقاشات المحتدمة بين رمضان وميرزا وهابو من جهة وعمّه شيخو من جهة أخرى، والذي كان لا يأخذ

أي شيء محمل الجد. التقت عيناه بعيني رمزي اللاأباليتين وأضاف:

«بارك اللّه فيك يا رمزي، إنّنا فعلاً نريد ان نتعلم. لقد سمعت اليوم ثلاث كلمات جديدة دون ان أفهم عنها أي شيء. لقد اختلطت عليّ الأمور. عرفنا ان الاشتراكية هي دولة الفقراء، ولكن ألا تشرحا لي ما هو الفرق بين الاشتراكية الأُمميَّة والاشتراكية القومية؟ والمجتمع الطبقي؟ إنها رابع كلمة، اسمعها اليوم دون ان أفقه معناها».

وقف رمزي في مكانه وقال بحركة تمثيلية:

«والآن، الكلام لي أنا. سأشرح أنا معنى كلمة المجتمع الطبقي وأمّا البقية فسأتركها لكما انتما. انظر يا رستم. إنك لا شك رأيت وأكلت البقلاوة».

«طبعاً أعرف ما هي البقلاوة، ولكن ما علاقة هذه بالمجتمع الطبقي؟».

«انتظر يا عزيزي. إنّني أريد ان أضرب لك مثلاً ملموساً كي تتحول المسائل المجردة عندنا الى حالة واقعية. إنّنا اذا شبّهنا المجتمع بالبقلاوة، نرى ان للأول طبقات شبيهة بالأخيرة. تصور الآن صينية البقلاوة وهي موضوعة أمامك: الطبقة العليا تتكون من خليط من الجوز واللوز ومسحوق الهيل والزنجبيل، هذه الطبقة في المجتمع هي طبقة الاقطاعيين والبورجوازية الكبيرة. وأمّا الطبقة التي تحتها فتحتوي على العسل والسكر الممزوج بأحسن أنواع الدقيق، هذه في المجتمع هي طبقة الملاكين والبورجوازية المتوسطة والتجار الأغنياء، أما الطبقة الأخيرة الملتصقة بالصينية، والتي تبدو عليها آثار الحريق فتتكون من مجرد العجين الرخيص الممزوج بالسمن، وهذه الطبقة في المجتمع تمثل الفلاحين المسحوقين والعمال الكادحين والفقراء والبورجوازية الصغيرة التي أعتبرك صائب واحداً منها...».

هزّ رستم رأسه باستغراب:

«لقد فهمت الآن كل شيء».

علّق صائب وآثار الانفعال ما زالت بادية على وجهه:

«أنت تفهم الديالكتيك فعلاً يا رمزي».

قال رستم بحيرة كما لو انه يتحدّث مع نفسه:

«يا الهي، كلمة أخرى جديدة. هل أنت قاموس يا صائب؟».

انصرف ذلك اليوم دون ان يتمكن شكري أفندي من التحدُّث عن انتصارات هتلر. وسافر صائب ورمزي دون ان يفهم رستم محتوى الاشتراكيتين أو يتوصل الى أسباب الخلافات بين المعسكرين المتقاتلين.

٣٦

اعتاد رستم ان ينام ساعتين بعد تناول طعام الغداء. ولمّا كان أطفاله الصغار يضنون عليه بهذه الراحة المقدسة بسبب ضجيجهم ولغوهم، لذا وجد ان أحسن علاج للتخلص منهم هو النوم في بهو المدرسة، ولاسيما ان حر الصيف اللافح لم يتمكن من التسرب الى البهو المعتدل الرطب.

ذات يوم من أيام نهاية تموز، حيث شدة القيظ بلغت ذروتها في الظهيرة اللافحة التي أشاعت الخمول في كل مكان، فتح الفراش على غير عادته باب البهو وتسلّل محاولاً بقدر الامكان عدم ازعاج مدير مدرسته الغارق في نوم عميق. راح يهمس بصوت يكاد لا يسمع وهو يمس برفق كتفه:

«رستم أفندي، رستم أفندي...».

قطع رستم انفاسه الرتيبة، فاتحاً عينيه وملتفتاً الى الفراش:

«خضر؟ هل حدث شيء؟».

«رستم أفندي، هناك ضيف يبدو انه جاء من مكان بعيد، يقول انه يريد مقابلة مدير المدرسة».

قفز رستم من مكانه بدشداشته البيضاء الطويلة وعلامات الدهشة والاستغراب مطبوعة على وجهه المستطيل الذي يعلوه حاجبان كثيفان:

«ضيف جاء من مكان بعيد؟ تقصد من وادي كفران؟».

«كلا، رستم أفندي، إنه أفندي جاء بسيارة وسائقه عسكري مسلح».

التفت رستم بانفعال حواليه كما لو انه يبحث عن شيء. وقبل ان يتوجه الى غرفة الادارة لإرتداء بدلته، دخل الرجل الغريب برفقة رئيس عرفاء شرطة يحمل بندقية رشاشة وفراشاً سفرياً مع بعض الأمتعة.

اعتقد رستم في بادئ الأمر ان الشخص الغريب انما هو المفتش العام للتعليم، ولكنه أدرك بسرعة ان أي موظف لا يراجع المدارس في فترة العطل الرسمية ولاسيما في العطلة الصيفية، حيث تغلق المدارس أبوابها لمدة لا تقل عن الشهرين، ثم انه يعرف كل الموظفين العاملين في مديرية المعارف، فظلّ لهنيهة حائراً تجاه هذا الشخص الذي راح يحييه ببشاشة وثقة. وبدت له ملامحه غير غريبة عليه فلا شك انه رأى صورته في جريدة «الأخبار» التي تصله يومياً بانتظام. انه لا شك سياسي كبير، ولكن لماذا جاء اليه هو بالذات؟

اعتذر رستم كونه بملابس النوم واسترخص منه ان يسمح له بدقائق كي يرتدي البنطال، بيد ان الرجل الغريب ضحك، مانعاً إيَّاه من ذلك ومؤكِداً بأنه هو الآخر سوف يستبدل ملابسه كي يأخذ قسطاً من النوم. وفي أثناء ذلك كان العريف قد انتهى من فك الفراش السفري وفرشه.

أوعز رستم بانفعال الى الفرّاش بالذهاب الى البيت لجلب الأكل واللبن للضيف، بيد ان هذا ضرب على كتفه ببشاشة مؤكِداً له بأنه لا يشك في كرمه الحاتمي، وان في حوزتهم ما يكفي من الطعام واللبن. وعندما أراد الفراش الذهاب بعد إلحاح مديره، منعه العريف بأدب ثم رجاه ان لا يلح في ذلك وان عليه البقاء هنا لحين سفرهما ثم طلب اليه ان يذهب الى غرفة الادارة ويأخذ راحته.

تناول الرجل الغريب عدة جرعات من اللبن البارد المحفوظ في زجاجة الترمس ثم طلب الى رستم ان يتجول معه في أرجاء المدرسة. عرف رستم بأن هذا الرجل، الذي ترسخت ملامحه في ذهنه بقامته القصيرة ووجهه المدور إنما هو رئيس الوزراء نوري باشا السعيد. وأحسَّ بلسانه كما لو انه قد شُلَّ. قال له نوري السعيد انه في طريقه من بغداد الى الشمال لمهمة سرية ولزيارة بعض أصدقائه المخلصين من رؤساء العشائر الكردية والشخصيات المسؤولة، وانه فضَّل زيارته هو، بدل القائمقام، ذلك لأن الأخير انسان غير مرغوب فيه وذلك لعلاقته المشبوهة بالنازيين. ثم شرح له باختصار مَنْ هم النازيّون وكيف انهم قاموا بفتنة في بغداد للسيطرة على الحكم لتقديم العراق لقمة سائغة لكبيرهم المجنون هتلر، الذي يريد السيطرة على العالم. ثم راح يتنبأ عن سقوطهم الحتمي والمصير الأسود الذي ينتظرهم على يد العدالة.

فكَّر رستم: يا الهي، أهذا هو فعلاً نوري باشا السعيد الذي قال عنه صائب أنه عميل الانكليز؟ ثم تذكر شكري أفندي وتردّده الدائم الى القائمقام، والآن عرف لماذا يتردّد الى القائمقام... ولكن ماذا يريدون؟ ليت صائب بقي عنده فترة أطول لتمكن إذ ذاك ان يتعلم منه الكثير.

مرّا بكل الغرف ثم خرجا الى الساحة الغارقة في اشعة الشمس وعرجا إلى الحديقة المكتظة بأشجار الرمان والتوت:

«ذوق جميل يا رستم أفندي، فكرة الحوض في منتصف الحديقة جميلة جداً، هل هذه فكرتك أنت؟».

«الحقيقة يا سيدي فكرة الحوض أخذتها من عمّي المرحوم شيخو بك».

وقف نوري السعيد وتساءل باستغراب:

«شيخو بك؟ تقصد رئيس عشيرة وادي كفران؟».

«نعم يا سيدي».

«وهل هو عمك فعَلاً، أم تسميه مجازاً بالعم؟».

«انَّه عمّي الحقيقي يا سيدي».

ضرب بيمناه وبقوة على كتفه قائلاً بانشراح:

«يا لها من صدفة غريبة. شيخو بك هو عمك الحقيقي وأنت تعمل في التعليم؟ لماذا يا رستم أفندي؟ إنّ مكانك ليس هنا».

«الحقيقة، حاول المرحوم عمّي شيخو مراراً وتكراراً ان يدفعني للعمل في الادارة، ولكنني فضلت التعليم لأنّني لا أحب المشاكل».

حدّق نوري السعيد الى عينيه متسائلاً:

«هل تعتنق مبدءاً معيناً يا رستم أفندي؟ أجب بصراحة إنّك ابن عمّي».

تذكر رستم لقاءه مع مستر جون والذي مضى عليه حوالي العقدين من الزمن فأجاب:

«الحقيقة يا سيدي، يقال عنّي بأنّني مدير مدرسة ناجح، فبخلاف هذا النجاح لا أعرف أي شيء في السياسة. مبدئي في الحياة هو الاستقامة مع الذات ومع الآخرين».

«انظر يا رستم أفندي، إنّني بحاجة، أقصد ان الدولة بحاجة الى أمثالك من الناس المستقيمين ممن تقف وراءهم عشيرة كبيرة مثل عشيرتك، فهل ستنفذ طلبي أم سترفضه مثلما فعلهُ مع عمك المرحوم شيخو بك؟».

«حاشا ان أرفض طلباً لجنابكم يا سيدي».

قال نوري السعيد بلهجة حازمة:

«انظر يا رستم أفندي، إنّني الآن وضعت فيك ثقتي. وإنّي آمل بأنّك لن تخيب ظنّي».

«ليكن اللّه شاهداً يا سيدي بأنّني لن أخيب ظنكم».

«إنّني سأرجع الى بغداد بعد شهر أو أكثر، أي بعد ان يتم القضاء النهائي على آثار الفتنة التي أشعلها النازيون، عملاء هتلر، إذ ذاك ستأتي بنفسك الى بغداد وتتصل بي شخصياً. لا تنسَ ان تجلب معك شهاداتك وأوراقك».

جلس نوري السعيد قرب الحوض الصغير وراح يغسل يديه ووجهه ثم قام من مكانه متوجهاً الى البهو وهو يردد:

«نحن بحاجة الى أمثالك يا رستم، بحاجة الى المثقفين لا يهتمون بالسياسة، لقد ابتلى هذا البلد بمرض السياسة، حتى العربنجي وبائع الشلغم يتصرف كما لو انه خبير في السياسة. شعب لا همَّ له سوى الشغب والفوضى وأمّا الموظفون فكلهم لصوص».

انتهى العريف من إعداد الشاي بطباخ سفري ونشر سفرة الطعام على منضدة سفرية صغيرة. أراد رستم ان يذهب إلى غرفة الادارة بيد ان نوري السعيد أبى إلا ان يشاركه رستم الطعام ثم وجه كلامه الى مرافقه قائلاً:

«قادر، ألم أقل لك انه من المستحسن ان نذهب الى مدير المدرسة وليس الى القائمقام؟ هل تعرف بأن رستم أفندي هو ابن عمّي؟ عند عودتنا الى بغداد سيزورنا هناك».

قال العريف وهو يصب الشاي:

«نية قلبك الطيب صافية يا سيدي. اللّه لا يجازي الذي يخونك».

بعد الانتهاء من تناول الطعام استلقى نوري السعيد على فراشه طالباً الى رستم ان يأخذ راحته ويستلقي على فراشه كي يواصل نومه.

«كلا يا سيدي، من المستحيل ان أفعل ذلك، ارجو من جنابكم ان يسمح لي بإبلاغ أُم الأولاد بإعداد طعام العشاء».

قال نوري السعيد بحزم وهو يستسلم للنوم:

«كلا يا رستم أفندي، إنّك ستبقى هنا الى ان أستيقظ أنا من النوم، والآن يمكنك ان تذهب الى غرفة الادارة ان شئت».

توجه رستم إلى غرفة الادارة قائلاً:

«نعم سيدي».

قام الفراش من مكانه متسائلاً بهمس:

«مَن هذا الموظف الكبير يا رستم أفندي؟ يبدو لي إنّه هارب».

لوّح له بيده ان يجلس ولا يفتح فمه، وأضاف بهمس يكاد لا يسمع:

«هسس انه مسؤول كبير جداً لم يقل لي اسمه حتى الآن».

عندما استسلم نوري السعيد للنوم، توجه العريف إلى غرفة الادارة وطلب من رستم بكل أدب ان يسلمه مفاتيح المدرسة ورجاهما بعدم ترك البناية ثم قام بجولة في الغرف والساحة والحديقة وعاد من جديد إلى غرفة الادارة حاملاً اليهما قوري الشاي والاستكانات ثم عاد الى مكانه الأول جالساً القرفصاء وحاضناً بندقيته الرشاشة.

أستيقظ في الرابعة عصراً وخلال ربع ساعة تهيئنا للسفر. اختلى برستم في غرفة الادارة، أكّد عليه بضرورة زيارته (له) في بغداد في نهاية الشهر الثامن أو بداية التاسع. وبعد ان ناوله بطاقته الشخصية مع عدة أرقام تلفونات، نصحه ان لا ينقل خبر حلوله عنده الى أي انسان مهما كان.

كان الشارع الغارق في أشعة الشمس اللافحة مقفراً. وتحركت السيارة تاركة المدينة، دون ان يحس بها أحد، إذ ان القيظ الحارق كان قد أوصد الأبواب على الكل.

قرّر رستم والفراش ان يبقى أمر هذا الضيف الطارئ الذي فرض عليهما الاقامة الجبرية لأكثر من ساعتين سراً فيما بينهما، وإلاّ فإنّ العاقبة تكون وخيمة. ولم يبح رستم للفراش حتى بإسمه.

٣٧

بعد إلحاحات طويلة ومحاولات مستميتة من أجل الاقتران بالغجرية وافق شيخ الغجر على زواج ابنتهم وردة من عباس، على ان لا يستقر هذا في مكان معين، بل يتنقل معهم ويحترم عاداتهم وتقاليدهم ويكون واحداً منهم. لقد توصلوا الى هذه النتيجة بعد محاولات دامت عدة أعوام لم يضبط عددها لا عباس ولا قادر. ويبدو ان كس الضبعانة الذي يحمله عباس دوماً قد لعب دوراً حاسماً، ليس في اقتناع شيخ الغجر من مسألة الزواج حسب، بل ان وردة نفسها راحت تهيم حباً بعباس، الذي كانت فيما مضى لا تمنحه حتى لفتة عطف بسيطة. وأمَّا الآن فإنَّ كل شيء قد تغيّر. إنَّهما يلتقيان سراً ويتبادلان لذة الحب ويضعان مختلف الخطط لحياتهما المستقبلية. حتى ان قادر راح يفكَر في مصيره لأول مرة بجد، فقرر ان يقوم بأحد الأمرين. إمَّا ان يتزوج هو الآخر أو يجد لنفسه صديقاً يشاركه تشرده.

عندما تأكَّد عباس بأن الهدف الذي عمل من أجله لسنوات طويلة يكاد يتحقق، اجتاحه شعور غريب كدَّر مزاجه لأيام دون ان يعرف السبب. ولكن سرعان ما اتضح له السبب عندما بدأ لأول مرة في حياته يفكِّر في مستقبله بجد. ان مجرد الارتباط بزوجه ستنجب له الأولاد وتضعه أمام مسؤولية تحمل التزامات الحياة العائلية، منها الابتعاد عن حياة التشرُّد، مسألة لا يمكنه تصورها بسهولة، ناهيك عن ان شيخ الغجر يريد ان يفرض عليه شروطاً قاسية، لا يمكنه تحقيقها بالمرة. هذا كله الى جانب التضحية بصداقته الأبدية مع صديقه وأبن عمه قادر، الذي يرفض رفضاً قاطعاً التخلُّص من حياة التشرد.

ظلت علاقة قادر وعباس بعمهما كريم وولي وعرب الحويجة كسابق عهدها. ولم تؤثِّر مسائل الربح والخسارة على هذه العلاقة التي صقلتها الأعوام الطويلة بتبادل الخبر والتعرُّف على عدد كبير من التجار والمهربين سواء من الراكضين وراء المال والثراء أو من الجشعين والكرماء الذين ينظرون الى الفلوس باحتقار. ويبدو ان الاحتكاك المستمر بولي، الذي اشتهر في المنطقة بكرمه وعدالته وتواضعه ووضعه طاحونته في خدمة الفقراء، جعلهم هم ايضاً بدورهم لا يبالون بالمال، حتى ان حمود حاول ان يقلِّد ولي في فتح تكية يتقاسم فيها أهل القرية الطعام، ولكنه اكتشف بعد أشهر بأن عدد البدو القادمين من المناطق المجاورة، بل حتى من مناطق بعيدة لا يعرفها، يتزايد داخل التكية، بحيث لم يعد هناك مكان لأهل القرية نفسها. ومما زاد في أعبائه المالية انهم كانوا يأكلون ويشربون يومياً ثلاث مرات دون ان يعملوا أو يجلبوا معهم أي شيء

يمكن ان يفيد مطبخ التكية. وحين روى حمود حكاية تكيته لولي، ضحك هذا قائلاً: «ان هذه ليست تكية يا كاكه حمود، هذه تنبلخانة. ان الذي يأتي الى التكية يجب ان يجلب معه ما يزيد بكثير على استهلاكه الشخصي».

كان الثلاثة قادر وعباس وحمود، أينما حلوا يستقبلون بكل رحابة صدر ويحسون هم أنفسهم كما لو أنهم ليسوا ضيوفاً، بل أصحاب البيت، سواء في وادي كفران الجبل أو السنجق أو في كركوك وحويجة. كانت الأرباح التي يتسلمونها بيمناهم يبددونها بيسراهم. حتى ان عباس عندما راح يفكّر في شراء بيت في كركوك ليجعل منه عشاً لحياته الزوجية المقبلة، سخر منه قادر قائلاً بأنّه في كل الأحوال لا يستطيع الاستقرار اذا تزوج من الغجرية، فلمَ صرف الفلوس في غير محلها؟... إنها يجب ان تُصرف على الأكل الجيد والملابس الغالية وشراء الهدايا للأقارب والأصدقاء. وعندما تمَّ فتح ملهى في كركوك، قرَّروا ان يحضروا حفلاته رغم تحفظات حمود الذي كان يخشى الفضيحة. ومن حسن حظهم ان الحفلات كانت تبدأ في وقت متأخر من الليل.

ذات يوم جاءهم أحد أقارب حمود وقد طار عقله وبدا كما لو انه تلقّى ضربة من الشيطان وقد امتلأ عشقاً للراقصة اللبنانية التي قضى معها الليل كله صارفاً عليها خمسة دنانير.

«يا حمودي شأحجيلكم، هي مريّة؟ لو قيمر تنوكل أكل؟ والله لو عندي ميت دينار لصرفتها عليها...».

وراح الرجل يصف باسهاب كيف تسلّل الى الملهى دون ان يراه أحد من معارفه، بعد ان ارتدى أحسن ملابسه متشبهاً بشيوخ العبيد. ورغم تلذُّذ حمود بكلامه، فإنه لم يستطع ان يتمالك نفسه، فقاطعه:

«ولك طرطور، هو أكو شيخ يمشي بليه زلمة وراه».

«هسه خلينا من سوالفك يا أبن عمّي».

وراح يسترسل في وصف المكان وكيفية دخول وخروج الراقصات والمغنيات. وأمّا الثلاثة، قادر وعباس وحمود فكانوا ينظرون اليه وقد فغرت أفواههم وهم بين مصدق ومكذب. وظلَّ هو يصف بإعتزاز جسد صاحبته وكيف انه ذهب معها الى فندق.

«ما شفت أهناك واحد عرف؟».

«لا بالله ولا عرف. العرف اللي يشوفك بالداخل مو مشكلة. المشكلة هي العرف اللي يشوفك وانت تدخل الملهى».

كانوا اذ ذاك قد أجّروا بيتاً صغيراً يحتوي على ثلاث غرف وحوش صغير في منطقة كاورباغي، تخدمهم امرأة عجوز من أقارب حمود. كانت محتويات البيت عبارة عن أربعة أفرشة وبعض

أدوات الطبخ وعدة صحون. أكبر الغرف اتخذوها سكناً لثلاثتهم، والتي يليها في الحجم تستعمل كمخزن للبضائع المهربة، وأما الثالثة والتي هي أصغرها كلها فكانت تستعمل كمطبخ وكسكن للعجوز. لم يكن الغرض الأساسي من ايجار البيت هو السكن، بل محطة للقاءات وحفظ البضائع، ولاسيما التبغ. ولما كان تواجدهم في البيت غير منتظم، لذا فإنَّ العجوز كانت لا تحسب أي حساب لرواحهم أو مجيئهم سواء من حيث إعداد الطعام أو الأنتظار. وغالباً ما كانوا يأتون في وقت متأخر من الليل أو يتركون البيت مبكراً جداً قبل ان يشق الخيط الأبيض ظلام الأفق الشرقي. كان نومها خفيفاً مثل نوم القطة، كما تقول هي، ورغم انهم كانوا يتسللون بخفة متناهية سواء إلى خارج البيت أو داخله، فإنَّها تحس بهم. وتدعو الله ان يحميهم من كل شر وبلاء.

ذات يوم لاحظت العجوز انهم ارتدوا ملابس جديدة. ومما استرعى انتباهها الغطرة الحريرية اللماعة لحمود والمشكي البنفسجي الذي لفَّه قادر حول يشماغه الاعتيادي، بحيث بدا رأسه كبيراً الى درجة ملحوظة، فعلقت:

«ابني حمود جنك بها الغطرة شيخ العبيد وأما كاكه قادر فهو من كاعه آغا».

إذ ذاك تأكدوا ان خطتهم في التشبه بالشيوخ والآغوات قد نجحت. حمل كل واحد منهم في جيبه عشرة دنانير. ورغم انهم لم يصدقوا كلام قريب حمود، إلاَّ انهم التزموا بتوصياته بخصوص التواجد في الظلام أمام باب الملهى الذي يكون عادة مفتوحاً.

عندما اجتازوا البوابة الكبيرة، استقبلهم أفندي أنيق ممتلئ بادر لمصافحتهم واحداً واحداً وهو يكرِّر: «أهلاً وسهلاً بالشيخ، أهلاً وسهلاً بالشيخ». قادهم الى مائدة قريبة من المسرح. كانت الكراسي والموائد الموزعة بانتظام في الهواء الطلق تنتظر روادها، والعتمة تضيئها أضواء ملونة خافتة تضفي على الجو المنعش لنهاية أيلول مسحة شاعرية.

التفتوا حواليهم بفضول دون ان يروا وجهاً نسائياً. قال قادر وهو يميل شدة رأسه الكبيرة باتجاه جبينه:

«كاكه حمود، أنا ما أشوف مريه، أخاف هذا ابن عمك ضحك علينا».

أضاف عباس:

«بالله العظيم هذا مجرد مطعم لا غير».

قال حمود مهدِّداً:

«والله لألعن والديه اذا كذب علينا».

في هذه اللحظة صعد على المسرح اعضاء الفرقة الموسيقية حاملين آلالتهم الموسيقية. أشار قادر بيده اليهم:

«شوف، شوف كاكه حمود هذولة المغنين».

علّق حمود بانشراح:

«اذاً أكو موزيقة، لازم أكو نسوان، ابن عمّي عليوي ما يقدر يضحك عليّ».

حضر النادل وأخرج قلماً وورقة سائلاً إيّاهم عمّا يحبون شربه، ولما سأله حمود عن أسماء المشروبات، ردّد: بيرة، عرق، ويسكي، شراب أحمر وكونياك فرنسي... ثم همس في اذن حمود بأنهم يستطيعون دعوة أي فنانة إلى مائدتهم. قال حمود بصورة عفوية: «لعد هذا الملعون ابن عمّي ما جذب خبر». لم يفهم النادل الأثوري كلامه، فانحنى عليه سائلاً إيّاه عما يريده. أجاب حمود انه يريد ثلاثة قناني بيرة ومزة. كان قد سمع اكثر من مرة بأنّ البيرة هي من أخف المشروبات الروحية ولا يمكن ان تطيح بالانسان مثلما يفعله العرق أو الويسكي وبأنّ البيرة أو أي مشروب كحولي آخر لا يمكن ان يشرب، إلاّ بالمزة التي تتكون من مقبلات وأطعمة خفيفة.

عندما أحضر النادل أطباق المزة وقناني البيرة، بدأ أعضاء الفرقة الموسيقية بإحداث أنغام موسيقية أوقفت اللغط والضجيج اللذين راحا يرتفعان مع الامتلاء المفاجئ للمكان بالجمهور.

والآن بعد ان تأكّدوا بأن ابن عم حمود لم يضحك عليهم، راحوا يلتزمون بنصائحه بخصوص الشرب ببطء وعدم الافراط به، تناول المزة مع الشرب، لأنها تمنع السكر السريع. عدم التهافت على النساء، بل التظاهر بالهيبة والكبرياء.

ما ان بدأت الراقصة المصرية بهزّ بطنها، إلا وبدأ الصفير وكلمات الاعجاب تنطلق من الجمهور. ومرّ الوقت بسرعة والمغنيات يتعاقبن على المسرح وهنّ يغنين بدلال وغنج ثم قدّمت مسرحية هزلية بلا محتوى انتزعت ضحكات الجمهور للغباء الذي تصنّعه الممثلون وعندما اعلنت فترة الاستراحة، كان السكر قد بدأ بمفعوله في رؤوس المتفرجين. واتخذت الفنانات أماكنهن في المقاعد الأمامية المخصّصة لهن. ويبدو ان الشخص المسؤول عن توزيع الأماكن يعرف زبائنه بصورة جيدة، يعرف الغث من السمين، وفي ضوء ذلك يتم الجلوس سواء بالقرب من موائد الفنانات أو المكان القريب من البوابة الخارجية. فهو يعرف مثلاً بأنّ الأفندية المبالغين في أناقتهم ببدلاتهم الداكنة وقمصانهم البيضاء وربطات أعناقهم المشدودة بعناية، ليسوا أكثر من مجرد مظهر فارغ لا يعكس محتوى جيوبهم، فهم يقضون المساء كله بقنينة بيرة واحدة ولا يستطيعون ان ينالوا من أتفه فنانة سوى نظرة عطف واحدة. هؤلاء كانوا يجلسون في منتصف القاعة، تماماً بين فئتين مختلفتين، فئة أصحاب الجيوب السمينة وفئة الصعاليك، الذين لا يملكون الجيوب أصلاً. وأمّا المقاعد الأمامية، فتكون عادة من نصيب الشيوخ والآغوات والمقاولين والحرفيين الماهرين وأسطوات البناء.

لاحظ قادر ان الموائد المجاورة لهم حافلة بأنواع كثيرة من المشروبات، حتى ان بعضها لا تحتوي على البيرة التي اعتقد انها مشروب عادي، رخيص، ومما اثار حفيظته النظرات التي تلقيها عليهم ثلاث فنانات جميلات تصورهن حوريات نازلات من الجنة. ضرب بمرفقه حمود، الذي كان هو الآخر يتبادل النظرات معهن:

«كاكه حمود، بيرة مالي خلص. اطلب مشروب آخر».

وقبل ان ينتظر جواب حمود، التفت الى عباس الذي أنشدت عيونه الى الجارات الثلاث اللواتي بدأن بالابتسامات والغمزات:

«عباس، هذا اليوم ستنسى حبيبتك الغجرية».

وضع حمود مرفقيه على المائدة مقرباً رأسه منهما كما لو انه يريد ان يتشاور في أمر ما:

«العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن، حتى الآن بعنا ثقل، والآن ماذا لو ندعو ذني الثلاثة الى مائدتنا؟».

قال عباس:

«والشرب؟ أعتقد أول مرة لازم نطلب شرب».

«ابن عمّي عليوي، هذا الطنطل قال، الشرب لا تطلبوه أنتم، بل اتركوا الخيار لهن، لأنهنَّ يشربن ايضاً».

علق قادر بدهشة:

«سبحان اللّه، امرأة تشرب الخمر؟».

هزَّ عباس رأسه:

«رحم اللّه عمّي رمضان، لو كان الآن هنا مع ميرزا وهابو».

جلب النادل عدة صحون مزة وسأل ما اذا كانت لهم رغبات معينة، فأجاب حمود انه يحب أن يدعو الفنانات الثلاثة إلى مائدته، اذا كنَّ يرغبن في ذلك، وأمَّا الشرب، فيتركه لذوق الفنانات أنفسهن. سرعان ما أضاف النادل ثلاثة كراسي الى المائدة ثم توجّه الى النساء مرافقاً إيَّاهُنَّ إلى مائدتهم. يبدو ان كل واحدة منهن قد اختارت مسبقاً الشخص الذي ترتاح اليه أو تناسبه. السمينة القصيرة، ذات الشعر الأسود الملفوف واللون الأسمر اتخذت مكانها جنب قادر. النحيفة الجميلة ذات الشعر الكستنائي الطويل المسترسل، التي يبدو عليها الهدوء من خلال عينيها الناعستين جلست جنب عباس، وأمَّا الطويلة ذات الشعر الأصفر والعيون الخضر المتميزة بالغنج والدلال فجلست قرب حمود. ويبدو ان هذه هي التي تحسم الأمور بين مجموعتها، فسألت حمود بعد ان وضعت يدها برفق على ساقه ما اذا كان السادة مرتاحين من التوزيع. أجال حمود عينيه

بين وجهي قادر وعباس اللذين يبدو عليهما الارتياح، فأجاب ان كل شيء على ما يرام وبأنه يحب ان يعرف رأيهن في الشرب، فأشارت هي بنفسها إلى النادل ان يزودهم بالويسكي والصودا وكمية كافية من الثلج والمزة ولاسيما السلاطة.

وبدأن هن بالحديث والاستفسارات التي هي كانت أقرب إلى التحقيق منه إلى مجرد الفضول:

أراد حمود ان يدّعي انه من شيوخ العبيد، ولكنه تذكر كلام ابن عمه عليوي الذي حذرهم من الكذب، فقال انه تاجر من أهل الحويجة:

«آها، تاجر. يعني ثري».

«يعني».

بدا من لهجتها انها لبنانية، ولكنها كانت تضبط اللهجة العراقية:

«تاجر ايش؟».

«يعني، هذا اللي يتحصل، أغنام، خيول، حنطة، شعير».

قالت محركة يديها بدلال:

«آه، خيول، كم أحب الخيول. هل يمكنك ان تشتري لي حصاناً؟».

«عالعين والراس، أصير لك حصان».

قادر وعباس قالا أنهما من أغوات وادي كفران، فاستفسرت السمينة ما إذا كانا يعرفان نريمان بك؟

«كيف لا نعرف نريمان بك؟ انه عمنا، ولكننا اختلفنا معه وتركناه إلى وادي كفران الجبل».

سأل عباس:

«وأنت؟ هل تعرفين رستم أفندي؟».

هزّت السمينة رأسها بالنفي.

وتشبعت الأحاديث والاغراءات وكلمات الاطراء والوعود. وعلموا منهن أنهن هنا في كركوك بصورة مؤقتة وأنهن سيسافرون بعد شهر إلى بغداد حيث سكنهن الدائم. وأقسم كل واحد منهم تحت تأثير السكر بأغلظ الايمان، بأنه سيسافر الى بغداد للقاء بصاحبته. وأعلن عباس أكثر من مرة بأنّه هام بذات العينين الناعستين.

واتفقوا على ان يتسللوا الى الفندق بعد دفع الحساب، على ان يتركن هنَّ المائدة قبلهم، لكي لا يجلبوا انتباه الآخرين.

بعد عدة فواصل غنائية ورقصات، وبعد ان استطاعت كل فنانة من ان تضمن الزبون الذي

ترتاح له، سواء من حيث الشكل ام الامكانية المادية ومع اقتراب مؤشِّر الساعة من الحادية عشرة والنصف، أعلن مقدم البرامج انتهاء الحفلة وتمنى للجميع ليلة سعيدة، على امل اللقاء غداً في تمام الساعة التاسعة مساء و«طابت ليلتكم».

رغم انهم اتفقوا على كل شيء: المبيت معهن حتى الصباح على ان يدفع كل واحد منهم خمسة دنانير، فإنّهم لم يصدقوا كل شيء، بل تصوروا مجمل العملية انما هي لعبة ومجرد ضحك على الذقون. تشاوروا أمام باب الفندق المجاور للملهى لأكثر من ربع ساعة، كادوا خلالها ان يعدلوا عن رأيهم ويعودوا إلى البيت، إذ ان قادر ظلَّ يلح، بأن هذه النساء لسن عاهرات، وانه يخشى ان يتورط بمشكلة مع صاحب الفندق قد تؤدّي بهم إلى مركز الشرطة. وقبل ان يتوصلوا إلى قرار قاطع، نزلت الشقراء صاحبة حمود وراحت تستفسر عن سبب عدم صعودهم وما اذا كانوا يعانون من ضائقة مالية:

«لا، لا، أبداً، أحنا جايين يا حبوبة...».

واقتفوا خطواتها السريعة صاعدين السلم إلى الفندق. مرُّوا بالادارة واجتازوا الردهة الضيقة ودخلوا غرفة في آخر الممر. الغرفة التي تضيئها أنوار حمراء خافتة، تنقسم الى جناحين، كل جناح يحتوي على سريرين واسعين بأغطية حمراء وثمة في منتصف الغرفة منضدة تحيطها كراسي. كانت النساء شبه عاريات والسيقان تلمع تحت الضوء الأحمر الخافت. أطفأت النحيفة ذات العينين الناعستين سيجارتها وقامت من مكانها معانقة عباس:

«هاي وينك يا عبوسي؟ صار لي شهر ما نايمة ويه رجل».

نفذت رائحة غريب ممزوجة برائحة امرأة، ذكَّرته بالغجرية التي لم يرَ من جسدها سوى ثدييها، فامتدت يمناه بحركة لا ارادية إلى صدرها. واستلقيا على الفراش القريب منهما.

السمينة القصيرة ذات الشعر الملفوف رفعت ثوبها إلى أعلى بيسراها، مؤشِّرة بيمناها إلى فرجها:

«هذا العش الك يا قدوري».

ألقى قادر لفافة رأسه الضخمة جانباً وانحنى كي يقبل عانتها. وجرته هي من يديه الى الفراش الثاني حيث استلقت على ظهرها، رافعة ساقيها الى أعلى.

وقف حمود في منتصف الغرفة وقد أمسك بصاحبته من ذراعها كأنه يخشى ان تفلت منه، وهو ينظر حواليه مبهوتاً:

«هاي لازم انتن متوازيات تمام. لعد احنه وين نروح؟».

ضربته بدلال على خده قائلة بغنج وهي تتلوى في حركتها:

«امشي نروح لغرفتي، لكن اذا ما تدبر لي حصان زين ما اخليك تذوقه».

«مو كتلج اصير لج حصان يا حبوبة».

«لعد اذا بيك خير اركب للصبح».

يبدو ان الانسجام الروحي الوحيد الذي تجاوز الشهوة الجنسية التي صهرت كل أحلام وادي كفران والحويجة وبغداد وبيروت والقاهرة في هذه الليلة الكركوكية الحمراء، قد تمَّ بين عباس وصاحبته اللبنانية فقط، فهو الوحيد من بين الرجال الثلاثة الذي اقتنع في قراره نفسه انه عاشق فعلاً. ورغم انه ظلَّ لسنوات يحب الغجرية ويركض وراءها من أجل الحصول على لمسة يد وقبلة على خد ومن ثم التمتع بنظرة الى الثديين وتقبيلهما، فإنَّ هذه اللبنانية قد هزّته من الأعماق وقلبت عنده كل شيء رأساً على عقب. ها انه يذوق الحب الحقيقي لأول مرة في حياته، بعد ان ظلَّ مراهقاً ابدياً آن له ان يودع المراهقة وما قيمة الحب اذا لم يتجاوز الروح إلى الجسد أو بالعكس.

تذكَّر صديقه وابن عمّه رستم وما كان يردده دوماً حول الحب. والآن يدرك لأول مرة في حياته عمق العلاقة بين رستم والمرحومة مادلين. ويا للشبه الغريب بين الاثنتين: مادلين وهذه المرأة التي تدُعي أنَّها الأخرى قد نشأت بين الجبال والوديان الشبيهة بوادي كفران.

حتى انه أراد ان يسألها ما اذا كانت تعرف امرأة تسمَّى مادلين، ولكن من أين لها ان تعرف امرأة ماتت قبل سنوات طويلة خلت، ناهيك أنه لا يعرف اسم أبيها والمنطقة التي انحدرت عنها.

لم يسمع عباس في حياته،لا من امرأة ولا من أي انسان آخر عبارة: «عباس، كم أنت جميل، أنت رجل حقيقي. ألم يسبق لك حقاً أن تضاجع امرأة قبلي؟ هل هذا ممكن وأنت تتجاوز الثلاثين؟».

أحقاً قالت له وهي تقبل عينيه وفمه وتمرّر لسانها على صدره:

«عباس، أنت لذيذ ومالح، أنا بحاجة اليك، إنَّني احتاج رجلاً يحميني. أنا أريد ان امتلك رجلاً يمتلكني هو الآخر ولا أريد ان أضاجع كل من هبَّ ودبَّ».

ترى هل يمكن للمرء ان يحب أكثر من امرأة؟ هل وقع فعلاً في حب هذه اللبنانية التي قالت له ان اسمها الحقيقي هو سميرة؟ ان كان قد وقع في حبها، فلماذا كان يفكّر في لحظات عناقهما وجماعهما في الغجرية، ويتصورها عارية أمامه؟ وهل يستطيع ان يزورها فعلاً في بغداد ويرتبط بها كما تمنت هي؟ وهل هي فعلاً صادقة معه؟ أم انه مجرد كلام الليل الذي يمحوه النهار كما يقولون؟ والزواج؟ هل من الضروري ان يتزوج الانسان؟

انهم في كل الأحوال، سواء أقاربه في وادي كفران أم أصدقاؤه هنا في كركوك أو في الحويجة

لا يأخذون كلامه بجد أبداً. كانوا لا يعلقون بشيء عندما يعتقدون انه انما يقضي أوقاته مع الغجرية من أجل المتعة فقط، ولكنه عندما أعترف أمامهم بأنَّه يحب فعلاً ويريد الاقتران بالغجرية بغض النظر عن شروط شيخهم، فإنَّهم راحوا يضحكون عليه ويعتبرون كلامه مجرد هراء، مؤكِّدين له بأنه هو نفسه غير مقتنع بكلامه وإلا فكيف يمكنه ان يتحول بمحض أرادته إلى غجري. ولكن ماذا لو هربت الغجرية معه الى مكان بعيد، الى بغداد مثلاً؟ ألم تقل له انها مستعدة ان تتحمل كل شيء من أجله؟

والآن تدخل هذه اللبنانية الجميلة حياته من أوسع أبوابها. تقتحم ليس قلبه العذري حسب، بل جسده وكل كيانه. ويستمع قادر بلا أبالية الى همومه الجديدة وحكاية حبه والآمال التي يبنيها عليه. وينظر اليه بسخرية حاكاً رأسه كعادته:

«يا أبن عمِّي عباس، يبدو لي انك تقع في حب كل امرأة يقع نظرك عليها. ها انك لم تتخلص من مشكلة الغجرية بعد وتقع في حب عاهرة بغدادية».

ويجيب عباس باشمئزاز:

«لا يا قادر، انها ليست عاهرة، انها مجرد مغنية. كنا أيام زمان نعتبر المرحومة مادلين ايضاً عاهرة، ألم ترَ كيف يصعد النور من قبرها؟».

«عباس، انك لا تستطيع ان تقارن المرحومةَ مادلين بهذه العاهرة الرخيصة التي تبيع جسدها لكل من هب ودبَّ».

«هل ممنوع عليَّ ان أحب امرأة؟».

«كلا أبداً، ولكنني أخشى ان تفكر بالزواج منها. صاحبتي السمينة اقترحت عليَّ ايضاً ان أتزوج منها، وكذلك صاحبة حمود، لا تكن غبياً يا ابن عمِّي. افعل ما تشاء، ولكن حذار من التفكير في الزواج. تصور، ماذا سيقول عمي كريم ورستم وولي اذا سمعوا كلامك هذا؟ وأمَّا حمه غريب فسيهشم رأسك بطلقة واحدة بلا رحمة، دون ان يدافع عنك أي انسان».

قال عباس بإصرار:

«أنا لم أُفكِّر في الزواج، ولكنني قررت زيارتها في بغداد، وسوف أزورها في بيتها».

«حمود وأنا قررت ذلك أيضاً. هذه مسألة لا علاقة لها بالزواج. إنَّ مَن يتزوج مثل هذه المرأة سيتحول من حيث شاء أم أبى الى قواد لا أكثر».

ظلُّوا يكررون زياراتهم الى الملهى الى ان أتوا على آخر فلس وآخر كيس من التبغ الموجود في المخزن. حتى العجوز راحت تستغرب من تواجدهم المستمر في البيت لفترة تجاوزت الحد. وذات يوم حين آن أوان تناول الغداء، لم تجلب لهم العجوز أي شيء، فتساءل حمود ما اذا كانت قد

طبخت لهم شيئاً يزيل جوعهم الشرس، فأجابت انه لا يوجد في المطبخ سوى الماء والقدر الفراغ:
«إذا ماكو مسواك أشلون أطبخ يا ابني حمودي».
وراحوا يتبادلون النظرات الانتقادية في وجوه بعضهم البعض المتعبة وهم يبحثون في جيوبهم. ضحك عباس باستهزاء وتشف:
«ها؟ هل عثرتما على شيء في جيوبكما؟ ابحثا في جيوب ملابسكما القديمة لعلكما تعثران على درهم نشتري به عدة أقراص خبز».
التفت اليه قادر بوجه عبوس لم يعهده فيه أحد من قبل:
«أنت تريد ان تضحك علينا يا ابن عمِّي عباس؟ هل تريد ان تتظاهر بالغنى؟».
أجاب بادعاء:
«وهل تعتقدان أنَّني مثلكما؟ هاكما ما تريدان».
وبسرعة أخرج من عبه حزمة من الدنانير من فئتي الخمسة والعشرة ملقياً إيَّاها على الأرض ومعقبا:
«تصرفا بها كيفما تشاءان».

٣٨

ذات يوم جاءت سيارة مسلحة من كركوك وأخذت معها كلاً من القائمقام وشكري أفندي، فانتشرت في المدينة أنواع الاشاعات عن سبب أخذهما بهذه الطريقة إلى مركز اللواء. ولو انهما لم يؤخذا سوية لاتخذت الاشاعات قالباً ومحتوى آخرين. والشخص الوحيد الذي استطاع ان يقدم تشخيصات صحيحة لهذا الاجراء الذي سماه «اعتقالاً» هو اسحاق أفندي الذي همس في أذن رستم بأن حركة الكيلاني التي يُقال ان لها علاقة بهتلر، قد قضى عليها الانكليز. اذ ذاك تذكر رستم لقاءه مع نوري باشا السعيد الذي نسيه. وظلَّ طيلة المساء يفكر في الكلمات التي قالها، وما اذا كان ينبغي عليه أخذها بجد أم انه نسي تلك الوعود التي ربما ينثرها جزافاً على كل من يصادقه أو يضطر لقضاء بعض الوقت عنده. ان رجلاً مثله يصادف في اليوم الواحد عشرات الناس والوجوه من مختلف الأصناف، فهل من المعقول ان يتذكر كل وجه وكل كلمة قالها لهذا وذاك؟

بحث بارتباك وقلق عن الأوراق التي سجَّل فيها العناوين وأرقام التلفونات. وشعرت زوجته گلباغ بارتباكه وبأنه يبحث عن شيء معين، فقالت له انها قد احتفظت ببعض الأوراق الصغيرة التي تجدها عادة في جيوب القمصان قبل غسلها. ولما قلبها بسرعة، تنفس الصعداء وعانقها بقوة قائلاً لها بأن هذه الوريقة الصغيرة قد تفتح لهم آفاق المستقبل.

أعدت له كالعادة مزة خفيفة، وارتدت الفستان الشفاف الذي يحبه، والذي يُظهر مفاتن جسدها. وضعت قنينة العرق والماء المثلج أمامه في الهول ثم أرادت ان تذهب الى المطبخ، بيد انه نادى عليها بدلال طالباً اليها ان تترك كل اشغالها الأخرى وتأتي كي تجلس الى جنبه.

كلما انتشر العرق في أحشائه، أحسَّ بعاطفته القوية تتجدد تجاه زوجته التي تذكره دوماً بوالدها عاصم بك، فيتمنى لو كان حياً يرزق كي يرى كيف أنهما يعيشان بسعادة كان يحلم بها المرحوم الذي يحمل في صدره قلباً حائراً، مضطرباً لم يهدأ الى ان أوقفه الموت الى الأبد. وما زالت – رغم الأعوام الطويلة التي مضت على زواجهما. تنظر اليه بخجل والدم يصعد الى وجنتيها الورديتين. وضع يمناه على ساقها وراح يحدّثها لأول مرة عن اللقاء الذي جرى مع الباشا والآمال التي يعلقها عليه. وان أبواب المستقبل لا بدَّ ستنفتح أمامهم بعد لقائه القادم بالباشا في بغداد. وأكَّد لها مراراً وتكراراً بأن هذا الشخص الذي التقى به، إنَّما هو الشخص الثاني في البلد بعد الملك وانه أكَّد عليه أكثر من مرة بضرورة زيارته في بغداد وبأن الدولة بحاجة إلى أمثاله.

وفي تلك الليلة حلمت گلباغ بدار كبيرة بغرف ونوافذ كثيرة بُنيت على مصطبة صخرية هائلة تطل على واد عميق، يقابلها من الجهة الثانية جبل تغطيه أشجار البلوط.

لم يكن يتوقع بأن معاملته: الاعتراف بشهادته العثمانية، شهادة دار المعلمين الابتدائية في ولاية الموصل وتعادلها بشهادة كلية الحقوق العراقية وتعيينه مديراً للناحية ستنتهي بهذه السرعة. لم يستطع اللقاء بالباشا كما كان يتوقع. إذ ان سكرتيره قد اعتذر لإنشغال رئيسه بعدد من الضيوف الأجانب من موظفي وزارة الخارجية البريطانية. لم يأبه لذلك، اذ ان تعادل شهادته بشهادة كلية الحقوق قد فاق ذلك عنده بكثير. وفي المساء دعا صديقه اسحاق أفندي، الذي أبى إلاً ان يرافقه في سفرته إلى بغداد، إلى ملهى بابل. وفي اليوم الثاني بعد قضاء أربع ليالٍ في بغداد، عادا بالقطار إلى السنجق. لم يحس بتعب الرحلة التي استغرقت ليلة كاملة. وحين سرى الخبر إلى زوجته، تذكر حلمها وراحت تتصور كيف انهم، هي وزوجها وأولادهما يأكلون بملاعق ذهبية ويتغطون بأغطية من الحرير.

وهنأه المعلمون لمنصبه الجديد. وقال له معاونه:

«اذهب بسلامة يا رستم أفندي، لقد تخلصت من التعليم ومشاكله».

أجاب، وهو يتذكَر كلام سكرتير الباشا الذي قال له بأنّه سيواجه مشاكل جدّية في منصبه الجديد، مشاكل مع الآغوات الذين يصادرون بطاقات التموين. وان عليه ان يكون جريئاً ويتحداهم دون ان يرضخ لإغراءاتهم وتهديداتهم وإلاً فإنّ حرمان الفلاحين من حقهم في التموين قد يؤدّي إلى اضطرابات وحركات فلاحية خطيرة.

كان عليه ان يباشر وظيفته الجديدة بسرعة، ولذلك لم يتمكن من الذهاب إلى وادي كفران لتوديع الأب والأبن والأعمام والعشيرة. لقد حزّ ذلك في قلبه، لكن الحكومة، هي حكومة لا تستطيع ان تتساهل في هذه الأمور، ولاسيما لأن مكان مدير الناحية مازال شاغراً. والمنطقة خطيرة يسرح ويمرح فيها المهربون والآغوات الذين يستغلون ظروف الحرب لبسط نفوذهم ونهب حصص الفلاحين وتشجيع السوق السوداء. الشخص الوحيد الذي تمكّن من زيارته بسرعة هو عمّه نريمان، الذي اقتنع بحججه وتعهّد ان يبلغ الجميع بالموضوع.

وفي بغداد، عندما تمّ نشر المرسوم الوزاري بتعيين رستم مديراً للناحية في الجريدة الرسمية «الوقائع العراقية»، اشمأز المستشار الانكليزي الذي وصلته المعلومات بأنّ هذا الشخص المدعو رستم كريم زوراب من منتسبي عشيرة وادي كفران المعروفة بمواقفها العدائية تجاه الانكليز. اتصل المستشار تلفونياً بالباشا، واستفسر ما اذا كان متأكداً من ان هذا الشخص ليست له ميول بلشفيه، فأجاب الباشا بأنّه يعرفه شخصياً ويعرف المرحوم عمّه الذي عُرف بطاعته للحكومة

وأكَّد بأنَّ الوضع السيء في المنطقة لا يمكن ان يتغلب عليه إلاّ رجل مستقيم لا يعرف السرقة. وان هذه الصفة متوفرة عند هذا الشخص الذي دفعته الظروف للتعرُّف به، بل وبقي في حمايته لعدة ساعات. إذ ذاك اطمأن المستشار وراح يعلق الآمال على الوجه الجديد الذي اكتشفه الباشا بنفسه.

بعد مباشرته بوظيفته الجديدة في الناحية التي هي عبارة عن قرية بدائرة مدير الناحية ومركز شرطة ومستوصف ومدرسة ابتدائية بأربعة صفوف وبيوت طينية مطلة على واد يمر منه جدول صغير بمياه عذبة، زاره قائمقام قضاء الخانقين بنفسه. وأطلعه على الوضع العام الذي يمر به البلد جراء الحرب التي بدأت تُلقي ظلال غيومها المكفهرة على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للناس، ثم عرج إلى الوضع الحساس الذي تتصف به المنطقة بسبب قربها من الحدود ووجود مطامع سوفييتية وخطر شيوعي. ورغم ان السوفييت يحاربون إلى جانب الحلفاء، فإنّهم ربما يستغلون الاوضاع لبسط سيطرتهم على البلد مستغلين محاولات الأكراد للانفصال، إذ ان هذا المدعو ستالين بدأ يكسب السمعة الطيِّبة عند البسطاء والفقراء. وخلال هذا الحديث تذكَّر رستم آخر نقاش حصل بين صائب وشكري أفندي. وتمنَّى لو كان صائب هنا كي يدوخ هذا القائمقام بنقاشه غير المنقطع. وعرف رستم لماذا اختاروه هو لهذه المهمة غير السهلة: مكافحة التهريب واللصوصية وسطوة الآغوات. وبعد ان نصحه القائمقام بالشدة وعدم التساهل واستغلال أول فرصة لتوجيه ضربة مباغتة قوية كي تكون عبرة للآخرين، بدءاً بالشرب. لاحظ رستم ان المشروب المفضل عند القائمقام هو العرق الإيراني الأصفر «أبو السنبلة» وسيجارته المفضلة هي «كوركان». وعندما بدأت نشوة الخمر تسري في كيان القائمقام بدأ بتوجيه مجرى كلامه إلى اتجاه آخر، غير السياسة التي قال انها شرّ لا بد منه، وانه يجب ان يتمسك بالتوجيهات الشخصية التي تسلمها من الباشا بنفسه، اذ ان هذا الثعلب الماكر كما يسميه المستر تشرشل، له عيون في كل مكان:

«رستم بك، إنَّنا يجب ان نكون صديقين حميمين، ولا ندع مجالاً لأي شخص ليمرر حتى شعرة فيما بيننا. مطالبي أنا ليست كثيرة. أريد منك ان تزودني بثلاثة أشياء فقط، وهي كما سترى متواضعة جداً: عرق أبو سنبلة وسكاير كوركان والعسل. لا تنسَ بأنَّني يجب ان أدفع حصة المتصرف ايضاً، لأنه هو الذي علمني على تذوق هذه الأشياء الثلاثة».

كانا جالسين في شرفة البيت الجميل الذي بُني خصيصاً لمدير الناحية، وأمامهما الأفق الذي تلاشت الشمس وراءه. فهم رستم كل شيء بسرعة وعلم ان حياته الجديدة التي بدأت بملذات لم يسبق له ان عَهد بها من قبل لا يمكن مقارنتها بحياته السابقة. كما وان العديد من المثل التي يؤمن بها، لا يمكنه ان يتعلق بها كما كان يفعل سابقاً. انها مهمة معقدة جداً ان يجمع المرء بين شيئين

متناقضين، ان يكافح التهريب وسطوة الآغوات من جهة وان يتمتع هو الآخر بالطيبات التي تأتي عن طريقهم.

مدَّ رستم يده الى قرصة خبز شعير أسود طري مازال حاراً بنكهة لذيذة وقطع منها قطعة صغيرة وراح يقضمها بلذة. مدَّ القائمقام هو الآخر يده وقطع منها جزءاً مماثلاً:

«من أين لك خبز الشعير يا رستم بك؟ كنا فيما مضى لا نجد غيره، وأمَّا الآن فيستحيل العثور عليه».

«كلامك صحيح يا سعادة القائمقام، يسكن بالقرب من بيتنا شرطي، تخبز زوجته يومياً خبز الشعير. نتبادل معهم يومياً قرصة خبز قمح بأخرى شعير».

رغم هذا الحديث العابر، فإنَّ القائمقام قد أحسَّ بأنَّ صاحبه مازال تحت تأثير كلامه السابق الذي صعقه لتناقضه مع كلامه الأسبق:

«رستم بك، هل ترى هذه القرصة؟ لا يهم بالطبع ما اذا كانت الشعير أم من الحنطة. إنَّها جاهزة، لقد أخذ كل واحد منا جزءاً صغيراً منها. إنَّنا في تعاملنا مع مَنْ ذكرناهم من قبل يجب ان نتصرف بالطريقة نفسها».

ابتسم رستم وهو يرفع كأسه نخب صديقه الجديد:

«إنَّني سعيد جداً ان اكسب صديقاً جديداً».

رفع القائمقام هو الآخر كأسه:

«الصداقة الصحيحة في هذا الزمن ضرورية جداً».

«اعتقد اننا قد فهمنا بعضنا البعض بصورة جيدة يا سعادة القائمقام، ولكن لي رأياً بخصوص قرصة الخبز، أحب ان أعرضها عليك، ان وافقت».

بدا لرستم ان مفعول الكحول قد سرى ليس في أحشائه هو حسب، بل في كيان صاحبه ايضاً:

«يا سعادة القائمقام، لا أخفي عليك سراً بأنَّني التقيت شخصياً بجناب الباشا في ظرف لا داعي لذكره. سألني عن المبدأ الذي أؤمن به، فقلت له: الاستقامة. والآن، لا أريد ان أدَّعي بأنَّني انسان نبيل يريد ان يضحِّي من أجل «مبدأ الاستقامة»، لا أبداً، ولكنَّني أريد ان أقول بأنَّ ما يهمني في مسألة قرصة الخبز هي من أين وممَنْ جاءت؟ اذا كان مصدرها هذا الشرطي البائس، فيستحيل ان استقطع منها حتى لقمة واحدة وهكذا...».

ضحك القائمقام ماداً اليه يده ليصافحه:

«رستم بك، انت ابن عشيرة مثلي، لا خلاف بيننا أبداً، وهذا ما يريده الباشا نفسه منا».

جاء ابنه الصغير الذي لم يتجاوز الخامسة بصحن يحتوي على لحم مشوي بالزبدة الطرية والبصل، وقد أمسك به بكلتا يديه بقوة ماشياً بخطوات حذرة وعيناه تنتقلان بين قطع اللحم المحمرة وطريقه. لاحظ القائمقام انحناءة في ظهر الطفل الذي سببه حذره المبالغ. أخذ منه رستم الصحن وطلب اليه ان يجلس جنبه. وراح الطفل يتسلق الكرسي ويتخذ مكانه واضعاً يديه على مسندي الكرسي بارتياح. سأله القائمقام عن أسمه، فلم يرد بل نكس رأسه محدقاً إلى طرفي رجليه المتدليتين. كرَّر القائمقام سؤاله دون جدوى، ثم التفت إلى رستم الذي يراقبهما بانتباه، مستفسراً ما اذا كان الطفل يعاني صعوبة في الكلام. فأجاب بأنَّه لا يعاني أية صعوبة في ذلك، بل انه خجول جداً ولا يتكلم في حضرة غير الأهل. التفت القائمقام إلى الطفل قائلاً بأنه ليس غريباً بل صديقاً لوالده وانه يحب ان يعرف اسمه لا غير. رفع الطفل بخجل عينيه الى وجه والده مكوراً يديه مع بعضهما بانفعال كما لو انه يلتمس شيئاً. طلب اليه رستم ان يقول اسمه لعمّه لأنه ليس غريباً. فأجاب الطفل بصوت يكاد لا يسمع:

«زوراب».

أعطاه والده لفة خبز بلحم ومخضر طالباً ان يذهب إلى والدته. تنهد رستم بشيء من الحسرة، وقال بنبرة ألم:

«لقد سميته باسم جدّي الذي أحببته بشكل غريب. وقرَّرت ان أُربِّي ابني هذا بالطريقة التي ربَّاني بها المرحوم، وليس بالطريقة التي ربَّيت بها ابني ولي الذي خسرته بحيث لم يتمتع لا هو بعلاقته بي كإبن ولا أنا بعلاقتي به كأب. ولما كان القائمقام قد حكى له الكثير من حياته الخاصة في حالة الشرب، لذا بدأ هو الآخر يسرد له قصة زواجه الأول ونوعية الحياة التي دفعت الظروف ابنه ولي ليوجهها دون أرادته وكيف انه يشك حالياً في وضعه العقلي الشاذ، حيث نصب من نفسه ولياً على أهالي القرية التي يعيش فيها.

هزَّ القائمقام رأسه وتناول قطعة لحم:

«وهل يزعجك هذا الشيء يا رستم بك؟ لو كان ابني على هذه الشاكلة لحمدت اللّه وشكرته ليل نهار. انا ابني يعيش في بغداد مع عاهرة ويصادق الأشقياء الذين يعيشون بالسرقات والخاوات التي يفرضونها على أصحاب الدكاكين، وجنابي انا يجب ان يكافح التهريب على الحدود».

بعد ان مضي فترة على عمله هنا، أحسَّ رستم انه قد تحوَّل إلى إنسان آخر، إنسان لم تعد له ارتباطاته التي كانت تشده بألف جذر بوادي كفران، الأمر الذي يحد حريته وانطلاقه. كانت المشاكل التي تحصل في وادي كفران مهما كانت صغيرة أو كبيرة تنسحب اليه أو تشده اليها، سواء شاء أم أبى. وأمَّا الآن فإنَّه قد ابتعد عنها وعن مصدرها وادي كفران. إنها راحة داخلية

ممزوجة بشيء من الحنين البدائي للأهل والعشيرة، بيد ان الاشغال اليومية الكثيرة التي تأخذ وقته تتغلب على هذا الحنين الذي يمكن ان يعوض بالانصراف إلى تربية ابنه زوراب الذي يجد في عينيه السوداوين الصغيرتين مجمل (وادي كفران) بماضيه وناسه واوه سبيه وجباله ووديانه وسهوله. ومنذ ان سمع قصة ابن القائمقام الشقي، تنفس الصعداء وأدرك انه لم يخطئ في تربية ابنه ولي، بل ان الأقدار هي التي دفعته في ذلك الطريق.

وأدرك في قرارة نفسه انه قد نجح نجاحاً باهراً في وظيفته الجديدة، سواء بكتاب الشكر الذي وصله من القائمقامية أو من الوضع المستتب الذي قيل عنه انه بفضل حكمته وحزمه.

ذات يوم جمعة جاءه رجل في الصباح الباكر يتوسل إليه ان يستمع إلى شكواه وإلاّ فإنّ اللص الذي سرق بغاله الثلاثة سيعبر الحدود وينتهي كل شيء. ولمّا سأله ما اذا كان متأكّداً من اللص الحقيقي والوجهة التي سيتخذها، قال إنه بات عنده ليلتين كعابر سبيل مكرماً ومستضيفاً إيّاه على أحسن وجه، ومقابل إحسانه هذا يجزيه بسرقة بغاله التي أخذها في الصباح الباكر.

أرسل معه رستم ثلاثة أفراد من الشرطة الخيالة مؤكّداً عليهم بعدم العودة بدون اللص والبغال المسروقة. مساءً وقبل مغيب الشمس جاءوا باللص والبغال الثلاثة. اعترف الرجل بجريمته وبأنّه مستعد لتحمل السجن بسببه، بيد ان رستم الذي أغضبه عمل الرجل الشنيع قال بأنّ الأمر سوف لا يمر بهذه السهولة. ان الرجل الذي يخون مضيفه الذي يستضيفه ليلتين بهذه الطريقة يجب ان ينال عقابه بصورة لن ينساها إلى الأبد. طلب إلى فراشه ان يجمع سكان القرية حول الحوض الواقع أمام بوابة السراي لمشاهدة العقاب الذي سيناله هذا اللص. وراح الفراش يتجوّل في الأزقة منادياً بصوت جهوري على الناس لمشاهدة المنظر بأمر من جناب مدير الناحية الجديد الذي قرّر ان يكافح الجريمة بقبضة من حديد. وسرعان ما تجمع الناس صغاراً وكباراً وهم يتدافعون لمشاهدة المجرم الذي خان مضيفه، كما ان بعضهم كان يريد لن يُلقي نظرة على المدير الجديد الذي قيل انه لا يعرف الرحمة تجاه المجرمين.

يبدو ان رستم، بخبرته الطويلة في التعليم، يعرف الطبيعة الفضولية للناس، وتعطشهم لمنظر وقوع العقوبة على المجرم، ولاسيما اذا كانوا هو طرفاً في إقرار الحكم الغوغائي الذي ينجي الحاكم من المسؤولية الشخصية أو على الأقل من مسؤولية تأنيب الضمير.

استجوب رستم اللص الذي بدأت علائم الخوف من العقاب المجهول تنطبع على وجهه بلهجة صارمة تبعث الهيبة والخوف، ليس عند اللص حسب، بل الجمهور الذي أطبق عليه الصمت. ولما اعترف اللص بجريمته بكل تفصيل ودون اخفاء أي شيء، التفت رستم إلى الناس وسألهم بصوت عال عن نوع العقاب الذي يستحقه هذا اللص الذي خيّب ظن مضيفه الذي آواه واستضافه لليلتين، فصاح الجميع بصوت واحد وبحماس:

«الضرب المبرح ثم السجن».

التفت رستم إلى اللص واستفسر منه ما اذا كان صاحب عائلة، فأجاب بتوسل بأنه مسؤول عن اعالة ستة أنفار وأقسم بالله وبرسوله بأنّه لا يملك في البيت حتى قرصة خبز تسد رمقهم. ولولا الجوع الذي يفتك بأولاده لما لجأ إلى السرقة.

شعر رستم بألم يوخز قلبه، ولكنه قبل ان يتوصل إلى قرار في داخله، بدأت نداءات المتفرجين تتصاعد بحماس لمعاقبة اللص:

«إنّه يكذب يا جناب المدير لا تصدقه...».

«إنّه يجب ان ينال عقابه».

«ألقِ به في السجن يا جناب المدير».

«أضربه يا جناب المدير كي يكون عبرة للآخرين».

«إنّه يستحق القتل يا جناب المدير».

«أضربه يا جناب المدير إلى ان يفقد وعيه ثم القه في الحوض».

خرج من بين الحشد الذي بدأ يتوسع رجل كبير السن بلحية بيضاء وبيده غليون فخاري، توجه بخطوات وئيدة من رستم الذي ذكّره الغليون بجدّه زوراب، فالتفت بصورة لا إرادية إلى ابنه زوراب الصغير الواقف إلى جنبه، ثم راح ينظر بترقب في وجه الرجل الذي أشار بيده المعروقة إلى اللص قائلاً:

«يا جناب المدير، إنّني أعرف هذا الأحمق وأعرف انه يستحق العقاب ليس لأنه سرق، بل لأنه تنكر للخبز والملح اللذين قدمهما له صاحب البيت، ولكن ما أريد قوله هو انه حقاً يعيل ستة أنفار ولا يملك في البيت قرصة خبز تسد رمقهم. هذا كل ما أردت قوله».

صاح أحدهم:

«ولكن هذا لا يعفيه من العقاب يا جناب المدير».

قال رستم وهو يتسلم من الشرطي المرافق له عصاً غليظة:

«إنّني لا ألقي بك في السجن لأنك يجب ان ترجع إلى أهلك، ولكنني سأشبعك ضرباً كي لا تكرّر فعلتك».

وانهال عليه ضرباً ثم دفعه إلى الحوض وراح الرجل يغطس كي يتفادى الضربات المتتالية على رأسه، وما ان يخرج رأسه لاستنشاق الهواء، إلاّ وتنهال عليه الضربات من جديد. بعد فترة غير قصيرة من التعذيب، تأكّد فيها رستم من العقاب العادل الذي لم يصنعه هو وحده، طلب من

الجمهور ان ينصرف ومن الرجل المسن واللص ان يرافقاه إلى دائرته. أوعز رستم إلى الشرطي المرافق له ان يدبر ثوباً للرجل المبلل ريثما تيبس ملابسه. جلس هو وراء مكتبه وطلب إلى الرجل المسن ان يتخذ مكانه فجلس قرب زوراب الصغير الذي شدَّ عينيه إلى لحيته البيضاء. أمَّا اللص المبلل فظلَّ واقفاً قرب الباب.

سأله رستم عن اسم قريته واسم الآغا وعن عدد بطاقات التموين التي تسلمها منه. أكَّد الرجل بأنَّه لم يستلم أي بطاقة وانه لا يعرف انساناً في القرية تسلم مثل هذا الشيء، وانه يريد ان يصرح بالحقيقة لجناب المدير ولكنه يخاف، انه يخاف ان يصل الخبر إلى الآغا فيكون القتل مصيره. سأله رستم ما اذا كان يخاف منه أم يخاف من الرجل المسن. أجاب الرجل انه يثق بكليهما، ولكنه يريد ضمانة. قال الشايب بلهجة صارمة:

«تكلم لا تخف، ان جناب المدير سيعطيك الأمان».

«هات ما لديك، لا تخف».

قال الرجل بانفعال:

«اجلب لي يا جناب المدير قرآناً كي أحلف به حتى لا تعتقد بأنني أكذب».

«لا داعي لذلك، هيَّا تكلم».

«يا جناب المدير، صحيح أنَّني كنت فيما مضى لصاً وأردت ترك هذه المهنة فعلاً، ولكن الآغا...».

سكت الرجل، وانتظر رستم فترة قصيرة دون جدوى:

«هيا تكلم ماذا بك؟ تكلم لا تخف».

«الآغا هو الذي كلفني بسرقة البغال، ولما كان الدخول إلى بيت الرجل مستحيلاً ليلاً بسبب الحراسة المشددة، لذا اضطررت لتقمص دور الضيف كي أتمكن من تحقيق هدفي بسهولة».

التفت رستم إلى الشايب وسأله ما اذا كان يصدق هذا الكلام. هزَّ الرجل رأسه بالإيجاب:

«انه لا يكذب يا جناب المدير، ان هذا الآغا يفعل أسوأ من ذلك بكثير».

قال رستم بشيء من الندم:

«أنت فعلاً أحمق يا رجل. إنَّك لو قلت لي ذلك من قبل لوفرت على نفسك كل هذا الضرب والرزالة».

أضاف الرجل المسن:

«إنَّه يستحق اكثر من هذه الرزالة يا جناب المدير، لقد سبق ان نصحته عدة مرات بترك هذه القرية، ولكن جحره يحكه دوما لخدمة الآغا».

أخرج رستم من القاصة الحديدية عدة بطاقات تموين سلمها للرجل ثم طلب منهما ان ينصرفا. وظلَّ جالساً في مكانه ساهماً متسمراً كما لو انه أصيب بضربة صاعقة وهو يحدِّق إلى يد ابنه الصغيرة التي أمسكت القلم بقوة لترسم خطوطاً طويلة ومتقاطعة تتخللها دوائر تشبه دوامات أو فقاعات تتدفق من قاع بحيرة مجهولة.

غمامة من الندم والكآبة خيمت على عواطف رستم الذي ظلت صورة الغليون عالقة بذهنه، ناقلة إيّاه إلى صباه وتمنّى لو انه لم يترك وادي كفران وان الأشياء كلها ظلت كما كانت في عهد الطفولة وان الزمن تحجر في مكانه. ما له وكل هذه المشاكل التي تكدر صفو النفس؟. أما كان بامكانه ان يحقق مع هذا الانسان البائس بصورة اكثر عقلانية من هذه المسرحية البدائية؟ هؤلاء الأغوات الذين أقاموا له الولائم لمناسبة تعيينه مديراً لناحيتهم وأعلنوا له ولاءهم المطلق كونه كردياً مثلهم، هل يظلون يستغلون سذاجته ويقبضون منه البطاقات زاعمين أنهم سيوزعونها بكل عدالة على أفراد عشائرهم؟ أهذه هي الإستقامة التي اكدها أمام الباشا نفسه وكرّرها أمام القائمقام؟.

لو كان الشيخ زوراب حياً ورأى مثل هذا التصرف، لبصق في وجهه.

انتظر إلى ان انتهى ابنه من خربشاته ثم أمسك يده الصغيرة الدافئة التي أشعرته بشيء من الأمان وترك الدائرة باتجاه البيت. كانت الشمس تجنح إلى المغيب. وشرب في ذلك المساء اكثر من نصف قنينة من عرق «أبو السنبلة».

٣٩

توصّل كل من قادر وعباس وحمود إلى استنتاج لم يسبق لهم ان فكروا فيه من قبل، ألا وهو ان مَن لا يملك فلساً لا يساوي فلساً واحداً. وان قيمة الانسان انما تكمن في مقدار الثروة التي يمتلكها. لقد توصلوا إلى هذا الاستنتاج بعد نقاش طويل وعريض فرضته عليهم أمور لم يحسب لها أي حساب. أمور، قرّروا ان تبقى سراً دفيناً فيما بينهم لا يطّلع عليها شخص رابع مهما كان. حتى العجوز التي تخدمهم لم تعرف أنهم أفلسوا وتراكمت عليهم الديون. وليت انهم بقوا في حد الافلاس، فبعد أسابيع من اللهو والترف والمضاجعة المستمرة، أُصيب قادر وحمود بمرض السيلان. هذا المرض الذي يسمعون بإسمه لأول مرة. وبعد ان عالجهما الطبيب بعدة حقنات وحبوب، منعهما من ممارسة الجنس لمدة شهرين على الأقل. أقسم قادر بأغلظ الايمان انه لن يقترب من امرأة، بل سيكتفي ان دعت الحاجة بالحمارة.

وأراد الطبيب ان يعرف أسماء وأوصاف النساء اللواتي مارسا معهن الجنس. حاولا في بداية الأمر اخفاء القضية على الطبيب، بيد انه حذرهم بأنه لن يعالجهم ويسلمهم الى الشرطة، وطمأنهم انه لا خوف عليهم اذا دلّوا بالمعلومات الصحيحة حول العاهرات، ذلك ان الأمر يتعلق بالصحة العامة. وكان ان اعترفا بكل شيء، ولكن دون ان يتطرقا إلى اسم عباس الذي لم يصب بمرض ولم يفلس، ذلك ان صديقته اللبنانية التي أقسمت باللّه وبكل الأنبياء بأنها لا تنام مع غيره، لم تأخذ منه سوى فلوس المشروبات. وفي كل مرة حين يلح عباس على إعطائها الفلوس تؤكّد بأنّها لا تبيع له جسدها، بل تهبه له برضائها وحباً به. وهذا يزيد من تعلّقه وهيامه بها.

لقد شلّهم المرض من العمل لفترة غير قصيرة. وحين عرف الزبائن بالتدريج انهم أفلسوا وتراكمت عليهم الديون، راحوا ينسحبون منهم بمختلف الحجج ويرفضون تسليفهم بالقروض، بل وحتى لا يستقبلونهم في بيوتهم. وسمع قادر وعباس كلمات نابية خدشت مشاعرهم مثل: «ماذا يريد هذان الكرديان الغبيان؟ أليست لهما عشيرة يلتجئان اليها ويمارسان فيها تجارتهما؟». ولذلك قرّرا ان يتركا منطقة حويجة إلى الأبد. ولما كان حمود هو الآخر يعاني مثلهما ويعجز عن دفع الديون، قرّر هو الآخر ان يغادر المنطقة ويعيش في قرية زوراب بالقرب من السيد نعيم.

حتى ذلك الحين لم يعرف حمود بأنّ قادر وعباس قد قاطعا قرية زوراب وبأنّهما متخاصمان مع عمّهما نريمان، ورغم الحاحاته الكثيرة عليهما بنسيان الماضي والمصالحة، فإنّهما اصرّا

على موقفهما وفضّلا الذهاب الى عمهما كريم آغا في وادي كفران الجبل. وأكّد لهما حمود بأنّه لم يسبق له ان شاهد شيئاً من هذا القبيل في حياته.

بعد فترة قصيرة تبيّن للثلاثة ان الأوضاع – سواء في وادي كفران السهل أم في وادي كفران الجبل – لا تحتمل، إذ إلى جانب القحط الذي استمر لمدة ثلاث سنوات، رفض ولي الاشتغال في التهريب أو التوسط لتسهيل أموره، ذلك انه استنتج بأن سبب عدم سقوط الأمطار والوباء الذي حلَّ بالمواشي انما سببه هذا النوع من التجارة التي يسمونها التهريب والعلاقة المباشرة بالمدينة، التي لا تأتي منها سوى الآثام. كما وانه إلى جانب توطيده وتوسيعه لعمل تكيته، عزّز علاقته بجده كريم الذي اعتبره كبير الدراويش، ودعا الى مقاطعة عمه نريمان الذي اصبح واحداً من رجال الدولة الذين لا يختلفون عن أي شرطي. وتوسعت الهوة الموجودة اصلاً بين الكفرانين.

حاول حمود عدة مرات اقناع قادر وعباس للعودة إلى العمل في التهريب، ولكنه لم يستطع التوصل إلى نتيجة إيجابية معهما. كانوا يلتقون عادة في مقهى بمركز القضاء، حمود يأتي بدراجته وقادر وعباس ببغليهما. ويرجع السبب إلى عدم قناعتهما بمقترحاته هو انه لم يأتِ بفكرة جديدة. خططه كلها كانت تدور حول العودة إلى نفس الطريقة القديمة والأماكن السابقة، حيث الدائنون بانتظارهم. وأمّا الخطة التي أصرَّ قادر وعباس على عدم استبدالها بأخرى هي القيام بعمل حاسم خارج لواء كركوك، في مكان يبعد كثيراً من هنا ولا يعرفهم فيه أحد حتى ولو كان ذلك في بغداد. وأمّا فكرة بغداد فقد جاءت من عباس الذي قرّر ان يزور صاحبته اللبنانية في كل الأحوال ومهما كان الثمن. واستطاع ان يقنع بذلك قادر.

وافق حمود على خطتهما، ولكنه اقترح ان يقوموا بمغامرتهم في الموصل، ذلك لأنه اولاً مطلع على المدينة وثانياً له قريب هناك يمكن المبيت عنده.

اتفقوا على اليوم المعين، على ان يرتدوا أحسن ملابسهم التي يمكنهم التظاهر بها كتجار. المشكلة الوحيدة التي وقفت أمامهم كعقبة هي انهم لا يملكون شروى نقير. حتى اجرة السيارة التي تنقلهم من مركز القضاء إلى كركوك لا يملكونها. واحتاروا في أمرهم. وامتلأت السيارة بالركاب، سوى أماكنهم الثلاثة بقيت شاغرة بانتظارهم. ولمّا طال الانتظار فإنّ الركاب راحوا يلحون على السائق بالتحرك. عندما رأى قادر السائق أبو فأرة يقترب منهم كي يدعوهم لركوب السيارة، سحبه من يده وراح يهمس في أذنه بكلمات لم يسمعها أحد: «أبو فأرة، نحن الآن في وضع محرج جداً، حقيبة الفلوس نسيناها في البيت، والشخص الذي سيجلبها سوف يلتقي بنا في كركوك ، ولذلك فنحن حائرون في أمرنا».

دفعه أبو فأرة برفق من كتفه وضحك بود:

«لا إحراج ولا هم يحزنون. هيّا اركبوا، ان السيارة هي سيارتكم أنتم».

حاولوا ان يبقوا في كركوك اقصر فترة ممكنة، كي لا يراهم أحد من الدائنين. علموا ان السيارة القادمة ستتحرك بعد الظهر حوالي الواحدة والنصف من كراج الموصل. إن أوَّل خطوة يجب القيام بها هي تدبير الفلوس لأجرة السيارة ولتناول غداء دسم يكفيهم لطيلة النهار.

وقفوا في ركن منعزل وراء أحد أعمدة شارع الأوقاف يرصدون المارة، وكل واحد منهم يفكر بعمق في إيجاد وسيلة للحصول على المبلغ المطلوب. بعد فترة غير قصيرة من الانتظار الممل، صاح حمود: «وجدتها». ثم هرع إلى رجل يحمل كيساً كبيراً وينادي على بضاعته:

«كلاش هرسيني، كلاش هرسيني...».

كلمه حمود وهو يجره من يده كي يعرِّفه على صديقه. عرف قادر من ملامح الرجل ولهجته انه ايراني.

سأله حمود ما اذا كان يملك كميات أخرى من بضاعته، عدا هذا الكيس.

أجاب الرجل باعتداد انه يستطيع تزويده بكميات لا حد لها:

«حسناً يا صاحبي، إنَّنا ندعوك إلى أكلة كباب في هذا المطعم القريب، وهناك سنتحدث بالتفصيل عن كل شيء.

رحب الرجل بالفكرة، بل واستحسنها، لأن الصفقات الكبيرة لا يمكن عقدها في الشارع. بعد ان اتخذوا أماكنهم على مائدة في أحد الاركان، قام الرجل من مكانه قائلاً ان له في أحد الدكاكين القريبة أربعة أكياس يحب ان يجلبها الآن ولحين مجيء الكباب. سأله حمود ما اذا كانت هذه هي كل ما يملك من البضاعة، فأجاب ان له كميات أخرى في مكان آخر.

قام حمود وقادر من مكانيهما وذهبا معه لمساعدته في نقل الأكياس، بينما ظلَّ عباس بانتظار الكباب. مع عودتهم بالأكياس الأربعة، جاءهم الكباب هو الآخر.

جواباً عن سؤال قادر، أكَّد الرجل بأنَّه من خانقين، ولكنه يجلب بضاعته من ايران. قال حمود انهم يبحثون منذ فترة طويلة عن الكلاش الهرسيني، وانه يتمنَّىَ ان تكون بضاعته هرسينية فعلاً. أقسم الرجل بطلاقه بأنه لا يتعامل سوى بالكلاش الهرسيني والسجاد الكاشاني:

«نحن لا يهمنا السعر، ولن نتعامل معك بالسعر الذي تحدده. المهم هو نوعية البضاعة». علَق قادر وهو يحشو فمه بلفة الكباب التي علمه إياها رستم.

ما ان انتهى الرجل من الأكل ومسح فمه، إلاَّ وسأله حمود ما اذا قد شبع فعلاً وانه يحب ان يطلب له وجبة أخرى. رفض الرجل شاكراً ومؤكِّداً انه قد شبع فعلاً، وأمَّا قادر فطلب وجبة أخرى

مقترحاً على الرجل ان يذهب ويجلب البضاعة وانه اذا أراد فيمكن ان يرافقه واحد منهم. قام الرجل من مكانه قائلاً انه سيذهب ولا داعي ان يرافقه أحد، ولكنه يحب ان يدفع حساب الجميع.

قفز حمود من مكانه ماسكاً يده ومرافقاً إيّاه الى الباب:

«مستحيل ان تمد يدك إلى جيبك، أنت اليوم ضيفنا. اننا من الآن فصاعداً سنكون شركاء أبديين...».

استقل الرجل عربة يجرها حصانان. ظلَّ حمود واقفاً أمام باب المطعم يراقبه إلى ان توارى عن الانظار ثم ذهب إلى صاحب المطعم الجالس وراء منضدة يحمل كيس النقود. أبلغه بأنَّ الرجل الذي ترك المطعم هو شريكهم، وأنه قد ذهب لجلب عدة أكياس من البضاعة ورجاه ان يخبره عند عودته بعدم ترك المطعم، إلى ان يأتوا هم بالسيارة المليئة بالبضاعة لنقلها إلى بغداد. قال الرجل بلهجة واثقة انه يعرف الرجل وانهم يمكنهم التصرُّف كما يشاؤون وان حسابهم مدفوع ثم قام من مكانه متوجهاً إلى المطبخ. أشار حمود إلى قادر وعباس بحركة سريعة لترك المكان.

حملوا الأكياس الأربعة. وبسرعة خرقوا الزحام باتجاه كراج الموصل. قبل ان يصلوا الكراج أوقف حمود سيارة تاكسي وراح يتعامل مع السائق حول الأجرة إلى الموصل. وعندما اتفقا على السعر، اقترح عباس السفر الى بغداد، بيد ان حمود عارضه مذكراً إيَّاه بأن ذلك سيعرضهم إلى خطر مطاردة الرجل لهم.

استغرقت الرحلة أكثر من أربع ساعات، ورغم بدء الخريف منذ فترة غير قصيرة، فإنَّ الحر قد انهكهم، بيد ان حصولهم على الغنيمة التي قدروا قيمتها بمبلغ كبير لا يقل عن المائة دينار، قد بعث فيهم الحيوية لوضع الخطط المطلوبة لبيعها في أسرع وقت ممكن. اتفقوا على ان لا يعرف صاحب التاكسي بأنَّهم لا يملكون النقود. أخذوه معهم بحجة كونهم يحتاجونه لتنقلاتهم. استغرب كل من قادر وعباس لتمكن حمود من اللهجة الموصلية ولمعرفته التامة لأسماء الشوارع والأزقة. قرروا ان يبقى عباس والسائق مع البضاعة في المقهى، على ان يذهب قادر وحمود إلى سوق السراجين، حيث للأخير صديق يتاجر بالأحذية. كان السوق مزدحماً، وراحا يشقان طريقهما بصعوبة. عندما بلغا الدكان قال حمود انهما يجب ان ينتبها لمسألة السعر، لأن أهل الموصل قد خدعوا حتى الشيطان فهم تجار صعبون جداً لا يتنازلون عن الفلس الواحد. واتفقا على ان يقوم حمود بانجاز المعاملة حسب الوضعية التي يتطلبها جو المقابلة. استقبلهما الرجل ببشاشة، وبعد الاستفسار عن الصحة والأخبار وشرب الشاي، سألهما متى وصلا الموصل ومتى يرجعان. تبادل حمود وقادر النظرات. أجاب حمود فوراً: «سنرجع بعد ان نشتري كمية كبيرة من الكلاش الهرسيني الأصيل». تململ الرجل في مكانه وقد ارتسمت علائم الدهشة على وجهه: «كلاش هرسيني؟ بضاعة نادرة».

قال حمود باعتداد: «أجل كلاش هرسيني، أريد منه كميات كبيرة بأي ثمن كان».

«إنَّك يجب ان تذهب إلى خانقين يا عزيزي حمود، فنحن هنا يعوزنا مثل هذه البضاعة».

قال حمود بسرعة:

«كم ستدفع للزوج الواحد يا حجي اذا جلبت لك الكمية التي تحتاجها؟».

ابتسم الرجل وهو يحدق الى عيني حمود:

«أنت عندك كمية منها يا حمود، قل بكم تبيع الزوج الواحد؟».

«لا يا حاج، إنَّني اذا لم أعرف السعر فلا أستطيع جلب البضاعة».

«سأدفع لك مبلغ نصف دينار لكل زوج».

تنفس حمود الصعداء، تناول الرشفة الأخيرة من الشاي ثم سحب كمية كبيرة من دخان سيكارته وقال بثقة:

«كم زوج تحتاج يا حاج؟».

تأكَّد الحاج في قرارة نفسه انه في كل الأحوال سيربح ربع دينار من كل زوج، وعرف أن حمود لا شك تحت يديه كمية جاهزة، فقال:

«جيب هذا الموجود عندك يا حمود».

خلال أقل من ساعة تَّم قبض المبلغ وتسليم البضاعة. وعندما بلغا المقهى تناولا وجبة أخرى من الشاي على ان يتناولا وجبة من الكباب بعد ساعة، لأن الجوع لم يستبد بهما بعد.

كلَّم حمود صاحب المقهى السمين الجالس وراء الطاولة وقال له انه يريد ان يخابر ابن عمَّه العقيد في المعسكر الغزلاني ورجاه ان يدله إلى المقهى فيه تلفون. عرف قادر بأنَّ حمود لا شك يريد القيام بمغامرة أخرى، فلحق به مانعاً إيَّاه من مغادرة المقهى. همس حمود:

«قادر، تعبنا ما لازم يروح بلاش، تعال أنت معي وشوف الشغل».

أدرك قادر من نبرة صوته انه لن يخذلهم، فرافقه دون ان يعانده عبرا الشارع المزدحم إلى الجانب الثاني وبعد مسيرة قصيرة بلغا مقهى بواجهة زجاجية جميلة. قال حمود في هذا المكان يجلس تجار ووجهاء البلد، وهو المقهى الوحيد الذي يوجد فيه جهاز التلفون. والحقيقة ان قادر لم يسبق له ان رأى هذا الجهاز من قبل. شعرا ان الجو يختلف اختلافاً كلياً عن جو المقهى الآخر فكل شيء هنا نظيف وراقٍ. الرواد يتكلمون مع بعضهم البعض بهدوء وثمة صور لمناظر طبيعية ومرايا معلقة على الجدران بانتظام. سلَّما على الجالسين واتخذا مكانيهما في ركن قريب من صاحب المقهى الجالس وراء المنضدة وأمامه جهاز التلفون الذي لم ينتبه اليه قادر والذي

صوَّره في مخيلته بشيء كبير أشبه بتنور. وعندما نبهه حمود بصوت خافت بأن الشيء الأسود الموضوع على المنضدة انما هو الجهاز المسمًى بالتلفون، قال قادر بصورة عفوية «سبحان اللّه ومنذ متى تعرف هذا الشيطان دون ان تخبرني به». ردَّ حمود باعتزاز بأن أحد أقاربه يشتغل بدائرة البريد والبرق في كركوك وانه تكلم مع قريب له في بغداد بواسطة هذا الجهاز الذي لا شك يوجد فيه شيطان يشغله بسحره.

استأذن حمود من صاحب المقهى ثم بدأ يستخدم الجهاز وقادر يتابعه بفضول. وراح يتكلم بصوت عال كي يسمعه صاحبه المزعوم في الطرف الآخر وهو يحرك يده محاولاً توضيح كلامه باشارات تنسجم مع نبرات صوته:

«نعم يا ابن عمًي، يؤسفني انني لا استطيع زيارتك اليوم لا في المعسكر ولا في البيت، بلى، بلى، أنا لا اريد أي ربح، المهم ان لا يتلف الرقي. نحن بحاجة الى فيترجي، ولكن عملية تصليح الموتور تأخذ وقت غير قصير. ان الرقي يمكن ان يباع بسعر رخيص، لا يهمني حتى اذا خسرت بعض الشيء... هالو... هالو...».

وضع السماعة على الجهاز والتفت إلى صاحب المقهى بحركة تمثيلية بارعة، مضيفاً: «لقد انقطع الخط».

قال صاحب المقهى بأدب: «سأربطك بالخط من جديد».

أجاب حمود بلهجة قاطعة متوجهاً إلى مكانه: «كلا أبداً، لقد انتهت المشكلة». وما ان اتخذ مكانه جنب قادر إلاَّ وجاءه رجل وقور، كان يتابع كلامه بالتلفون بفضول، مقدماً نفسه بأنه صاحب أكبر علوة للمخضرات في الموصل، وانه مستعد لشراء الرقي كله وارسال فيترجي لتصليح اللوري فوراً. أجاب حمود بأن مشكلة الفيترجي قد تمَّ حلها، اذ انه الآن في طريقه إلى أسكي كلك، واللوري سيصل الموصل خلال أقل من ساعتين، واذا كان يريد شراء الرقي فهناك حلان، اما ان ينتظر هنا في المقهى حيث سيأتيه سائق اللوري بنفسه، أو ان يأتي بنفسه معه ليواصله بسيارته إلى اللوري، اذ ذاك يرجع مع الشاحنة بعد ان يتأكد من نوعية البضاعة، ويواصل هو سفره بسيارته إلى بغداد. قال التاجر بوقار بأنَّه لا يستطيع ترك المقهى لإرتباطه بعدة مواعيد وانه لا يشك في نوعية البضاعة. واتفقا على ان يعطيه التاجر عربوناً لا يقل عن عشرين ديناراً. وأمًا بقية المبلغ الذي لا يتجاوز الأربعين ديناراً فيمكنه ان يعطيه للعقيد جاسم في معسكر الغزلاني أو يسلمه للسائق نفسه. وأكَّد عليه حمود بأنً البضاعة اذا لم تعجبه فإنَّه يعفيه عن دفع المبلغ وليكن اللّه شاهداً على ذلك. ولكي يطمئن الرجل اضاف حمود وهو يحاول نزع عباءته: « وهذه العباءة التي يساوي ثمنها أضعاف سعر لوري رقي سأتركها عندك كأمانة لحين استلام البضاعة».

قال الرجل بثقة دافعاً العباءة بيديه: «عيب يا رجل، نحن رجال. الذي يرتاد هذا المقهى ليس سوى من علية القوم».

ابتسم حمود وهو يقبض أربع أوراق من فئة الخمسة دنانير وعلّق:

«اللّه يشهد على ذلك».

«لعنة اللّه عليك يا حمود، كاد قلبي ان يتوقف عن الحركة».

قال ذلك قادر بعد ان تركا المقهى، وهو يكاد لا يصدّق كل ما جرى أمام عينيه. علّق حمود باعتزاز: «ألم تقل أنت بنفسك اننا يجب ان نبحث عن وسائل جديدة للعيش غير تهريب التبغ؟».

قال قادر كمن يحدّث نفسه: «واللّه لو عرف عمّي نريمان أو عمّي كريم بهذا، لأفرغا صلية مسدس في رأسي...». وقرّر في قرارة نفسه ان لا يتورط مرة أخرى في مثل هذا الأمر. علّق هاتف من أعماقه: كم مرة قررت مثل هذا القرار ثم عدلت عنه؟ ماذا ستقول لعمك كريم وكيف ستنظر في وجه رستم اذا مسكوك متلبساً بالجريمة؟ ان وضع حمود يختلف عنك اختلافاً كلياً، ان عشيرته قد نبذته، واما انت وعباس فمازلتما تتمتعان باحترام العشيرة التي لا تعرف عن أعمالكما الشائنة إلاّ القليل.

اقترح عباس ان يتجولوا قليلاً في شوارع المدينة ويمروا بالأماكن التي سبق ان عرفهم بها رستم قبل أعوام طويلة، بيد ان حمود أكّد بأن أقل تأخير يعني انكشاف أمرهم وسوقهم إلى السجن. هزّ قادر رأسه الكبير وأضاف بأنّ زمن التجول في مدينتي الموصل وكركوك بالنسبة لهم قد انتهى. علّق حمود: «ليس إلى الأبد، ولكن لمدة سنة واحدة على الأقل».

٤٠

توقّع رستم كل شيء، أمّا ان يتسلم كتاب احالته على التقاعد في مثل هذا اليوم النحس، فلم يتوقعه. أشعل لفافة من اللفائف التي يلفها له بعناية فراشة، وراح يذرع الغرفة ذهاباً واياباً وهو يكاد ينفجر من الغيظ.

هل صحيح انه بلغ سن التقاعد فعلاً؟... سناً لا يستطيع مواصلة العمل به؟ انه يحس بنفسه في ذروة القوة والعنفوان، ولكن هل تكون هذه الرسالة باعثاً لقصم ظهره؟... هذه هي النكبة الثانية التي يبتلى بها هذا العام. ترى، هل سبب الشؤم هو عام ١٩٥٠؟ وحدّق إلى التقويم المعلق على الجدار وكأنه لا يصدق عينيه...

أجل، لقد انقضى النصف الأول من هذا القرن، وها ان عشرة أعوام قد مضت دون ان يزور وادي كفران. أبمثل هذه السرعة يهرب الزمن؟ ترك الغرفة التي ضاقت به إلى باحة بناية المديرية التي تغطيها أشعة شمس ضحى آخر أيام شهر مايس. عندما رآه الشرطي حارس البوابة، اتخذ حالة الاستعداد وضرب الأرض بأخمص بندقيته الانكليزية بقوة. ابتسم قائلاً في قراره نفسه «هذه آخر تحية». أحسّ بشيء خفي في أعماق نفسه يدفعه للقيام بشيء ما، أي شيء. أراد ان يأخذ البندقية من الشرطي ويطلق عدة عيارات نارية في الهواء، ولكنه وجد نفسه يقف أمام باب السجن ذي القبضان الحديدية ويحدّق إلى ظلام الغرفة الصغيرة التي لا تحتوي على أي كوة. وقف هنيهة أمام باب الموقف والشرطي حارس البوابة مازال في حالة الاستعداد. في هذه اللحظة رجع الفراش الذي كان قد ذهب إلى السوق لشراء بعض الحاجات وراح ينظر بدهشة إلى مديره الذي يتحدث مع السجينين اللذين حقّق معهما قبل يومين. كانت العلاقة بينهما أكثر من علاقة الرئيس والمرؤوس. كانا يتمشيان احياناً لعدة ساعات ويتحدثان في أمور كثيرة، يعجز كل المعلمين الأربعة من خوضها. وبعد كل مناقشة يقول رستم للفراش بحسرة:

«لو انك قد أكملت الدراسة يا رشيد لأصبحت شخصية مهمة جداً». ويجيب رشيد بابتسامة وخجل: «انها القسمة والنصيب يا سيدي». ويكرّر رستم بقناعة: «القسمة والنصيب... نعم القسمة والنصيب...».

التفت رستم إلى رشيد الفراش وقال له انه يريد ان ينهي مشكلة هذين الشخصين. أجاب رشيد فوراً: «ولكنك حكمت عليهما بالحبس لمدة ثلاثة أشهر يا سيدي. إنّهما لصان محترفان».

«هناك آلاف اللصوص يا رشيد، يسرحون ويمرحون دون ان يعرف عنهم أحد أي شيء، هيا اجلَبهما لغرفتي كي أُعيد محاكمتهما». وعاد بسرعة إلى غرفته. كان بسبب انفعاله واضطرابه قد نسي انه حكم عليهما بالسجن، ولكنه أدرك ان شيئاً ما ليس في محله بالنسبة الى هذين الشخصين الظريفين. حين جاء الفراش بهما قال انه يجب ان ينتظر قليلاً لحين رجوع مفوض الشرطة من السوق. أجاب رستم بأنه لا حاجة لهذا الحمار الذي لا يحل ولا يربط وعليه ان يجلس للبدء بالمحاكمة.

قال رشيد: «والمحضر؟ ألا تريد ان يضبط المحضر؟».

تذكَر رستم كلام العريف سعدالله الذي مرَّ عليه دهر وقال: «أنظر رشيد، الحياة كلها ضراط في ضراط، لا محضر ولا هم يحزنون. إنَّ هذين الشخصين قد أعطياني كلام شرف وتعهداً بأنَّ لا يسرقا إلى الأبد. وأنا صدقتهما، وأما اذا خيبا ظني، فإن اللّه سوف يعاقبهما شر عقاب. ذنبهما على جنبهما».

كان الرجلان ينظران إلى بعضهما بدهشة مصحوبة بفرح وتفاؤل. قال أحدهما« ليكسر اللّه رقبتي اذا حاولت ان أمد يدي إلى مال حرام». اضاف الآخر: «وليقتل اولادي اذا وطأت رجلي بيتاً من أجل السرقة».

واصل الأول كلامه الذي قاطعه الثاني: «إنَّني لا أريد من اللّه عزَّ وجل إلاَّ ان يمد في عمركم يا سيدي المدير».

اتخذ رستم مكانه وراء الطاولة وراح يقلب بعض الأوراق. أراد الثاني ان يقول شيئاً، بيد ان رشيد اسكته. قال رستم: «انظرا يا محو ووصو، إنَّني سأعتبر المحاكمة السابقة ملغية. سنعيد كل شيء من جديد. في الحقيقة ان الشهود هم الذين شهدوا بالاجماع ضدكما، رغم ان دفاعكما كان جيداً. محو أقسم اليمين بأنَّه لم يمدّ يده إلى أي شيء داخل الدكان ووصو أقسم اليمين بدوره ايضاً بأنَّ رجله لم تطأ أرض الدكان. بهذا نستنتج بأنَّكما بريئان، ولكن كيف وصلت الأشياء المسروقة إلى بيتكما؟».

قال محو: «هل يسمح لي سيدي المدير بأن أعطيه الجواب؟».

أجاب رستم: «كلا، أريد ان أسمع كلام وصو».

قال وصو متردداً: «هل ستغير رأيك باطلاق سراحنا يا سيدي المدير اذا قلت الحقيقة؟».

قال رستم بثبات: «إنَّني قررت ان أطلق سراحكما في كل الأحوال، ولكنكما اذا قلتما الحقيقة، فإنَّني سأعينكما كشرطيين خيالين، هناك ثلاث وظائف شاغرة. إنَّني أحب الناس الجريئين والصادقين».

انبسطت أسارير وصو، قال بمرح: «سيدي المدير، كنا قبل ان نقوم بعملية السرقة نعرف بأنّنا إذا أُلقي علينا القبض، فإننا يجب ان نحلف بالقرآن الكريم في المحكمة ولذلك التجأنا إلى طريقة بحيث اننا حتى إذا أقسمنا اليمين، فلا نجلب على أنفسنا غضب اللّه».

قاطعة رستم وهو ينتبه بفضول أنساه همومه: «والآن أحب ان أسمع كلام محو». ارتسمت ابتسامة متفائلة على وجه محو الذي غطته آثار الجدري: «إن ما قاله وصو يا سيدي المدير صحيح. الطريقة التي نتبعها في سرقاتنا دائماً هي ان وصو يجلس على ظهري قبل ان ندخل المكان الذي نسرق فيه. أنا أحمل الكيس وهو يلقي فيه كل ما تقع عليه يده. وهكذا فإنّنا حين نحلف بالقرآن الكريم لا يمكن ان يحدث أي سوء تجاهنا، إذ انه فعلاً لم تطأ رجله أرض الدكان ولا أنا مددت يدي إلى أي شيء داخل المحل».

أطبق الصمت على الغرفة لهنيهة ولكن ما لبث ان شقّه رستم بقهقهة عالية، لم يسبق ان اطلق مثلها منذ أمد طويل. وسرعان ما انتقل عدوى الضحك إلى رشيد. واما محو ووصو فكانا ينظران الى بعضهما باستغراب وعلائم النصر مطبوعة على وجهيهما المرحين.

قال رستم: «واللّه انكما لصان عبقريان. سوف أعمل المستحيل من أجل تعيينكما شرطيين».

علّق وصو: ثق باللّه العظيم يا سيدي المدير، سوف أجلب لك كل لصوص ومهرّبي المنطقة والمناطق المجاورة خلال شهر واحد فقط لا أكثر، وكل ما أطلبه منك هو بندقية جيدة».

«ومحو؟ ألا تريده يرافقك في حملاتك؟».

«طبعاً يا سيدي المدير، إنّني بدونه لا أستطيع ان أخطو خطوة».

بعد ان صرف رستم الرجلين أحسَّ براحة داخلية، وبالحزن الذي يعصر قلبه قد ولّىَ، التفت إلى رشيد، الذي كان لا يزال مبهوتاً بعملية المحاكمة الغريبة وقال: «الآن تخلصت من مشكلة أشغلتني لثلاثة أيام».

«ولكن لم تسجل أي محضر يا سيدي، ألا تحصل لك مشكلة؟».

ابتسم رستم وقال وهو يحدّق إلى الفراغ: «كنت دقيقاً في الأشياء أكثر مما يتطلبه الأمر. لا تخف لا يمكن ان يحصل أي سوء». أراد رستم ان يواصل كلامه ويقول: «المبلل لا يخاف المطر...»، بيد انه قرّر ان لا يتطرق حتى باشارة غير مباشرة الى موضوع احالته المفاجئ على التقاعد. كما وقرّر ان لا يعود إلى البيت إلاّ بعد روحية مشبعة بالمرح والتفاؤل.

كانت هذه الناحية الصغيرة الراقدة على سفح جبل (بهروخ) الذي تغطيه بساتين الكروم وأشجار التين واللوز، والتي لا يمكن الوصول اليها إلاّ على ظهور البغال من أجمل القصبات التي تعين فيها. أنّها تختلف اختلافاً كلياً عن وادي كفران الذي يتميز ببقعة خضراء واحدة هي

(خورنەوەزان). هنا تقع القصبة على مرتفع هائل، تطوقها، بالاضافة إلى جبل (بەروخ) من جهة الشرق، سلسلة من الجبال العالية المكسوة بأشجار البلوط والصنوبر. وأكثر المرتفعات المحببة إلى نفسه هو مرتفع (سەرکەفری) الذي يشكل في نفس الوقت مقبرة القصبة. إنّه بأشجاره العملاقة وصخوره البركانية وقبوره القديمة والأساطير المنسوجة حوله، يعطي صورة ملموسة وصارخة لأزلية الزمن وجبروته. حين وصل إلى هنا مع عائلته قبل ثلاث سنوات على ظهور البغال، أدرك انه في عالم آخر، أجمل بكثير من طفولة وادي كفران. هنا عندما يأتي الشتاء، فإنّ الثلوج تغطي كل شيء. ولأول مرة يرى في حياته كيفية إدخار الثلج داخل حفرة هائلة لاستعماله في الصيف. وأمّا الربيع فلا يمكنه وصفه. الطبيعة كلها تتحول إلى حديقة ملونة. لقد أحبّ هذا المكان وأحبّ أهله من صميم قلبه. لقد قال أكثر من مرة بأنّ كل حياته لا تعادل هذه الفترة الزمنية القصيرة التي قضاها في هذا المكان. لم يكن يتصور أبداً بأنّ فترة حياته هنا ستكون محدودة، ولم يكن يتصور بأنّه سوف يترك هذا المكان إلى الأبد.

وحتى البقية الباقية من الحنين إلى وادي كفران قد زالت في سحر هذه القرية المعلقة في السماء. ولعلّ الشيء الوحيد الذي يهيج حنينه بين حين وآخر إلى وادي كفران هو ذكرى مادلين التي لم يتمكن الزمن من مسحها من خياله. والغريب في الأمر انه كلما طعن في السن، أحسّ بذكرى مادلين تتجسّد أكثر فأكثر في مخيلته. وبأنّ وادي كفران يبتعد أكثر فأكثر، حتى انه يكاد يتلاشى.

أعاد ترتيب بعض الملفات وأتلف أخرى لا أهمية لها ثم أخرج من بين الملفات بعض الأوراق التي تهمه كي يحتفظ بها لنفسه. ومن بين الأوراق التي سبق ان كتبها عند بداية وجوده تقرير مفصل حول طوبوغرافية هذه المنطقة التي شبّهها بسويسرا التي سمع عنها فقط والمقترحات التي كتبها بالتفصيل من أجل تطوير هذه الناحية وذلك بتشجيع زراعة الكروم والفواكه وتصنيعهما وضرورة ربط القصبة بشبكة من الطرق المبلطة. وكانت ثمة خريطة رسمها هو مرفقه بمجموعة أخرى من المقترحات التي وضعها لفترة لاحقة مثل بناء فنادق وبيوت سياحية ومدّ السك الحديدية وتكثيف الغابات وتوسيعها بواسطة التشجير المستمر. بكل حماس رفعها في حينه إلى متصرف اللواء بواسطة قائمقام المركز. وكم كانت خيبته شديدة حين قال له القائمقام: «هل أنت مجنون يا رستم أفندي؟ ما هذا الكلام؟ إنّ هذا الكلام الوارد في تقريرك ليس كلامك، انه كلام الشيوعيين، ولذلك أنصحك نصيحة أخوية يا رستم أفندي ان تمزق هذه الأوراق وتنسى كل محتوياتها وتنصرف إلى شؤون وظيفتك».

لم يأخذ في حينه كلام القائمقام بمأخذ الجد، بل اعتبر تصرفه مجرد حسد لا غير، ولذلك أوصل تقريره إلى المتصرف في وقت لاحق عن الطريق أحد الموظفين المقرّبين اليه.

جمع أوراق التقرير والخريطة وأوراقاً أخرى متفرقة ووضعها كلها داخل ملف. وفكَّر، ان المتصرف القديم لم يجشم نفسه عناء القراءة فحوّلها للحفظ، وكان ان جاء المتصرف الجديد بهمة جديدة وراح ينبش كل ما حفظه سلفه. ولكي يثبت إخلاصه لرئيسه، قدَّم تقريراً مفصلاً من ضمنه هذا الاتهام الغريب، وذلك كي يثبت أقدامه في وظيفته على حساب الأخرين... ولكن، هل يمكنه ان يغير في الأمر شيئاً؟ إنه قد أُحِيل على التقاعد وكفى الله المؤمنين شر القتال. لقد صدر القرار وانتهى كل شيء. لطالما قال جده زوراب: «ان الاطلاقة تطلق مرة واحدة فقط، ومن المستحيل اعادتها إلى مكمنها، فما الداعي لإشغال الرأس بموضوع منتهي؟».

عندما كان أصدقاؤه يحالون على المعاش يفرحون ويحتفلون لتخلصهم من أعباء الوظيفة المقيتة، فما باله هو يضرب أخماساً بأسداس؟... هل الوظيفة هي كل شيء في الحياة... لماذا لا يفتح صفحة جديدة في الحياة وهو مرتاح البال بين أهله وعشيرته؟...

حين ترك بناية مديرية الناحية، أراد رشيد مرافقته كالعادة، ولكنه طلب اليه ان يذهب إلى بيته لأنه يريد ان يتمشَّى وحده. انحدر إلى الوادي المؤدِّي إلى غابة (سەرکەفری)، حيث المقبرة. وقبل ان يصل إلى هناك مرَّ بشجرة البلوط المقدسة العملاقة ووقف يتأمل جذورها الهائلة التي تعانق الصخور وتمتد في أعماق الأرض مثل اصابع يد عفريت وتذكر الحكايات التي تُروى عن قدسية هذه الشجرة التي تعالج المرضى الذين يشدون الخرق على أغصانها. وحتى ابنه زوراب أكد بأنَّه في إحدى ليالي الصيف الماضي رأى ألسنة اللهب حسب، بل منها وتبلغ عنان السماء. لم يقدس أهل القصبة هذه الشجرة حسب، بل انهم كانوا يقدسون كل شجرة في مقبرة (سەرکەفری). وكان لا يجوز أخذ حتى الأغصان اليابسة المتساقطة إلى خارج الغابة لأي سبب كان. كان هو يعتبر كل تلك الحكايات مجرد خرافات ترسخت في أذهان الناس، بيد انه ذات يوم توصَّل إلى قناعة بأنَّ المسألة تتجاوز كونها مجرد خرافة، فذات يوم عاد ابنه زوراب من الغابة بغصن يابس، فما ان بلغ البيت إلاَّ وأُصيب بحمى. وكانت زوجة عريف الشرطة خضر اذ ذاك في زيارة قصيرة عندهم، فما ان رأت الغصن، إلاَّ وجنَّ جنونها وراحت تصيح: «هيا أوجع الغصن فوراً إلى الغابة، وحذار ان تكسره. حرام، حرام يا بني ان تمد يدك إلى أي غصن في الغابة». وعندما عاد الصبي زوراب إلى البيت كان قد زال منه كل أثر للحمى.

مرَّر يده على جذع الشجرة الخشن وهو يفكِّر، تُرى ماذا سيحصل إذا تجرأ أحدهم وقطع أغصان هذه الشجرة أو قطعها كلها؟ ثم أحسَّ انه مثقل بالذنوب، ربما كان شربه المستمر للخمر وعدم أدائه فريضة الصلاة هما السبب في إثارة غضب الله عليه. وتوجه إلى المقبرة وهو يفكر في حياته المقبلة وتصور كل شيء، أمَّا ان يبقى بلا عمل ينشغل به فوجدها مسألة مستحيلة. حين بلغ الغابة، سار بين الأشجار الهرمة والقبور القديمة ثم توقف عند قبر صغير جديد يشاهد من

المرمر حفر عليه أسم ابنته التي كانت لا تتجاوز الخامسة عندما توفيت قبل سنة متأثرة بجروح الحرق الذي حصل في الغابة نتيجة اللعب بالنار. انحنى على القبر واتكأ برأسه ويديه على الشاهد واستغرق في بكاء عميق. ثم وقف في مكانه ماسحاً عينيه وأحسَّ بارتياح عميق يجتاح كيانه. وراح يجيل عينيه حواليه كما لو انه يريد ان يودِّع كل شيء إلى الأبد. ها هو بيته الحكومي الكبير والجميل المبني على مصطبة صخرية ومن ورائه جبل (بەروخ). وها هي بيوت القرية والسوق تتراءى واضحة مع مبنى مديرية الناحية التي تحتوي في الوقت نفسه على مركز الشرطة ودائرة النفوس وشعبة المالية وفي أقصى القرية يبدو المسجد بينبوعه الذي يشكل بركة من الماء العذب البارد.

وفي المساء ابلغ زوجته وأولاده الأربعة بأنَّ حياة التنقل بين النواحي والمناطق النائية على ظهور البغال قد أنتهت إلى الأبد، وانهم سيبدأون حياة جديدة في بيتهم القديم. ولم يتوقع بأنَّ فرحتهم ولاسيما فرحة زوجته ستكون كبيرة إلى هذه الدرجة، حتى انهم ظلوا إلى منتصف الليل يتحدثون بالتفصيل عن حياتهم المقبلة في قصبتهم، حيث الجدة والأقارب والعشيرة.

كان الأطفال لا يعرفون عن جذورهم شيئاً. وكان زوراب الذي بلغ العاشرة هو الوحيد الذي يحمل في طيات ذاكرته بعض ملامح البيت القديم. وتختلط تلك الملامح بصور من أحلامه، فيتباهى بين اخوانه بأنَّه يعرف الشيء الكثير عن بيتهم القديم وبستان جدِّهم عاصم. وراح يتحدث لإخوانه عن أشياء لم يعشها، بل سمعها من والديه.

ورغم ان قائمقام مركز قضاء الموصل قد أبلغه بأنه يستطيع ان يبقى شهراً لترتيب أمور الانفكاك، فإنَّه قرَّر ان يغادر الناحية خلال اسبوع واحد ولاسيما لأن حر الصيف قد بدأ بطرق الأبواب.

كانت رحلة العودة النهائية متعبة جداً. وأحسَّ من خلالها انه قد طعن في السن، ورغم ذلك فإنَّ نشوته كانت كبيرة للحياة الجديدة القادمة.

٤١

بعد أسابيع من الفراغ الممل وبعد تسلّم راتبه التقاعدي الأول، تبيّن له ان هذا الراتب لا يسد الرمق، هو المسؤول عن اعالة زوجته وأولاده الأربعة، والخامس في الطريق هذا بالاضافة إلى المصاريف الجانبية التي يجب ان توضع في الحسبان مثل تردُّد الضيوف الدائم إلى منزله من وادي كفران وتردّده اليومي إلى المقهى. ولأول مرة في حياته يمسك بالقلم كي يقسّم راتبه على أيام الشهر ويحسب حتى حساب الفلس الواحد. ها انه اذن يعاني من ضائقة مالية. واعتقد ان ثمة خطأ قد حصل في تحديد راتبه التقاعدي، ولاسيما لأنه قارنه مع رواتب أقرانه من المعلمين المتقاعدين الذين يتمتعون برواتب تقاعدية أعلى بكثير منه. وكان ان قدّم اعتراضاً مفصلاً إلى الجهات الرسمية بشأن تعديل راتبه. وما لبث ان جاء الجواب غير المفرح الذي يؤكّد بأنه لو بقي في التعليم لكان راتبه مثل رواتب زملائه المعلمين المتقاعدين، إلاّ ان انتقاله إلى دائرة أخرى تابعة لوزارة أخرى قد اثّرت سلبياً على راتبه.

عندما فاتح بذلك صديقه أحمد أفندي، قال هذا باستياء: «يا رستم أفندي، كانت فترة وظيفتك كمدير ناحية على الحدود وفي زمن توزيع بطاقات التموين، كافية لأن تجعل منك انساناً ثرياً. لا أحد يُصدِّق بأنك الآن في ضائقة مالية، لأن كل أقرانك اصبحوا أثرياء وبنوا البيوت في المدن الكبيرة...».

أجاب رستم بابتسامة فيها اعتداد بالنفس:

«يا أحمد أفندي، ثق بأنّني إذا عدت الآن شاباً وبدأت بنفس العمل، لما لجأت إلى أخذ الرشوة حتى لو متُّ جوعاً...».

أجاب أحمد أفندي وهو يفكر في إيجاد حل لمشكلة صديقه:

«انسان بمثل هذا الخلق، لا يمكن ان يموت من الجوع».

كان أحمد أفندي مديراً للمال ناجحاً، يحل أعقد المشاكل المالية ويستطيع خلق أوجه مختلفة للصرف دون ان تؤثّر على ميزانية القضاء. وبحكم علاقته القديمة برستم عن طريق قريبه صائب، يعرف جيداً بأنّ رستم لن يطرح مشكلته المالية حتى على والده. كانا جالسين في مكتب أحمد أفندي يشربان الشاي، يستعيدان الذكريات القديمة، ويبحثان عن حل للضائقة المالية التي يعاني منها رستم. قال أحمد أفندي بعد ان سحب كمية من الدخان من سيكارته:

«انظر يا رستم أفندي، ان مَنْ يريد ان يعمل ويحصل على بعض النقود فهو لا شك يستطيع ان يجد الشغل المناسب، ولكن المهم هو ان يتقن شغله ويكون مخلصاً في أدائه. وستكون نوعية الشغل عاملاً حاسماً لتكليف الشخص المعني بأشغال أخرى...».

ابتسم رستم مقاطعاً اياه:

«كلامك يذكرني بكلمات صديقي القديم صائب».

واصل أحمد أفندي:

«اللّه يذكره بالخير، أنا قد تعلمت منه الكثير وله فضل كبير عليَّ. على كل حال أردت ان اقول بأن امكاناتك وخبراتك كثيرة وغنية سواء في مجال التعليم أم في مجال الادارة».

وفجأة قام من مكانه كما لو انه تذكر شيئاً وراح يخرج بعض الأوراق من رف دولاب قريب منه. قال وهو يقلب الأوراق:

«لي عمل لك سيشغلك لما يقل عن شهر. وما سيدره عليك لا يقل عن راتب شهر».

علّق رستم وهو يتنفس الصعداء:

«هذه عليها وليمة».

أجاب أحمد أفندي وهو ينبش في الدولاب عن أوراق أخرى:

«الولائم تأتي بعد الانتهاء من اداء الأعمال وقبض الفلوس، قل لي هل خط ابنك جميل وواضح؟».

أجاب رستم باعتزاز ومبالغة:

«خط ابني زوراب أجمل بكثير من الحروف المطبعية، لقد اشرفت على تعليمه بنفسي، ولكن لماذا هذا السؤال؟».

بعد فترة صمت قصيرة عاد أحمد أفندي إلى مقعده وراء الطاولة وبيده مجموعة من الأوراق. مسح رأسه الأصلع بمنديله وراح يروح بسدارته على وجهه:

«يجب ان يكتب لنا الاسم الكامل مع محل وتأريخ الولادة لسبعمائة مكلف للخدمة في الجيش. سيحصل لكل اسم على عشرة فلوس».

لم يصدق رستم، علّق بصوت كسير:

«يا أحمد أفندي أنا في ضائقة مالية فعلاً، دعنا من المزاح الآن».

«لا مزاح ولا هم يحزنون، ستجلبه معك غداً للبدء بالعمل، هيّا الآن لأريك الغرفة التي سينجز فيها عمله».

كانت أشعة شمس حزيران اللافحة تغطي باحة مبنى القائمقامية، محولة كل شيء إلى جحيم لا يطاق. دخلا غرفة ضابط التجنيد المحتوية على طاولتين: «هنا على هذه الطاولة يمكنه البدء بالعمل دون ان يزعجه أحد. يجب ان نقدِّم القائمة كاملة إلى ضابط التجنيد في نهاية هذا الشهر. إنَّه يأتي مرة واحدة في كل شهر ويداوم عندنا ثلاثة أيام ثم يرجع إلى مركز اللواء. هل يستطيع انجاز القائمة خلال اسبوعين؟». ضحك رستم معلقاً باعتزاز:

«سينجزها لك خلال يومين يا أحمد أفندي، لا تعرف ابني...».

«لا، لا أريد ان يستعجل في الكتابة، عليه ان ينهي القائمة خلال اسبوعين، وإلاَّ سنعاني مشكلة في صرف المبلغ، هل فهمتني؟».

«فهمتك جيداً».

توجه أحمد أفندي إلي النافذة المطلة على حديقة نادي الموظفين. بعد تأمُّل قصير قال:

«هل لك رغبة في التدريس يا رستم أفندي؟».

أجاب رستم بصورة لا ارادية:

«التدريس كان جزءاً من حياتي، ولعل أكبر خطأ مارسته في حياتي هو أنَّني تركته إلى وظيفة أخرى».

قال أحمد أفندي كما لو انه وجد حلاً للغز:

«إذن تمَّ حلّ المشكلة، ستبدأ اعتباراً من بدء السنة الدراسية بأعطاء دروس في المواد التي ترغب فيها. وستحصل لكل ساعة علي مبلغ ١٨٠ فلساً، واذا فرضنا انك ستعطي عشرين درساً في الأسبوع فهذا يعني ثلاثة دنانير وستمائة فلس، أي انك ستحصل في الشهر الواحد على مبلغ ١٤,٤٠٠ دينار».

قال رستم وهو لا يصدق كلام صاحبه:

«لقد حوَّلت الدنيا كلها إلى ربيع يا أحمد أفندي، من أين لك هذا الخيال الخصب؟».

واصل أحمد أفندي كلامه دون ان يلتفت إلى تعليق رستم:

«وأمَّا الآن، فلنا شغلة أخرى لك لايمكن ان ينجزها غيرك، ولاسيما لأنك تعرف كل شبر في المنطقة، وهي تخمين محصولات كافة الأرياف التابعة للقضاء، علماً أن القائمقام سيضع تحت أمرتك شرطيين سيرافقانك في سفراتك، ولك حق اختيار احد ابناء المنطقة لمرافقتك كدليل و سيحصل هو الآخر على المكافأة التي يستحقها، ولكن بشرط واحد وهو ان لا تتساهل مع أي انسان حتى اذا كان من أقاربك».

كان الشخص الوحيد الذي يعرف بأنّ رستم يعاني من ضائقة مالية هو ابنه زوراب، وقد توصّل إلى ذلك السر بواسطة شيئين، أولاً اطلاعه خفية على الكتاب الرسمي الذي يحدّد راتبه وثانياً لبيعه مسدسه الذي كان يعتز به أشد الاعتزاز حتى انه قال ذات مرة بأنّه اذا اضطر لبيعه فهذا يعني انه في ضائقة مالية حقاً. وحزَّ في نفسه ذلك وراح يفكر في طريقة يساعد بها اباه للتخلص من هذا العوز الذي لم يسبق لهم ان عانوه من قبل. اذ ذاك عرف ايضاً سبب عدم خروجه من البيت وعدم إعلام عشيرته بخبر احالته على التقاعد وعودته إلى بيته القديم. وعندما سألته زوجته قبل أيام عن سبب عدم زيارته لأهله في وادري كفران أجابَ بأسى:

«يا گلباغ، لقد وصلتني أخبارهم كلهم، إنّني لم أرهم منذ عشر سنوات، تصوّري انهم اذا علموا بوصولي ووجودي هنا، لتحوَّل بيتي إلى مضيف لمدة لاتقل عن شهر، أنا حالياً في وضع نفسي لا يساعدني على استقبال أي انسان مهما كان».

«واذا سمعوا الخبر من شخص آخر؟ اذ ذاك لن تتخلص من عتابهم وتقريعهم».

أجاب رستم بلا مبالاة:

«لا يهمني أي عتاب او تقريع، عندما تحين الفرصة المناسبة سأذهب بنفسي اليهم، وأزورهم واحداً واحداً».

ورغم الصداقة الحميمة بين الأب و الابن فإنَّ ثمة جداراً ما كان قائماً بينهما. كان شعور زوراب تجاهه مليئاً بالاحترام من جهة وبالرهبة من جهة أخرى، فهو طالما لايقف بوجهه و لا يعانده في شيء ما، فهو اذن ابن مطيع وطيب. وحذار من ان يقف المرء في وجهه، اذ ذاك يتحول إلى انسان آخر يقطر شراً ويندفع مثل الثور الهائج ليزيح امامه كل شيء. وبالعكس من ذلك يكون أحياناً، اذا اقتضى الأمر، انساناً عطوفاً رحيماً لامانع لديه لأن ينزع اللقمة من فمه كي يعطيها للمحتاج. فكيف ينبغي لصبي صغير مثله ان يتعامل مع مثل هذا الأب الذي يرفض أن يوحي لأقرب المقربين اليه بأنه في ضائقة مالية؟ وأدرك زوراب ان لأبيه امكانية عجيبة للتكيّف حسب وضعه المعاشي، فها هو لا يذهب إلى المقهى ولا يشرب العرق، بل يذهب يومياً إلى الجامع ليشرب شايه هناك مع الملا الذي يبدو انه من أصدقائه القدماء. وهو مثل ظله يجب أن يأخذه معه دائماً إلى حيث يذهب. ويذهب زوراب معه برغبته الذاتية، حيث يراقب الرجال عن كثب ويستمع إلى أحاديثهم، ويصنع لنفسه تصوراته الخاصة حول حياتهم الشخصية. وجد في الغرفة الخاصة بالملا في الجامع دولاباً يحتوي على كتب قديمة. ولما رآه الملا وهو ينظر بفضول إلى محتوياته، اهداه نسخة من جزء عم وسمح له ان يقلب الكتب ان كان يرغب في ذلك، فقال رستم بفخر بأنَّ ابنه يقرأ كثيراً، حتى ان زوراب احسَّ بأبيه يبالغ في مدحه. وقبل ان ينصرفا تمكن زوراب من القاء نظرة شاملة على عناوين الكتب التي استعار منها كراسين،

احدهما في علم التنجيم والثاني في تفسير الأحلام. وكان قد عثر من بين كتب أبيه الكثيرة على كتاب في فن السحر، وبذلك اكتملت عنده مجموعة الكتب التي اعتقد انه بواسطتها سيتمكن من الوصول إلى الحقائق المنزلية فيما وراء الطبيعة. ومما رسخ اعتقاده ذاك ما سمعه من عراف زاراه مع والدته لمعرفة سر اختفاء قلادتها الذهبية التي ظلّت تبحث في كل زاوية بالبيت دون جدوى. وكان ان قلب العرف صفحات كتاب اصفر قديم ثمّ راح يرسم خطوطاً على الرمل ويحرك فوقها قطعاً صغيرة من العظام ثم قال بلهجة واثقة:

«القلادة مسروقة ياسيدتي، ولكن لاتخافي، يمكنك استرجاعها. إنّها موجودة في بيت يبعد عنكم خطوات».

تنفست أمّه الصعداء وهي تقوم من مكانها، نقدته درهماً وهي تقول:

«بارك الله فيك يا ملا، هيا يا زوراب لنسرع قبل فوات الأوان».

ارتدت والدته عباءتها السوداء وانزلت الحجاب على وجهها، اذ انهما ينبغي عليهما ان يمرا بالسوق. كان الوالد يقضي وقته اذ ذاك في المقهى.

لاحظ زوراب ان والدته تحاول السير بسرعة، الأمر الذي أدّى إلى ان تتعثر مرتين، ولولا انه كان ممسكاً بيدها بقوة لسقطت منبطحة علي وجهها، فطلب اليها ان لا تستعجل وأكّد لها بأنّ القلادة سترجع في كل الأحوال فهو يعرف السارقة جيداً، انها ابنة جارهم حسن. قالت له أمّه بأنّها هي الأخرى تعرف ذلك وهي قد شكّت بها منذ البداية وان سبب استعجالها هو الوصول إلى البيت قبل عودة الوالد، لأنه يجب ان لا يعرف بأنهما ذهبا إلى الملا.

وفي البيت قال زوراب لأمه انه هو الذي سيتولى أمر استرجاع القلادة، لكن أمها قالت أنه من المستحسن ان تتكلم هي مع والدتها. أكّد زوراب بأنّ أمها لاشك لاتعرف بموضوع السرقة، فإنّها اذا عرفت بذلك فستؤدّي إلى خلق مضاعفات هم في غنى عنها. كانت الأم تثق بقدرات زوراب فتركت الأمر له دون ان تناقشه. كانت وردة هي ابنتة الجار الوحيد التي تزورهم كل يوم، وهي تكبره بسنتين. كانت تأتي عادة في أوقات الظهيرة، حيث الكل نيام عداه هو، إذ يقرأ أو ينبش في الصناديق الحديدية القديمة التي تحتوي على كتب وأوراق والده حين كان طالباً. كانت تتسلل خفية إلى غرفته مثل قطة جالسة إلى جنبه، واضعة يدها بصورة عفوية، أو هكذا كان يعتقد هو، على ساقه قائلة بصوت خافت:

«ألا تتعب من القراءة يا زوراب، هيا لنذهب إلى بيتنا ونلعب هناك. لا أحد في البيت، أنا وحدي». وعندما كان زوراب لايلبي طلبها، تنفعل وتغضب وتلوي يده. ويقول لها زوراب انها تستطيع ان تلعب معه هنا أيضاً، فتُخرِج من جيبها مشطاً صغيراً، تناوله إيّاه قائلة: «هناك مشط

لي شعري، وبعد ذلك أمشط لك شعرك».

كان في البدء يمشّط شعرها بصورة خشنة بحيث تنغرس أسنان المشط في جلد رأسها. وتصيح وهي متأوّهة، آخذة منه المشط: «ما هذه الخشونة يا زوراب؟ تعال أريك كيف تمشّط الشعر». وتمسكه من كتفية ضاغطة إيّاه علي صدرها ويحس هذا بتكوّر نهديها الصغيرين اللذين يبعثان شيئاً أشبه بالخدر في كيانه. وحين تمرُر المشط برفق في ثنايا شعره، يغمض عينيه ويستسلم للخدر فتقول: «هكذا يكون التمشيط، والآن هيّا كرُر العملية وحذار ان تغرس الأسنان في جلد رأسي». كانت العملية تتناوب إلى أن تغيرها وردة بلعبة أخرى وهي انها تزيح فستانها فتظهر ساقها وتطلب إليه ان يكتب اسمه على ساقها، فيمرُر هو سبابته برفق في جلدها كاتباً اسمه عليه، فتقول محتجة: «أعد الكتابة يا زوراب وأضغط بقوة بحيث تترك أثراً للكتابة على جلدي..».

بعد تناول طعام الغداء استسلم الكل للنوم، إلاّ زوراب. وعندما حان موعد مجيء وردة ترك البيت وراح ينتظرها أمام الباب. وطال انتظاره في ذلك اليوم. لم يتحمل القيظ الشديد، اراد ان يطرق بابهم، ولكنه خشي أن تخرج أمه فيفسيد عليه كل شيء. وحين همّ بدخول البيت، خرجت هي من وراء باب بيتهم بخفة وهي تستغرب من وقوفه أمام الباب. حدّق إلى عينيها اللتين أحس بهما قلقتين، بعمق وبوجه متجهم، سرعان ما أحست به وردة فقالت بصوت كسير:

«ماذا بك يا زوراب؟».

قال وهو لايزال يحدّق إلى عينيها اللتين تتجنبان النظر اليه:

«لقد خرب كل شيء يا وردة».

قالت وهي تحاول ان تسبغ مسحة طبيعة على وجهها:

«كيف؟.. كاذا حصل؟».

اجابها وهو يشد نظرته بقوة أكثر على عينيها:

«الجواب عندك أنت يا وردة، قالت والدتي حذار ان تدخل هذه البنت بيتنا مرة أخرى، وإلاّ سأكسر رجيلها».

قالت وآثار الاحراج تبدو عليها بصورة أوضح:

«هل تعتقد انها تغار لأنني ألعب معك؟».

علّق باستخفاف:

«كلام فارغ يا وردة، فكّري في الأمر جيداً».

قالت متأوّهة:

«أنا لا أتحمل الحر الشديد، هيا لنذهب إلى بيتنا ونواصل الكلام هناك؟».

«هل هناك أحد؟».

«كلا، انا وحدي، اذا كانت والدتك لاتتحملني فلنذهب إذن إلى بيتنا».

قال زوراب بلهجة صارمة:

«المسألة لاتتعلق بموضوع تحمُل أم عدم تحمُل والدتي لك، هناك مشكلة كبيرة يا وردة. انت الوحيدة التي تستطيع حلّها، وإلاً فإنَّ علاقتنا ستخرب إلى الأبد، ويستحيل أن نلتقي مرة أخرى».

شعر زوراب بوجهها قد تغير بشكل غريب وراحت ترتجف ذعراً فخشي أن تقع أو يغمى عليها. أمسكها من يدها التي أحسَّ بها باردة وقادها إلى منزلها. هذه هي المرة الأولى التي تطأ فيها قدماه بيتهم. وها ان الغموض الذي كان يكتنف بيتهم ينجلي الآن: حوش صغير بخروف مربوط تحيط به أكوام العلف والسماد التي اختلطت بحيث لايمكن التفريق بينهما. وثمة غرفتان ملتصقتان ببعضهما بجدار واطئ، عاريتان، لاتحتويان إلاَّ على خرق وأسمال. جلسا علي قطعة لباد على الأرض. كانت لاتزال صامتة تنظر بعينين جامدتين وقد اكتسى وجهها شحوب غريب بحيث بدت كما لو انها جثة هامدة. كانت يدها لاتزال باردة مثل الثلج. أسندت ظهرها على الجدار وراحت تنظر في الفراغ. أطبق عليهما الصمت. شيء من العطف مرَّ بكيان زوراب، بيد ان اعتزازه بتأثير كلامه عليها، كان أقوى، فقال بلهجة صارمة:

«هل ترين؟ هذا هو تأثير العمل الشنيع الذي قمت به يا وردة. ان الله يرى كل شيء. انك يجب أن تصحّحي الخطأ الذي قمت به، وإلاً فإنَّ العاقبة ستكون وخيمة جداً».

وضعت رأسها على كتفه وراحت تعصر يده بكفيها:

«أنا نفسي لا أدري لماذا قمت بذلك، أردت أن أعيدها إلى مكانها ولكنني خفت، لو علمت أمّي بذلك لذبحتني، هل والدتك غاضبة عليَّ حقاً؟».

وأجهشت في بكاء عميق.

قال زوراب وهو يمرِّر أنامله في ثنايا شعرها:

«أنظري يا وردة، إنّني سأقوم بخدعة أوهم بها والدتي بأنّها لم تبحث عن القلادة بصورة جيدة، وبعد ان ندسها في مكانها، سأنادي عليها أمامك كي ترى بنفسك كيف ستعثر عليها، عند ذلك سيزول شكها وتعود صداقتنا كسابق عهدها».

مسحت دموعها وهي تنظر إليه بخجل:

«وأنت؟ ألست غاضباً عليَّ؟».

«اذا عادت القلادة إلى مكانها، فسأنسى كل شيء».

قامت من مكانها متنفسة الصعداء وتوجهت إلى ركن معتم وانحنت على بعض الأسمال ثم عادت وبيدها القلادة. لم يصدّق زوراب عينيه، تراءى له كل شيء كما لو انه في حلم. وظلاّ واقفين لهنيهة يحدّقان إلى بعضهما دون ان يتكلما ولاحظ زوراب شحوباً غريباً يكتسي وجه وردة، أراد أن يسألها عن السبب، بيد انها مالبثت ان تهاوت على الأرض، ارتعب زوراب فأمسكها بقوة:

«مابك يا وردة؟ لقد انتهى كل شيء».

اجابت بصوت خافت وهي تحدّق إلى وجهه بعينين جامدتين:

«دعني أمت يا زوراب».

«ولكن لماذا يا وردة هل أنت مجنونة؟ لقد قلت انتهى كل شيء وكفى، هيا لنذهب إلى بيتنا لتنفيذ الخطة التي اتفقنا حولها».

«إنّني لا أقوى على المشي، منذ يومين لم آكل شيء. خذ القلادة واذهب ودعني أمت يا زوراب».

أخذ القلادة وهرع إلى البيت، ارجعها إلى مكانها الأول وغطّاها بالملابس، ثم ذهب إلى المطبخ وأعدّ صحنا من الرز ومرق الفاصوليا وقطعة خبز وترك البيت دون أن يحس به أحد. كانت لاتزال ممدّدة في مكانها، خائرة القوى. حين وضع الصحن على الأرض، لاحظ زوراب بقعاً من الدم على ثوبها، فصاح مرتعباً:

«ما هذا الدم يا وردة؟ من جرحك؟».

ما ان وقعت عينا وردة على الطعام، إلا وقامت من مكانها بقوة غريبة وراحت تأكل بشراهة دون ان ترد على سؤال زوراب، فكرّر سؤاله وهو يهزها من كتفها.

قالت وهي تحشو الأكل في فمها حشواً:

«لاتخف يا زوراب، لم يجرحني أحد. هذا يحصل مرة في كل شهر. هذه مسألة خاصة بالنساء. بدأت هذه الحالة عندي منذ ثلاثة أشهر. قالت لي أُمّي بأنّني قد أصبحت امرأة، وأستطيع الزواج..».

لم يستطع زوراب فهم كلامها إلاّ بعد ان قامت وردة من مكانها بعد انتهائها من الأكل وحشرت خرقة بين ساقيها ثم نزعت الثوب الملطخ بالدم وارتدت آخر بسرعة. انتابه شعور غريب لم يدرك كنهه حين وقعت نظراته على نهديها الصغيرين المدورين، شعور اختلط فيه التقزز بنشوة روحية وفضول. اراد ان يقول شيئاً، بيد ان صدمة ما عقدت لسانه. ولم يعد زوراب إلى وضعه الطبيعي، إلاّ بعد ان عادت هي إلى وضعها الطبيعي الأول، ورغم ذلك ظلّ شارداً ينظر في الفراغ كما لو انه يفكّر في أمر ما. قالت وردة وكأنّ شيئاً لم يكن:

«والآن؟ هل نستطيع ان نلعب عندك، أم ان أمك مازالت غاضبة عليّ؟».

شعر زوراب بشيء قد انهار في داخله وبخيبة أجتاحت عواطفه دون ان يدرك مصيرها، قال بصورة لاارادية:

«ليس اليوم، في وقت آخر، إنني يجب ان أحل المشكلة مع أمي».

ولم تستطع اقناعه للبقاء عندها فعاد إلى البيت وبيده الصحن الفارغ.

استلقى على سريره وظلَّ يفكّر لفترة في بقع الدم وجسدها العاري الذي رآه في لمحة خاطفة. وتصارعت في ذهنه مختلف الأفكار والتساؤلات: تُرى هل يحكي لوالدته كل ما حصل؟ أم يلتجئ إلى الخدعة التي اتفق معها على تنفيذها؟.. في هذه اللحظة دخلت عليه والدته بعد ان أخذت قسطاً من النوم وسألته بخصوص القلادة، قام من مكانه قائلاً وهو يفتعل الهدوء:

«ما ما، هل بحثت عن القلادة بشكل جيد؟».

قالت بلهجة واثقة وهي تؤشر بيدها إلى الركن الذي يحتوي على الصندوق الحديدي:

«كانت هنا داخل هذا الصندوق، وهي الشخص الوحيد الذي يدخل هذه الغرفة عداك».

«ماما لننظر كلينا الى محتويات الصندوق، وبعد ذلك سأذهب اليها فوراً».

«ألم تسمع بنفسك كلام الملا؟».

اصطنع زوراب ابتسامة ساخرة معلقاً:

«الغيب لايعرفه إلا الله يا ماما، هذا العراف مشعوذ».

وراح يخرج محتويات الصندوق قطعة قطعة. وبعد ان كوم نصف المحتويات على الأرض، قفز من مكانه صائحاً:

«تعالي انظري، ها هي القلادة».

لم تصدق الأم إلاَّ بعد رأت القلادة بأم عينيها. وضعت يمناها على فمها باستغراب:

«لعنة اللة على الشيطان الرجيم. المسكينة بريئة حقاً».

كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصراً، گلباغ مشغولة بأعداد الشاي، حين سمعت طرقات قوية على الباب، فأسرع زوراب لفتحه بعد ان استيقظ والده على أثرها وهو يتذمر من هذه الطريقة الوحشية في طرق الباب وفي مثل هذا الوقت الذي يخلد فيه الناس عادة إلى الهدوء والسكينة. وعلقت زوجته «هل تعتقد ان خبر وصولنا إلى هنا سيظل سراً إلى الأبد، إنَّ هذه اليد التي تطرق بهذه الطريقة قادمة لاشك من وادي كفران».

وأطلَّ من وراء الباب رجل ضخم بوجه بشوش منتفخ، تكسوه لحية خفيفة بيضاء، وفي هذه

اللحظة جاء رستم بنفسه ليتأكَّد من الطارق وهو يرتدي دشداشة طويلة بيضاء. وما ان التقيا إلاَّ وتعانقا بقوة وهما يقبلان بعضهما، ولاحظ زوراب كيف ان دموع الضيف الذي يراه لأول مرة تنهمر من عينيه وهو يردِّد:

«رستم، رستم لقد كبرنا حقاً..».

ثم راح يعانق زوراب واخوانه الأخرين وقبَّل گلباغ من كتفها ودموعه مازالت تنهمر. وما ان اتخذ مكانه على الأرض جنب رستم، إلاَّ وأحضرت له گلباغ صينية تحتوي على طبقين وقرصة خبز ثم راحت تصب لهم الشاي.

عشرة أعوام من الزمن.. إنَّها تبدو أحياناً كما لو انها لا نهاية لها.

«أجل، لقد كبرنا حقاً يا قادر...».

وها هو رستم الذي اكتسى الشيب هو الآخر رأسه وبرزت وجنتاه في وجهه الطويل الذي اقتحمته التجاعيد، يتراءى له هذا العقد الذي خلفه وراءه كما لو انه مجرد أشهر لا أكثر، وأمَّا ابنه زوراب الذي بدأ العالَم يفتح امامه صفحة جديدة، فبدت له السنوات الماضية التي تنقلوا خلالها من قصبة إلى أخرى سواء على ظهور البغال او الشاحنات، أشبه بدهر لا نهاية له. ولعله بسبب علاقته الوطيدة بوالده وتنقله الدائم معه قد رأى الكثير من الآفاق الملونة وشهد الأحداث التي عاشها والده، ولذلك فإنَّ أبعاد الزمن راحت تتخذ في ذهنه شكلاً آخر، يأتي من مكان مجهول ويصب في شيء أزلي اشبه بالمجرة التي كان يراقبها ويحلم بها في ليالي الصيف، حيث ينامون فوق السطح.

وعرف زوراب من خلال الحديث أن هذا العم الذي يدعى قادر، هو الضيف الأول الذي يصل من عشيرتهم وادي كفران، تلك العشيرة التي كان والده يتحدث عنها بين حين وأخر بكل فخر واعتزاز.

وتشعب الحديث. وقادر يحاول أن يصوِّر كل شيء بدقة، مرة تنشرح أسارير وجهه وأخرى تتجهم.

كانت الأشياء خلال السنوات الماضية قد تغيَّرت بشكل ملحوظ أو هكذا تراءت لرستم. الكفرانان قد انفصلا عن بعضهما البعض انفصالاً كلياً. وادي كفران الجبل لم يتغير. كل شيء كسابق عهده سوى ان الرجال الذين كانوا يقطرون حيوية قد طعنوا في السن.

ها هو قادر تحوَّل إلى جثة ضخمة، يعيش في قرية بانشاخ. انه لم يتصالح بعد مع عمه نريمان. عباس ترك العشيرة نهائياً ولايعرف أحد عنوانه. ويقال انه يعيش في بغداد مع الراقصة اللبنانية التي تزوجها قبل ثمانية أعوام. حمود تزوج هو الآخر، ويعيش في إحدى قرى حويجة،

ويقال ان وضعه المعاشي جيد. نريمان طعن هو الآخر في السن، تزوّج للمرة الثانية ويملك حالياً سيارة كاديلاك وشوفرليت، يستعمل الأولى في سفراته إلى بغداد والثانية في سفراته إلى كركوك كما ويملك خمسة تراكتورات وثلاث دراسات. يقال انه زار وادي كفران الجبل مرة واحدة فقط منذ توليه رئاسة العشيرة. حمة غريب يملك سيارة بويك مع تراكتورين ودراًسة واحدة. وأما مردان، فلم يزل ذلك الانسان المطيع الذي يعتمد عليه نريمان في كل شيء.

وعرف رستم من طريقة كلام قادر انه يخفي عليه بعض الحقائق، ولاسيما بعد ان أكدّ بأن العشيرة تعرف بخبر وصوله، ولكن أحداً لم يجرؤ على زيارته ليكون سباقاً لنقل الأخبار غير المفرحة اليه. تساءل رستم بعد ان أحسٌ بدقات قلبه التي راحت تتلاحق بسرعة:

«تكلم يا قادر يبدو ان شاباز، صاحب المقهى لم يخبرني بكل شيء، تكلم، إنّني كلما سألتك عن أخبار ابني ولي ووالدي، قلبت الموضوع وانتقلت إلى حكاية اخرى. أنا لا يهمني من يملك ومَنْ لا يملك، قل لي مَنْ مات ومن يعيش..».

وضع رأسه على كتف رستم وراح يبكي مثل طفل، والكلمات تخرج من فمه بصعوبة: «رستم البقاء في حياتك وحياة أولادك، لقد ماتا، ماتا خلال يومين. توفي ولي بمرض السل، سبحان الله، وفي اليوم الثاني توفي والدك، وكانت آخر كلماته هي: لاتوصلوا الخبر إلى رستم، رستم في الغربة. لقد انتهى ذلك الزمان الذي انت تعرفه. لقد تغير كل شيء، تغيّر كل شيء يا رستم».

أطبق عليهم صمت غير قصير، عبثاً حاول خلاله رستم ان يضبط دموعه بيد انه لبث ان سيطر على اعصابه، محاولاً خلق جو طبيعي وهو يقول:

«انا الله وانا اليه راجعون، الآجال بيد الله».

٤٢

رغم ان رستم ظلَّ صامتاً هادئاً وضابطاً اعصابه بقوة غريبة، عند سماعه خبر وفاة ابنه ووالده، فإنه قد ترك في قلبه جرحاً عميقاً لم يلتئم حتى مماته. كان الحزن العميق يفترسه من الداخل، فأحسَّ به يقصم ظهره ويقربه من الشيخوخة، بيد ان عزاءه الوحيد الذي يحول دون سقوطه في هاوية التشاؤم هو أولاده الذين يملأون البيت ضجيجاً وحركة، ورغم انه اصبح قريباً من وادي كفران، إلاّ ان هذا كان لايزال بعيداً عنه وراقداً في طي النسيان. لقد زاره الكل في بيته وواسوه بصورة شكلية لاحرارة فيها، إذ ان الخبر قد أصبح قديماً ومنسياً بالنسبة اليهم. الرجلان الوحيدان اللذان بكيا وانهمرت دموعهما بصدق هما قادر ومردان.

كانت الوجوه القادمة من وادي كفران تذكره بكل صغيرة وكبيرة من حياته الماضية، تختصر الزمن كما لو ان شيئاً لم يكن. الشيء الوحيد الذي تغير هو ان الرجال قد كبروا وتحولوا إلى شيوخ، وبرزت مجموعة من الشبان الذين كانوا فيما مضى اطفالاً، ولولا قادر لأنقطع نهائياً عن وادي كفران الذي تحول إلى شيء لا معنى له بالنسبة اليه.

وها انه يزور وادي كفران بعد انقطاع دام دهراً بمهمة رسمية هي تخمين المحصولات بغية فرز حصة الحكومة منها. دبَّر قادر له ولزوراب حصانين. ولما كانت حياته مؤمّنة داخل عشيرته، لذا استغنى عن أخذ أي شرطي معه، بل اكتفى بأخذ قادر الذي تمَّ الاتفاق مع القائمقام على تخصيص مكافأة يستحقها. قال رستم وهو يصبغ قبعته الفلينية بلون أبيض ناصع:

«قادر، أليست هذه مهزلة من مهازل الدهر؟».. تصوَّر انني الآن أقوم بنفس دور اليوزباشي وأنت القولجي المرافق لي؟ ماذا تقول لهذا الوضع؟».

ابتسم قادر بطريقته المعهودة وحك رأسه الكبير وأجاب:

«ماذا تريدني أن أقول يا رستم؟.. ان الدهر اشبه بعاهرة لا وفاء له، ولكن المهم في هذه الحياة هي ان يعيش الانسان بكرامة، ويموت بكرامة، كنت أحلم دائماً بمثل هذه الجولة معك، وها ان حلمي قد تحقَّق، ولايهمني موتي بعد الآن، ولكن ما ارجو منك هو ان لا تتساهل مع أي واحد منهم، لقد اثبتوا بأنهم أنذال لا علاقة لهم لا بجدنا زوراب ولابجدنا الأكبر ناله كوركه. ان كل ما يهمهم هو جمع المال والفخفخة. إنَّني لا أنسى مافعله بنا عمنا نريمان إلى لأبد».

قال رستم وهو يحاول ان يكون موضوعياً وبعد ان انتهى من صبغ قبعته:

«ولكنكما أنت وعباس استردتما البندقيتين و الحصانين دون ان يتخذ عمّي نريمان أي اجراء ضدكما».

«لو كان بإمكانه لفعل، ولكننا تمرّدنا عليه ولازلنا متمردين عليه حتى هذه اللحظة».

كانت هذه هي الزيارة الثانية لقادر بعد عودة رستم، حيث تمّ الاتفاق على مغادرة المدينة إلى وادي كفران الجبل هذا اليوم بعد تناول طعام الفطور مباشرة. وفي الفترة الواقعة بين الزيارتين والتي استغرقت حوالي الشهر، تمكّن رستم من تخمين المحصولات العائدة لفلاحي المدينة والقرى المجاورة، وأمّا زوراب فأنجز مهمة كتابة القوائم. وكان أن تمّ صرف المكافأة مباشرة، ولذلك تميّز وضع رستم ذلك اليوم بمزاج جيد، بخلاف قادر الذي خذله أقاربه، فأراد ان يحول هذه الجولة التخمينية إلى عملية انتقامية. وشعر رستم بذلك، لذلك حاول ان يعيده إلى وضعه الطبيعي المرح:

«قادر، هل تتذكر العريف سعدالله؟».

ابتسم قادر:

«تعني هذا الذي كان المرحوم عمّي شيخو يسميه بالهر؟».

«بالضبط».

«أجل أتذكّره.. ما به؟».

«هل تتذكر كلاماً له كان يكرّره دوماً؟».

حاول قادر أن يتذكر شيئاً ولكنه لم يستطع:

«لا أتذكر شيئاً عمّا قاله، ولكنّني أتذكر كيف أن أعمامنا شيخو ورمضان وميرزا كانوا يضحكون عليه في مجالسهم الخاصة».

كان رستم قد انتهى من ارتداء بدلته البيضاء ووضع القبعة على رأسه، قال بلهجة، يراد منها مواساة صاحبه:

كان يقول دوماً: الحياة ضراط في ضراط. ألم يكن كلامه صحيحاً؟ أليست هذه الحياة ضرطة كبيرة، هذه الحياة التي تجعل من انسان بليد مثل حمه غريب ملاكاً كبيراً يتنقل بسيارة بويك، وتجعل مني بعد هذا العمر الطويل وبعد سنوات الدراسة الطويلة والوظيفة يوزباشياً؟».

هزّ قادر رأسه:

«ولهذا السبب بالذات أريد ان لا تتساهل معهم. انهم مازالوا يخفون المحصول ويرشون المخمنين الذين يعودون إلى بيوتهم بجيوب وبطون منتفخة».

قال رستم بلهجة حادة:

«انظر يا قادر، لو كنت أريد لأصبحت ثرياً أملك العقارات والسيارات، ولكنّني اكتفيت بما حصلت عليه بعرق جبيني، ثم إنّني عندما بدأت بخدمة الدولة، أدّيت القسم بوضع يدي على القرآن الكريم بأن لا أخونها، وهل تعتقد بأنّني في آخر عمري أخون ضميري كي تنتفخ جيوب حمه غريب وعمّي نريمان وأمثالهما بالمال الحرام؟ لأبداً يا قادر، لاتخف».

ظلّ زوراب صامتاً يتمتع بالجلوس على ظهر حصانه، يراقب بفضول ملامح قادر وهيئته الضخمة التي سبق ان حكى له جزءاً من مغامراته ويستمع إلى حديثهما المتشعب الذي تناول الأوضاع في كل من وادي كفران الجبل ووادي كفران السهل، واختلطت عليه بعض الأمور دون ان يفهمها، وكان بوده لو تمكّن من قطع حديثهما الشيق، ليلقي على قادر بسيل اسئلته. ولكنه ظلّ صامتاً يستمع اليهما بانتباه، على ان يؤجّل اسئلته إلى وقت آخر، ولاسيما لأن قادر تعهّد له بأنه سيرافقه ذات يوم ليطلعه على كل قرية وجزء من وادي كفران ولكي يكون على علم بكل شيء في عشيرته. ورغم انه قد سمع من والده بعض الذكريات الطفيفة وبعض الأسماء مثل اسمي الجد زوراب والجدة سنجان، فإنّه لم يسمع باسم جدهم الأكبر ناله كوركه او أسماء الأعمام رمضان وشيخو وميرزا التي يردّدها قادر باستمرار. وأحسّ بميل غريب الى هذا الانسان الذي وجده قريباً جداً إلى قلبه، بل حتى أقرب اليه من أبيه. لقد أكّد له أكثر من مرة بأنّه يحمل اسم جده زوراب عن حق، ولاشك انه سيكون مثله ويحل محله في العشيرة. وراح زوراب يرسم في ذهنه أنواع الصور لهذا الجد الأسطوري الذي قال قادر عنه انه يعرف كل شيء ويجيد كل شيء، كان يمسك حتى بالجن ويسخرهم كما يسخر الانسان الدواب. كانت العشائر كلها تهتز عند ذكر اسم جدنا زوراب، حتى ان شيخ البرزنجة كان يزوره شخصياً مع دراويشه. في غرفته، جاءت إبنة الجيران وردة، وأحس قادر بغريزته بأن هذه الفتاة التي تكبر زوراب بعض الشيء، لاشك منجذبة اليه، هو الذي يبدو عليه أنه مازال يجهل هذه الامور، فحرضهما على المصارعة واذ يروي له قادر بعض ذكرياته وهما وحدهما قائلاً انه يريد ان يعرف من هو الأقوى، فتحدت الفتاة مؤكّدة بأنّها هي الأقوى وأصرّ زوراب بأنّه هو الأقوى، فتصارعا وارتاح زوراب للعملية. وعندما غادرتهما الفتاة، قال قادر انه كان ينبغي عليه ان يعصر نهديها. وأطرق زوراب برأسه خجلاً: «أنت رجل يا زوراب، قل لي بصراحة، هل قبلتها أم لا؟».

أجاب زوراب بخجل وقد تصاعد الدم إلى وجهه:

«كلا».

قال قادر محرضاً إياه على الاعتراف:

«لاتخيب ظني فيك يا زوراب، كان جدك كريم رحمه اللة بطلاً في مثل هذه الأمور، ماذا تفعلان حين تكونان هنا وحدكما؟».

أجاب زوراب وهو ينظر إلى الأرض:

«أُمشّط شعرها وأكتب أسمها على ساقها».

تنفس قادر الصعداء:

«هذا شيء جيد، ولكنك في المرة القادمة يجب أن تقبّلها وتعصر نهديها، وأمّا اذا نزعت لباسها وطلبت منك ان تفعل شيئاً بقوقعها، فلا تفعله، هذه مسألة خطيرة».

صعق زوراب لهذا الكلام كإنصعاقه بمنظر الدم الذي سبق ان رآه على ثوب وردة، ولايدري لماذا تذكّر في تلك اللحظة تفاصيل وضعها في ذلك اليوم. وأراد ان يوجة إلى قادر بعض الأسئلة بخصوص وضعها في ذلك اليوم. ولكن جرأته خانته. في حين استغرب من جرأة هذا العم الضخم الذي يتحدث عن كل شيء بصراحة غريبة ولا أبالية.

أحسّ زوراب ان أباه سعيد جداً ومستغرق في حديثه مع قادر إلى درجة لم يسبق له ان عهدها فيه. ورغم حرارة الشمس اللافحة، فإنّ أيٍ واحد منهم لم يتأثر بذلك، وكان قادر يلتفت إلى زوراب، تارة يسأله ما اذا كان عطشاً او جائعاً وأخرى يذكر له اسم المكان ويؤكّد عليه في كل مرة بأنّه الآن ليس في الغربة، بل داخل عشيرته وأرضه.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة ظهراً عندما بلغوا نهر آوه سبي في الجانب الثاني من جبل الإمام علي. بعد فترة إستراحة، أستغرقت حوالي النصف ساعة في مكان تحيط به الصخور العملاقة، تتفيّأ بظلال الجرف العالي وتطل على بحيرة عميقة متفرعة من النهر، واصلوا مسيرتهم بمحاذاة النهر. أشار قادر بيده إلى جبل الإمام علي الذي ظل وراءهم، موجها كلامه إلى زوراب:

«هل ترى هذا الجبل؟.. أنه هو الذي يقسم عشيرتنا إلى قسمين، الجبلي، الذي نحن فيه الآن، والسهلي الذي بقي وراء هذا الجبل».

اذ ذاك عرف زوارب من أين جاءت هذه التسمية. وأقتنع في قرارة نفسه أن الأجوبة على أسئلته الكثيرة لابد ستأتي ان آجلاً أو عاجلاً. وأحس زوراب من بعض الجمل الغامضة ومن بعض الحركات التي ينوه بها والده لقادر أنهما يخفيان عليه بعض المسائل، ولذلك كانت الأشياء تبقى في ذهنه غير متكاملة تحيط بها الألغاز، ولكن لم العجلة؟ ان العم قادر هذا الذي يستحيل أن يحتفظ بسر في قلبه، لاشك سيحكي له في المستقبل عن كل شيء.

ورغم أن رستم كان غارقاً في حديث شيق وعميق مع قادر، فإنه كان كتلة من المشاعر

المتناثرة التي تتحرك ضمن حلم كبير، لقد تقلصت السنوات العشر إلى لحظات، ليس هذا حسب، بل أحس به يعود إلى صباه، حيث لعبة العقارب الخطرة والرعي وعالم وادي كفران السحري الغامض والمليء بأنواع الجن والعفاريت. وتذكر عباس، ثالثهم الذي يرافقهما ليل نهار:

«وعباسْ؟ انك لم تحدثني عنه بما فيه الكفاية يا قادر».

أمتص قادر كمية من الدخان وقال بتحسر وهم مازالوا يسيرون بمحاذاة النهر:

«عباس، كان لايكف عن خلق المشاكل لنفسه ولنا، والمشاكل التي يخلقها كانت تختلف عن التي أخلقها أنا مثلاً كما تعرف. لقد استطعنا أن نقنعه بترك الغجرية، ولكنه أصر أن يتزوج من اللبنانية ويذهب معها إلى بغداد. لقد نبذته نبذاً تاماً».

«وكيف وضعه الآن هناك؟ ألم تزره؟».

عندما سمع زوراب بالاسمين الجديدين عباس وبغداد، امتدت مخيلته إلى أجواء جديدة، فحث حصانه للاقتراب منهما، وانتبه قادر لذلك، فوجَّه كلامه إليه قائلاً:

«يبدو لي ان والدك حفظه اللّه لم يحدثك عن أي شيء يا زوراب. عندما كنا في عمرك لم نكن لنفترق ابداً، حتى اننا كنا ننام في فراش واحد ونلتحف بلحاف واحد..». ثم تحدَّث بالتفصيل عن الحياة عباس وكيف انه سعيد مع زوجته وبأن البيت الذي يسكنونه هو ملكهم وانهم يعيشون من وراء دكانه، وانه قد زاره سراً مرتين. وهو الوحيد الذي يعرف عنوانه من بين ابناء العشيرة. وقال رستم انه يحن اليه وانه طالما سعيد بزوجته فهذه مسألة خاصة به، ولا يحق لأحد بالتدخل في شؤونه وان الزمان الذي كان يتم فرض الزواج فيه بالقوة قد ولّى.

كانت كل عبارة يتفوه بها قادر تنطبع في ذهن زوراب، وتخلف في مخيلته صورة اضافية جديدة تتميز بعالم خاص يخلقه هو. ثم يربط ذلك العالم بالجو الجديد الذي يتحرك أمامه، او يتحرك هو فيه. وها ان هذا النهر الذي يتحدث عنه قادر بتفصيل والذي يشق الجبلين بازوخ وقاجر في مكان يسميه قادر (بخورنه وه زان)، يتحوَّل عنده إلى لغز غامض: من أين يأتي هذا النهر، ماذا يوجد وراء ذلك الجبل؟.. ما هي هذه النجوم المتلألئة المعلقة في ظلمات السماء اللانهائية؟. كانت أمه لا تستطيع الاجابة عن اسئلته الكثيرة، فيهرب إلى أبيه الذي يحاول الاجابة، ولكن ليس بجد، شعر انهما يحاولان ان يخفيا عليه بعض الأشياء وذلك بلجوئهما إلى التعبير عنها بالألغاز. لقد جاء عليه ان يعرف من هي مادلين هذه. وبدا له الاسم غريباً لم يسبق له ان سمع بمثله من قبل. ومما زاد في فضوله ما قاله قادر بخصوص النور الذي مازال يصعد من قبرها، ولكن لايمكن رؤيته إلاّ من قبل الاتقياء أو الأطفال.

تمكّن رستم من مسح المنطقة خلال يومين فقط وتبيَّن له ان المحصول كان سيئاً جداً وبدت له

القرى اشبه بأطلال وخرائب، تركها معظم الذين يعرفهم إلى وادي كفران السهل، حيث النسبة الكبيرة من الأراضي تعتمد على الارواء. ولم يجد في القرى سوى بعض الكبار في السن ممن رحبوا به وتبادلوا معه الذكريات. حتى فاطمة، زوجة أبيه التي أعتقد انها مازالت في بانشاخ قد انتقلت إلى قرية زوراب. وكان قادر قد نسي ان يبلغه بذلك.

ولأول مرة يعرف زوراب بأن هناك قرية تحمل اسمه، او بالأحرى اسم جدّه، فأحسَّ بزهو وتمنّى ان يراها في أسرع وقت ممكن. وحين قرر رستم العودة إلى المدينة، أصاب زوراب بخيبة أمل كبيرة، اذ انه في قرارة نفسه كان يعتقد بأنّهم سيذهبون قريباً إلى وادي كفران السهل، حيث الأعمام وأولاد الأعمام وعاهده بأنّه، ان شاء الله، فيمكن أن يبقى هناك لفترة اطول. وعلّق قادر:

«لا تستعجل يا زوراب الصغير، سوف ترى كل شبر من أراضي عشيرتك سواء في قسمه الجبلي أم السهلي».

كان يحز في قلب زوراب حين يصر والده على عدم تلبية الدعوات والولائم التي يصر اقاربه على اقامتها على شرفه، متحجّجاً بعدم وجود الوقت ومكتفياً بتناول قطعة من الخبز مع الشاي واللبن. وحين كان يطلب اليه قادر ان يدعهم يذبحون نعجة او على الأقل دجاجة كي يتناولوا أكلة محترمة، يجيب رستم بعناد:

«نحن الآن في مهمة رسمية يا قادر ولسنا في زيارة شخصية».

ويدمدم قادر محتجاً وموجهاً كلامه إلى زوراب: «كان والدك عنيداً دوماً، لايقتنع إلا بكلامه».

وأطبق عليهم الصمت وهم يسيرون بمحاذاة شاطئ اوه سبي الذي امتدت على جانبه حقول الخيار والبطيخ والرقي، يرافقهم شيخ مسن أبى إلاّ ان يوصلهم إلى آخر شبر من وادي كفران الجبلي. كانت الشمس قد اطلت من وراء جبل بازوخ الذي يغطّي الوادي بظله، وعندما انحسر الظل بدأ النهر باللمعان وكانت اسراب القطا والبط البرّي والقبج والحمام تستقبل الشمس بغنائها وهديلها اللذين يختلطان بخرير اوه سبي. وأحسَّ زوراب بأن وقع حوافر الخيول المرتطمة بحصباء الشاطئ والذي يختلط بحديث الرجل المسن، يتداخل مع هذه اللوحة التي تبدو له غير غريبة. وكلّمَهُ هاتف غامض من أعماقه مؤكّداً له بأنه سبق ان كان هنا قبل دهر من الزمن. ولكن، متى كان ذلك؟.. هل هذه هي المرة الثانية التي يأتي فيها إلى الحياة؟.. لاشك ان روحه كانت هنا. وراحت الأفكار الغريبة تتضارب في رأسه كعادته عندما يطبق الصمت على المكان. ولاحظ ان هذه الحالة قد بدأت عنده بصورة أكثف بعد ان استقروا في بيتهم القديم الجديد الذي قال عنه والده: «هذه هي نهاية المطاف، لقد انتهت الرحلة الغجرية..».

وعندما ودّعهم الرجل السمين بعد ان عانقهم بحرارة، أطبق الصمت عليهم طيلة الطريق. لايدري

لماذا ذكرته الوديان والطرق الملتوية والصخور والنهر والحصان بالقصبات التي تنقلوا بينها. وتجسّدت أمام ناظريه بالذات قصبة هورين الواقعة على الحدود. لا يتذكر تفاصيل الأشياء والأسباب التي كانت تدفع والده لإمتطاء الحصان مع جماعة من الموظفين وأفراد الشرطة، كل ما يتذكره ويعرفه هو انه كان حاضراً دائماً في كل جولة يقوم بها، له حصانه الذي يمتطيه رغم صغر سنه. كان يتبع والده مثل ظله ويذهب معه إلى كل مكان برغبته الذاتية وبشوق، وهو ينظر اليه بنوع من الاحجام والاعجاب والحب والرهبة. كانت تربطهما عاطفة غريبة ممزوجة بصداقة مبنيّة على الصمت، اذ كانا نادراً ما يتكلمان مع بعضهما، والمبادر للكلام هو دائماً الوالد، فيجيب هو بصوت خافت يكاد لا يسمع اما بنعم او لا. ورغم زهوه وثقته بأن والده قوي لايمكن ان يتعرض للمخاطر، فإنّ خوفاً ما كان يلف قلبه عليه. لايدري لماذا كان يخاف ان يفقده. كان الكبار من أصدقاء والده ومعارفه يحاولون ان يكلموه ولكن عبثاً. هو نفسه لايدري لماذا كان يرفض الكلام..

الخجل؟.. هل كان يخجل حقاً؟ ولماذا؟.. كان البعض يعتقد انه أخرس لايستطيع الكلام، والبعض الآخر يعتقد انه مغرور لايريد التكلم مع كل من هبٍّ ودب. لقد عرضه ذلك إلى بعض المشاكل سواء مع الكبار أم صغار. كانت مدرستهم اذ ذاك في هورين تتكون من صفين في غرفة واحدة بمعلم واحد. ذات يوم إهانه المعلم وشتمه وشتم والده وعشيرته التي قال عنها انها من أقذر العشائر، فلم يتكلم، كان يستمع إلى شتائم المعلم بحيرة وقد عقدت الصدمة لسانه، بل المعلم هو الذي راح يجر اذنه قائلاً وهو يريه حذاءه:

«هل ترى هذا الحذاء ذا الرأس المدبب؟ سوف أشق به جحرك وجحر والدك».

في تلك اللحظة أحس بشيء ينفجر في داخله وبقوة خارقة تهبه طاقة غريبة فاندفع مثل سهم طائش محرراً نفسه من يد المعلم التي كانت تطبق على أذنه التي أعتقد انها ستقطع من مكانها، ولم يجد نفسه إلاّ امام الباب وهو يرى المعلم حذاءه الجديد قائلاً: «سوف أحطّم رأسك بهذا الحذاء أنا ايضاً». وعندما هجم عليه المعلم، أطلق ساقيه للريح متوجهاً إلى مبنى مديرية الناحية التي لا تبعد عن المدرسة. التفت إلى الوراء كي يتأكّد ما اذا كان المعلم يطارده، عندما لم يجد له اثراً، كفَّ عن الركض. قرّر في نفسه ان لا يحدّث والده بالأمر خوفاً من ان يؤدّي ذلك إلى مناوشة بينهما. وراح يمشي ببطء، وسعادة ما تغمر كيانه، أولاً لأنه استطاع ان يتحدّى المعلم الذي اعتدى عليه بدون سبب، ثانياً لأنه تخلّص من الدرس الذي يمقته. ورغم ذلك فإنّه لم يحقد على المعلم، ولكنه راح ينقب في ذهنه عن السبب. تراءى له وجه المعلم الطويل وشعره الأشعث ولحيته التي لم يحلقها منذ ثلاثة أيام. تأكّد ان السبب ليس الواجب البيتي ولا لعبه مع بقية التلاميذ فوق أكوام اكياس سم مكافحة الجراد ولا سلوكه في الصف، اذ انه معروف عنه بأنّه ساكت دوماً،

يحضر واجباته المدرسية بصورة منتظمة، ولا يتأخَّر عن الدوام. ولما لم يستطع التوصل إلى سبب، اعتقد في قرارة نفسه انه لا شك له مشكلة مع أبيه. عندما بلغ بوابة القلعة الكبيرة المبنية على مكان عال، والتي تحتوي على كل الدوائر، وجد كالعادة حشداً كبيراً من الفلاحين بآمالهم البالية، ينتظرون ادوارهم لإستلام بطاقات التموين. واقتنع انه لا يستطيع الوصول الى والده، ولاسيما لأن باحة القلعة الآن اكثر ازدحاماً، فغيَّر وجهته الى الجانب الأيمن من البناية، حيث المنحدر الممتد الى اعماق الوادي، تغطيه نباتات الخباز والأزهار البرية. كان ثمة عش لطائر صغير جميل اكتشفه قبل ايام، يحتوي على أربع بيضات، وقبل ان يقترب من المكان، ارتفع منه الطائر، فتأكَّد ان العش بخير. ولم يرجع إلاّ بعد ان القي عليه نظرة، فغمرته راحة وسعادة وهو يقول في نفسه:«من حسن حظك انك لست عصفوراً، وإلاّ قليت بيضاتك وأكلتها».

ودار حول البناية وراح يتأمَّل السهل الممتد الذي يخترقه نهر سيروان. أراد ان يذهب إلى بيت، ولكنه خشي ان تضربه والدته وتعيده إلى المدرسة، ظانة انه انهزم بدون سبب. فهي في كل الأحوال لن تنتبه إلى كلامه ولا تصدقه، فقرَّر ان يجتاز الحشد ويذهب إلى والده الذي أعتاد ان يذهب اليه في أوقات الفرص. وأما اذا سأله عن سبب مجيئه اليه في فترة الضحى هذه، حيث التلاميذ في الصف، فسيقول له الحقيقة، وليكن ما يكون.

أكمل دورته حول البناية وعاد من الجانب الأخر إلى البوابة، ولاحظ ان طوابير أخرى من الناس قد انضمت إلى الحشد. ظلَّ يفكر في كيفية اجتياز هذا الجدار من البشر. في هذه اللحظة جاء شرطي من القرية، يعرفه، فهرع اليه وتمكَّن هذا من ايصاله إلى غرفة والده. كان عريف الشرطة الضخم عبدالصمد ينادي على الفلاحين بأسمائهم، فيدخلون واحداً اثر آخر. أو بعد ان يثبتوا عدد أفراد العائلة بهوياتهم، يمنحهم والده البطاقات ويؤكِّد عليهم بصرفها لأفراد العائلة فقط وعدم اعطاء أي واحدة منها للآغا. قبل ان يتخذ مكانه على الأريكة القريبة من والده، ذهب إلى ركن يحتفظ فيه ببعض الأوراق و الأقلام، فأخذ ورقة وقلماً وراح يشخط وهو يراقب حركات العريف عبدالصمد الذي يبتسم معه بين آن وآخر. لم يسأله والده كالعادة عن سبب مجيئه، ولكنه كان ينظر اليه هو الآخر بين حين وآخر ويبتسم. كانت عملية تفتيش الهوية وتسليم البطاقات تتم بسرعة. وفجأة دخل رجل يختلف اختلافاً كلياً عن الفلاحين المعدمين الذين يرتدون الأسمال والخرق، صافحه والده ورحَّب به وطلب اليه ان يتخذ مكانه على الأريكة، وكان أن جلس قربه هو دون ان يلتفت اليه، فأحسَّ به متوتراً، قال والده موجهاً كلامه إلى الرجل الأنيق بتهكم:

«نعم يا محمد صالح آغا، تفضل تكلم».

قال الرجل بصوت متوتر:

«إنَّنا في الحقيقة يارستم بك قد فرحنا جداً بمقدمكم ولاسيما لأنك كردي مثلنا، ولكننا مع

الأسف قد أصبنا بخيبة أمل، ذلك انك قد وضعتنا في صف الرعاع، الأمر الذي أدَّى إلى ان لايحترمنا هؤلاء الصعاليك. إنَّنا نطالبك بأن تعاملنا مثلما كان يعاملنا المدراء الذين عملوا هنا قبلك».

قال والده بنفس اللهجة التهكمية:

«هل انت تتكلم باسمك الشخصي؟ أم أرسلوك كي تتحدث بإسم بيكات وأغوات المنطقة؟».

«أنا أتكلم باسمي وباسم أقاربي فقط».

سأل والده بتهكم اكثر:

«هل يمكنك ان تفصح لي عن مطلبك يا محمد صالح آغا؟ كي نتوصل إلى نتيجة؟».

أجاب الرجل بتحد:

«أنا أريد ان أتسلم بطاقات كافة الفلاحين التابعين لقراي..».

قام والده منت مكانه كما لو انه ينوي شيئاً:

«كان مثل هذا الكلام يفيدك مع الموظفين الذين جاءوا قبلي، وليس معي، والآن هيا غادر هذا المكان».

قال الرجل وهو يمد يده إلى مسدسه:

«انني لن أترك هذا المكان قبل ان انتزع منك حقِّي».

سحب والده هو الآخر مسدسه وهجم على الرجل. ومن الخلف هجم عبد الصمد جاووش هو الآخر ومسكه من ذراعه الأيمن فسقط مسدسه على الأرض.

كان والده أضخم بكثير من الرجل، أمسكه بكلتا يديه من ياقته وهو يقول بلهجة هادئة:

«سأريك الآن أمام الرعاع من هو الصعلوك الحقيقي يا محمد صالح آغا».

اراد عبد الصمد جاووش أن يساعده في دفعه إلى خارج الغرفة، ولكنه طلب اليه ان يبتعد ويترك الأمر له، أخرجه إلى الباحة ثم بدأ يشبعه ضرباً بالأيدي والركلات و محمد صالح آغا عبثاً يحاول التلخص من ضرباته المتلاحقة، وكانا يشقان طريقهما بين الحشد المتفرج ومن ورائهما عبدالصمد جاووش وهو. وعند البوابة، حيث غرفة السجن. تسلَّم المفتاح من الحارس وفتح الباب ثم دفعه بركلة إلى الداخل وأغلق الباب واضعاً المفتاح في جيبه.

وعند العودة إلى الغرفة، التفت أبوه اليه وأمسكه من يده. وهناك بدأ بمواصلة العمل وكأن شيئاً لم يكن. لايدري لماذا أصرَّ ذلك اليوم على البقاء عند والده، ربَّما خوفاً عليه. واقتنع في قرارة نفسه انه يستطيع مساعدته اذا اقتضى الأمر. وبعد يومين او ثلاثة، لايتذكر بالضبط، جاء

القائمقام بنفسه من خانقين وسمع ان محمد صالح آغا قدّم الاعتذار فتم اطلاق سراحه. وكان الناس يرددون بإعجاب بأن هذا الحادث هو الأول من نوعه، اذ انهم لم يسبق لهم ان رأوا إنساناً يضرب آغا.

وفي اليوم الثاني رفض ان يذهب إلى المدرسة دون ان يذكر السبب رغم الحاحات والده، وكان ان رافقه هذا بنفسه، اذ عرف بخبرته انه لاشك له مشكلة معينة قد تتعلق بالتحضير اليومي. وعندما بلغا المدرسة دخل والده غرفة الادارة وحده. وبعد فترة غير قصيرة، خرجا معاً وهما يضحكان وقال له المعلم وهو يضرب على خده برفق و قال: «أنت تلميذ جيد يا زوراب، ولكنك تهمل واجباتك المدرسية، ولاسيما الحساب». اذ ذاك تذكّر أنه نسي ان يكتب واجبه. وسمع من المعلم وهو يقول لوالده: «انه شارد الذهن دائماً، هل له مشكلة في البيت؟». ومع ذلك ظلّ مستغرباً لتصرف المعلم الذي لو عرف به والده لفعل به مثلما فعل بمحمد صالح آغا. كما واستغرب ايضاً لتصرفه المنافق أمام أبيه. وأحسَّ ان الكل ينافقه وهو يرتاح لذلك.

وفي المساء وبعد تناول طعام العشاء، أخرج والده مسدسه وراح ينظر اليه بزهو وهو ينظفه، فسأله ما اذا كان بامكانه ان يمسك به هو الآخر، اعطاه اباه فتناوله بيديه ثم أمسكه من قبضته وهو يتأمله وقال: «ان هذا المسدس لاوفاء له لأحد، لقد سبق ان أمسكه كثيرون قبلك، وستسلمه أنت إلى من يحل مكانك، بعد ان تُحال إلى المعاش». تقلصت ملامح والده لهذا الكلام الذي لم يتوقعه فقال بصورة لا ارادية: «هذا الكلام لايناسب عمرك يا بني، أنت تنعق مثل غراب مشؤوم». وأمّا هو فندم على كلامه الذي خرج بلا إرادة منه.

بعد أسابيع أقام محمد صالح آغا وليمة في قريته على شرف المصالحة بينه وبين رستم بك مدير الناحية. كانت وليمة كبيرة حضرها جميع الموظفين ومعظم أفراد الشرطة. كان الربيع قد نشر وروده الزاهية الملونة في كل مكان. كانت الوديان والسهول والجبال، ونهر سيروان، كلها تشبه وادي كفران. لم يكن يتصوّر ان محمد صالح آغا يمكن ان يكون لطيفاً بهذا الشكل، فهو بخلاف وضعه المتوتر السابق في غرفة والده، راح يهتم به ويرعاه ويحاول التحدث معه، هو المعروف بين الجميع بأنه لايفتح فمه وأصرَّ محمد صالح آغا بأنه سيستنطقه، ولكنه لم يتكلم، هو نفسه لايدري لماذا كان لايريد أن يتكلم. وحين وضع محمد صالح آغا سبحة جميلة من الكهرب أمامه مع ورقتين، إحداها من فئة خمسة دنانير والأخرى من فئة عشرة دنانير وهو يقول: «زوراب، أنا لاأريد منك أي شيء، أذكر لي فقط اسمك وهذا كله لك». في هذه اللحظة اراد ان يذكر اسمه كي يحصل على المبلغ والسبحة الجميلة، ولكن قبل ان ينطلق اسمه، قال والده موجهاً كلامه إلى محمد صالح:

«اذا استطعت استنطاقه أمنحك مائة بطاقة».

اذ ذاك عدل عن فكرته وأبى أن يخذل والده رغم إلحاحات وتوسلات محمد صالح.

لايدري لماذا كان أصدقاء والده يريدون استنطاقه دائماً، ترى هل كانوا يريدون ان يعرفوا ما اذا كان أبكم أم طبيعياً؟ وهو يتذكر جيداً بأنَّه كان لا يضرب عن الكلام على طول الخط، واستنتج مع نفسه انه كان يفضل الكلام بحضور والده. فمثلاً ان هارون أفندي، الذي تعهَّد بتزويد الناحية بالمواد الغذائية تمكَّن ان يستدرجه إلى الكلام بطريقة أخرى، وليس أمام والده. كان هارون، الثري اليهودي يشرف على تفريغ الحمولة من سيارة الشحن فترتيبها في إحدى غرف المدرسة المخصصة لذلك. وكان يصرّ على وضع أكياس السكر بانتظام فوق بعضها البعض في زاوية معينة ووضع صناديق الشاي في زاوية أخرى وكذلك الأمر مع لفات الأقشمة التي كان يؤكّد على الحمّالين مراراً وتكراراً بوضعها في أماكنها المخصصة لها بعناية بالغة. وأمَّا هو فكان فضوله يدفعه ان يتابع كل حركة من حركات هارون والحمّالين، ولذلك كان يتنقل بين الخارج والداخل بصورة موازية مع تنقل العمال، الأمر الذي كان يعرقل حركتهم. حتى ان أحد العمال اشتكى قائلاً لهارون بأنَّه يخشى ان يتعثر فيسقط هو وكيسه الثقيل على هذا الصبي الفضولي الذي إذا انكسرت رجله فالويل له من بطش مدير الناحية. إذ ذاك نادى عليه هارون برفق:

«زوراب»، فأجاب فوراً: «نعم». كان هارون لايعتقد انه سيجيبه بهذا الوضوح، فزال كل اثر من ذهنه بأن الصبي معوق. وضع يده على كتفه قائلاً وهو ينحني عليه:

«انظر يا زوراب، إنَّني الآن بحاجة اليك. انت تقف هنا في هذا المكان ولاتتحرك من مكانك. هل ترى هذا الترتيب؟ كل بضاعة يجب أن توضع في مكانها المخصص لها بترتيب جيد ودون أي اعوجاج. ان هؤلاء الحمّالين يتصرفون مع البضائع كما لو أنهم بغال. وسوف أبلغهم بالاستماع إلى توجيهاتك».

أجاب بلهجة لم يتوقعها هارون:

«لاتخف عمي هارون، سأعلمهم ما هو النظام».

عرف هارون أن كلمة «النظام» قد تلقفها الصبي من أبيه الذي يردِّدها باستمرار. وسمع كيف أن هارون حذَّر الحمّالين من مغبة عدم الانتباه لما يقوله الصبي، فشعر بزهو واغتباط. ومما زاد من اعتزازه ان هارون عاد اليه في الغرفة وأعلمه بأنَّه سيغيب عن المكان حوالي ربع الساعة، لذلك عليه ان ينتبه جيداً لمهمته ثم انصرف. خرج من الغرفة وطلب من الحمّالين ان يوقفوا العمل. وفجأة توقَّف الحمالون الثلاثة وأخرج كل واحد منهم علبة سكايره للبدء بالتدخين وهم ينظرون إليه بود وفضول وتهكم. قال بلهجة آمرة تبعث على السخرية:

«الآن ليس وقت التدخين، تعالوا إلى داخل الغرفة».

أرجعوا علبهم إلى جيوبهم واتبعوه إلى داخل الغرفة وأحدهم يقول:

«لا حول ولاقوة إلاّ بالله العلي العظيم».

وقف في مكانه المخصّص له من قبل هارون ووزعهم على ثلاثة أركان وهو يقول:

«انظروا جيداً إلى البضائع التي كوّمت فوق بعضها البعض بدون أي نظام وترتيب، أريد ان ترتبوها كلها من جديد كما لو انكم تشتغلون بمسطرة».

قال أحدهم: «ألف رحمة على هارون».

قال آخر: «أمرنا لله الواحد القهار».

تذكّر كلمة المعلم الذي كان يقول دوماً:«لا أريد أي تعليق». فقال: «لا أريد أي تعليق».

همس أحدهم في أذن صاحبه: «من أين نزل علينا هذا الغضب؟».

تصرّف كما لو أنه لم يسمع الهمس. قال الحمّال المعني بترتيب صناديق الشاي التي انتهى من تصفيفها بشكل جيد:

«هل استطيع الآن أن أُدخّن سيكارة؟».

نظر إلى عمله بارتياح وسمح له بتدخين سيكارته. إذ ذاك بدأ الآخران بمساعدة بعضهما، فانتهيا من انجاز العمل بالشكل المطلوب، فطلب اليهما أن يدخنا سيكارتهما قبل أن يبادرا بالاستفسار. ظلّ هو واقفاً في مكانه وأمّا الحمّالون، فاتخذوا أماكنهم على الأرض وهم يدخنون بمتعة. كانوا ينظرون إليه وإلى بعضهم البعض بود وتهكم وتساؤل ويبدون له طيّبين ومرحين. أحسّ تجاههم بعطف وتمنّى لو يعرف كيف يعيشون في بيوتهم، وإذ بدأ يتصوّر حياتهم في ذهنه، قطع أحدهم سلسلة أفكاره، كان أسمر البشرة بوجه محفور بآثار الجدري، قال بخبث:

«هل تشتغل مجاناً لهارون أفندي، أم يدفع لك الأجر؟».

أجاب بزهو:

«أنا لا أشتغل بأجر، انه صديق والدي، لذلك أساعده».

علّق آخر بخبث:

«كلا، كلا، السبب ليس هذا. لهارون أفندي بنت جميلة جداً وهو ثري، إنّه يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد».

وجرُّوه إلى حديث ممتع وحين أرادوا أن يدخنوا سيكارة ثانية، أحسّ بمقلبهم، فرفض ذلك طالباً اليهم بافراغ الشحن كله وبعد ذلك يحق لهم ان يستريحوا ويدخنوا.

كان واقفاً في المكان نفسه الذي خصّصه له هارون وهو يراقب بعناية حركات الحمّالين، حين دخل هذا وبيده علبة تحتوي على حلويات وتمر محشي، سأله ما اذا كان مرتاحاً من عمل الحمّالين، فأجابه وهو يشير بيده إلى البضائع المصطفّة بعناية:

«انظر يا عمّي هـارون، أليس هذا أحسن من الترتيب الذي أشرفت عليه بنفسك؟».

أجال هـارون عينيه بـاستغراب وقـال بدهشة:

«زوراب، لقد أبدعت حقاً».

وفي البيت حدّث والدته بفخر كيف انه ساعد العم هـارون فكافأه هذا بعلبتي الحلويات والتمر المحشي. ونهرته والدته دون ان تصدقه:

«كذّاب دعي، أنت تساعد هـارون؟ لاشك أنّك تسولت كعادتك».

أجاب وهو يخفي العلبتين: «حذار أن يمد أحد يده إلى هـاتين العلبتين، إنّهما من عرق جبيني».

قـالت والدته بـاستهزاء:

«من عرق جبينك.. من أين تعلمت هذه الكلمات التي هـي أكبر من رأسك أيُها الكسول؟ هيا تعال ساعدني في مسح هذه الصحون».

لايتذكّر الآن ما اذا كان قد ساعد والدته أم لا، ولكن الذي يتذكره هو انه عاد الى الشاحنة ليتأكد ما اذا كانت لاتزال واقفة في مكانها، اذ ان انشغاله لمساعدة هـارون، فوّتت عليه مراقبة الشاحنة والاطلاع على كل جزء من أجزائها، وسيحاول التقرب من السائق الذي ربما سيسمح له بركوبها والتعرُف على خفاياها الداخلية. كان الحمّالون قد انصرفوا، وكان السائق قد تمدّد تحت الشاحنة منشغلاً بتصليح عطب ما والى جانبه مساعده الذي يناوله المفاتيح والبراغي التي يحتاجها. مدّ رأسه إلى ما تحت السيارة ليتمكن من إلقاء نظرة على مكان العطب، ولما لم يستطع من رؤية أي شيء، حشر نفسه أكثر، فلاحظ ان المكان الذي فيه العطب مظلم، وان الصامولة التي يحاول السائق تثبيتها على مسمار البريمة تأبى إلاّ أن تسقط على الأرض وذلك لخشونة أصابعه وصغر الصامولة. أعاد السائق العملية عدة مرات عبثاً. وفي المحاولة الأخيرة وقعت الصامولة وضاعت عليه، وراح يبحث عنها في التراب دون جدوى. لاحظ هو ان الصامولة قد تدحرجت إلى مكان أبعد واختفت في التراب، التقطها وأعطاها إيّاها بـاعتزاز، قـال السائق:

«والله لولاك لما عثرت على هذه الصامولة» ثم أعادا الكرة دون ان يتوصل إلى نتيجة. اراد هو ان يعرض عليه مساعدته، ولكنه خشي ان يستهزئ منه، ولاسيما لأنه عندما كان يساعد هـارون، كان لا ينظر اليه بود. أدرك السائق أنّ أنامله الخشنة تخونه في العملية، وان الوقت يفوت عليه، ولاسيما هنـاك مجموعة من الصواميل الأخرى، في أماكن أعقد، ولايمكن حلّ المشكلة إلاّ من قبل هذا الصبي الفضولي الذي دوخ الحمّالين، التفت اليه سائلاً عن اسمه فأجاب هو بـاعتزاز:

«زوراب».

قـال السائق وهو يترك له مكانه:

«انظر زوراب، انت أناملك صغيرة، حاول...».

قاطعه زوراب:

«لاداعي أن تشرح لي ذلك، أعطني البراغي».

وفي هنيهة لم تتجاوز الدقيقتين شدّها كلها، وكان ان كافأه السائق بالسماح له بالجلوس في مكانه في القمرة و استعمال المنبه والأضواء.

كان والده وقادر صامتين، أجال نظرته في أرجاء الوادي ثم راح يقرن بين قبعة والده البيضاء التي تلمع من أشعة الشمس ولفة رأس قادر الداكنة المبالغة في كبرها، وعندما أراد ان يسرح بذهنه بعيداً حيث قرية هورين، نادى عليه قادر بصوت عال كما لو انه يدعوه للاستيقاظ من النوم:

«زوراب، أين أنت؟».

علّق رستم:

«انه يحلم ويفكر، انه الوحيد من بين أبنائي الذي يفكّر دوماً».

سأل قادر:

«هل تحبان أن نأخذ قسطاً من الراحة في هذا المكان».

أجاب زوراب:

«نعم، إنّه مكان جميل».

ثم ترجّل هارعاً هو وحصانه إلى الماء الذي يتفيأ بظلال الجرف الهائل المستند على مجموعة من الصخور المتفاوتة في الكبر. سأل قادر رستم اذا ما كان يتذكر هذا المكان، فأجاب هذا بحسرة:

وهل تعتقد يا قادر بأنّني أنسى مثل هذه الذكرى؟ هنا بالضبط، جنب هذه الصخرة كان قد اتخذ الجنرال التركي مكانه. آه من الزمن، انه لايرحم أحدا».

كان عليهم ان يعبروا الجبل كي يصلوا إلى القصبة. وقدرا أنهم سيبلغون البيت قبل غروب الشمس بساعة.

٤٣

أعتذر رستم من القائمقام لعدم تمكنه من القيام بتخمين المحصولات في منطقة وادي كفران السهل، اذ ان ذلك يضعه في موقف حرج من عائلته وعشيرته، ولاسيما لأنه لم يتلق بهم منذ حوالي عشر سنوات. تجاوب القائمقام مع رأيه وأعفاه من المهمة مؤكداً بأنّه هو الآخر لو كان مكانه لما قام بمثل هذا الذي لا يؤدّي، إلاّ إلى الشقاق داخل الأسرة الواحدة.

وعند عودته إلى البيت أحسَّ أنه لم يعد قادراً على مثل هذه الأعمال التي كان يقوم بها بكل شوق ورغبة فيما مضى. ومما أرهقه نفسياً، إلى جانب ارهاقه الجسدي، في هذه الرحلة ذكرياته المؤلمة وحزنه العميق على ابنه ولي والده وتذكره الدائم لمادلين. كانت كل صخرة وكل شبر من اراضي وادي كفران تشدّه بألف ذكرى ضمن دائرة زمنية من نصف قرن. ولم يعد وادي كفران ذلك العالم الطفولي الجميل العائش خارج دورة الزمن، حيث الجنية «في» تسرح وتمرح ومن حولها أنواع العفاريت والجن. وماجدوى وادي كفران بدون الجد زوراب وشيخو وكريم ورمضان وميرزا والجدة العزيزة سنجان؟. لقد انتهى وادي كفران ولم يبقَ منه سوى الاسم.

ظلَّ لعدة أيام شارداً ذاهلاً يدخن كثيراً ويدأ بالشرب، وحين حذرته العجوز التي كان يشتري منها الخمر بسعر رخيص، بأنَّ النوعية سيئة وقد تؤدّي إلى أضرار صحية جديَّة في حالة الادمان، ترك الشرب وانصرف إلى الصلاة. وكانت عادة التناوب بين الشرب والصلاة بين فترة وأخرى جارية عنده، وذلك انطلاقاً من نظرية التوازن بين الخير والشر تجاه ميزان يوم الحساب. واعتاد ان يأخذ معه زوراب إلى صلاة الجمعة. وذات يوم اكتشف ان زوراب يتلو القرآن وحده في غرفته، فأعجبه صوته، وظلَّ واقفاً وراء الباب يتنصت إليه، وتأكّد أنه لم يخطئ، ولكنه ما ان انتهى من تلاوه آيتين او ثلاث، إلاّ وانتقل إلى الغناء حيث غنّى مقطعاً من أغنية يا جارة الوادي التي أعجبته جداً، ولكن سرعان ما اجتاحته كآبة، اذ تذكّر المرحوم ابنه ولي الذي أهلكته معجزته المبكرة، وحين تأكّد بأن الفرق في القابلية بين الاثنين كبيراً جداً، زال منه الشؤم وقرّر ان يعتني بزوراب بصورة أكثر، ولا يتركه للأقدار مثلما فعله بولي الذي دفعه خوفه عليه لإخفائه بين الجبال ففقدانه له إلى الأبد.

وذات يوم دخل إلى غرفته خفية عند غيابه من البيت، واكتشف انه أعاد كتابة كراس «جزء عم» من القرآن الكريم بخط يده وبصورة لا يمكن إيجاد أي فرق مع النسخة الأصلية التي اهداه إيّاها الملا ثم وجد مجموعة من كتبه المدرسية التي لم تر النور منذ عقود من الزمن وقد أخرجها من صناديقها الخشبية ورتبها بعناية فوق منضدة سفرية كانت قد أطبقت على قوائمها وحفظت في

إحدى الزوايا منذ عشر سنوات، وبذلك تمكّن ان يصنع لنفسه مكتباً يسهل عليه القراءة والكتابة.

ذكّرته كتبه المدرسية القديمة بأيام دراسته في الموصل، وزاد اعجابه بإبنه وقال في نفسه بأنّه يستحق فعلاً حمل اسم جده زوراب.

وقرّر ان يكون حذراً في التعامل معه وان لا يتدخل في شؤونه إلاً اذا اقتضت الحاجة لذلك. وفي اليوم نفسه قرّر ان يشتري له دولاباً لحفظ الكتب، وطلب من زوجته وأولاده ان لا يزعجوه في غرفته، فردّت زوجته بأنّه، سواء شئنا أم أبينا، فقد احتل الغرفة ولا يسمح لأحد بدخولها.

كانت فرحة زوراب عند استلام الدولاب لا توصف، اذ انه بامتلاك مثل هذا الشيء، لم يوفر مكاناً اميناً لكتبه وأوراقه المبعثرة حسب، بل اثبت سيطرته النهائية على غرفته التي لا يمكن لأحد مزاحمته فيها.

وظلّ نهاراً كاملاً يرتب الكتب ويصنّفها وينقب في الصناديق القديمة.

بعد انقضاء عدة أيّام على عودتهم من وادي كفران الجبل، طلب اليه والده ذات يوم بعد الانتهاء من تناول الفطور أن يجهز نفسه للسفر إلى قرية زوراب، وطمأنه بأن سفرتهما هذه المرة ستكون أحسن، ولم تهمه هو ما اذا كانت أحسن من سفرتهم الأولى أم لا.

المهم أنه سيرى شيئاً جديداً ويتعرّف على أقارب جدد. ومما زاد في فرحته هو سفرهما بالقطار. هذا العملاق الغريب الذي يأتي هادراً من مكان مجهول، ويقف قليلاً في المحطة ليلتقط أنفاسه وينفث البخار ويتزوّد بالماء ثم يواصل رحلته الى مكان مجهول آخر مختفياً وراء الآفاق. تلك الآفاق التي يحسّ بنفسه تواقة إلى اكتشافها وسبر كنه أسرارها ومعرفة المكان الذي تنتهي فيه. الشعور نفسه كان يجتاحه عندما يقف متأملاً أمام جبل (بەروخ)، مكوناً لنفسه أنواع التصورات، ولم يشبع فضوله إلى ان صعد ذات يوم مع والده الى أعلى نقطة.

وخاب ظنّه في توقعاته حين لم يجد في امتداد البصر سوى مرتفعات ووديان وسهول وجبال لا نهاية لها. وتزاحمت الأسئلة في ذهنه، بيد انه لم يجد الجرأة للكلام، فظلّ صامتاً يكوّن لنفسه تصوراته لطبيعة الأشياء، وقناعاته الخاصة بها. وتترسخ تلك القناعات عنده، متحولة الى حقائق يؤمن بها. ولا يكتفي بالاحتفاظ بها لنفسه، بل يحاول أن يقنع بصحتها أقرانه. وهو إذ يثير فيهم الأسئلة، يحاول ان يجيب عن كل سؤال بطريقته الخاصة. في تنقلاتهم بين النواحي، لم يكن له اصدقاء ثابتين وأمّا الآن، بعد الانتقال النهائي الى بيتهم القديم، بدأت صداقاته تتكوّن من حيث يريد أو لا يريد.

وها هو هدير القطار وضجيجه ووقع عجلاته الرتيب يثير في نفسه شيئاً غامضاً يبعث فيه شعوراً أشبه بالتحليق في الفضاء. وتذكّر طائرة الهليكويتر التي هبطت في باحة قلعة السراي في هورين. وذهب هو مع والده برفقة بعض الموظفين لاستقبال القادمين من مكان ما وراء

الآفاق البعيدة. لم يستطع ان يرى الطائرة عن كثب، اذ انهم ظلوا بعيدين عنها. ،انتظروا الى أن جاء الهابطون من السماء اليهم، يتقدمهم رجل انكليزي طويل اشقر، يضع على إحدى عينيه زجاجة تتدلى منها سلسلة، مَرِح تعلو وجهه ابتسامة دائمة. وقبل ان يرحب بالآخرين، توجه اليه هو بالذات ماداً إليه يده لمصافحته. ومدَّ يده اليسرى، نبَّهه والده بمد يده اليمنى، ولكنه لم يستطع أن يصحّح خطأه، إذ ان الرجل الانكليزي شدَّ بيديه على يده ثم اعطاه علبة تحتوي على ملبس حامض حلو. ثم أخذهم والده إلى البيت، وبعد الانتهاء من شرب الشاي أخرج الرجل من حقيبته قبعة بيضاء واهداها لوالده وهما يتكلمان بلغة لم يفهمها. ثم عادوا إلى طائرة الهليكوبتر وحلقوا بعيداً في السماء.

كان هو ووالده قد اتخذا مكانيهما قرب النافذة، وجلسا قبالة بعضهما. ولاحظ أن أباه هو الآخر يسرح بخياله مستغرقاً في تأملاته ممسكاً بكلتا يديه بسدارته التي نزعها من رأسه بعد أن اتخذ مكانه قرب النافذة. كانت العربة شبه فارغة. لم يتكلما طيلة الطريق. فكّر أن يستدرج والده للكلام، ولكنه لم يجد موضوعاً مناسباً، ففضّل السكوت ولاسيما لأنه استنتج بأن الوالد قد تغيّر كثيراً بعد عودتهم من وادي كفران. انه بخلاف عادته بدأ يشرد بذهنه وأصبح قليل الكلام. ولما فاتح والده بذلك أجابته بلا أبالية بأنهُ قد كبر وبأن سفرته الأخيرة الى وادي كفران لا شك ذكّرته بأيام شبابه وبزوجتيه المتوفيتين. حتى ذلك الحين كان قد سمع بشكل عارض بأنه قد تزوّج مرة واحدة قبل ان يقترن بوالدته، وها انه يكتشف شيئاً جديداً ووجد نفسه أمام لغز جديد. كم تمنّى لو فتح والده أمامه ذات يوم فمه وتكلّم بكل صراحة وتفصيل عن صباه وشبابه وحياته مع زوجتيه المتوفيتين، ولكن لا أحد يستطيع جرّه إلى ذلك. إنّه لا شك يريد أن يضع بينه وبين الماضي جداراً هائلاً، ترى لماذا هذا الصمت تجاه الماضي؟ حاول مراراً وتكراراً أن يستدرج والدته للكلام، بيد انها لا تأخذه بمأخذ الجد وتتحجج بأنها لا تعرف شيئاً عن ماضيه ولا يهمها ذلك. كل ما سمعه منها أنه كان يتمشّى أمام باب منزلهم مرة أو مرتين في كل يوم، فتراقبه هي الفتاة الصغيرة إذ ذاك.

بعد أقل من ساعة بلغوا محطة بنعين. وفي الطريق إلى القرية فتح والده فمه لأول مرة قائلاً: بأنّه سيتعرف اليوم على عدد كبير من أولاد أعمامه وأولاد أولاد أعمامه ثم راح يذكر له سلسلة من الأسماء، نسي معظمها عند وصولهما إلى القرية.

كان اللقاء فريداً من نوعه بالنسبة إلى زوراب، فقد اختلط الحابل بالنابل وتجمّع عدد كبير من النساء والأولاد والرجال، واختلط الأمر حتي بالنسبة إلى رستم نفسه. وبعد أن أشبعوهما بالعناق والقبلات، اتخذوا أماكنهم في غرفة المضيف. اتخذ زوراب مكانه جنب أبيه وهو يراقب الوجوه باحثاً عمَّن يلائمه سناً كي يتصادق معه، ويخرج من هذا المكان المزدحم لإشباع فضوله والتعرف على كل صغيرة وكبيرة في القرية. وقبل ان يعثر هو على الصديق المطلوب،

اقترب منه أحد الأولاد الكثيرين وراح يكلّمه مستفسراً إيّاه ما إذا كان يذهب إلى المدرسة. التفت زوراب إلى أبيه الغارق في الحديث وقال له انه يريد أن يذهب للّعب مع هذا الولد، فقال له أبوه إنّ هذا الولد هو ابن عمه وأنه يستطيع ان يخرج معه. خرجت فاطمة، التي لم تزل تحتفظ بحيويتها، رغم طعنها في السن معهما، آخذة إيّاهما إلى المطبخ وهي تقول لزوراب: «كانت جدّتك الكبيرة سنجان تقدم لوالدك حين كان في عمرك البيض المشوي والزبدة الطرية قبل أن يذهب للّعب». وعرف منها ان اسم صديقه الجديد هو حميد. وقال هذا:

«وأنا؟ هل آخذ حصّتي ايضاً؟».

«طبعاً، ستأخذ حصتك أنت أيضاً، ولكن عليك أن تنتبه لإبن عمّك».

أكل زوراب الخبز الحار والبيض المشوي والزبدة الطرية التي أخرجتها فاطمة من القرية تواً، بشهية بالغة، وأحسّ أنه حتي طعم الشاي يختلف عمّا هو عليه في بيتهم. حدثته فاطمة كيف أنها تركت بانشاخ كي تعيش هنا، ولكنها أصيبت بخيبة أمل، لأن الأعمام قد تغيّروا، وانهما حسناً فعلا بزيارتهما لها قبل زيارة نريمان، وأثبت رستم بذلك أصالته وبأنّه الابن البار لكريم ثم عانقت زوراب قائلة:

«وأمّا أنت فيجب أن تكون مثل جدّك الأكبر زوراب الذي تحمل اسمه بجدارة».

بدت الأشياء لزوراب كما لو انها تتحرك داخل حلم جميل كبير، سبق ان عاشها في زمن ما. زمن غابر بعيد لايتذكر معالمه. في هورين كان يهرب من البيت ليلعب مع صديقته في بيتهم، حيث يصيدان العصافير ويبحثان عن بيوض الدجاج في زوايا الاصطبل ويركبان الحمار، وأحياناً يذهبان خفية إلى نهر سيروان ويصطادان السلاحف الصغيرة التي خرجت من الماء للتشمُّس في الهواء الطلق.

ها هو إذن الجو الذي يمكن ان يطمئن اليه، إنّه الآن بين أسرته وعشيرته. هناك، في النواحي التي انتقلوا فيما بينها كانوا يحترمونه، ولكن بسبب والده الذي يملك السلطة، وأمّا الآن فإنّهم يحبونه لأنه واحد منهم. وهذا الذي بادر كي يكسب صداقته، إنّما هو الآن ليس صديقه حسب، بل ابن عمّه، لن يقول له، كما قال احد زملائه في هورين، «لو لم يكن والدك مديراً للناحية لكسرت رأسك». ويبدو ان صديقه حميد أراد أن يستغل فرصة وجوده كي يمارس هوايته المفضلة: ركوب الخيل، فما ان انتهيا من تناول طعامهم، إلاّ وراح يكلم والده باسم زوراب قائلاً له بأنّ هذا يحب أن يقوم بجولة على ظهر الحصان حول القرية، فنصحه والده بأن يركب زوراب الحصان الأبيض لكونه أهدأ وحذّرهما من الجري السريع. لم يعلّق زوراب على كذبته التي ارتاح لها، ولكنه سأله كيف عرف بأنّه هو الآخر يحب ركوب الخيل؟ فأجابه حميد بأنّه لايعرف ذلك، ولكنه أراد ان يعلمه على ذلك، لأنّ الذي لايعرف ركوب الخيل في القرية يجلب على نفسه تندُّر الآخرين.

قاده حميد إلى اصطبل يحتوي علي حصانين مربوطين قرب بعضهما وهو يقول:

«هذا الحصان الأبيض لك، اعتبره من الآن فصاعداً ملكك، كلما زرتنا أُجهِّزه لك وأمنع أي واحد آخر من استعماله، إنَّه هادىء، ولكنك رغم ذلك يجب ان تكون حذراً معه، انه يجري بنفسه، وحاول ان لا تهمزه بكعبك، وإلاّ ستفقد سيطرتك عليه».

ارتاح زوراب لرائحة السماد و بقايا العلف المنتشر على الأرض وتذكّر اصطبل جارهم في هورين الذي دخله باحثاً عن صديقه، فوجد أمَّه وقد تعرت الى نصفها وهي تقضي حاجتها في إحدى الزوايا، فخجل معتقداً انه تسبَّب احراجاً لها، وأراد أن يهرب، بيد ان أم صديقه نادت عليه قائلة له بأنَّه مثل ابنها ولاداعي ان يخجل، فتسمر في مكانه ودفعه فضوله ان يركّز نظارته في فرجها. قامت من مكانها ساحبة سروالها الى أعلى دون أي تحفظ، وهي تقول مبتسمة:

«انك مازلت طفلاً يا زوراب، حين تكبر وتكون رجلاً، اذ ذاك ستخجل منك النساء» ثم أخذته الى الغرفة وقدمت له حلوى التمر بالسمسم، وطلبت اليه أن ينتظر إلى أن يأتي ابنها الذي ارسلته ليستدين لهم قليلاً من السكر من جارهم. وقال لها وهو يأكل حلوي التمر بشراهة: «لماذا لم تقولي لي أنا، هل أذهب الآن وأجلب السكر من عندنا؟».

ضحكت وهي تمسد رأسه برفق: «كلا يا زوراب، لاداعي لذلك، لقد أعطانا والدك كمية كافية من بطاقات التموين وسنستلم حصتنا غداً». وحين جاء صديقه اسماعيل، بدأت أمّه بصب الشاي الجاهز وشرب هو الآخر قدحاً، ثم انطلقا إلى خارج البيت لينحدرا إلى وادي نهر سيروان حيث لعبتهما المفضلة، صيد السلاحف التي كانت لا تستطيع النجاة رغم اطلاق غازاتها الكريهة. وبعد ان كانا يثبتان العيدان بشكل مائل على ظهور السلاحف بالطين، يتركانها وشأنها، فتتوجه كلها دفعة واحدة إلى النهر، وتبدو كما لو انها دبابات متوجهة للحرب.

كان صديقه اسماعيل اكبر منه ويعرف أكثر. وعندما كانت السلاحف تزحف إلى النهر وتختفي في الماء، يعلق قائلاً في كل مرة: «هذه دبابات انكليزية، سوف تطارد الغواصات الالمانية تحت الماء». وعندما كانوا يصيدون السلاحف مرة أخرى، يستفسر منها واحدة بعد أخرى عن مصير المدافع المثبتة على ظهورها، وما اذا كانت قد تغلبت على الغواصات الالمانية، ثم يجيب بنفسه بعد ان يوجه الشتائم البذيئة للسلاحف بأن الغواصات الالمانية، كما يقول والده، جرمانية الصنع ولايمكن لأي قوة في العالم التغلب عليها. وحين يتعبان ويريدان الكف عن اللعب والعودة الى البيت، لايثبتان المدافع على ظهور السلاحف، ويقول اسماعيل بعد ان يقلب السلحفاة في يده وقبل ان يقذف بها بعيداً في النهر: «يا بنت العاهرة، يا أم الضرطة، اذا مسكتك مرة ثانية، سأضع المدفع هذه المرة ليس على ظهرك، بل في جحرك».

ولكنه حين يمسكها في المرة الثانية لايفعل ذلك. وفكّر: تُرى؟ أين اسماعيل الآن؟ وماذا يفعل؟..

قال حميد وهو يسلمه زمام الحصان: «بماذا تفكر وماذا تنتظر؟». وضع زوراب يده على بطنه قائلاً: «يجب أن أقضي حاجة يا حميد».

وأخذه حميد إلى اصطبل آخر يحتوي على بقرة وحمار و دجاجات كثيرة، سدَّ عليه الباب وراح ينتظره. وما ان جلس زوراب لقضاء حاجته إلاّ وتجمّعت الدجاجات حوله كي تقتات على غائطه. وقبل أن يقوم من مكانه، ناوله حميد ابريق الماء.

لم يتوقع حميد بأن ابن عمه القادم من المدينة فارس يتحداه في سباق الخيل، فاستغرب كيف ان الحصان الأبيض، الذي يسميه بالعجوز، كاد ان يتجاوز حصانه الأصهب، وأدّى سباقهما إلى مشكلة، لم يسبق لزوراب ان مرَّ بها من قبل، ولولا تنبيه حميد واستجابة زوراب في اللحظة الحاسمة، لتعرضت حياة الأخير للخطر الجدي، اذ ان زوراب لم يأخذ بملاحظة حميد بشأن عدم همز الحصان بكعبه، وكان ان هاج حصانه واطلق قوائمه للريح دون ان يرضخ لمشيئته، ففقد سيطرته نهائياً على زمامه. وعرف حميد بأن الحصان الأبيض سيقوم بدورة حول القرية، ثم يتوجه إلى البيت ويندفع بالقوة نفسها ليجتاز البوابة، الأمر الذي سيؤدّي إلى اصطدام رأس زوراب بقوة بحافتها الناتئة، وظلَّ يجري بحصانه محاولاً اللحاق بزوراب، دون ان يهمزه خوفاً من أن يهيج هو الآخر. وقبل ان يقفز حصان زوراب من فوق احد، الموانع، نبَّهه حميد بسرعة بدفع جسمه الى الخلف، استجاب زوراب للملاحظة بسرعة وقفز الحصان، وأحسَّ زوراب رغم حراجة موقفه بزهو وراحة داخلية حين تمَّ للحصان ما اراد بسهولة، فلم يأبه للسرعة، وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه أمام البوابة وعلى بعد أمتار قليلة. لحق به حميد وصاح بأعلى صوته: «زوراب، انبطح بجسمك على ظهر الحصان». وأحسَّ زوراب بتماس سترته او بالأحرى ظهره بالحافة التي لولا تنبيه حميد له لتطاير مخه في الفضاء. عندما ترجَّل أمام الاصطبل، عانق حميد قائلاً: «هل تدري يا حميد بأنَّك انقذت حياتي؟». وأمَّا حميد فكان خوفه على حياة زوراب قد عقد لسانه. ومنذ ذلك اليوم تحوَّلت صداقتهما إلى علاقة أقوى من القرابة نفسها.

في تلك الزيارة، ارتاح ليس زوراب حسب، بل رستم أيضاً، اذ انه تأكَّد بأن عودته هذه المرة الى أحضان وادي كفران حقيقية وصميمية وعرف بأنَّه ليست الأرض فقط تشده الى العشيرة، بل البشر. ومما أعاد ثقة رستم بنفسه، اصرار الجميع ولاسيما عمَّه نريمان بضرورة عودته الى العشيرة والعمل في مدرسة القرية التي هي المدرسة الوحيدة التي تملكها العشيرة كلها. وشعر خلال الأيام القليلة التي قضاها هناك بأن المسافة الزمنية التي فصلته عن وادي كفران قد تقلصت وبدت كما لو انها قد بلغت حد الصفر ولذلك وافق فوراً على مقترح نريمان وقرر ان يقضي بقية عمره في القرية. ولما كان زوراب قد انتقل الى مرحلة المتوسطة، لذلك قرَّر ان تنتقل حماته الى بيتهم كي تبقى بمعيَّة ابنه.

٤٤

لم يكن رستم يتوقع، وهو في هذا العمر، أن يخلق له ابنه زوراب، الذي وضع فيه كل آماله وأحلامه، ان يخلق له و لنفسه مشاكل لم يحلم بها من قبل. وها انه يفكّر لأول مرة بصورة جدّية في مصير عائلته بعد موته، والموت لاشك قادم ان عاجلاً أم أجلاً. لقد بلغ زوراب، أكبر أبنائه الخامسة عشرة وأمّا اصغر الأبناء، فلم ير النور بعد، انه في الشهر الثاني في بطن أمه.

ترى، هل ان الله يريد معاقبته حتى النفس الأخير من حياته؟ .. ألا يكفي انه فقد حبيبة عمره مادلين، وهو في ذروة الحب الحقيقي؟.. ألا يكفي انه فقد خلال سنة واحدة فلذتين من كبده؟ «كان ينبغي أن لا أتركه وحده، هذا هو مصير الاختلاط بأصدقاء السوء».

لم تفهم زوجته سبب تذمره وغضبه على ابنه، فقالت محاولة تهدئته: «ولكنه جيد في دروسه ولم يرسب رغم زياراته المنتظمة لنا في نهاية كل اسبوع. لم كل هذا الغضب؟».

أجاب بلهجة يائسة فيها حدة وخيبة أمل:

«صحيح انه عاقل وهادىء، ولكنه اختلط بناس سيئين، يحلمون أفكاراً خطرة، افكاراً هدّامة تمس أمن الدولة وسلامتها».

توقّف عن الكلام بسبب انفعاله الشديد، إذ أحسّ ان قلبه المتعب يكاد يقفز من فمه، وامتص كمية كبيرة من الدخان وهو يلعن ابنه ومن علّمه هذه الأفكار. وصله الخبر المشؤوم قبل ساعات من قبل أحد أقاربه العاملين في البوليس، ومفاده هو أن البوليس سيقوم بحملة كبس مجموعة من البيوت في مركز القضاء من ضمنها منزل رستم افندي زوراب، ذلك لأن ابنه زوراب يعتبر من الشيوعيين الخطرين الذين يحرّضون الطلبة على الانتفاضة ضد حلف بغداد ويكتبون على الجدران شعارات تحريضية ضد الدولة. ولذلك قرّر ان يسافر بقطار الساعة العاشرة مساء. وأعلم زوجته بأنه سوف لايجدّد عقده للسنة الدراسية القادمة. عليهم العودة إلى بيتهم في المدينة ليكون على مقربة من الابن الذي اذا ظلّ وحيداً بدون مراقب فسيظل يتوغل في الاختلاط بذوي الأفكار الهدّامة، الأمر الذي سيؤدّي إلى تدمير حياته ومستقبله. تأخّر القطار بعض الشيء، فوصل حوالى منتصف الليل، كان غاضباً جداً. ان انساناً مثله في هذا العمر يجب ان يرتاح ويركن الى السكون، ولكن القدر أبى إلاّ ان يشغله بمشاكل ابن ضال لم يجد لعبة ينشغل بها سوى النار، التي لا تحرقه هو حسب، بل العائلة كلها. لقد ظلّوا فيما مضى يتهمونه بالبولشفية لسنوات

طويلة لمجرد انه لم يرضخ لكلام عمّه شيخو في الاشتغال بالادارة، فكيف الأمر مع هذا الصبي الذي ربّما تورّط فعلاً بمثل هذه الأمور الخطرة؟

عبثاً حاول ان يهدئ من غضبه. بعد عدة طرقات قوية بالمطرقة البرونزية المثبتة على الباب، وبعد ان تأكّدت حماته بأنّه هو الطارق، انفتح الباب الخشبي الكبير المكسو بالالمنيوم. قالت العجوز بعينين مذعورتين:

«يا ستار.. ماذا حصل؟».

قال رستم بغضب دون ان يسلّم عليها:

«أين هو هذا الحمار، ابن الخنزير؟».

وقبل ان ترد على سؤاله اندفع هو الى باحة البيت. كان زوراب نائماً على الأرض ومتغطياً بغطاء خفيف. سمع هدير والده وهو بين النوم و اليقظة. عرف فوراً سبب مجيئه في هذا الوقت المتأخر من الليل، وعرف أنه لاشك سيلتقي عدة ركلات عشوائية، إذ انه حين يغضب يفقد صوابه. وتوتر جسده لاستقبال الضربات. ولكي يتفاداها في الأماكن الحساسة، تكوّر في مكانه بصورة تجعل من مؤخّرته هدفاً للضربات وبصورة لارحمة فيها، فقفز من مكانه بسرعة، مبتعداً عن المكان عدة امتار ومحتمياً بجذع شجرة الكالبتوس الضخمة. قال بصوت هادىء فيه عتاب:

«لماذا تضربني؟».

هذه هي أول مواجهة بينهما. وقف رستم في مكانه وقد ظهر عليه الكبر بصورة واضحة جداً. امتقع وجهه وراح يسترد انفاسه بصعوبة ثم أجاب:

«هل تريد أن تقف في وجهي يا ابن الخنزير؟».

«أنا لم أقف في وجهك ولن أفعل ذلك، ولكنّني أريد أن أعرف لماذا تضربني؟».

لم يعتد رستم على مثل هذا الحوار بين الأب والابن. كان غضبه لم يهدأ بعد، اراد ان يلحقه بضربات أخرى، بيد ان شيئاً ما في داخله أجبره على التزام جانب الصمت، فهذا اللعين، بملامح وجهه الخالية من التحدّي والحقد يسترعي شفقته. وفي لحظات خاطفة تذكر طفولته وكيف كان متعلقاً به ويأخذه معه دائماً في جولاته، ولكن كيف يمكن لمثل هذا الطفل الهادىء الذي كان يفتح فمه بالكاد أن يتحدّى الدولة؟

قال بعد ان عاد الى هدوئه:

«انظر يا ابن الخنزير، لا مجال الآن للكلام، انت تعرف جيداً لماذا جئت في هذا الوقت المتأخر. هناك اخبارية عليك بأنّك تختلط بالشيوعيين. هل كتبت شعارات على الجدران؟ هل كتبت على

جدار القائمقامية يسقط حلف بغداد؟ انه خطك أنت. هل تريد ان تخرب بيتنا وتهلك نفسك؟ إنَّ هذا الطريق لايؤدّي إلاَّ إلى الهلاك والدمار».

لم يكن زوراب يتوقع ان يواجهه أبوه بهذا الشكل. واستنتج في ذهنه بأنَّ الأمور ليست تائهة كما يقول اصدقاؤه. إنهم اذن مراقبون رغم انهم لم يتجاوزوا الخامسة عشرة.

قال زوراب بلهجة واثقة من النفس:

«اذا كانت الدولة هزيلة الى هذه الدرجة، بحيث انها تخاف من تلاميذ مثلنا فاقرأ عليها السلام».

تذكَّر رستم كيف انه كان يعطيه في صغره وهو لم يزل في الصف الأول الابتدائي، واجبات اضافية لتقوية معلوماته، مثل قراءة اسم الجرائد والعناوين والخطوط البارزة وكذلك اعادة كتابة مقاطع من الصحف والمجلات بصورة يومية. وكيف انه كافأه لأول مرة بدرهم حين تمكَّن من قراءة كلمة (الأخبار) بدون صعوبة. وها انه لا يعيد كتابة المقاطع، وانما يكتب بنفسه. وتحوَّل إلى دودة كتب. الذنب ليس ذنبه اذن، انك انت الذي علمته على انتهاج طريق القراءة التي تأتي منها كل الشرور من المستحيل ان تحرفه عن هذا الطريق.

قال رستم بعد ان عاد اليه هدوءه التام:

«يا بني، انا لست ضد القراءة، ولكن عليك ان تعرف ماذا تقرأ. ان الكتابات الشيوعية مثل المخدرات، ما ان اعتدت عليها إلاَّ وتحولت الى مدمن لن تتخلص منها. غداً أو بعد غد تبدأ حملة التحريات، فإذا عثروا على شيء ممنوع، سيكون مصيرك السجن، يعني هلاكك وفشلك النهائي في الدراسة، أم تعتقد بأنَّني سأظل أعيش إلى أبد الآبدين؟..

إنَّني كما ترى اقترب يوماً بعد يوم من الموت. أمامك مسؤولية تربية اخوانك الصغار وانهاء الدراسة بنجاح والانخراط في عمل شريف لمساعدتهم. لا تنتظر مساعدة من أحد. لقد رأيت أقاريك بأم عينك. كل فرد منصرف الى نفسه وكسب معيشته. إنَّ ما تحلم به، حلم به الكثيرون من قبل وهلكوا دون ان يتوصلوا إلى نتيجة. أنصحك ان تنصرف الى دراستك».

كان زوراب ينتبه اليه بكل دقة، ليس لأنه أُعجب بكلامه الذي لم يجد فيه شيئاً جديداً، بل لأنه يعيش لأول مرة في حياته سجالاً من هذا النوع مع أبيه. أراد أن يناقشه ليدحض أفكاره، أراد ان يقول بأن العالم الجديد، عالم الفقراء في طريقه للقضاء على استغلال الانسان للإنسان وبناء دولة العدالة والمساواة على الأرض.. ولكن، وجد انه لاجدوى من النقاش مع انسان مثل أبيه الذي يستحيل ان يغيِّر طابع تفكيره، وربما سيؤدِّي لجوءه إلى مثل هذا الكلام الى علقة جديدة تزيد الجو توتراً. رغم كل شيء تنفس الصعداء، لأن والده غيَّر اسلوبه معه. مرت هنيهة صمت، قطعها والده قائلاً:

«والآن يجب أن نتلف كل شيء له علاقة بالأفكار المشبوهة».

قال زوراب مطمئناً إيّاه:

«لاتخف، لايوجد في البيت أي شيء ممنوع. الكتب التي رأيتها عندي قبل أسابيع قرأتها كلها وأعدتها إلى أصحابها. النشرات الحزبية، لا أجلبها الى البيت ابداً ولعلمك انّني لا أقوم بتوزيعها، لأن هناك جماعتين، كل جماعة تدّعي بأنها هي الصحيحة، وانا موقفي حيادي بين الطرفين..».

دمدم رستم مع نفسه: «جماعتان؟..» وتذكّر سجال أيام زمان بين صائب ورمزي وشكري أفندي الذي كاد ان يؤدّي إلى الضرب بالكراسي.

وأيقظه زوراب من شروده قائلاً:

«أجل، جماعتان، جماعة راية الشغيلة والقاعدة..».

اشعل رستم سيكارة وتنفّس الصعداء لإختفاء الكتب وعدم وجود نشرات في البيت، ولكنه ظلّ يحدّق إلى الركن الذي يحفظ فيه ابنه اوراقه. وكانا قد دخلا غرفته. عرف زوراب من تحديق أبيه المستمر إلى الركن انه لم يقتنع بعد من خلو الغرفة من الممنوعات.

قال وهو يؤشّر بيده الى الركن:

«هنا توجد رسائل أرسلها لي صديقي عرفان، فيها بعض الانتقادات ضد السلطة، سأحرقها أمامك..».

قاطعه والده:

«تقصد ابن صديقي ناجي أفندي، هذا الذي رسب سنتين في الصف الخامس الثانوي؟».

«بالضبط..».

علّق رستم كما لو انه يكلم نفسه:

«سبحان الله، اذا جاءت النكبات، فإنّها تأتي من جميع الجهات. هذا الشيطان الهادىء والصامت هو اذن رأس البلايا».

لم يتمكن زوراب من ضبط زمام أفكاره، فقال وهو يحرق مجموعة من الأوراق:

«نحن الآن في زمن آخر يا بابا، ان زمن الاقطاع والعبودية يجب أن يزول».

اصفرت أرنبتا أنف رستم فقال بحدة:

«اسكت يا ابن الخنزير، لاتثرم بصل على رأسي وإلاّ كسرت رأسك».

تذكّر زوراب كلام صديقه عرفان الذي يردّده دوماً: «ان التمرد يبدأ في البيت، يبدأ ضد سيطرة

الوالد..». رغم ذلك اقفل فمه ولم يجرؤ على التمرُّد الذي لاشك سيجلب له علقة أخرى.

طلب اليه والده ان يذهب الى فراشه وأخبره بأنّهما سيسافران غداً الى القرية بعد تناول طعام الفطور مباشرة، وقبل ان تفتح الدوائر ابوابها. كانت حماته لاتتكلم في حضوره إلاّ نادراً، وظلت طيلة الوقت جالسة في ركنها بالبهو تدخن بصمت، ورغم حبها لحفيدها، فإنّها ارتاحت للعلقة، لأنها أحست هي الأخرى بأنه تغيّر في المدة الأخيرة ويختلط بأولاد ناس هم دون مستوى العائلة.

مرَّ بها في البهو قائلاً لها بأنّه قرَّر أن يأخذه معه لحين انتهاء التحريات ونبَّهها بأنّهم اذا جاءوا فإنّما بصحبة المختار، وعليها ان لا تخاف وتسمح لهم بدخول البيت وتفتيشه، إنّها مجرد عملية شكلية واذا سألوا عنه، فيمكنها القول بأنّه سافر إلى القرية.

وفي اليوم الثاني وقبل ان يتحرك الباص إلى القرية، أرسل رستم بواسطة ابن جارهم رسالة الى مدير المدرسة يخبره فيها بأنّ ابنه سيغيب عن المدرسة عدة أيام لأسباب عائلية بحتة. وعندما هدأت العاصفة وانتهت حملة التحريات دون أن يعثروا في البيت على أي مستمسك، عاد زوراب الى البيت فالمدرسة. وكانت حصيلة التحريات هي استدعاء بعض الطلبة الى مركز الشرطة للتحقيق معهم، وتم القاء القبض على شاعر تركماني بصير يكتب قصائد حماسية ضد الظلم والاستغلال والاقطاع ويحرض الفقراء على الثورة، دون ان يعثروا في منزله على أي مستمسك. وحين جرت محاكمته، حاول المدعي العام اهانته عدة مرات، ولكن الاهانة كانت تنقلب عليه. سأله المدعي العام باحتقار:

«هل تدري لماذا أعماك الله أيُّها الشيطان اللعين؟».

أجاب الشاعر بكل هدوء:

«لكي لاأرى الأوغاد من أمثالك».

وجنَّ جنون المدعي العام، بيد أن رئيس المحكمة تدخل قائلاً بأنه لايسمح باطلاق كلمات الاهانة. وحين صدر قرار الحكم القاضي بحبسه لمدة ستة أشهر، حاول رئيس المحكمة أن يبرِّر ذلك كونه يحرض الناس للثورة، الأمر الذي يؤدِّي الى الاخلال بأمن الدولة، فأجاب الشاعر، انه لايهمه سواء دخل السجن لمدة ستة أشهر أم إلى الأبد، فهو في كل الأحوال سجين، كأي فرد من أفراد هذا الشعب الذي يعيش في سجن كبير.

وسرت أخبار محاكمة الشاعر البصير والتحريات التي جرت في بيوت التلاميذ الصغار سريان النار في الهشيم، لم يبق بيت في المدينة دون ان يصله الخبر. وراح رواد الملاهي، الذين لم تهمهم السياسة ذات يوم، يتحدثون في السياسة من حيث يدرون أو لايدرون، ويتهكمون بحكومة تخاف

من التلاميذ الصغار أو من شاعر أعمى لايمكنه ان يؤذي ذبابة. ولما كان للشاعر سمعة حسنة في المدينة وأقارب كثيرون، فراحوا يزورونه في سجنه يومياً جالبين له أنواع الأطعمة الشهية والفواكه. وقرّروا أن يحرروا مذكرة ويجمعوا التواقيع لتقديمها إلى رئيس المحكمة لإطلاق سراحه، بيد انه، حين أبلغوه بنيتهم، غضب واعتبر ذلك تنازلاً مهيناً أمام السلطة. وأكّد لهم بأنه لم تكن له أية علاقة بالشيوعيين، ولكنه على عناد السلطة، قرّر ان يتحول الى بولشفي أحمر حقيقي، فليفعلوا به بعد ذلك ما يشاؤون.

وجرى اجتماع سرّي لمؤيّدي جماعة راية الشغيلة في بستان عباس نامق، مسؤول المنظمة الحزبية في المدينة، خصّص لبحث الأوضاع بعد التحريات التي قامت بها الشرطة والصدى الذي أحدثه صدور الحكم على الشاعر. انتقد عباس نامق تصرفات الطلبة، واعتبرها فوضوية، عفوية، عشوائية غير مدروسة، ثم برّر ذلك، كون هؤلاء لايزالون صغاراً في السن، ومراهقين، ليس بيولوجياً حسب، بل سياسياً تنقصهم الخبرات التي لايمكن اكتسابها إلا عبر العمل الحزبي المبرمج، كتوطيد مسألة الحلقات الماركسية وتنظيم الاجتماعات المستمرة ودراسة النظام الداخلي، وقال انه الى جانب توجيه الانتقاد اليهم، ينبغي تثمين دورهم الذي أدّى الى احداث مد ثوري في المدينة، بحيث ان عدداً كبيراً من المواطنين قدموا الطلبات للانضمام للحزب. وكان عباس نامق يستشهد بين كل جملة وأخرى بعبارات للينين وستالين، قال احد المؤيّدين: لماذا لاتستشهد بعبارات للإمام علي عليه السلام؟ كان هو الآخر يدافع عن الفقراء..

خلق السؤال موجة سخرية واستهزاء في الاجتماع، بيد ان عباس نامق، الذي سبق له ان حضر العديد من الاجتماعات واختلط بالعديد من الكوادر الحزبية المجرية، لم ينجرف مع الموجة، بل أجاب بصرامة بأنّه لايجوز الاستهزاء بأي رأي مطروح، لاسيما اذا كان صاحب الرأي ليس عدواً طبقياً. واستغل هذه الفرصة كي يتحدث بإسهاب عن ظهور المراحل وعن اشياء أخرى كثيرة لم يفهمها الحاضرون، وحين شعر بأنّ الملل بدأ يتسرب إلى جو الاجتماع، انهى كلامه مؤكّداً بأنّ المرحلة التاريخية للوضع القائم منتهية، وبأن التوقيع على معاهدة حلف بغداد قد دق آخر مسمار في نعش الحكومة. ثم بدأ يتحدث عن حقوق الأعضاء وواجباتهم وقرأ مقتطفات من النظام الداخلي، وأكّد بأنّ معظم الحاضرين لم يتجاوزوا بعد السادسة عشرة ولذلك لايمكن ترشيحهم للحزب إلاّ بعد ان يبلغوا الثامنة عشرة، وحتى عند بلوغهم هذا العمر لايمكن ترشيحهم بصورة عشوائية، بل يجب أخذ انحدارهم الطبقي بنظر الاعتبار، اذ لايجوز اغراق الحزب بالعناصر البورجوازية، كما حذّر من المدّ الثوري الذي خلقته الاعتقالات الأخيرة، واحتمال ارسال مندسّين الى صفوف الحزب من قبل السلطة.

كان واجب زوراب في مثل هذه الاجتماعات التي يحضرها بشوق ورغبة وفضول، هو كتابة

المحضر التي كان يجد فيها متعة كبيرة الى جانب شعوره بأنّه الشخص الثاني بعد عباس نامق الذي يُنظر اليه بإعجاب واحترام، فهذا الشاب الأنيق الواثق من نفسه والمنحدر من عائلة غنية تملك العقارات والبساتين، قد ترك المدرسة وانصرف لاحتراف العمل الحزبي ليقضي معظم أوقاته في مزرعتهم التي جعلها مقراً للقاءات الحزبية واخفاء الكوادر الحزبية القادمة من بغداد في طريقها الى الشمال أو بالعكس. ولم يكن شعور زوراب، كونه الشخص الثاني في هذه الحلقة، التي يسميها عباس نامق بفخر: الحلقة الماركسية الفتية، ناتجاً عن مجرد غرور فارغ، بل ان عباس نامق أكّد له أكثر من مرة، بأنّه إذا غاب ذات يوم لسبب ما فإنّ عليه ان يقود الحلقة. وبعد انتهاء الاجتماع وإنصرف الكل، كانا يبقيان معاً، يعيدان قراءة المحضر ويتحدثان عن الوضع في المدينة وفي داخل المدرسة بشكل خاص. ولما كان عباس نامق يعيش حياة شبه مختفية، بعيدة عن أنظار البوليس، لايعود إلى البيت إلاّ بعد هبوط الظلام، لذا كان يريد ان يعرف جميع تفاصيل الوضع في المدينة ولاسيما مواقف الطلبة والمدرسين، فهو اما يستمع مباشرة إلى ما يقوله زوراب بهذا الشأن أو يكلّفه بكتابة تقارير مفصلة، ينكب هذا على صياغتها بأسلوب جميل. ورغم ان عباس نامق لايثق بأحد ويشك في كل شيء، كما كان يؤكّد ذلك بنفسه، إلاّ أنه كان يثق بزوراب، ويؤكّد عليه في الوقت نفسه أن يبرّر هذه الثقة. ومما زاد في استغراب زوراب واحترامه لعباس نامق، هو ثقافته الواسعة، فذات يوم بعد الانتهاء من الاجتماع وتقييمه عبر ما جاء في المحضر، تطرّق عباس الى مسألة التثقيف الذاتي وضرورة حثّ أعضاء الحلقة على القراءة المنتظمة، وأكّد بأن المناضل الحقيقي بدون الثقافة أشبه بجندي بدون سلاح في ساحة المعركة: كان زوراب يقرأ حتى ذلك الوقت كتب السحر وتفسير الأحلام والمنفلوطي وجبران خليل جبران وطه حسين، وعندما أعلم عباس نامق بذلك، جواباً على استفساره، قام الأخير من مكانه، وجلب من مخبأ خلف الكوخ كارتوناً يحتوي على مجموعة من الكتب، ناوله إيّاها قائلاً:

«اقرأ هذه الكتب، ولكن عليك الاحتفاظ بها جيداً واخفاءها لأنها شبه ممنوعة».

لم يستطع زوراب الانتظار، وراح يفتح الكارتون والفرح يغمر كيانه كما لو انه عثر على كنز: غوركي، تشيخوف، ديستويفسكي، تولتسوي، جون شتاين بيك، همنغواي..

وفي ذلك اليوم دلّه عباس نامق على المكان السري الذي يخفي فيه مفتاح الكوخ، قائلاً له انه يستطيع المجيء الى المزرعة متى ما شاء لقراءة هذه الكتب، لأنه لايحبذ نقلها الى بيتهم، ولاسيما لأن معظم البيوت التي فُتّشت ستخضع بلا شك لمراقبة الشرطة.

٤٥

إلتأم شمل الأسرة من جديد وبدأ الضجيج يعم البيت، بعد ان أطبق عليه الصمت لعدة سنوات، ورغم ان الوضع الجديد وضع حاجزاً امام حركة زوراب الطليقة، إلاّ أنه ارتاح له وشعر بحاجته الروحية الى الحياة العائلية الدافئة، ولكن، بعد مرور زمن غير طويل، أحسّ بثقل القيود التي راحت تحد من حريته، ومما أزعجه جداً هو ضرورة وجوده في البيت قبل الساعة السابعة مساءً. وكانت حجة والده في فرض مثل هذه الاقامة الجبرية عليه، هي حدوث عدة جرائم قتل، نشرت الرعب في المدينة، بحيث أصبحت الشوارع خالية من الناس بعد مغيب الشمس مباشرة، فاضطر ان يكيف نفسه للوضع الجديد وذلك باستغلال ساعات الأماسي للمطالعة وتحضير الدروس.

ورغم ترك اهله للقرية، فإنّه استمر على مواصلة تقليده لزيارتها مرة في كل اسبوعين، وفي بعض الأحيان كان يصطحبه والده. والغريب انه كلما كان الوالد يسافر معه، يصادف وجود حفلة يقيمها الغجر في قصر نريمان، فعلم فيما بعد بأنّ المسألة لا علاقة لها بالصدفة، بل ان خبر اقامة الحفلة تصله بطريقة ما، ولذلك عرف ايضاً لماذا يأتي الأقارب لإستقبالهما في المحطة عند وجود الأب معه.

ذات يوم من أيام بداية أيلول ١٩٥٥ سافرا كالعادة الى القرية. كان زوراب يرتدي بدلة زرقاء فاتحة ضيقة بقميص أبيض، ووالده يرتدي بدلة رصاصية كانت فيما مضى تناسب جسده الممتليء، ولكنها تبدو الآن فضفاضة، واسعة وكبيرة على الجسد الواهن الذي دبَّ فيه الضعف وأثقلته الشيخوخة. كان رستم يتظاهر بالقوة ويحاول دوماً ان يتحدّى جبروت الزمن. ولعله كان ينسى حاضره ويعتقد انه مازال ذلك الرجل القوي الذي بإمكانه ان يلوي ذراع الدهر.

عندما بلغ القطار المحطة حدث ما لم يكن في الحسبان، ففي كل مرة وقبل أن ينزلا من القطار، ينبه رستم ابنه الى الحذر وعدم التعثر بسلك ذراع الاشارة الممتد بموازاة السكك الحديدية وبارتفاع شبر من الارض. ويكرّر في كل مرة بأن هذا السلك اللعين هو أسوأ فخ يمكن أن ينصبه المرء للانسان، وينسى السلك، وينسى نصيحته التقليدية، في جزء من لحظة، يتنبه فيها إلى شيء آخر، مرَّ من أمام عينيه مثل الطيف، ويبقي الطيف في القطار وذهب معه. وقبل أن يتلاشى الطيف، أراد ان يثبت، لشيء ما بأنّه مازال ذلك الانسان القوي الذي كان يجوب سهول ومرتفعات ووديان وادي كفران، سواء مشياً او على ظهر حصانه. وقفز من مدرج القطار كأي شاب، ولكن ما لم يكن في الحسبان قد وقع. لقد تعثر بالسلك اللعين وارتطم بالأرض وأبى قدره إلاّ أن يرتطم

فخذه بحافة العمود الحديدي الذي ثبتت عليه بكرة السلك. كان الألم لا يحتمل، ومع ذلك لم تصدر منه حتى أنّة واحدة. وحين حاول زوراب ان يرفعه من مكانه، دفعه بيسراه قائلاً بصوت خافت انه لاخوف عليه وبأنه سيقوم بنفسه. وفي الطريق الى القرية أبى إلاّ أن يمشي وحده وهو يصطنع الابتسامة والتغلب على الألم.

ورغم ان الطبيب هو آخر مَنْ يُفكِّر فيه الانسان في القرية، فإنّ عمّه نريمان أوعز للسائق ان يوصله بسرعة الى كركوك بغية ادخاله المستشفى، ولكنه سخر من اقتراحه ورفض ذلك بصورة قاطعة، كما وأصرّ بأنه لن يرجع الى المدينة إلاّ بالقطار. ولم يناقشه احد في ذلك، إذ انه اذا أصرّ على شيء، فلا يمكن لأحد أن يحيده عن ذلك. وأبى قادر إلاّ ان يرافقهما.

بقي راقداً في الفراش لمدة اسبوع وذلك بناء على توصية الطبيب الذي أكّد بأنّ الراحة كفيلة بازاحة الآلام وإعادة القوة الى الساقين. حاول بعد انقضاء الاسبوع ترك فراشه والذهاب الى المقهى، ولكن عبثاً، فحوَّله الطبيب الى مستشفى المجيدية في كركوك. وتمّ الاتفاق على ادخاله في إحدى الغرف الخصوصية، على أن يسكن معه زوجته او أحد أقاربه وذلك لحاجته الى العناية الدائمة. وتقرَّر ان يرافقه ابنه زوراب.

قبل ان يغادر البيت، طلب من زوجته وأولاده الخمسة ان يجلسوا بحضوره. واتخذوا أماكنهم قريبه على الأرض، زوجته الحامل في الشهر السابع، ثلاثة أولاد وبنتان، خيَّم عليهم صمت مطبق، كانت عيناه السابحتان في هالتين من الدموع تمران بعيون زوجته وأولاده الذين يحدِّقون إليه بنظرات تائهة، شاردة وبريئة. قال بصوت فيه بحة:

«كنت لا أعتقد أنّني سأُغادر الدنيا وأصغر أبنائي لم يرَ النور، كنت قد حسبت حساب كل شيء، أمَّا ان يهرب الزمن بهذه السرعة، فلم أضعه في الحسبان. الحياة قصيرة جداً، أقصر من حلم، كنت أعتقد أنّني سأرى أحفادي ولكن..».

وضعت زوجته يدها على يده وقالت بلهجة واثقة:

«ما هذا الكلام يا أبا ولي؟ طبعاً انك سترجع من كركوك بسلامة، ويعطيك الله عمراً طويلاً، وسترى جميع أحفادك».

هزَّ رأسه مواصلاً كلامه:

«زوراب، أنت أكبرهم، أوصيك أن تكون أباً لهم. ستكون السنة الأولى بعد موتي صعبة جداً، إذ أن الرواتب التقاعدية ستصرف بعد مرور عام».

أراد زوراب ان يقول شيئاً، بيد انه أسكته قائلاً بأنه يجب أن ينتبه إلى كلامه، وعليه تنفيذه بكل حذافيره.. وشرح لهم بصورة مفصلة كيفية متابعة أمور صرف الراتب التقاعدي وأكّد بأنه ليس

مديوناً لأحد. وان عليهم ان يضبطوا أعصابهم ولايلتجئوا الى العويل والبكاء.

كان حمه غريب الذي احتفظ بقوته رغم طعنه في السن يزوره في بيته كل يوم تقريباً، وأبى إلاّ ان ينقله بسيارته البويك الى كركوك. ولما كان حمه غريب يجبر كل من يركب سيارته على نزع حذائه، لذا قال له رستم بسخرية بأنّه غير مستعد لنزع حذائه، أجاب حمه غريب فوراً:

«كنت دائماً حالة فريدة يا ابن عمّي رستم. هذا القرار لم يشملك ابداً..».

عندما بلغت السيارة المستشفى، فرمل السائق وأوقفها أمام البوابة مباشرة، ملتفتاً إلى رستم و إيّاه ما اذا كان بإمكانه اجتياز البوابة. لم ينتبه رستم إلى كلامه، بل لم يسمعه مطلقاً، اذ انه ما ان وقعت عيناه على البوابة والسياج، إلاّ واستغرق في شرود عميق نقله الى ليلة لقائه بمادلين، تلك الليلة التي غسلت فيها مادلين عارها بالدم وإلى الأبد. وقبل ان يستجيب رستم للسؤال، أشار البواب بحركة من يده على مواصلة السير.

امام البوابة الداخلية، أحسَّ بأنَّ الشلل التام قد هيمن على ساقيه، بدليل انه لم يتمكن حتى من الوقوف او توجيههما، فتمنّى في نفسه ان يفارق الحياة من ان يعيش مشلولاً ملتصقاً بالأرض. كانت الغرفة رقم (٥) تحتوي على سريرين، ونافذتين، احدهما كبيرة تعزل الغرفة عن أخرى بنافذة ايضاً. جاء الطبيب المختص في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً برفقة مضمد، وقبل ان يبدأ بفحوصاته، طلب من حمه غريب وسائقه ان يودّعا المريض. قبّله حمه غريب وعانقه قائلاً:

«قريباً سترجع الينا بسلامة يا رستم، اذ ذاك سنحتفل بقدومك».

لم يتكلم رستم، ولكنه ظلّ يحدّق إليه الى ان اختفى هو وسائقه وراء الباب وهو يعتقد في قرارة نفسه بأنّه لن يراه الى الأبد. ونسي كل سيئات حمه غريب وحماقاته، وبدا له بريئاً، نقي القلب كأي طفل صغير.

استنتج زوراب من الكلام الذي دار بين الطبيب ووالده. انهما صديقان قديمان او هناك معرفة قديمة بينهما. وبعد اجراء فحوصات كثيرة قال ان ثمة مضاعفات في الجسم أدّت الى الضعف العام فظهور عدة أمراض كانت مستترة، وانه سيعالجه بصورة مكثفة وحسب الامكانات الموجودة، ولكنه يجب ان ينقطع انقطاعاً نهائياً عن التدخين.

قال رستم بلهجة قاطعة:

«كل شيء وليس هذا يا دكتور رضا، لاتحرمني من متعتي الوحيدة قبل الموت».

وتساوما على ان لا يقطع التدخين نهائياً، بل يقلّل منه. ونصح الطبيب زوراب ان يعطيه كل مرة نصف سيكارة بدلاً من السيكارة الكاملة. وأعطاه لهذا الغرض مقصاً صغيراً، ثم شرح له

سبب وجوده هنا وعلّمه على كيفية مساعدة والده في القيام بالحركات والتمارين الرياضية المطلوبة. وبأنً أي إهمال في ذلك سيؤدّي الى عواقب وخيمة، ومضاعفات مميتة. وأكّد الطبيب أكثر من مرة على ضرورة تقليبه في فراشه، وعدم الاستلقاء لمدة طويلة على جانب واحد.

كان الأول اليوم صعباً لكليهما، إذ ان الفحوصات تكرّرت عدة مرات، وبعد ان استنتج الطبيب وبأنً رستم، بالاضافة الى شلله، مصاب بمرض ذات الرئة، وبأنً هناك كميات من السوائل في جنبيه، قرّر ان يجري سحب السوائل في اليوم نفسه. كانت عملية شاقة مصحوبة بآلام لاتحتمل.

ومرً النهار ببطء، ولكن دون ان يحس به رستم، اذ انه بعد عملية سحب السوائل، أُعطيت له عقاقير منومة، أسلمته الى نوم عميق.

مرت ثلاثة أيام دون أن يجري اي تحسن على وضعه الصحّي، بل بالعكس، ضعفت شهيته وقلت حركاته وازداد نومه وصمته، ولكنه ما ان يفتح عينيه، إلاً ويلتفت ببطء الى زوراب ويرجوه ان يشعل له سيكارة.

كانا نادراً مايتكلمان مع بعضهما، حتى خلال ممارسة التمارين الرياضية المطلوبة في الفراش لايتبادلان أي كلمة. وعرف زوراب من بعض الجمل التي يكرّرها بأنً آلامه شديدة جداً، ولكنه كان يجيد فن كبت الألم والتغلب عليه بصورة فريدة. كانت الأبر الكبيرة والطويلة التي يغرسها الطبيب بقوة بين ضلوعه لسحب السوائل، يثير الألم حتى عند المشاهد، فكيف الأمر مع الذي يتلقاها؟

ويشير بيمناه الى الجهة اليسرى من صدره قائلاً:

«هنا في هذا المكان يختفي ألم لعين تكمن وراءه مدة حادة، لو كان بمقدوري لأخرجتها من مكمنها وتخلّصت منها إلى الأبد...».

وبعد أيام طويلة من الصمت والنوم المتواصل، يبدأ الكلام المستمر، كما لو انه يريد ان يعوض ما فاته. ويحاول زوراب ان يفهم كلامه، ولكن عبثاً. لقد سبق له ان قرأ وسمع عن الهذيان دون ان يعرف شيئاً عن ماهيته، وها انه يسمع والده وهو يهذي.

ولكن، هل كان رستم يهذي حقاً؟

كلا، أبداً.

كان يمتطي صهوة حصانه ويتبارى مع قادر وعباس، يقطعون سهول ومرتفعات وادي كفران ويتنقلون بين القرى ويعبرون نهر آوه سبي الأزلي في أماكن مختلفة، يقفزون فوق الفصول الأربعة ويطوون الأعوام وما ان يهدّهم التعب والجوع، إلاً ويندسون الى المطبخ، حيث الجدة سنجان تستقبلهم ببشاشتها وتضع أمامهم صحون المرق والرز واللحم المشوي، وبعد ان يحشون بطونهم يتسللون الى المضيف، حيث مجلس الكبار: الجد زوراب، العم رمضان وميرزا

وهابو والسيد جواد والعم شيخو. ويعرف مردان انهم جاءوا كي يشربوا الشاي ويتنصّتوا إلى أحاديث الكبار. ولكنهم بعد الانتهاء من شرب عدة أقداح من الشاي، ينسحبون بخفة ويتركون المجلس دون ان يحس بهم أحد، وسواء أكان الفصل صيفاً أم ربيعاً، والوقت صباحاً أم مساء، فإنّهم ينحدرون إلى وادي النهر، ولا يروون عطشهم إلاّ بعد أن يتمدّدوا على شاطيء النهر ويدفنون رؤوسهم في الماء المناسب برقة من بين الحصباء والرمل.

ويفتح رستم عينيه بعد ان يحس بالعطش:

«ماء.. ماء.. أعطني قدحاً من الماء، ولكن أجلبه لي من آوه سبي..».

«نعم يا بابا، فوراً».

ويصب له قدحاً من الماء البارد ثم يساعده في الشرب:

«إنه لذيذ جداً، هل جلبته من آوه سبي؟».

«لايوجد هنا ماء آخر يا بابا غير ماء اوه سبي».

«أعطني سيكارة».

وقبل ان يخرج زوراب سيكارة من علبة لوكس ملوكي، يمد يده الى المقص الصغير الموضوع على الدولاب الصغير جنب السرير، معتقداً ان أباه لايلاحظه، بيد ان هذا ينهره قائلاً:

«أريدها كاملة غير منقوصة يا ابن الخنزير..».

«ولكن، هل نسيت نصيحة الطبيب؟».

غيَّر لهجته الأولى قائلاً بلطف:

«يا والدي، هذه هي المتعة الوحيدة التي تربطني بالحياة».

وعندما ناوله السيكارة كاملة، تنفَّس الصعداء وراح يتململ في مكانه وهو يسحب الدخان بشراهة:

«الدخان يسكِّن الألم ياولدي، انه أحسن بكثير من الحبوب المسكنة».

وحين تنتهي السيكارة، يعود إلى حيث كان. ويعود زوراب الى سريره جنب النافذة الصغيرة ويواصل القراءة في كتاب «النبي» لجبران خليل جبران. ولايترك الغرفة الى الحديقة، إلاّ بعد ان يؤكِّد له أبوه بأنّه لايحتاجه وانه يمكنه أن يتركه لمدة ساعتين او أكثر، بيد ان قلقة على أبيه يدفعه إلى العودة إلى الغرفة قبل انقضاء الساعة. وكان أخشى مايخشاه هو ان يحدث مكروه أو أمر ما في غيابه. والغريب انه في كل مرة حين يعود الى الغرفة قبل انقضاء الساعة، يلتقي على السلم بأحد الأقارب الذين يزورونه بانتظام.

بعد انقضاء حوالي الاسبوع، ساءت صحة رستم ولم يفتح عينيه طيلة النهار إلاً مرة واحدة حيث تناول كأساً من الماء ورفض أن يتناول طعام العشاء المتكون من حساء الشعرية كما ورفض تناول الحبوب أيضا. كانت الشمس قد غابت وراء أشجار الكاليتوس العملاقة وبدأ الظلام يخيم على كل شيء بسرعة. أشعل زوراب المصباح وراح يدقّق النظر في وجه أبيه، وتأكّد أنه مازال يتنفس، ولكنه خشي من أن يكون قد فقد وعيه، ومما زاد في قلقه أنه لم يفتح عينيه رغم تدليكه ليديه الباردتين واجرائه التمارين المطلوبة لساقيه. ولما كان الطبيب قد نصحه بمراجعة غرفة الممرضات في الحالات الاضطرارية، لذا هرع الى الغرفة المجاورة، وقبل ان يطرق الباب، أطلت من الغرفة ممرضة رشيقة، شدّت شعرها الأسود الداكن من الخلف وظهر عنقها العاجي الطويل بصورة لافتة للنظر. كان زوراب يراها كل يوم وهي تنتقل بسرعة وبخطوات ثابتة بين الردهات دون ان تلتفت الى أحد. كانت تبدو له دائماً كما لو انها منشغلة بشيء ما في ذاتها. ولم يسبق له ان التقي بها وجها لوجه. وها انه يراها عن قرب. جمال من نوع خاص. وظلّ هنيهة يحدّق إلى وجهها دون أن ينطق. ضربت هي بيدها الرقيقة على كتفه وقالت مبتسمة كما لو انها مع صبي صغير:

«أهلاً بجارنا الصامت، هل هناك مشكلة؟».

أجاب زوراب بتلعثم:

«والدي.. والدي لم يتحرك طيلة النهار،..».

وقبل أن يكمل كلامه هرعت الممرضة الى الغرفة. وضعت يدها على جبينه كما لو انها تقيس حرارته، ثم مرّرت أناملها على وجهه وتناولت يده اليسرى مقيسة بسبابتها نبضاته. وإذ هي ممسكة بيده المعروقة، التفتت إلى زوراب مبتسمة ومطمئنة إيّاه بأنّ صحته لابأس بها وبأنّه بحاجة إلى بعض المقويات. واستمرت الممرضة على إمرار أناملها على وجهه بغية ايقاظه برفق، وزوراب يجيل عينيه بين وجه أبيه ووجه الممرضة بفضول وشوق غريبين.

تنهّد رستم وسحب نفساً طويلاً وهو ينبس بكلمات متقطعة غير مفهومة.

قالت الممرضة بصوت مرتفع بعض الشيء:

«هيّا تكلم يا رستم أفندي، إنّنا نريد أن نسمع صوتك.. لماذا لم تتناول عشاءك؟ ألم يعجبك الأكل؟».

فتح رستم عينيه، مجيلاً إيّاهما في أنحاء الغرفة كما لو انه استيقظ من حلم عميق ثم راح يحدّق إلى وجه الممرضة بشكل غريب. ولأول مرة يسحب جسده الى الخلف معتمداً على مرفقيه. وساعدته الممرضة في الإتكاء على المخدة. واتخذ بذلك وضعية الجالس في فراشه. قال بصوت واضح متعب:

«مادلين؟ منذ متى وأنت هنا؟».

إندهش زوراب للسؤال الغريب الذي لم يفهمه، واما الممرضة فالتفتت مبتسمة الى زوراب وهامسة:

«من أين عرف أسمي؟».

تساءل زوراب باستغراب:

«هل اسمك فعلاً مادلين؟».

أطلقت الممرضة ضحكة صغيرة معقبة:

«هل رأيت؟ حتى انت لاتعرف اسمي..».

وواصا رستم: «مادلين، كنت أبحث عنك طيلة الوقت، تنقّلنا بين وادي كفران والسنجق وتناولنا طعاماً شهياً عند الجدة سنجان ثم شربنا الشاي مع الجد زوراب والعم رمضان.. لقد التقيت بهم كلهم، عداك أنت، كنت أبحث عنك في السماء وها أنّني ألتقي بك على الأرض. هل عرفت بموت ولي، إبننا العزيز؟ لقد مات هو الآخر..».

وحين أغمض عينيه، طفرت منهما دمعتان.

تساءلت الممرضة: «متى حقنه المضمد بآخر ابرة؟».

أجاب زوراب:

«صباح هذا اليوم».

قالت الممرضة بشرود:

«هذا الحيوان لن يغيِّر عادته، لاشك أنه أعطاه حقنات مورفين أكثر من اللازم ولكنه كيف عرف اسمي؟ هذا لغز لاأفهمه..».

ظلت الممرضة تفكّر طويلاً في هذا اللغز الذي لم تجد له جواباً. وأمّا زوراب فلم يجد في ذلك امراً غريباً اعتبره مجرد هذيان وكان لايعرف حتى ذلك الحين بأنّ زوجته المتوفاة الأولى تدعى مادلين. وفي وقت متأخر من ذلك المساء، ازاح الستار لأول مرة عن النافذة الصغيرة. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. وكانت الغرفة الوحيدة التي ينبعث منها النور، هي غرفة الممرضات التي تطل نافذتها على نافذته. وقبل ان يفتح النافذة لإستقبال الهواء النقي القادم من الحديقة، لاحظ قوة منبعثة مثل شلال من الجهة المقابلة. ولم يفتح النافذة.

كانت مادلين تقف عارية وراء النافذة وقد غطّى شعرها الأسود الطويل كتفيها. لم يصدق زوراب عينيه، ولكنه تأكّد بأنّه لايحلم ولايهلوس، إنّها هي هي: بوجهها الجميل، بعنقها البض،

بنهديها المكورين، بصرتها وخصرها وساقيها وبتلك الغابة الفردوسية في وسطها. وعرف انها تقف أمام مرآة كبيرة. ولايدري كم ظلت واقفة أمام تلك المرآة، ولكن الذي عرفه فيما بعد، وبعد فترة طويلة بأنَّ الزمن اذ ذاك كان يهرب بسرعة خارقة. ورغم تذكره لتفاصيل كل شيء، فإنّه مهما عصر ذهنه لا ولن يتذكر اللحظة التي اختفت فيها مادلين من أمام المرآة. ورغم انه لم يرها في اليوم الثاني وفي الأيام الأخرى التي تلتها، فإنّها ظلت واقفة امام النافذة الى الأبد، عارية مثل ملاك قادم من أعماق السماء.

ماركليبيرك

٣١/ ١/ ١٩٩٣- ١٤/ ١١/ ١٩٩٦